الافتتاحية

كثير هم أولئك الذين غمرتهم الغبطة والبشر بفوز أستاذ الأجيال، أستاذنا الكبير والجليل، علامة الأدب العربي، شوقي ضيف بجائزة الرئيس مبارك، أعلى جائزة تمنحها مصر العروبة علماءها ومفكريها. لقد تتلمذ جيلي، وأجيال قبلنا، وأجيال بعدنا، لهذا العملاق تلمذة مباشرة؛ نصغي إليه، ونستلهم أفكاره، ونعيش معه حياة الفكر والثقافة العربية الأصيلة، منذ العصر الجاهلي، إذ نَسيح معه في مسارح ذي الرمة الشاعر التصويري الجميل؛ وفي العصر الإسلامي المبكر، مع الشعراء المخضرمين، أمثال حسان ولبيد؛ ثم ندرج حتى نصل العصر الأموي، حيث شعراء الحجاز وشعرهم الرقيق، وشعراء نجد وشعرهم الفائق، والنقائض وفرسانها من نجد. وهكذا ننطلق من عصر إلى عصر، ومن صور إلى أخرى، ترتقي بنا تذوقًا وأسلوبًا وفكرًا.

لقد هيئ لجيلنا أن نتتلمذ لجيل من العمالقة الكبار، من أمثال سهير القلماوي وانطلاقاتها في مجال النقد الأدبي الحديث ومدارسه ومناهجه، والبطل في الأدب الكلاسيكي،. وعبد الحليم النجار، ذاك الجهبذ الذي فقدناه مبكرًا، ولمّا ينجز ترجمة أعمال بروكلمان، التي عهدت إليه بها الجامعة العربية. ويوسف خليف، الأكاديمي الشاعر الرقيق، الذي يذوب رقة، صاحب الصعاليك. وشكري عياد، ذلك الشاب الذي جاء مزهوًا بشهادة الدكتوراه، فكان من نصيبه أن يدرسنا البلاغة، وكان يستعصي عليه، أحيانًا، تبسيط المفاهيم المنطقية لنا، ولكنه، في النهاية، يبين عمَّا يريد شرحه. وعبد العزيز الأهواني، ذلك العالم الجليل، الأنيق، المهتم بالأندلس، حضارة وأدبًا. ومحمد كامل حسين، أستاذ الأدب الفاطمي، ذلك الذي يقدم لتلاميذه أفضل ما يملك، ولا تفوته النكتة عندما تحبك؛ ولا يبخل بكتبه ومكتبته. أما عبد الحميد يونس، ذلك العالم الذي يسيل علمه من بين شفتيه، فنسمع له بشغف وحب، وهو يتحدث عن الأدب الشعبي في مصر والعالم العربي.

حقاً، لقد كان قسم اللغة العربية، في كلية الآداب، في جامعة القاهرة، قسمًا للحضارة العربية! لقد كنا ندرس فيه إلى جانب التخصص بالأدب واللغة، لغات شرقية، ومواد في الجغرافيا والتاريخ والتفسير، طيلة الأربع سنوات؛ فتكتمل بذلك الصورة الصادقة للحضارة العربية.

*****

لفتنا، في السنوات الأخيرة، قطيعة واسعة، بين أقسام اللغة العربية ونظيراتها المختصة بالآثار والمتاحف والتاريخ والجغرافيا؛ حتى إن أُوْلاَهما، تنكرت للدراسات الآثارية، ولا سيما منها تلك المتعلقة باللهجات والخطوط القديمة. وأَعَدَتْ تلكم الأقسام مجامع اللغة العربية، فتوانت في الدراسات الآثارية، الخاصة باللهجات العربية القديمة. وقد حالت هذه القطيعة دون قيام دراسات جادة، تبحث في العلاقات بين فصحى العرب ولهجاتهم القديمة.

إن كثيرًا من مفردات الفصحى و اللهجات العربية القديمة، تنتهي إلى جذور ودلالات واحدة. فقد لاحظت، مثلاً، أثناء دراستي للنصوص العربية الجنوبية القديمة، وجود حرف ميم زائد على أصل الاسم في أسماء الأعلام. وعند العودة إلى الدراسات السابقة، لم أجد إجابة شافية عن هذه الميم الزائدة، التي يطلق عليها: "التمييم"؛ ولم تدرس دراسة عميقة، تسبر أغوارها. وعندما استحدث قسم الآثار والمتاحف، في جامعة الملك سعود، برنامج الماجستير، وضعنا ضمن خطة الدراسة فرعاً، يهتم بالكتابات العربية القديمة. وقد أغريت أحد طلابي بدراسة ظاهرة "التمييم" في أسماء الأعلام

العربيـة الجنوبية (كتابات المسند)، فانبرى لها. وجمع ما استطاع من الأسماء، التي تختتم بحرف الميم. وبعد قيامه بعمل برنامج خاص في الحاسب الآلي على قاعدة بيانات، لفرز الأسماء حسب أنواعها وانتماءاتها؛ و بعد مقارناته قاعدة استخدام الميم الزائدة في كتابات المسند، بقواعد التنوين في اللغة العربية الفصحى، تبيَّن أن تلك الميم هـي أُمّ التنوين وأصله، أيْ أنه كان في البداية ميمًا، تلحق بالأسماء، ومع مرور الزمن، تغير النطق، أولاً، إلى نون، ثم تغير الرسم، ليكون ضمتين أو فتحتين أو كسرتين، تختلف بحسب إعراب الاسم، رفعًا ونصبًا وجرًا.

ويجدر بي أن أنوه بالجهود، التي بذلها كلّ من الأستاذ الدكتور خليل يحيى نامي، والدكتور سيد يعقوب بكر، اللذَين يعدان من الرواد في دراسة العلاقات اللغوية بين اللهجات العربية القديمة واللغة العربية الفصحى. ولكنهما لم يتركا للأسف! تلاميذ، يستنون بنهجهما، ويقتدون بهديهما. وبوفاتهما - عليهما رحمة الله - توقفت الدراسات الآنفة. لذا، فإنني أوجّه الدعوة إلى المجامع اللغوية وأقسام اللغة العربية، للاهتمام بدراسة العلاقات اللغوية الوثيقة، التي تربط بين العربية القديمة والعربية الفصحى، سواء في دلالة الكلمات أو في صيرورة قواعد النحو. وأن تكون هناك أبحاث ودراسات مشتركة بين الآثاريين المختصين بالعربية القديمة وعلماء اللغة العربية، تبحث في أوجه العلاقة التي تربط بينهما كافة، بما فيها تطور الخط العربي خلال العصور المختلفة، قبل الإسلام وبعده.

*****

تراوح خطط الدراسة، في أقسام الآثار والمتاحف وكلياتها ومعاهدها في الجامعات العربية، بين نظرية وعملية؛ وتستفيد من بعض النظريات الجديدة في الدراسات الآثارية؛ فضلاً عن التدريبات: الميدانية والمعملية، من تنقيب، وترميم، وتصوير، ورسم مساحي، وهندسة خرائط وغيرها. وكل ذلك لتخريج جيل مهني بارع.

إن ما ألاحظه أن المؤسسات الأكاديمية، في الآثار والمتاحف، تعاني، إلى حدٍّ كبير، عدم التنسيق فيما بينها، وضعف تواصلها؛ فانحسرت عن إقليمية ضيقة، لا تهتم كلٌّ منها إلا بآثار إقليمها فقط.

فمصر تُوْلِي اهتمامها الحضارتين: المصرية (الفرعونية) والقبطية، وما يتصل بها من الحضارة الإسلامية. والعراق يهتم بحضارات وادي الرافدين، والمملكة العربية السعودية واليمن، يُبْرزان حضارة الممالك العربية قبل الإسلام. أما الحضارة الإسلامية، فإن كلّ قسم، يخطط للاقتصار منها على معا يعني إقليمه، وقد يربطه بالأقاليم المجاورة؛ ذلك على الرغم من أنها حضارة واحدة، لا يمكن أن تتجزأ. فمتى نلتقي!

إنني، في هذه العجالة، لا أطالب المؤسسات الأكاديمية لدراسات الآثار والمتاحف، في الجامعات العربية، بالتقليل من أهمية الحضارات، التي عاشتها أقاليمها، بل أدعو إلى إيجاد حد أدنى من التنسيق فيما بينها، يربط الحضارات، التي نشأت في الوطن العربي، مثل: حضارة وادي النيل، في مصر والسودان؛ وحضارات وادي الرافدين، في العراق وسورية؛ وحضارة الممالك العربية، في بلاد الشام والجزيرة العربية. أما الحضارة الإسلامية، التي عمّت أرجاء الوطني العربي، فيجب أن يُخطَّط لتدريسها على أساس أن العرب أمة واحدة، شاركت في صنع التراث الحضاري الإنساني، قبل الإسلام بقرون عدة؛ ولم تبدأ حضارتهم المادية مع فجر الإسلام، وهو ما ينتهجه بعض الجامعات ، وكأن الجزيرة العربية، كانت خلواً إلاّ من حضارة بدوية، لا تستحق أن يلتفت إليها! إن هذه الحضارات قد تواصلت، وتفاعل بعضها مع بعض؛ فلماذا لا نصل ما انقطع؟ ونجعل الحضارة الإسلامية، التي اعتمدت في عقيدتها على التوحيد، وفي حياتها المادية على الحضارات،

التي اعتمدت عليها الحضارات: اليونانية والرومانية والبيزنطية، منطلقًا، يدلل على أننا أمة ذات حضارة عريقة. فمتى تعكس خططنا الدراسية هذا العمق الحضاري، من دون الانكفاء على ذواتنا، وتعميق القبلية الحضارية!

*****

ظلت إدارة الآثار، في المملكة العربية السعودية، منذ نشأتها، في سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، مرتبطة بوزارة المعارف. واستمر الارتباط قائمًا حتى، بعد أن صارت الإدارة وكالة للآثار والمتاحف. وفي ربيع الأول سنة ١٤٢٤هـ/ مايو ٢٠٠٣م، صدر قرار يدمج الوكالة في الهيئة العليا للسياحة. وبما أن الآثار تمثل العمق التاريخي، والحضاري، للمملكة العربية السعودية التي تقوم على ثوابت، ترتبط بأصالتها؛ لذا، نأمل أن يكون اندماج وكالة الآثار والمتاحف في الهيئة العليا للسياحة خيرًا لكلتيهما؛ وأن لا تؤثر الأهداف الاقتصادية للسياحة في الأدوار: الحضارية والتاريخية والثقافية والمعرفية، للآثار. كما نأمل أن يتيح الاندماج مزيدًا من الاهتمام بالمواقع الأثرية، من طريق إنشاء المرافق السياحية اللازمة، وإباحة الزوار المواقع الأثرية.

إن اندماج وكالة الآثار والمتاحف، في الهيئة العليا للسياحة، وما يتبعه من إعادة هيكلة لكل من قطاعي الآثار والسياحة، يجب أن يسفر عن كيان واضح للآثار، يتمكن من الاستمرار في دوره، المتمثل في التنقيب عن الآثار ودراستها والتعريف بها؛ لنعيد كتابة تاريخنا، من خلال ما تومض إليه المكتشفات الأثرية، سواء في العصور القديمة أو العصر الإسلامي.

لقد حقق الارتباط بين الآثار والسياحة نتائج إيجابية، في بعض الدول العربية. لذا، علينا دراسة تلك التجارب والاستفادة منها، بما يوافق ظروف المملكة وأوضاعها. ويبقى السؤال، لما تظل إدارات الآثار في الوطن العربي تابعة لجهات أخرى، تتراوح بين السياحة والثقافة؟ ومتى تستقل إدارات الآثار في كيانات أو قطاعات خاصة؟

رئيس هيئة التحرير

العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية
دراسة تقويمية

يوسف مختار الأمين

ملخّص: يستعرض هذا البحث حقب العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية، من ناحية خصائصها الحضارية، ومسيرة التطور فيها، ودورها في انتشار بواكير الثقافة الإنسانية، في العالم القديم. ويقدم الباحث مراجعة نقدية للأبحاث الأثرية في هذا المضمار، وشرحًا لمكونات فترات العصور الحجرية الحضارية، من أدوات وفنون وغيرها من مؤشرات دالّة على أنماط حياة المجموعات البشرية، وانتشارها المكاني في بيئات المملكة المتنوعة. ويبرز البحث الخصائص المميزة لتعاقب فترات ما قبل التاريخ في المملكة، مقارنة بالمناطق المجاورة، ومواضع القصور في معرفتنا بتفاصيل تلك الفترة، إذ يقدم بعض المقترحات لأبحاث مستقبلية ربما تعين في حل بعض الإشكاليات العلمية، التي أفرزها التناول التقويمي للمعلومات المنشورة.

Abstract. *This paper presents a critical evaluation of the available literature on the stone ages of the Kingdom of Saudi Arabia. It discusses the cultural characteristics of the main prehistoric periods as they have been deduced from various archaeological components. The prehistoric cultural achievements of the prehistoric populations in the kingdom are compared with those of neighbouring regions. The paper shows the richness of the kingdom's Stone Age cultures as they are reflected in stone tools manufacture, rock art, dwellings and changing adaptive settlement systems, pointing at the same time to areas that need further clarification. It finally concludes with a summary of the cultural sequences along with a number of suggestions for future research.*

مقدمة:

يعود الفضل في معرفتنا بفترة ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية، إلى مجهودات الأفراد والمؤسسات العلمية، التي نتج عنها دراسات وملاحظات تاريخية، أُنجزت في أوقات مختلفة، وعلى مستويات متعددة. فالاستكشافيون الغربيون زاروا الجزيرة العربية منذ أمد بعيد، وفي مطلع القرن الميلادي المنصرم سجل بعضهم ملاحظاته عن مواقع الأدوات الحجرية، التي وجدوها على السطح، أو الرسوم والنقوش الصخرية البدائية، المنتشرة في معظم أنحاء الجزيرة (Thomas 1932; Cornwall 1946). وتأتي بعد ذلك البعثات الأجنبية المبكرة، وأعمال الأفراد المهتمين بفترة ما قبل التاريخ، وأكثرهم ممن عملوا ضمن بعثات المسح الجيولوجي، الذي قامت به أرامكو بحثًا عن مصادر النفط (Zeuner 1954, Smith and Maranjian 1962, McClure 1971, Overstreet 1973). تلى ذلك الأعمال التي أنجزتها مؤخرًا بعثات الوكالة العامة للآثار والمتاحف السعودية، وأبحاث عبد الله مصري من السعوديين (Masry 1974).

إن أعمال الأفراد المبكرة كانت تحكمها الصدفة، وما كُتب عنها كان -في الغالب- انطباعات عابرة، عن معثورات تعود للعصور الحجرية. وعلى النقيض من ذلك، نجد أعمال "هنري فيلد"(H. Field)، بدءاً من عشرينيات القرن الميلادي الماضي وحتى السبعينات منه، إذ هي أكثر تميّزًا بمنهجيتها، وقربها من الدراسات الحديثة، في هذا المضمار. وقد نشر فيلد

العدد الثامن جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٣م
(ص ص ٧ - ٤٠) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩



معلومات عن مواقع العصور الحجرية في المملكة في دوريات عالمية، مبديًا رأيه عن التاريخ الحضاري لتلك الفترة، وأحوال البيئة القديمة، التي عاش فيها سكان الجزيرة. وقد اتسع نشاطه بعد ذلك عندما تعددت المكتشفات، التي نجمت عن أعمال أرامكو في المسح الجيولوجي، الذي بدأ في الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي. ونشر مع مكلور وغيره وصفًا للأدوات الحجرية المكتشفة آنذاك، في الربع الخالي ووادي الدواسر وحفر الباطن، على سبيل المثال، حيث وضعوا لها تسلسلاً زمنيًا، يمكن مقارنته بالبلدان المجاورة (Field 1951, 1955, 1960, 1973).

ويُذكر في هذا السياق اهتمام هاري سانت جون فيلبي، بالنقوش والفنون الصخرية، وإشارته للعصور الحجرية في الربع الخالي (Philby 1933). كذلك، يجدر ذكر أعمال البعثة البلجيكية (ريكمانز وليبنز وفيلبي) في بداية الخمسينات، بتسجيل الفنون الصخرية في وسط وجنوب غربي المملكة، وهي المادة التي درسها ونشرها "أناتي" فيما بعد في أربعة مجلدات (Anati 1968 Vol. 1: 3-4, 1968 Vol. 2, 3. 4, 1971, 1974). وعلى الرغم من أهمية هذه المعلومات في إثبات وجود مجتمعات العصور الحجرية في الجزيرة العربية، إلا أنها لم تتسرب إلى الأدبيات المنشورة عن تطور حضارات ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى، بصورة مرضية. وقد كان الظن عند كثير من العلماء، أن دور الجزيرة العربية في تلك الفترة كان هامشيًا؛ إذ هي لم تسهم في مجريات التطور الحضاري، خلال فترة ما قبل التاريخ، كما فعلت غيرها من بلدان الشرق الأدنى. وقد انصّب الاهتمام من قبل الباحثين الأجانب حتى وقت قريب، على فترة ما قبل الإسلام، والكتابات العربية القديمة، كالنبطية واللحيانية والثمودية، وعلى آثار الممالك القديمة، من مبانٍ ورسوم صخرية. حدث هذا في الوقت الذي تعددت فيه أعمال البعثات الأوربية والأمريكية، التي كانت تنقب في مواقع الحضارات القديمة، في وادي النيل، وبلاد الشام، وبلاد الرافدين، والأناضول، وغيرها.

وخلال النصف الأول من القرن الميلادي الماضي، امتد الاهتمام بالبحث الآثاري ليشمل العصور الحجرية، إذ اتضح أن تلك المنطقة تحتوي على مادة أثرية مهمة تكشف عن تسلسل حضاري طويل ومشابه لأوروبا وشمال أفريقيا، بل أقدم منه زمنًا. ونال العصر الحجري الحديث وظهور القرى الزراعية، الحظ الأوفر في الدراسة العلمية المفصّلة. وساد الاعتقاد لدى العلماء بأنها الأقدم في العالم، وهي التي أفضت إلى ظهور الدويلات القديمة بنظامها الإداري المركزي المعروف، ومنجزاتها الحضارية الشاملة، في مجالات الفنون والمعتقدات والاقتصاد والاجتماع (Redman 1974: 89-95). وكان المجتمع العلمي الغربي، عامة، والآثاريون، خاصة، ينظرون للشرق من هذا المدخل. وقد كان ذلك أحد العوامل، التي أسهمت في تأخر أبحاث ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية عامة، والسعودية على وجه التحديد. ولم يتغيّر الحال إلا بعد أن أجرت الوكالة العامة للآثار والمتاحف المسح الأثري الشامل، عندما وضُعت أبحاث ما قبل التاريخ ضمن قائمة الأهداف الرئيسة له. ويضيف "مكلور" (McClure) في هذا الخصوص، أن طبيعة الصحارى القاسية حدّت من دخول الباحثين عن الآثار؛ ولهذا ظلت الجزيرة العربية عمومًا منطقة غير معروفة، ومكانها شاغرًا في مجالات الدراسات الآثارية والإثنوغرافية والجغرافية (McClure 1971: 1-18).

وقد كانت نتائج المسح الأثري الأولية، وتلك التي أبرزتها أبحاث عبد الله مصري الميدانية، في المنطقة الشرقية، حول حضارة العبيد، كافية لجذب انتباه المجتمع العلمي لأهمية العصور الحجرية، في المملكة العربية السعودية. وعلى الرغم من أن مدة المسح الأثري الشامل لم تكن كافية، لبلد في مساحة السعودية، فضلاً عن محدودية الدراسة العلمية للمواد التي جُمعت، إلا أن هامشية المنطقة المفترضة لم تعد مقنعة لأحد. فالتنوّع الطبيعي والبيئي في المملكة، خلال عصري البلايستوسين والهولوسين، ساعد في ظهور تطورات حضارية متفردة، تتجاوز أحيانًا التجارب المعروفة في بقية أقطار غربي آسيا. ومن جهة أخرى، برزت على السطح أهمية الموقع الجغرافي للجزيرة العربية، من حيث دورها في انتقال الجماعات البشرية المبكرة، ومعها أقدم الصناعات الحجرية، من أفريقيا إلى أنحاء العالم القديم. كما دلّت على ذلك المكتشفات الأثرية الحديثة.



وفي حديثنا عن تعاقب العصور الحجرية في المملكة وموادها الأثرية، سوف نتبع النظام والمصطلحات المتعارف عليها عالميًا، في تقسيم تلك العصور وتقاليد الصناعات الحجرية فيها، على الرغم من بعض الإشكاليات المتوقعة، التي تظهر عند تطبيقها، كما أشير إلى ذلك مرارًا في تقارير الوكالة العامة للآثار والمتاحف. إن ايصال هذه المعلومات الجديدة للباحثين في حقل دراسات ما قبل التاريخ، يتطلب استخدام المناهج والمصطلحات المتعارف عليها، حتى نضمن تداولها، ومن ثم إدراجها ضمن الأدبيات الخاصة بفترة ما قبل التاريخ. ومع اتباع هذا الأسلوب فلن يُغفل أحد هذه الإشكاليات، بل سوف نتناول في هذا الاستعراض إمكانية تجاوزها من خلال طرح مقترحات محددة. وقبل الدخول في سرد تسلسل أدوار العصور الحجرية الحضارية، نُقدم نبذة مختصرة عن التكوين الجغرافي للمملكة، وملامح البيئة القديمة فيها، إذ يشكل ذلك الإطار الطبيعي، الذي تكونت فيه أولى محاولات الإنسان في بناء حضارته.

الظواهر الطبيعية والبيئية القديمة للمملكة:

للمملكة العربية السعودية موقع جغرافي إستراتيجي، فهي تربط بين قارات العالم القديم الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوربا. ومن ناحية المساحة، تمثل أربعة أخماس الجزيرة العربية، ذات التاريخ الجيولوجي الطويل. وهي تنقسم إلى منطقتين، هما: الدرع العربي (جبال الحجاز والهضاب الغربية المكوّنة من الصخور النارية)، والرّف العربي المكوّن من الصخور الرسوبية، التي تغطي تكوينات الدرع العربي في المنطقتين الوسطى والشرقية. وكانت الجزيرة العربية متصلة بأفريقيا، وانفصلت عنها منذ ما لا يقل عن ٢٠ مليون سنة. وقد وجدت تكوينات جيولوجية وعظام حيوانات متحجرة، تماثل تلك التي عرفتها، آنذاك، القارتان: أفريقيا وآسيا. وفي المملكة أقاليم تضاريسية متباينة، منها: السهول الواطئة، والجبال العالية، والهضاب المنبسطة، وبحار الصحارى الرملية، والأودية الكبيرة، ما يوفّر تنوعًا طبيعيًا يشمل الحيوان والنبات والمناخ، في الماضي والحاضر. إن دراسة الظواهر الجيولوجية، التي تعكسها الجبال والأودية والتكوينات الصخرية والصحارى، تعد من أفضل المؤشرات لأحوال المناخ القديم (وزارة المعارف ١٩٩٩: ٤٥-٤٨؛ McClure 1971: 18-21).

وتشير الدراسات الجيولوجية والبيئية، إلى أن الجزيرة العربية -مثل غيرها من بقاع الأرض- تعرضت لتحولات مناخية مؤثرة، خاصة في الزمن الجيولوجي، الذي انتشر فيه النوع البشري (أواخر عصر البلايوسين وبداية عصر البلايوستوسين ٣,٥ - ١,٢ مليون سنة قبل الوقت الحاضر). ومن الثابت، أيضًا، تعاقب فترات مناخية جيّدة، وأخرى جافة تقل فيها الموارد الطبيعية، ما يؤثر في حياة الإنسان والحيوان معًا. وبدأ انتشار الجفاف الحالي يعم بصورة تدريجية منذ الألف الرابع ق. م؛ ولكن هذا الوضع كان خاتمة لسلسة طويلة من التاريخ الطبيعي في المنطقة. فإذا ما عدنا إلى الزمن الجيولوجي الأقرب إلى انتشار البشر في المنطقة، نجد أن الجزيرة العربية عاشت في أوضاع مناخية مطيرة، أدت لوجود غطاء نباتي، وتجمع حيواني من النوع الاستوائي المعروف في أفريقيا. وقد تكونت خلال هذه الفترة الأودية الكبيرة، التي تتجمع فيها مياه الأمطار.

كذلك، شهدت الفترة تكوّن صحارى الجزيرة عندما جرفت المياه الرمال إلى منطقة الربع الخالي الحالية التي كانت تغطيها مياه البحار في الأزمان الجيولوجية الأقدم. وفي العصر الجيولوجي التالي، أي عصر البلايوستوسين (الذي يقابله العصر الحجري القديم في التقسيم الحضاري)، خطا الإنسان أولى خطواته في التكيّف على أحوال الطبيعة المتقلبة، من خلال تشكيل الأدوات الحجرية البسيطة وتطويرها، من حيث أشكالها وطريقة صنعها. كذلك بناء المأوى وكل ما يعينه في حياته، من استغلال لهذه البيئة ومواردها. ومما لا شك فيه، أن الجزيرة العربية كانت تتأثر - مثل غيرها - بتحولات المناخ الإقليمية والعالمية؛ فتعاقب العصور الجليدية، على سبيل المثال، في شمال الكرة الأرضية، يؤثر في مستويات مياه البحار. ففي الأقاليم الشرقية من الجزيرة العربية، كانت تتكرر ظاهرة ارتفاع مستوى البحر وانخفاضه، منذ نحو ١٢٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر. وقد كان أكبر انخفاض له في الفترة ما بين ٧٠,٠٠٠ و ١٧,٠٠٠ ق.م،

ليرتفع بعد ذلك. ويبلغ أعلى مستوى للبحر خلال عصر الهولوسين ما بين ٧,٠٠٠ و ٤,٠٠٠ سنة، قبل الوقت الحاضر. وقد حدث تنوع بيئي شديد في منطقة الخليج، كان له الأثر المباشر في أنماط استيطان الجماعات البشرية واقتصادها المعيشي، خاصة تلك الجماعات القريبة من السواحل.

وخلال هذه الفترة ظهرت الينابيع والبحيرات السطحية، داخل أراضي المملكة (Rice 1994: 69, 73-75). وهكذا، فإن المرحلة الأولى من عصر البلايوستوسين سادت فيها أحوال مطيرة، ونشطت الأودية الكبيرة، حيث انتشرت مواقع العصر الحجري القديم الأسفل في أكثر من مكان، كما سيأتي ذكره. عقب نهاية ذلك العصر، بدأ الجفاف يزحف تدريجيًا، مع حلول فترات رطبة ومطيرة متقطعة، يدل عليها وجود البحيرات في الربع الخالي، في الفترة الممتدة ما بين ٣٦,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠، قبل الوقت الحالي، لتحل بعدها فترة جفاف شديدة، تعقبها بعد ذلك فترة مطيرة بعد ١٠,٠٠٠ لتستمر حتى ٤,٠٠٠ ق.م، أذ تنتشر مواقع العصر الحجري الحديث في كثير من أرجاء المملكة، بما فيها صحراء الربع الخالي (Zarins et al. 1979: 10).

إن الأحوال المناخية، التي رُصدت من خلال تحليل الظواهر الجيولوجية، وترسبات البحيرات والمواد العضوية (مثل عظام حيوانات الأبقار الوحشية، والجاموس والغزال والحمار الوحشي والنعام... الخ)، تشبه إلى حد كبير تلك، التي سُجلت في بقية أنحاء الجزيرة العربية، بل تتماثل مع ما يقابلها زمنيًا في الصحراء الكبرى وشمالي أفريقيا (McClure 1994: 6-7).

إن المعلومات المستقاة من هذه المصادر المختلفة، على الرغم من محدوديتها، تتيح للباحثين وضع المكتشفات الأثرية ومراحلها الحضارية المختلفة، في الإطار الطبيعي على وجه التقريب، ما يسهّل معرفة أنماط الاستيطان البشري، خلال العصور الحجرية؛ وكذلك الموارد الطبيعية المتوافرة في مناطق المملكة. وبناء على هذه الخلفية، نستعراض تعاقب العصور الحجرية في المملكة، ونناقش نتائج الأبحاث، التي أجريت حولها.

العصر الحجري القديم:

يُقسّم العصر الحجري القديم، عادة، إلى ثلاثة مراحل متعاقبة: (أسفل، أوسط، وأعلى)، وذلك بناء على نوع الأدوات الحجرية وطرق تصنيعها، إضافة إلى ظهور بعض الخصائص الحضارية، التي ترصد لأول مرة في السجل الأثري (سوف نناقش هذه الخصائص عند استعراضنا لهذه المراحل وتسلسلها، في المملكة العربية السعودية).

أولاً- العصر الحجري القديم الأسفل:

تمثل هذه المرحلة المحاولات الأولى، لتكوين الجماعات البشرية من الصيادين وابتكاراتهم البسيطة، مثل: تشكيل الأدوات الحجرية وممارسة الصيد، وهي المرحلة التي يعود تاريخها في شرق أفريقيا إلى أكثر من مليونين ونصف مليون سنة. وتمثل هذه المرحلة تقليدين في صناعة الأدوات الحجرية، يرمز كل منهما لسمات حضارية متميزة عن الأخرى. كما أنهما يعدان نقطتين مهمتين في مسيرة التطور الحضاري الإنساني. وفيما يلي نقدم عرضًا لهذين الدورين الحضاريين المهمين:

أ- الصناعات الأولدوانية:

كان من أبرز نتائج المسح الأثري الشامل المتعلق بالعصور الحجرية في المملكة، اكتشاف مواقع تعود نسبتها لأقدم الصناعات الحجرية، التي عرفتها البشرية، وذلك في مكانين، أحدهما: بالقرب من قرية الشويحطية في الشمال؛ والثاني: في نجران جنوب غربي المملكة (الخريطة ١).

وكان اكتشاف موقع الشويحطية ملفتًا للمختصين، بسبب نوع الأدوات الحجرية وأشكالها البدائية، التي تمثل خطوة مبكرة في مراحل تقنية تصنيع الأدوات الحجرية. وهي تماثل أدوات مؤرخة وجدت في مواقع مشهورة في شرقي أفريقيا، يعود تاريخها لنحو مليون سنة، على الأقل. ولهذا السبب وجدت الشويحطية اهتمامًا خاصًا، حيث أجريت دراسة ميدانية مفصلة، أعقبتها أخرى جرى خلالها تحليل المعثورات ومقارنتها بمجاميع أدوات حجرية، من خارج المملكة. وكانت النتائج في جملتها تشير إلى استيطان بشري مبكر، ما شجع

الخريطة ١: أقاليم المملكة والأماكن الرئيسة.

الباحثين على الاستمرار في البحث عن المزيد في مناطق المملكة المختلفة (Whalen et al. 1986: 94). وقد وجد الموقع المشار إليه (٢٠١ - ٤٩) بالقرب من قرية الشويحطية نحو ٤٥ كلم شمالي سكاكا، ويشمل منطقة واسعة تتكون من ستة عشر تجمعًا لأدوات حجرية فوق السطح. ونسبة لقرب هذه المواضع من بعضها فقد جعلها الباحثون موقعًا واحدًا.

وقد تمكّن فريق البحث، في نهاية أبحاثه في المنطقة، من جمع كمية كبيرة من الأدوات المشحوذة، التي يبدو من مظهرها القدم الشديد، وهي تشبه أقدم الأدوات الحجرية المعروفة في مناطق أخرى خارج المملكة. بلغ مجموع الأدوات ٧١٥ قطعة، ما يجعلها مناسبة لأغراض الدراسة الإحصائية المفصّلة والمقارنة بمجاميع أخرى. ويضاف إليها ٨٠٢ قطعة

أخرى من النوى والرقائق وكتل الحجر الناتجة عن عمليات تصنيع الأدوات. والأنواع الرئيسة منها هي الأدوات الثقيلة، مثل: القواطع، والسواطير، والقطع متعددة الأسطح، وذوات الأشكال الكروية، والقرصية وشبه القرصية. كذلك، توجد الأدوات المشظية من وجهين، مثل: الفؤوس البسيطة، والمفارم، والمعاول. كذلك وجدت أعداد من المكاشط الجانبية البسيطة، والطرفية، والمثاقب، والسكاكين، والمناقش (شكل ١ :ibid 96,).

أما الموقع الثاني (٢١٧-٦٣)، الذي أمدنا بأدوات من هذا النوع، فقد اكتشف في الأقليم الجنوبي الغربي بوادي نجران. وعلى الرغم من قلة عدد الأدوات التي تمّ جمعها (٣٤ أداة)، وما أحدثته العوامل الطبيعية من أثر فيها، إلا أنها شديدة الشبه بتلك التي جمعت في الشويحطية. كما أنها تقع ضمن نوع الأدوات، التي تنسب لبداية العصر الحجري القديم الأسفل. وقد أجرى هويلن وآخرون دراسة إحصائية للأدوات من الموقعين، تشمل الخصائص النمطية وقياسات أبعاد الأدوات، إضافة لمجاميع أدوات أخرى من موقع اولدفاي (Olduvai) الشهير في تنزانيا، بشرقي أفريقيا. واختير هذا الموقع للمقارنة لأنه حوى عددًا من المواضع، التي وجدت فيها تجمعات أدوات حجرية، وبقايا عظمية آدمية وحيوانية، إضافة إلى ظواهر أخرى على امتداد أربع طبقات من الترسبات الجيولوجية. وقد أمكن تأريخها بالطرق العلمية، مثل أرقونات البوتاسيوم. وقد كان هو الموقع المثالي، الذي اتفق علماء ما قبل التاريخ على اعتباره نموذجًا لتعاقب أدوار صناعة الأدوات الحجرية خلال العصر الحجري القديم الأسفل. ففي هذا الموقع تأكد تطور هذه الصناعات، من النوع الحصوي البسيط، الذي أطلق عليه الدور الأولدواني الذي يشمل الأنواع آنفة الذكر، إلى الأدوات الأشولية بفؤوسها اليدوية المتميزة. ففي الطبقة السفلى وجد ما عُرف بالصناعة الأولدوانية (Oldowan)، التي تمتد زمنيًا من ١,٩ إلى ١,٦ مليون سنة. وتستمر هذه الصناعة في الطبقة الثانية، مع تغيرات طفيفة في أشكال ونسب الأدوات، وقد أُطلق عليها الأولدواني المتطور (أ)، الذي يؤرخ من ١,٦ إلى ١,٣ مليون سنة؛ ويليه الأولدواني المتطور (ب)، الذي يؤرخ من ١,٣ - ١,٠ مليون سنة. وفي منتصف هذه الطبقة الثانية، تظهر الفؤوس اليدوية في مواقع أخرى متزامنة مع الأولدواني المتطور (ب) (Gowlett 1984: 40-41). ويرى هويلن وآخرون تطابقًا كبيرًا في الخصائص، بين أدوات الشويحطية ونجران وتلك التي تنسب للنوع الأولدواني المتطور (أ)، الموجود في موقع اولدفاي، آنف الذكر.

إن اكتشاف مثل هذه المواقع المبكرة في السعودية، على الرغم من قلتها، وعدم إمكانية تأريخها بصورة قطعية، أثارت قضايا بحثية أنثروبولوجية وآثارية مهمة، تتعلق بانتشار السلالات المبكرة خارج منطقة شرقي أفريقيا، حيث تشير الأدلة الأثرية هناك على أنها هي الأقدم. وبناء على ما هو متوفر للباحثين في الآثار السعودية، فقد اقترحوا وصول سلالة الإنسان منتصب القامة (Homo erectus) المعروفة، إلى الجزيرة العربية من خلال طريقين، أحدهما: عبر مضيق باب المندب، وتدل عليه أدوات موقع نجران المبكرة؛ الثاني: عبر صحراء سيناء، ويدل عليه ما وجد في موقع الشويحطية وموقع العبيدية في جنوبي فلسطين، الذي يؤرخ إلى نحو مليون أو أكثر بقليل (Whalen et al. 1989: 69-73).

إن هجرة السلالات البشرية المبكرة من أفريقيا، إلى بقية أنحاء العالم القديم، ظلت موضوعًا مؤرقًا للباحثين، في الأنثروبولوجيا والآثار لفترة طويلة، وذلك بسبب قلة المكتشفات المؤرخة علميًا، من جهة، وخلو بعض المناطق منها تمامًا، حتى الوقت الحاضر، من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، نجد أن الاكتشافات الحديثة في شرقي آسيا تمدنا بتواريخ لأقدم أدوات حجرية، إلى ما يقرب من مليون ونصف مليون سنة، على أقل تقدير، لبعض المواقع في إندونيسيا والصين؛ بينما تواريخ غرب آسيا لا تزال معطياتها القليلة تؤرخ إلى نحو مليون سنة مضت، على أكثر تقدير، وذلك مثل موقع الشويحطية.

ومن جهة أخرى، تشير نتائج الأبحاث الحديثة في أفريقيا نفسها، إلى أن بداية تصنيع الأدوات الحجرية، ومن ثم السلالة المسؤولة عنها، تعود إلى أزمان أقدم بكثير من تلك، التي تعبر عنها طبقات موقع اولدفاي السفلى، آنفة الذكر. ففي أثيوبيا، على سبيل المثال، يرجع تاريخ أقدم الأدوات

الشكل ١: أدوات أولدوانية من موقع الشويحطية - المنطقة الشمالية. ١-٥ سواطير، ٦- معول، ٧- أداة ثنائية الوجه، ٨- أداة قرصية، ٩ - ١٠ أدوات كروية، ١١- مطرقة، ١٢- سكين، ١٣ - ١٥ مكاشط جانبية، ١٦- مثقب (Whalen et al. 1986).

الحجرية إلى نحو (٢,٦ - ٢,٣ مليون سنة). كما أن الصناعة الأشولية، التي أعقبت الأولدوانية عرفت في كينيا في حدود مليون ونصف مليون سنة. وهكذا فإن النتيجة العامة هي أن التسلسل، الذي اعتمد في موقع اولدفاي ربما كان أحدث زمنًا بكثير، مما هو واقع فعلاً في أماكن أخرى في أفريقيا (Harris 1983: 9-10, Gamble 1993: 64-73). ومما يدعم هذا الرأي أن هناك اكتشافات حديثة في أوروبا، تشير إلى تاريخ وصول سلالة هومواركتوس في تاريخ أقدم مما كان موضوعًا له من قبل. ويدل على ذلك اكتشاف أدوات حجرية مؤخرًا من نوع الأولدوانية في موقعي (Fuentenueva و Barranco) في إقليم (Orce)، جنوب شرقي أسبانيا، وجدت ضمن طبقات رسوبية، أوضحت الدراسة الجيولوجية والتأريخ العلمي لها أنها قريبة زمنيًا من رسوبيات الطبقة الأولدوانية في أفريقيا (Gibert et al. 1998: 19-23).

كذلك أعلن أخيرًا عن اكتشاف بقايا عظمية وعظام جمجمتين وفك بالقرب من تبليسي، عاصمة جورجيا نسبت لسلالة (Homo erectus) وبعد دراستها تمّ تأريخها إلى ١,٧٥ مليون سنة مضت (Rose. 2002: 10-11) إن الاستنتاج الطبيعي من هذه المعلومات الحديثة، هو أن تاريخ انتشار السلالات المبكرة، أقدم بكثير مما كان معروفًا من قبل؛ وعلى ذلك فإن المملكة العربية السعودية والمناطق الجنوبية الغربية من اليمن، مرشحة لمدّنا بمواقع أثرية مبكرة، أقدم بكثير من الشويحطية أو مثيلاتها. وذلك نسبة لموقع الجزيرة العربية وسطًا بين شرق آسيا وأوروبا.

ب- الصناعة الأشولية:

تمثل الصناعة الأشولية (Acheulian Industry) الدور الثاني في تطور بواكير الحضارة الإنسانية، خلال العصر الحجري القديم الأسفل. وتتميز هذه الفترة بظهور أسلوب جديد لتشكيل الأدوات الحجرية، ضمن منجزات ونشاطات أخرى تدل على التوسع في قدرات الإنسان، وعلى الانتشار الجغرافي النسبي والتكيف على بيئات متنوعة، واستغلال مكوناتها الطبيعية بدرجة غير معهودة. فمن جملة الأدلة الأثرية المتحصل عليها، من مواقع في مختلف أنحاء العالم، نستدل على استغلال الإنسان للموارد النباتية، وممارسة صيد الحيوانات المختلفة، والاستفادة من لحومها وعظامها وجلودها. وكذلك، تمكن الإنسان من الحصول على بعض الموارد المائية، مثل الأسماك وغيرها. إن التقدم النسبي في قدرة الإنسان على استغلال هذه الموارد، يعود أساسًا إلى ما أنتجه من أدوات، مثل ما يعود إلى تراكم التجارب واتساع القدرات الذهنية. ويتميز الدور الأشولي أساسًا بظهور تقنية تشكيل الفأس اليدوية، وهي أداة مشحوذة (مشظية) الوجهين، ومدببة الرأس، ومثلثة الشكل، ذات طرفين حادين. كما يوجد عدد من أنواع الفؤوس، التي تصنّف عادة حسب شكلها، مثل شكل الرمح، أو القلب أو اللوزة وهي ذات أحجام مختلفة. وقد حاول الباحثون رصد التطور التقني في تشكيل هذه الأداة المتميزة، إذ تبين أنها مرت بمراحل مختلفة؛ فالفؤوس الأقدم غير مكتملة التشظية، تحتفظ بجزء من القشرة الطبيعية (Cortex). كما استخدم في أسلوب شطر الشظايا ما يعرف بالمطرقة الصلبة مباشرة (hard hammer)، وهي التي تترك ندبات عميقة في سطح الفأس. ذلك، لم تكن الفؤوس في هذه المرحلة متسقة الشكل والأبعاد، الأمر الذي لم يحدث إلا بتقدم الزمن، حيث ابتكر الإنسان أسلوب الطرق الناعم (soft hammer) باستخدام العظم أو الخشب، دون المطرقة الحجرية، وتمكن بذلك من توجيه ضربات محكمة لشطر الشظايا، ومن ثم أصبحت الفؤوس أكثر اتساقًا ودقة، في أشكالها وأطرافها الحادة. فأبسط أشكال الفؤوس في التقنية وأكبرها حجمًا، تنسب عادة للنوع المبكر حيث تصاحبها بعض الأدوات المعروفة في الصناعة الأولدوانية. أما الأشولي الأوسط والأعلى، فيفرق بينهما استخدام الطّرْق المباشر القاسي في النوع الأول، والطرق الناعم الخفيف في الثاني (الأعلى)، الذي تغلب فيه الفؤوس الصغيرة الحجم وجيّدة التشذيب، من الأنواع التي تشبه شكل القلب، أو الشكل البيضوي، ثم ظهور التقنية اللفالوازية المتميزة والأوسع انتشارًا في الفترة الحضارية اللاحقة للأشولية. وقد اعتمدت هذه الصفات الشكلية والتقنية في تصنيف المواقع الأشولية، في المملكة العربية السعودية (Zarins et al. 1981).

لم تكن الفأس اليدوية هي الأداة الوحيدة في الصناعة



الأشولية، بل توجد معها أنواع أخرى، مثل: المعاول، والسواطير، والأدوات الكروية، والمكاشط، والسكاكين، والمثاقب، وغيرها. وأول ما يلاحظ في هذه الفترة، كثرة أنواع الأدوات المشحوذة؛ إذ تبلغ القائمة النمطية للأدوات ضعف ما هو موجود في الصناعة الأولدوانية، ناهيك عن أسلوب التصنيع والمهارة التي يعكسها. وقد حاول الباحثون، أيضًا، تقسيم الصناعة الأشولية إلى ثلاثة أقسام: مبكر وأوسط وأعلى، وذلك بناء على ما توافر لهم من أدلة من مواقع أمكن تأريخها علميًا، وفيها طبقات متعاقبة يمكن من خلالها رصد تسلسل أنواع الأدوات، وتسجيل الفروق في أشكالها ونسبها وأساليب تصنيعها. وهناك من الباحثين من يرى عدم موضوعية تقسيم الأشولية إلى مراحل متعاقبة.

ومن المعروف، أن أقدم صناعة أشولية عثر عليها كانت -حتى الآن- في عدد من المواقع في كينيا وتنزانيا وأثيوبيا بشرق أفريقيا، وتم تأريخها إلى نحو مليون ونصف مليون سنة، قبل الوقت الحاضر. ولم يعثر على تاريخ بهذا القدم للأشولية خارج أفريقيا، حيث نجدها منتشرة في بعض أنحاء أفريقيا وفي آسيا حتى الباكستان والهند وأوروبا. ويعود تاريخها في هذه الأماكن بين نصف مليون إلى نحو ٨٠,٠٠٠ سنة قبل الوقت الحاضر، أو إلى أقل من ذلك في بعض الأماكن. ومن ضمن ما حقق إنسان تلك الفترة، بناء الأكواخ البسيطة في السهول، مثلما استخدم الكهوف والملاجئ الطبيعية، التي نظم أرضياتها بطريقة بدائية في بعض الحالات. كذلك صار من الشائع في المواقع الأشولية استخدام النار، وهو ابتكار عاد للإنسان بفوائد جمة، أقلها طهو الطعام الذي يؤدي إلى تحسين مستوى قيمته الغذائية. ومن خلال هذا الوصف الموجز للحضارة الأشولية، نعود لنرى ما وجد منها في المملكة العربية السعودية، التي أشرنا إلى وجود المجموعات البشرية فيها منذ أزمان مبكرة، كما يدل على ذلك وجود مجاميع الأدوات الأولدوانية، سابقة الذكر.

عرف عن وجود الأشولية في المملكة منذ نصف قرن تقريبًا، من خلال اكتشاف الفؤوس الأشولية المتناثرة على السطح في كثير من المواضع، في معظم مناطق المملكة، التي وصفها الجيولوجيون العاملون في أرامكو وغيرهم من المهتمين. وعلى الرغم من أن الكثير من هذه المكتشفات لم يكن نتيجة عمل ميداني منظم، إلا أن بعض مجاميع الأدوات الأشولية وغيرها، وجدت عناية خاصة من قبل بعض الأفراد، ومنهم المختصين. فقد وصف هنري فيلد وسورديناس واوفرستريت هذه الأدوات، في أكثر من عمل منشور. فقد أشاروا إلى وجود الأشولي الأوسط والأعلى في المنطقة الشرقية، بالقرب من الظهران ويبرين وعين غنامي وعين قوينصة وغيرها من الأماكن.

وفي الإقليم الشمالي والشمالي الغربي ذكر وجود معثورات أشولية شبيهة بتلك، التي وجدت في المنطقة الشرقية، بل أشير إلى وجود أنواع من الفؤوس ربما تمثل المرحلة المبكرة للأشولية (Parr et al. 1978: 34). وينطبق الأمر نفسه على منطقة صحراء الربع الخالي، حيث جمع زيمرمان (Zimerman) مجموعة كبيرة من الأدوات الحجرية بعضها فؤوس أشولية. وفي المنطقة الجنوبية الغربية والوسطى والغربية، اكتشف العديد من المواقع، التي تعود إلى هذه الفترة (Overstreet 1973).

ولم يتأكد موقف هذه الاكتشافات الأشولية في المملكة، إلا بعد إجراء المسح الأثري الشامل، الذي قامت به وكالة الآثار والمتاحف، عندما جرى تسجيل أضعاف تلك المواقع المعروفة من قبل، كما جمعت منها مواد أثرية بطريقة منهجية، إضافة إلى الدراسات الجيولوجية والجيومورفولوجية المصاحبة لهذه الأعمال، إذ أمكن -في بعض الحالات- وضع تصور مبدئي لأحوال البيئة الطبيعية، التي أثرت في حياة الصيادين في ذلك الوقت.

وقد أكدت نتائج المسح الأثري الشامل، استمرار الوجود البشري في المملكة خلال المرحلة المبكرة، التي تمثلها مكتشفات الشويحطية ونجران، بل توسع الاستيطان في المرحلة الأشولية التالية ليشمل معظم أقاليم البلاد. وقد عُني الباحثون بمواقع الأشولية باعتبار أن المعثورات فيها تشكّل أدلة واضحة، على اتصال هذه المنطقة بالمراكز الحضارية الأخرى المبكرة، في أفريقيا وشرقي البحر المتوسط. وبما أن أكثر المواقع، التي وصفت في تقارير المسح الأثري المتتالية، كانت تجمعات لأدوات حجرية وجدت فوق السطح فقط، كما



كان بعضها قليل العدد ولا يسمح بالدراسة المفصلة، فسوف نتناول في هذا الاستعراض تلك المواقع، التي أمدتنا بمعلومات مناسبة عن هذه الفترة وذلك من منطقتين، هما: الدوادمي في المنطقة الوسطى، ووادي فاطمة في المنطقة الغربية، كعينة ممثلة للحضارة الأشولية في المملكة. وتمدنا المواقع الأشولية من هاتين المنطقتين بمعلومات مفيدة، عن إنسان تلك الفترة وقدراته التقنية في تشكيل الأدوات، والتكيّف مع البيئة، واستغلال مواردها الطبيعية.

إن وجود الأدوات الأشولية في منطقة الدوادمي، أشار إليه من قبل سورديناس (Sordinas) في ١٩٧١م. وقد وجدت ستة مواقع خلال المسح الأول للمنطقة الوسطى، نسبت الأدوات فيها إلى الأشولي الأوسط، بناء على التصنيف النمطي للفؤوس، وغيرها من الأدوات. أما الاكتشافات المهمة في المنطقة، فقد كانت ضمن نتائج موسمين لاحقين حيث تم تسجيل خمسة وعشرين موقعًا، بالقرب من صفاقة جنوب شرقي الدوادمي. وقد وصفت تلك المواقع بأنها تنتسب للأشولي الأوسط، ما عدا موقعاً واحداً وصف بأنه من نوع الأشولي الأعلى. وتمتاز هذه المواقع بسعة المساحة، على الرغم من أنها تتباين في جملة الوظائف أو الأنشطة، التي قدر الباحثون أنها مورست فيها (Whalen et al. 1984: 16).

إن أهم موقعين من جملة هذه المواقع، هما: ٢٠٦-٧٦ ، و ٢٠٦-٦٨ بسبب كثافة الأدوات الحجرية، التي جمعت منهما، ولما لوحظ فيهما من مؤشرات دالة على تنوّع الأنشطة التي مارسها الإنسان الأشولي في تلك المنطقة إضافة للأحوال البيئية القديمة المواتية لحياة أعداد مقدرة من جماعات الصيادين. كذلك، فإن هذين الموقعين قد يكونان الوحيدين اللذّين توجد فيهما أدوات تحت سطح الأرض، إذ كانت في الموقع ٢٠٦-٧٦ ممتدة حتى عمق متر ونصف المتر، وأقل من ذلك قليلاً في الموقع الآخر ٢٠٦-,٦٨ وقد وجد الموقعان في المنحدرات الشمالية لهضبة مكوّنة من حجر الانديسيت والريوليت والجرانيت، تقع إلى الجنوب من قرية صفاقة.

وتقدم نتائج الدراسات الجيولوجية، التي أجريت في المنطقة، وكذلك الظواهر الجيومورفولوجية، التي كشفتها عمليات التنقيب في الموقعين، مشهدًا واضحًا للظروف الطبيعية، التي عاش فيها الصيادون في ذلك الوقت. ففي المساحة الواقعة بين طرفي هضبة الانديسيت، أي ما بين الموقعين المذكورين، لوحظ مجرى شلالين فرعيين يجلبان المياه من المرتفعات، إلى منطقة منخفضة في الوادي كانت توجد فيها بحيرة نشطة خلال معظم الفترة الأشولية. وتؤكد الملاحظات الجيولوجية الدالة على تصريف المياه، تعاقب فترات الجفاف والأمطار، الأمر الذي دعمته الظواهر الطبيعية لمكونات التربة، التي تتكون منها طبقات الأرض في المجسات التي حفرت في كلا الموقعين. ومما يجدر بالذكر خلو طبقات الموقعين من أي مواد عضوية، كان من الممكن أن تساعد في معرفة أحوال الناس المعيشية، وفي الغالب قد أتت العوامل الطبيعيةعلى هذه المواد. ومثال ذلك التفاعل الكيماوي للصخور الموجودة في المنطقة (Whalen et al. 1983: 9-11).أجرى الباحثون دراسة مفصلة للمعثورات المكتشفة في هذين الموقعين، تشمل تسجيل مكان كل أداة في الطبقة المعينة، لمعرفة اتصال أنواع المعثورات ببعضها في بقع مخصصة، ولتحديد ما إذا كانت هناك تجمعات للأدوات تدل على نشاط معين. كذلك، أجريت دراسة إحصائية تحليلية استُعملت فيها (Cluster analysis) لمواد الموقع ٢٠٦-٦٧ ، مع أخرى من واحد وعشرين موقعًا أشوليًا من المنطقة الوسطى. وكان نتيجة تلك الدراسة مؤشرات قوية، تدعم اتجاه التفسير الوظيفي لارتباط مجاميع أنواع الأدوات المختلفة. ومن جهة أخرى، فإن نتائج التصنيف النمطي للأدوات من هذين الموقعين، والمقارنة مع مواقع أشولية مؤرخة علميًا في شرقي المتوسط وأفريقيا، تشير إلى أنهما يعودان لفترة الأشولي الأوسط نحو ٢٥٠,٠٠٠ / ٣٠٠,٠٠٠ سنة، قبل الوقت الحاضر تقريبًا (Whalen et al. 1984: 11).

وبالنظر إلى قائمة أنواع الأدوات، نجد أن أدوات التقطيع تشمل: الفؤوس اليدوية، التي تمثلها الأشكال الرمحية أو القلبية، والسواطير، وثنائية الوجه، والسكاكين الكبيرة. وتشمل مجموعة أدوات الأشغال الثقيلة: المعاول، والأدوات ثلاثية السطح، والقواطع، والأقراص، والمستديرات، وكلها مصنوعة من نوى ثقيلة. ولم تكن تقنية التصنيع متطورة إذ

الشكل ٢: أدوات أشولية من الدوامي ووادي فاطمة (جدة) ١ - ٣ فؤوس يدوية، ٤- ساطور، ٥ - معول، ٦- قرص، ٧ مكشطة أمامية، ٨- رقيقة لفالوازية، ٩- مثقب، ١٥- منقاش، الدوادمي. ١٠-١١ فؤوس يدوية، ١٢- مفرمة، ١٣- مكشطة، ١٤- مثقب، وادي فاطمة (Whalen et al. 1983, 86).



كان أسلوب الطّرق من النوع المباشر بالمطرقة الصلبة، حيث تترك ندبًا عميقة على أسطح الأدوات. كما أن الفؤوس، وغيرها من أدوات غير مكتملة الاتساق، لا تعكس نسبًا محفوظة في أبعادها. كذلك، لوحظ وجود التقنية اللفالوازية في مرحلتها البدائية، التي تنسب، عادة، لفترة الأشولي الأوسط. أما بقية الأنواع، فتتمثل فيما يسمى بالأدوات الخفيفة، كالمكاشط بأنواعها، والمثاقب، والمناقش، والسكاكين، الرفيعة. كذلك، توجد القطع المستعملة في تصنيع الأدوات، مثل: المطارق والنوى، وما ينتج عنها من شظايا وكسر مختلفة الأحجام (شكل ٢ ,Ibid 18).

ويلاحظ أن هذه الأدوات بأنواعها المختلفة، لم يطرأ عليها تغيير تقني يذكر، بل ظلت موجودة بأشكالها نفسها تقريبًا، على امتداد أكثر من متر تحت السطح، أي على امتداد فترة الأشولي الأوسط الطويلة نسبيًا. ويظهر الاختلاف الواضح في تجمع بعض أنواع الأدوات وتركيزها، في مستويات معينة من المساحات، التي عاش فيها الصيادون ومارسوا أنشطة مختلفة، كما يفترض الباحثون. ويرى الباحثون أيضًا أن الدراسة التحليلية لأنواع الأدوات، وأماكن وجودها، جعلتهم يقترحون سبعة استعمالات أو أنشطة مارسها الصيادون، على امتداد طبقات الموقع ٢٠٦-٧٦ ، بدرجات متفاوتة في التركيز. وتتمثل هذه الأنشطة في: تجهيز الصيد، وتقطيع اللحوم التي تستخدم فيها الفؤوس والسواطير والسكاكين، ثم كسر العظام للحصول على النخاع، وذلك باستعمال القواطع والنوى والأدوات متعددة الأسطح. أما أعمال الجلود، فقد خصصت لها المكاشط المقوسة والسكاكين، وأخيرًا أعمال الخشب أو العظم، وأدواتها المكاشط المستقيمة والمقعّرة والمثاقب، أو المخارز والمثاقب على التوالي. وهناك مجموعة أدوات بينها المعاول، يرى الباحثون أنها مناسبة لمعالجة النباتات وتجهيزها، ومجموعة أخرى يستفاد منها في تصنيع الأدوات، وهي النوى والمطارق وكتل الأحجار المتبقية بعد استخراج الشظايا. ويخلص الباحثون إلى أن كثرة المواقع الأشولية في هذه المنطقة، يعود إلى وجود البحيرة ووفرة النباتات والحيوانات والصخور المناسبة لعمل الأدوات. كما أن عمق الترسبات التي وجدت فيها المعثورات، يشير إلى أن جماعات الصيادين عاشوا في المنطقة لفترة طويلة؛ ولكن ليس بالضرورة بشكل مستمر، وإنما على أساس موسمي.

وعلى الرغم من عدم ملاحظة أي تنوع في أشكال الأدوات وأنواعها على مرّ آلاف السنين، إلا أن هناك إشارات لتحولات في التركيز على بعض الأنشطة، التي تخصص فيها الناس، لسبب أو لآخر. ويبدو أن هجرة الصيادين من المنطقة حدثت عندما جفت البحيرة، خلال فترة الأشولي الأوسط نفسها، حيث لم تعد مكانًا صالحًا للإقامة، إلا بصفة متقطعة في فترات لاحقة (ibid: 11-19). ومهما يكن من أمر، فإن صحة فرضية التفسير الوظيفي المقترحة، تبقى رهينة لتأكيدات إضافية. كما أن طرحها لا يعني إلغاء تفسيرات أخرى، يمكن استشفافها من خلال إجراء دراسة تحليلية على أسس مختلفة.

ويأتي المثال الثاني للصناعة الأشولية من منطقة وادي فاطمة، بالقرب من جدة. فقد كان من نتائج المسح الأثري في المنطقة اكتشاف ٣٢ موقعًا أشوليًا، ضمن مواقع أخرى، وجدت متوزعة على الجانب الشمالي من الوادي، وبالقرب من الأودية الفرعية، التي تصب في الوادي الرئيس. وتتوافر في المنطقة أنواع مناسبة من الصخور لتصنيع الأدوات. كذلك، تشير الملاحظات الجيولوجية إلى أن المناخ كان ممطرًا ورطبًا، خلال فترة الاستيطان. وأوضح التصنيف النمطي للأدوات الحجرية غلبة الأنواع المعهودة في الصناعة الأشولية، وهي: الفؤوس اليدوية، والمفارم، والمعاول، والأدوات الكروية، ومتعددة الأسطح؛ إضافة للأنواع الصغيرة، مثل: المكاشط المتنوعة، والأزاميل، والمناقيش، والمثاقب (الشكل ٢). وهناك مؤشرات على ظهور التقنية اللفالوازية، التي يعتقد أنها متزامنة مع الأشولي الأوسط. كذلك، فإن مقارنة الأدوات بمثيلاتها، في صفاقة بالدوادمي وغيرها في بلاد الشام (سوريا)، ترجّح نسبتها إلى الأشولي الأوسط أيضًا. ويدعم هذا الرأي الحصول على تاريخ علمي بواسطة يورانيوم/ثوريوم المشع، أُجري على حصى جيرية متكلسة، وكان في حدود ٢٠٠,٠٠٠ سنة ق.م. وهو تاريخ قريب جدًا من التاريخ المذكور من صفاقة، حيث أرخت عينة من المادة الكلسية نفسها (Whalen et al. 1988: 78).



إن الأمر المهم في دراسة الفؤوس اليدوية والأدوات الثقيلة الأخرى، هي تلك الظواهر التي تدل على أسلوب التصنيع. وفي حالة الأشولي الأوسط أو المبكر، نجد أن التشظية تترك ندبات عميقة، كما أن الفؤوس لم يكتمل تنسيق أبعادها بعد. والأدوات المصنّعة، مهما كانت بسيطة في أشكالها، فإن الباحث يسعى دائمًا لمعرفة وظائفها، وبذلك تكون المدخل إلى معرفة بعض جوانب الاقتصاد المعيشي لجماعات العصور الحجرية. وفي مواقع وادي فاطمة، حاول الباحثون تطبيق الفرضية نفسها، التي وصفت من قبل لتفسير استخدامات مجموعات الأدوات الحجرية، في المواقع الأشولية بصفاقة. ويرى هؤلاء أن وجود أنواع معينة من الأدوات في مواضع بعينها، يشير إلى تخصيص تلك المواضع لعمل أنشطة معينة. فأحد المواقع الصغيرة في شمالي بحرة، على سبيل المثال، وجدت فيه أدوات قليلة ومحدود الأنواع، مثل: القواطع، والمكاشط، وقليل جدًا من الشظايا الثانوية، الناتجة عن إعادة تشذيب الأدوات؛ ولهذا السبب عدّه المنقبون بقعة نشاط محدود، ربما كان يتعلق بإعداد الطعام من النبات، أو لحوم الحيوان (ibid: 81). وكما أشرنا أعلاه، فإن هذا التفسير الوظيفي، يعد أحد المداخل لتفسير مكونات مجاميع الأدوات الحجرية وتوزيعها في المكان والزمان إلا إن استخدامه في حالة المعثورات السطحية تحفه الشكوك.

ومهما يكن من أمر طبيعة مجاميع الأدوات الحجرية، وما طرأ عليها من تغييرات بفعل عوامل الطبيعة بسبب وجودها على السطح، وقلة المواقع المكتشفة حتى الآن، ومحدودية إمكانية تأريخها بطرق علمية، فإن مجمل المعلومات المتوافرة تشير إلى أن أرض المملكة العربية السعودية، كانت مأهولة بجماعات الصيادين، في أزمان موغلة في القدم، تعود لنحو مليون سنة على الأقل. ومن المتوقع أن تكشف الأبحاث المستقبلية عن مخلفات أثرية أقدم منها في ضوء ما قدمنا من مؤشرات. ومن جهة أخرى، تؤكد هذه المعلومات، أيضًا، أن الصناعات الحجرية، خلال فترة العصر الحجري القديم الأسفل، كانت متوافقة بدرجة كبيرة مع مثيلاتها في أفريقيا، وغربي آسيا، والأجزاء الجنوبية من أوروبا. وهي تبدأ بالأدوات الحصوية (الأولدوانية)، ذات المواصفات التقنية البسيطة، لتعقبها الأشولية بفؤوسها اليدوية مكتملة الصنع، وبقية قائمة الأدوات، التي شُكّلت بأسلوب تقني متطور يتميز عن سابقه، بمستوى درجة التحكم في التنفيذ. ويقودنا ذلك - بطبيعة الحال- للمرحلة التالية من تطور حضارات العصر الحجري القديم، التي تجمع من الصفات ما يبرر تناولها تحت عنوان مستقل.

العصر الحجري القديم الأوسط

يتفق علماء ما قبل التاريخ، على مجموعة خصائص ومعايير حضارية تميّز هذه الفترة عن غيرها، بناء على ملاحظات وشواهد آثارية، جُمعت من آلاف المواقع في قارات العالم. كما أنهم اتفقوا، في الوقت نفسه، على أن الإنسان قد خطا خطوات مهمة نحو التنوع والتمايز الثقافي/ الحضاري الإقليمي، وذلك لأسباب مختلفة، منها استمرار الموروث الثقافي وتراكمه، والتكيّف البيئي والموارد الطبيعية المتاحة. وتتمثل التقنية الأساسية المميزة لهذه الفترة، في ما يعرف بتجهيز، أو تهيئة النوى الحجرية، لشطر عدد من الرقائق (الشظايا)، التي يُختار بعضها، ومن ثم تشكّل بالشحذ والتشذيب في أدوات متعددة الأنواع ذات سمات متكررة، تعكس قدرات أكبر في تقنية الشحذ الرفيع والتنويع في الشكل، يفوق كل ما عُرف في الصناعة الأشولية. وتقل تدريجيًا أنواع الأدوات الثقيلة الخشنة التصنيع، والفؤوس اليدوية حتى تختفي تمامًا في أواسط هذه الفترة، لتحل محلها الأدوات المصنّعة على الرقائق (الشظايا). ومن نتائج هذه الدراسات، أيضًا، تحديد تقاليد حضارية متوزعة على أنحاء العالم بما يعرف بالمناطق الثقافية (Culture areas)، حيث تنتشر سمات حضارية مشتركة، في المنطقة المعنية.

تعرّف الباحثون على طريقتين متميزتين في تجهيز النوى، في الصناعات الحجرية لهذه الفترة، ضمن طرق أخرى بسيطة، هما: اللفالوازية والموستيرية؛ فالطريقة الأولى، نجد بداياتها في الصناعة الأشولية نحو ٢٠٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر، ليكتمل نضوجها وتميزها في العصر الحجري القديم الأوسط. وهي تعني -ببساطة- تجهيز النواة بطرقها من الحافة نحو الوسط، لإبعاد القشرة الطبيعية، ثم يتبع ذلك



خطوات تشطير متعاقبة، تؤدي في النهاية إلى شطر ما يسمى بالشظية اللفالوازية، أو الرأس اللفالوازي.

أما الطريقة الثانية: الموستيرية، فقد عرفت بعد فترة من الطريقة الأولى، وهي تتبع بعض الخطوات الفنية المعروفة في اللفالوازية، ولكنها تهدف إلى الحصول على عدد أكبر من الشظايا (الرقائق) من النواة الواحدة، التي تُشبه، عادة، ظهر السلحفاة. ويضاف إلى هاتين التقنيتين نوع الأدوات المصنعّة، التي تتمثل في المكاشط، والسكاكين، والرؤوس، والمسننات (المنشارية)، والأدوات ذات الثلم، وقليل من النصال، والفؤوس اليدوية، في المراحل المبكرة من هذه الفترة الحضارية. ويعكس تسلسل الأدوار الثقافية خلال هذه الفترة، وجود تقاليد في تشكيل الأدوات يُطلق عليها: "الصناعات الموستيرية"، التي تمثل حضارات تنتشر بمواصفاتها المذكورة، في وسط وغربي أوروبا، وشمالي أفريقيا، وغربي آسيا (شرق المتوسط). وكلما ابتعدنا عن هذه المراكز، يقل انتشار التقنيتين الموستيرية واللفالوازية بشكلهما النمطي المعروف، وتحل محلهما أساليب تصنيع محلية، تعتمد، أيضًا، إنتاج الشظايا لعمل الأدوات، مثل ما هو الحال في أفريقيا جنوبي الصحراء، وبعض بلدان شرقي آسيا.

فالصناعات الموستيرية في غربي أوروبا، على سبيل المثال، قسّمت إلى عدد من التقاليد في صناعة الأدوات، لكل واحدة منها خصائص شكلية وتقنية، ونسب متوافقة في أنواع الأدوات، توجد، عادة، في المجموعة المعينة. ويختلف العلماء في التفسير الحضاري لهذه التقاليد، أو المجموعات الموستيرية. ونتيجة لدراسات مطولة للعديد من مجاميع الأدوات الحجرية، ومن مواقع مختلفة، وضع دارسو تلك المجاميع قوائم للتصنيف، بناءً على رصد الخصائص المورفولوجية والتقنية للأدوات وأنواعها، وأنواع الصخور المستعملة في تشكيلها (Bordes 1972: 48-54). وقد نقل هؤلاء العلماء هذه المنهجية لتطبيقها في أماكن خارج أوروبا، حيث ثبتت جدواها وفائدتها في بعض الحالات، مثل شمالي أفريقيا وشرقي البحر المتوسط؛ ولكنهم استخدموا أحيانًا بعض المسميات المحلية من اجل إبراز بعض السمات الخاصة بالمنطقة. وتظهر الصعوبة عندما تكون مجاميع الأدوات قيد الدراسة من مناطق بعيدة عن هذه المراكز، وغير متوافقة مع قوائم التصنيف تلك، ما يسبب بعض الإشكاليات العملية عند تطبيقها. وقد حدث هذا الأمر في أكثر من مكان في أفريقيا والشرق الأدنى (Elamin 1981: 118-120, 177-185).

وإكمالاً للصورة، علينا أن نذكر أن إنسان هذه الفترة خطا خطوات مهمة في تحسين موارد المعيشة، من صيد بري وبحري وجمع للمواد النباتية. إن مجموع ما اكتشفه الآثاريون يشير بوضوح إلى التوسع في استغلال الموارد الطبيعية المتباينة، وتمدد الاستيطان البشري، في معظم أجزاء العالم القديم، بما في ذلك شمالي أوروبا. وقد صنع الإنسان كذلك قليلاً من أدواته من العظم والقرون، كما استعمل أدوات الزينة، مثل قطع الخرز البسيطة إضافة إلى ممارسة دفن الموتى، وعمل بعض الفنون البدائية البسيطة، التي كانت الأساس لانطلاقة الفنون الكبرى، في المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم.

في ضوء هذه المعلومات العامة، ننظر في مجاميع الأدوات الحجرية في المملكة العربية السعودية، التي نسبت إلى هذه الفترة. فقد أثمر المسح الأثري الشامل، ومن قبله تقارير الرواد أمثال هنري فيلد وسورديناس واوفرستريت، في الكشف عن العديد من مواقع هذه الفترة، في شتى أقاليم البلاد؛ وإن كانت هذه الواقع وجدت بكثافة واضحة في الشمال والجنوب الغربي للبلاد. مثل غيرها من مواقع ما قبل التاريخ في المملكة، فإن المعثورات كانت محصورة في الأدوات الحجرية التي وجدت على السطح، وهي خالية -بطبيعة الحال- من المواد العضوية، أو أي مصنوعات أخرى ذات دلالة فنية. ويزيد الأمر تعقيدًا أن الكثير من هذه المواقع، يوجد فيها أكثر من مكّون حضاري؛ إذ تنتشر الأدوات الأشولية مع أخرى موستيرية، أو غيرها من الفترات اللاحقة من فترات العصور الحجرية، ما يشكل صعوبة أمام الباحثين. والملاحظة العامة الأخيرة هي، أن هذه المجاميع، التي دُرست، تعكس توافقًا في بعض أساليب التصنيع، مثل التقنية اللفالوازية أو الموستيرية، وبعض الأنواع المعروفة من الأدوات. كما أنها، من جهة أخرى، تعكس، أيضًا، صفات محلية تميّزها عن الصناعة الموستيرية النموذجية، التي وصفناها من قبل، ما يجعلنا أمام

الشكل ٣: نماذج لأدوات العصر الحجري القديم الأوسط: ١-٤ نوى وأدوات لفالوازية. المنطقة الشمالية (Gilmore et al. 1982)؛ ٥-٧ نوى ورقائق لفالوازية، ٨-٩ نصال، ١٠-١١ مكشطة جانبية. المنطقة الجنوبية الغربية (Zarins et al. 1981)؛ ١٢فأس موستيرية، ١٣ نواة موستيرية، ١٤ مكشطة قرصية، ١٥ إزميل، ١٦ مكشطة طرفية - المنطقة الغربية (Killick, A. et al. 1981).



حالة اختلاف أو تباعد حضاري. ومما لا شك فيه أن هذا الوضع يطرح العديد من التساؤلات العلمية، التي تصلح لصياغة موضوعات أبحاث مستقبلية.

ومن ضمن مكتشفات المسح الأثري في الإقليم الشمالي، ما وجد في منطقة الجوف وسكاكا من مواقع كثيرة تحوي أدوات حجرية، تنسب للصناعة الموستيرية. وتنتشر هذه المواقع السطحية فوق المرتفعات، أو المنحدرات المطلة على الأودية والقيعان، أو بالقرب من السبخات، ومجاري القنوات القديمة. وتتميز هذه المواقع بكثرة بقايا النوى والشظايا والكسر الحجرية، الناتجة عن تجهيز الأدوات، وندرة الأدوات المشحوذة أو المشذبة. والأخيرة، على قلتها، تعد من نوع الأدوات الموستيرية النموذجية. كذلك، وجدت نوى من النوع الموستيري، قرصية الشكل، وقليل آخر يماثل النوى اللفالوازية المعروفة. ويخلص بار وآخرون إلى أن الجزيرة العربية لم تكن بعيدة عن المناطق الغنية بالصناعات الموستيرية، على الرغم من أن ما سمح به البحث يشير إلى توافق محدود، يتمثل في وجود التقنيات الأساسية المعروفة في هذه الفترة (Parr et al. 1978: 35).

وإذا كانت هذه المواقع عبارة عن أماكن أو ورش لتجهيز الأدوات، فإن مواقع أو معسكرات إقامة الصيادين لا تزال تنتظر من يكتشفها مستقبلاً. أما في بقية أجزاء الإقليم الشمالي، فلم يوجد سوى القليل جداً من مثل هذه المواقع. وفي المنطقة الشمالية الغربية لم يكشف المسح الأثري عن مواد موستيرية واضحة المعالم، وإنما كشف عن القليل من الأدوات المبعثرة على السطح، التي يصعب تصنيفها بسبب ما أحدثته فيها عوامل التعرية. وبينما لم تكتشف مواقع تعود للعصر الحجري القديم الأوسط في شمالي الحجاز أو في حسمى، فقد وجد بعضها في منطقة تبوك، وهي تحوي أدوات موستيرية. وعلى الرغم من محدودية هذا الاكتشاف، إلا أنه يشير إلى ضرورة القيام بأبحاث ميدانية أكثر كثافة، من المسح المشار إليه (Ingraham et al. 1981: 65-66).

وفيما عدا عدد محدود من مواقع هذه الفترة عثر عليها على ضفتي وادي السهباء، فإن المسح الأثري لم يوثق مثلها في بقية أنحاء المنطقة الشرقية. وكانت الأدوات من مواقع وادي السهباء قليلة العدد، كما أن نوع المادة الخام رديئة إلى درجة أثرت في مستوى تشذيبها (Adams et al. 1977: 30). وقد نشر مكلور مؤخراً معلومات عن موقع فريد في نوعه، في الطرف الجنوبي الغربي من صحراء الربع الخالي، وجدت فيه ٣٠٠ أداة، معظمها رؤوس ومكاشط مجنّحة. وتمثل الرؤوس جيدة الشحذ من جانب واحد، النوع الغالب. كما كان هناك أيضًا، شظايا ونصال مشذبة ذات أشكال هندسية وسكاكين وأدوات مسننة وأخرى متنوعة. واعتماداً على أشكال هذه الرؤوس، وغياب أي خصائص أخرى تربطها بالصناعات الحجرية المعروفة في صحراء الربع الخالي، ووجود ظواهر طبيعية في منطقة الموقع تشير إلى ارتباطها بالفترة المطيرة نسبيًا، التي سادت في المنطقة خلال الفترة ٣٥,٠٠٠ - ٢٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر، فقد رُجّح أن يكون ذلك تاريخًا لهذا الموقع. وأضاف أن هذا الموقع، وإن كان وحيداً، إلا أن أدواته تشبه لحد كبير صناعة بئر الطير، ذات الصبغة الموستيرية المنتشرة في شمالي أفريقيا حتى صحراء مصر الغربية، في الفترة بين ٤٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر. وقد ذكر مكلور أن ذلك كان نتيجة لاتصال حضاري بين المنطقتين، على الرغم من أن هذا الرأي قد لا يجد سنداً من واقع هذه المجموعة المحدودة من الأدوات، التي جمعت من بقعة واحدة (McClure 1994: 1-6).

وفي منطقتي الرياض ووادي الدواسر، عُثر على كمية من الأدوات الحجرية من مواقع سطحية، وصفت بأنها من نوع الصناعة الموستيرية، بناء على وجود النوى الموستيرية وقليل من اللفالوازية، وكذلك المكاشط الجانبية والطرفية، وغيرها من الأدوات المعروفة في هذه الفترة. وأجرى الشارخ مسحًا أثريًا مكثفًا في منطقتي الطراق والدغم، في شمال شرقي الرياض، وهي جزء من المنطقة التي مسحها فريق وكالة الآثار من قبل، حيث ذكر وجود عدد أكبر من مواقع العصر الحجري القديم، إلى جانب منشآت حجرية. وفيما يتعلق بالأولى فقد وصف الشارخ المواقع بأنها ورش لتصنيع الأدوات الحجرية، وذلك لكثرة الشظايا والنوى والمطارق،



وكثرة الأحجار مختلفة الأحجام، والقليل جداً من الأدوات المشحوذة. ومن المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون الأدوات المشحوذة قد أخذت إلى أماكن أخرى. وبعد عمل الدراسة التحليلية لعناصر هذه المادة، توصل الشارخ إلى أنها تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط، بناءً على مواصفات تقنية وشكلية، وكذلك لخلوها من الفؤوس الأشولية، على الرغم من ندرة الأدوات المشحوذة التي تمثل الأساس، عادة، في تحديد الفترة الزمنية للمعثورات (Al-Sharekh 1995: 70,114-115). وفي الإقليم الجنوبي الغربي اكُتشف أيضًا عدد من المواقع التي تحوي أدوات موستيرية تعكس الخصائص النوعية والتقنية نفسها. وتشمل تلك الأدوات المشحوذة، الشظايا اللفالوازية، ونسبة عالية من المكاشط بأنواعها المختلفة، والمناقيش، والرؤوس، والمثاقب، إضافة إلى قليل من الفؤوس اليدوية في بعض المواقع (الشكل ٣). وقد وجدت هذه الواقع الموستيرية في وادي حما، ووادي تثليث، وأودية جنوب ظهران الجنوب وعلى ساحل البحر الأحمر (Zarins et al. 1981: 16-18).

وفي المنطقة الغربية أثمر المسح الأثري عن اكتشاف أربعة عشر موقعًا، وُصفت بأنها من النوع الموستيري. وكانت المعثورات الحجرية المكتشفة محدودة العدد، إذ يبلغ متوسطها ثلاثين قطعة في أحد عشر موقعًا، وما يقل عن مائة قطعة، في موقعين آخرين، ما يجعل التصنيف والمقارنة في غاية الصعوبة. وتعكس الأدوات المشحوذة على قلتها، بصفة عامة، سمات الصناعة الموستيرية، وأشكال أدواتها المعهودة. أما الموقع الأخير، ٢١٠-٢٣٢، فهو الأوفر حظًا في عدد الأدوات المشحوذة، إذ تبلغ ٢٣٥ قطعة، معظمها مكاشط متنوعة، تليها الأدوات المسننة، وذات الثلب، وقليل من الفؤوس اليدوية. وبسبب وجود الأخيرة ضمن الأدوات الموستيرية الأخرى، حاول هويلن وآخرون مقارنتها بما يعرف بالموستيري ذي التقليد الأشولي، وهو أحد نماذج الصناعات الموستيرية، التي عرّفها فرانسوا بوردز، في مطلع الستينات من القرن الماضي. لقد وجد هويلن وآخرون الشبه كبيرًا، بين الاثنين، خاصة بعد استبعاد بعض أنواع الأدوات من قائمة أدوات موقع (Pech de L'Aze)، في فرنسا، ولا تتوافر في الموقع ٢١٠-٢٣٢، الأمر الذي يضعف من قيمة نتيجة هذه المقارنة، على كل حال (Whalen et al. 1981: 47-49).

قامت دراسة بوردز على تحليل عدد كبير من مجاميع الصناعات الموستيرية، في جنوب غربي فرنسا، حيث أخضعها لمنهجية كانت نموذجية في وقتها. وهي تتناول مجمل الخصائص التقنية والشكلية والمواد الخام وغيرها. كانت مجاميع الأدوات هذه، جمعت من مواقع فيها طبقات متعاقبة، ومؤرخة بطرق علمية. وهي تحوي إلى جانب الأدوات، مواد عضوية وظواهر حضارية أخرى عديدة (Bordes 1961)، ومهما يكن من امر فإن مواقع المنطقة الغربية بالسعودية، تعكس بالفعل صفات موستيرية عامة، إلا أن مطابقتها بأخرى في فرنسا، أمر لا يسنده واقع المعلومات المتوافرة لدينا، في الوقت الحاضر.

وخلاصة القول، أن هذه المجاميع الموصوفة بالموستيرية، تشكل دليلاً قاطعًا على انتشار واسع لتقنيات العصر الحجري القديم الأوسط، في عمق الجزيرة العربية؛ ولكن الدراسة الميدانية تشير إلى أنها، تمثل تقليدًا في صناعة الأدوات مختلفًا في كثير من جوانبه عن الصناعات الموستيرية المعروفة، في بقية أنحاء الشرق الأدنى. ومن جهة أخرى، فقد أوضح الباحثون أن تقنية تشذيب أدوات الرقائق (الشظايا) المشطورة من نوى تختلف -عن الموستيرية التقليدية قد استمرت لفترة طويلة، بل كانت هي الأكثر شيوعًا في المملكة العربية السعودية. ويرى هؤلاء، أيضًا، صعوبة الجزم بتصنيف محدد لهذه المجاميع، في ضوء المعلومات المتاحة من الدراسة المبدئية، التي اعتمدت، في الغالب، على الملاحظات الميدانية (Zarins et al. 1979: 15,16, Zarins et al. 1981: 16-18, Zarins et al. 1982: 30). وانطلاقًا من هذه الإشارات، تتضح الحاجة الماسة لتناول موضوع الصناعات الحجرية المنسوبة للعصر الحجري القديم الأوسط بدراسة تحليلية موسعة، تقوم على حصر السمات الشكلية والتقنية وقياسات أبعاد الأدوات ونوع المواد الخام، والاستعانة في ذلك بالمناهج والنماذج الإحصائية/ الرياضية واستخدام الحاسب الآلي. وبذلك يمكن التوصل إلى تعريف موضوعي لتقاليد صناعة الأدوات



الحجرية خلال هذه الفترة، وتحديد سماتها المميزة وإمكانية مقارنتها بغيرها.

العصر الحجري القديم الأعلى

تُعد هذه الفترة (٤٠,٠٠٠ - ١٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر) من أهم الفترات الحضارية في العصر الحجري القديم، نسبة لما حققه الإنسان خلالها من ابتكارات تقنية وفنية، مع تمكّنه من تحسين أنماط الاقتصاد المعيشي، وتوفير الأدوات المناسبة، لتأمين القدر المطلوب من الغذاء، لمجموعات الصيادين المتزايدة في أعدادها. وفي هذه الفترة عمّ الاستيطان البشري جميع أنحاء المعمورة، بما في ذلك العالم الجديد (أمريكا واستراليا). فالأدوات الحجرية المتنوعة، صارت تصنع من أنصال طويلة متوازية الأضلاع ورفيعة السمك، وأصبحت تدريجياً شفرات رفيعة ودقيقة الشحذ، الذي ينفّذ بواسطة الضغط. ويحصل على هذه النصال من نوى هرمية الشكل تجهز بحيث يشطر النصل في اتجاه طولي واحد، من قاعدة معدة سلفًا.

ومن الأدوات المعروفة في هذه الفترة: المكاشط، والسكاكين الرفيعة، والنصال المظهّرة، ذات الأشكال الهندسية والمناقيش والمثاقب الرفيعة. وأضاف إنسان تلك الفترة إلى معداته، الأدوات العظمية، مثل: الخطاطيف والإبر والرؤوس المدببة. وتشير الأدلة الأثرية، أيضًا، إلى التنويع في مواد الغذاء، وطرق إعداده؛ فشمل الصيد البري، والطيور، والموارد المائية، والحبوب البرية، وغير ذلك مما تنتجه البيئة. كذلك، لوحظ التوسع في بناء الأكواخ في شكل مجموعات، مثلما كانت الكهوف ملاجئ للإنسان في المناطق البادرة في أوروبا، على سبيل المثال، حيث ترك فيها نماذج للفنون الرائعة، تتمثل في اللوحات الملوّنة والرسوم المحفورة على الجدران. ومن نماذج الفنون المنقولة، المنحوتات الآدمية والحيوانية المصنوعة من العظم والحجر والعاج وغيرها، وأدوات الزينة، كقلادات الخرز والأساور العاجية. وقد شهدت مناطق الشرق الأدنى معظم هذه التطورات الحضارية، وأسهمت فيها بقدر كبير. ومثل غيرها من مناطق العالم القديم، تتباين هذه المناطق في تجاربها المحلية بين إقليم وآخر، بسبب أحوال البيئة وتوفر المواد الخام (Redman 1978: 59-71).

ويتفق الباحثون، الذين أجروا المسح الأثري لمواقع العصور الحجرية في المملكة، على خصوصية الجزيرة العربية بصفة عامة، خلال هذه المرحلة من مراحل العصور الحجرية حيث لم يُكشف بعد عن مواد أثرية، تعكس الخصائص آنفة الذكر. وتشير الأدلة المتوافرة إلى أن هذه الفترة الزمنية، ربما سادت فيها تقاليد في تجهيز الأدوات كانت استمرارًا طبيعيًا للفترة الحضارية السابقة (Zarins et al. 1982: 30, Gilmore et al. 1982: 12-13, Parr et al. 1978: 35-36).

وعلى الرغم من ذلك، فإن المسوحات الأثرية كشفت عن وجود مواقع في مناطق متفرقة من المملكة، تحوي أدوات هي مزيج من الصناعة الموستيرية، وبعض الأدوات والنوى النصلية، وهي مجاميع يصعب تحديد موقعها، في تسلسل الصناعات الحجرية المعروف. ويعتقد بعض الدارسين أن الصناعة الموستيرية، مع ما أضيف إليها، استمرت لفترة حتى حلول الجفاف في نحو ٢٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر واستمراره، إلى أن تحسنت الأحوال البيئية في نحو ٩٠٠٠ قبل الوقت الحاضر (Zarins et al. 1981: 19). أما تصنيع النصال وشحذ الأدوات في أشكال ورقية، فقد ازداد انتشارًا في المرحلة التالية للعصر الحجري القديم، في أكثر من مكان في المملكة. ومهما كان تأثير الأحوال المناخية، فإن المعطيات الحالية تجعل مشكلة العصر الحجري القديم الأعلى معلقة، حتى إجراء دراسات مفصلة للصناعات الموستيرية المذكورة، ولتلك التي وصفت بأنها تحمل صفات مشتركة بين مرحلتين، مثلما هو الحال في بعض المواقع في بئر حما أو وادي تثليث.

إن إشكالية ظهور تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى، ليست مقصورة على المملكة؛ فالأمر نفسه يتكرر في أكثر من مكان من دول الخليج العربي، وبعض بلدان شرقي أفريقيا. ففي السودان، على سبيل المثال تنحصر صناعات العصر الحجري القديم الأعلى النصلية، بشكلها التقليدي المعروف، في أقصى الشمال بينما تنعدم في بقية القطر، ولا تظهر إلا

الشكل ٤: نماذج لأدوات العصر الحجري الحديث: ١-٣ رؤوس أسهم، ٤-٨ أدوات ورقية الشكل، ٩-١٠ مكاشط، ١١ مثقب. الربع الخالي (Edens 1982) ١٢ نواة نصلية، ١٣ - ١٥ نصال/ شفرات، ١٦ منقاش. كلوة (Gilmore et al. 1982) ١٧ نصل، ١٨-١٩ أدوات مركّبة نصلية، مكشطة برأس مدبب. أم وعال (Adams et al. 1977).



في المرحلة الفاصلة، بين العصر الحجري القديم والحديث وذلك في مناطق محدودة. كما اتضح، أيضًا، أن الصناعات الحجرية المعتمدة على شطر الشظايا دون النصال، هي التي استمرت حتى نهاية العصر الحجري القديم (Elamin 1987: 42-44).

العصر الحجري الحديث:

عند نهاية العصر الجليدي الأخير في نحو ١٠,٠٠٠ قبل الوقت الحاضر، انحسر الغطاء الجليدي، وسادت العالم أحوال مناخية جديدة (عصر الهولوسين)، كانت عظيمة الأثر في حياة سكانه. فالجفاف، الذي غطى مناطق واسعة، دفع بجماعات أواخر العصر الحجري القديم، إلى التجمع في المناطق ذات الوفرة المائية والطبيعية. وتشير الأبحاث، التي أجريت على مدى أكثر من نصف قرن، إلى تحولات حضارية مهمة حدثت في مسيرة التاريخ البشري، أجمع الباحثون على تسميتها بفترة العصر الحجري الحديث، أو مرحلة إنتاج القوت. واجتمعت عدة أسباب لإحداث هذا التحول؛ فمع التغير البيئي، يُشار إلى التفوق التقني، والزيادة السكانية، والتراكم الحضاري. كما يتفق العلماء على أن منطقة الشرق الأدنى تحققت فيها هذه التحولات المهمة، في تاريخ مبكر نحو الألف التاسع قبل الوقت الحاضر. وخلال هذه الفترة تمكن الإنسان من استئناس الحيوان، وتدجين النبات، وصناعة الفخار، وتطوير الأدوات المصقولة الجديدة والفنون، ما أحدث نقلة نوعية في أنماط الاقتصاد المعيشي، وأساليب الحياة الاجتماعية والعقائدية والثقافية.

وكان من نتائج الاستغلال المكثّف للموارد الغذائية الجديدة، نمو التجمعات السكانية الكبيرة، التي أنشأت القرى الزراعية الأولى، التي تحولت في وقت وجيز إلى بلدات ومدن كبيرة، توجتها التجربة الإنسانية بظهور الكتابة وأنظمة الحكم المركزي والإدارة والتجارة والمعتقدات الدينية، عندما دخل المجتمع الإنساني ما يسمى بعهد الحضارات القديمة، في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. ومن المتفق عليه في الدراسات الآثارية، أن معرفة الإنسان بالزراعة وتربية الحيوان وصناعة الفخار، تمثل -ضمن أشياء أخرى- السمات الحضارية لفترة العصر الحجري الحديث. وفي الوقت نفسه يشير مجمل الأبحاث في المنطقة إلى أن ذلك التحول الحضاري، كان تدريجيًا، ولم تنجز كل تلك الخطوات في وقت واحد. كما أنه ليس بالضرورة أن توجد كلها في مجتمع واحد. ومن المتفق عليه، أيضًا، وجود مستويات من التنوّع الثقافي في أقاليم المنطقة المختلفة، إذ كان لكل إقليم تجربته المحلية، التي أثرت فيها عدة عناصر تتصل بالبيئة الطبيعية، والمستوى التقني، ودرجة الاتصال بين المجموعات السكانية، ومعدلات التراكم الحضاري. وأكدت الأبحاث الميدانية المتخصصة في كثير من بلدان الشرق الأدنى بوضوح، أن تعاقب التطورات والابتكارات الحضارية، خلال فترة العصر الحجري الحديث، لم تكن، بصفة عامة، تسير في خط أحادي، بل إن تعبيراتها المادية لم تكن متساوية في كل الأحوال (Redman 1978: 88-87). ولم تكن هذه الملاحظات بعيدة عن أذهان الذين درسوا آثار هذه الفترة في المملكة، حيث عبروا عن آرائهم وتقييمهم لما وجدوه، من خلال هذه الملاحظات.

اكتشفت آثار العصر الحجري الحديث في أماكن متفرقة من المملكة، ونُشرت عنها مقتطفات منذ أكثر من نصف قرن؛ ولكنها لم تلفت انتباه المجتمع العلمي بدرجة كافية. ولم يحدث ذلك الأمر إلا بعد أن اكتُشف فخار حضارة العبيد في المنطقة الشرقية، في أوائل الستينات من القرن الميلادي الماضي (مصري ١٩٨٤: ٧٩).

وقد أثار اكتشاف فخار العبيد، المعروف أصلاً في جنوب بلاد الرافدين (الألف الخامس قبل الميلاد)، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، على امتداد الساحل الغربي للخليج، أسئلة كثيرة، اختلف حولها العلماء عند محاولاتهم إعطاء تفسير لهذه الظاهرة، المتمثلة في التشابه في نماذج الفخار، في الوقت الذي لم تنل فيه بقية المخلفات المادية الأخرى الاهتمام نفسه. فحضارة العبيد في العراق تنقسم إلى خمس مراحل (صفر - ٤)، وذلك بناء على تاريخ المواقع، وتصنيف محتوياتها من مبانٍ ومعثورات فنية، وأدوات حجرية، وأوانٍ فخارية. ويذكر أن حضارة العبيد بدأت في الألف السادس ق. م، حيث عُرفت بثراء تراثها المادي، المتمثل



في المنجزات الاقتصادية، القائمة على الزراعة وتربية الحيوان والصيد البري والبحري وتبادل الموارد المختلفة.

واشتهرت العبيد بفخارها الصلب، جيد الحرق والمدهون، وذي الألوان الرائعة. ومن أنواع الفخار المهمة، الجرار والصحون والأباريق والكؤوس، المزينة بالخطوط والأشكال الهندسية والنباتية والحيوانية والآدمية. وفي المراحل المتأخرة، ابتكر الدولاب لاستعماله في صناعة الأواني الفخارية. كذلك، ازدهرت تقنيات النحت والتشكيل ومختلف ضروب الفنون. وفي مستوطنات العبيد عُرفت المباني السكنية ذات التخطيط المعماري المتميز. وقد توسعت المستوطنات لتتوزع في أحياء تكشف عن تنظيم اجتماعي معقد. ومن المنشآت المعمارية، المباني الدينية البسيطة، التي تطورت إلى معابد ضخمة تمثل رموزًا لمكانة الدين في المجتمع (Masry 1974: 96-142).

وقد اكتشف في شرقي المملكة العشرات من المواقع، التي تحوي بعض أنواع فخار العبيد، وهي مستوطنات متباينة الأحجام؛ فبعضها معسكرات إقامة محدودة، وبعضها الآخر أماكن إقامة طويلة، كما يدل عليها مستوى تعاقب الطبقات وكثافة المواد الأثرية. ومن المواقع المهمة، التي حظيت بدراسة مفصلة، موقع الدوسرية الأقدم تاريخًا، والذي تحوي طبقات الرديم فيه أدوات حجرية، مثل تلك المعروفة من الفترة نفسها في شرقي المملكة، مثل رؤوس السهام والحراب والأدوات المصقولة والشفرات الرفيعة. إضافة إلى فخار العبيد، كانت هناك نماذج أخرى لفخار محلي، من النوع الخشن أحمر اللون. وضمن المكتشفات كانت هناك، أيضًا، عظام حيوانات مستأنسة، مثل الضأن والماعز والأبقار وأخرى بريّة. والموقع الثاني عين قناص، وهو مستوطنة صغيرة بالقرب من واحة الليون، وتحوي طبقاته السفلى مواد تعود إلى عصر ما قبل الفخار، تليها أخرى فيها أنواع من فخار العبيد، وأدوات حجرية، مثل رؤوس السهام والمكاشط الورقية الشكل والشفرات. أما الموقع الثالث فهو أبو خميس، ويقع شمالي الدوسرية ويعد الأكثر وفرة في المواد الأثرية، مثل الأدوات الحجرية وفخار العبيد ونماذج أخرى من الفخار الخشن (الشكل ٥). وتوجد كميات من عظام الغزال والضأن والماعز والأسماك، وكذلك الأصداف البحرية. ويؤرخ الموقع إلى نحو الألف الرابع قبل الميلاد (Masry 1974: 99-108, 141,-205).

ويرى عبد الله مصري أن وجود فخار العبيد في الخليج العربي وجنوبي الرافدين، دليل واضح على وجود اتصالات حضارية بين شعوب المنطقة، كانت أسبابها بيئية أكثر منها تجارية. وخلص في أبحاثه إلى أن أصل فخار العبيد يعود إلى شرقي المملكة، حيث استغلت تقنية تصنيعه بواسطة أقوام من المنطقة، لينشروه في جنوبي الرافدين (مصري ١٩٨٤: ٨٥-٨٧).

أما الرأي الآخر حول أصل فخار العبيد وظهوره في المنطقة الشرقية، فقد طرحته جوان اوتس وآخرون عندما توصلوا، بناء على تحليل علمي للمكوّنات الطبيعية لنماذج كسر فخارية من عدد من المواقع من المنطقتين، إلى أن فخار العبيد في المنطقة الشرقية صُنع في جنوبي بلاد الرافدين، بل أنهم ذكروا أن عدداً من الكسر صنعت في أور، على وجه التحديد. أما الفخار الأحمر الخشن، فهو إنتاج محلي (Oates et al.: 1977).

وتشير نتائج دراسة لاحقة قام بها رووف وقالبيرث، إلى أن الأساليب الإحصائية، التي استعملتها أوتس وآخرون، وكذلك تحليلهم لبعض أنواع الفخار، فيها بعض الأخطاء، ما أدى إلى خطأ في النتائج السابقة، مثل أن تكون أور هي المصدر الفعلي لتصنيع الفخار. وقد رجّحت هذه الدراسة الحديثة، في النهاية، الرأي القائل بأن منطقة جنوبي الرافدين هي المصدر الأول لهذا الفخار. وقد أُشير أيضًا، إلى أن مصنوعات حضارة العبيد غير الفخارية، لا توجد في مواقع الخليج، التي تطغى على أدواتها الحجرية تلك الأنواع الخاصة بمهمات الصيد والجمع، في شواطئ الخليج. كذلك، فإن العناصر المادية الأخرى في مواقع مثل عين قناص، هي الموجودة، قبل ظهور فخار العبيد وبعده، ومن ثم فإن هذه المواقع ليست معسكرات لمجموعات جاءت من جنوبي الرافدين لاستغلال موسمي لموارد الخليج، وإنما هي أماكن إقامة لسكان محليين، جاءتهم نماذج فخار العبيد في شكل أوانٍ استُبدلت ببعض الموارد المحلية (Roaf and Gal-

الشكل ٥: نماذج لفخار العصر الحجري الحديث: ١-٦ زخارف فخار العبيد بالمنطقة الشرقية (Masry 1974). ٧-١٥ أواني وزخارف من فخار سهي، تهامة (Zarins et al. 1985).

(braith 1994: 770-83).

تتميز مواقع المنطقة الشرقية، التي تعود لهذه الفترة، عن غيرها في أرجاء المملكة، بكثرة المواد الأثرية المكتشفة فيها، وتنوعها وتعدد طبقات المعثورات، التي أمكن الحصول على تواريخ علمية لها. كذلك، تتوافر للباحثين إمكانية معرفة التقدم، الذي أحرزته هذه المجموعات السكانية، في عمليات إنتاج القوت واستغلال الموارد البرية والبحرية، على السواء، وتبادل المواد مع مجموعات أخرى، من سكان الخليج العربي وحتى جنوبي الرافدين. أما مواقع العصر الحجري الحديث في بقية مناطق المملكة، فمعظمها مواقع سطحية وتنقصها المواد العضوية والفخار، ما جعل كثير من الباحثين يتحدثون عن إشكالية في تحديد المعالم الحضارية، لهذه الفترة في المملكة؛ إذ الأدلة الماثلة لا تشير بوضوح إلى إنتاج القوت. ويعزي بعضهم ذلك إلى الأوضاع البيئية في المنطقة، واعتماد أنماط للمعيشة تختلف عن المجتمعات الزراعية (محمد علي ٢٠٠٠: ١٢١). ومهما يكن من أمر، فإن التوزيع الجغرافي للمواقع، التي نسبت لهذه الفترة وعناصر محتوياتها من الأدوات الحجرية، التي تختلف عن العصر السابق تمامًا وارتباطها ببعض المنشآت الحجرية البسيطة وبقايا الأكواخ، تدل، دون شك، على وجود مجموعات سكانية في مستوطنات ذات كثافة مناسبة، في بعض مناطق المملكة. لقد استغلت هذه الجماعات الموارد المتاحة، عندما كانت الظروف الطبيعية مواتية؛ فمناطق صحراوية، كالربع الخالي والنفود والدهناء كانت صالحة للعيش، بسبب تعاقب الأحوال المناخية الجيدة، التي أشرنا إليها أعلاه. وهي مناطق أمدتنا بمعطيات أثرية تميزها عن غيرها من المناطق الساحلية، أو الشمالية، في المملكة، في هذه الفترة الحضارية نفسها. وقد أنجز ايدنز دراسة تحليلية مجاميع أدوات حجرية من أربعة مواقع في الربع الخالي الغربي، هي: جلدة وشرورة والمتبطحان والمندفن، جمعت في أوقات سابقة وهي تمثل نموذجًا لأدوات العصر الحجري الحديث، في كل أنحاء الربع الخالي، والمنطقة الشرقية، وبعض أجزاء المنطقة الوسطى. إن التقنية الأساسية، التي تعكسها هذه المجموعة، هي تشذيب الأدوات في الوجهين، ومنها أنواع مختلفة من رؤوس السهام المدببة، وأخرى ذات أشكال ورقية، ويتم التشذيب بواسطة الضغط أو المطرقة الخفيفة، وهو أسلوب معروف في الجزيرة العربية، يميز تقنيات أدوات العصر الحجري الحديث.

وتشمل قائمة الأدوات عدة أنواع، منها: رؤوس السهام مشحوذة الوجهين، أو وجه واحد، من النوع الشوكي ذات الغمد، وأخرى مدببة ثلاثية المقطع. وهناك مجموعة الأدوات ذات الأشكال الورقية والرمحية، وكلها مشحوذة الوجهين. وتأتي بعدها مجموعة المكاشط، ومنها الأمامية والطرفية والدائرية والجانبية، وأخيرًا هناك أدوات أخرى خفيفة، كالمثاقب والمخارز (الشكل ٤). كذلك، تتضمن المجموعة كسر أحجار من الكوارتزايت، عبارة عن بقايا رحى لا يُعرف تحديدًا مجال استخداماتها. ويذكر ايدنز أن تعدد الأنواع في هذه المجاميع، يشير إلى أنها تعكس استخدامات متنوعة، ما يعني أن هذه المواقع كانت معسكرات أقام فيها الصيادون، ومارسوا فيها الأنشطة الحياتية المختلفة، خلال الفترة الممتدة ما بين الألف السادس والألف الرابع قبل الميلاد، اعتمادًا على التواريخ المتحصل عليها من ترسبات البحيرات القديمة في المنطقة. وقد وُجد القليل من عظام الحيوانات، التي تم صيدها، مثل: الغزلان والماعز، وأخرى غير معروفة. وتوضح الدراسة عدم وجود دليل على استئناس الحيوان، أو صناعة الفخار. ويخلص الباحث إلى أن هذه الأدوات تمثل تقليدًا في صناعة أدوات العصر الحجري الحديث، ينتشر في مواقع شمال شرقي الربع الخالي، وفي المنطقة الشرقية، وقطر، وحتى المرتفعات الجنوبية من أطراف الربع الخالي (Edens 1982: 109-123).

كان من نتائج المسح الأثري في منطقة الرياض، اكتشاف عدد من المواقع وجدت فيها معثورات حجرية، تنتمي إلى الأفق الحضاري نفسه، الذي وجد في الربع الخالي، والمنطقة الشرقية، وجبل طويق. وهي تعكس تقليد صناعة الرؤوس مشحوذة الوجهين، والشوكية ذات الغمد، والأدوات ذات الأشكال الورقية، إضافة للشفرات المشحوذة، والشظايا، والمكاشط، والنوى. وتتوزع المواقع على أربع بيئات، هي: مصاطب الأودية المنخفضة، وشواطئ البحيرات القديمة،



وفوق التلال الرملية، وأخيرًا مرتفعات الحجر الرملي.

وإضافة للأدوات الحجرية، وجد في بعض المواقع القليل من كسر بيض النعام، وأدوات الطحن (الرحى)، وكذلك خرزة واحدة من الصدف، ربما جلبت من الخليج. وفي الموقع (٢٠٧-١٠٢) وجدت قطعة صغيرة من الخبث المعدني، ربما تُعد دليلاً على تصنيع النحاس. ومن ضمن الموجودات، أيضًا، كسر فخار من النوع الأحمر الخشن. ويعتقد أن هذا الموقع يمثل مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث، الذي يمتد زمنه في المنطقة من ٥٠٠٠ حتى ٢٠٠٠ ق.م. ويفيدنا الباحثون أن وصفهم لهذه المواقع، أو نسبتها للعصر الحجري الحديث، كان انطلاقًا من نوع الأدوات الحجرية وتقنية صناعتها، وليس لأي خصائص أخرى تتعلق بأساليب الاقتصاد المعيشي، التي تتسم بها هذه الفترة في بلاد الشام، على سبيل المثال (Zarins et al. 1982: 30-2).

وفي المنطقة نفسها، وبالقرب من قرية الثمامة، اكتشف موقع أثري، وصف بأنه يمثل بقايا أهم مستوطنة تعود لفترة العصر الحجري الحديث في نجد. وقد كانت هذه القرية، حسب وصف المنقبين، مأهولة في الفترة ٥٠٠٠ - ١٠٠٠ ق.م.، التي شهدت خلالها أكثر من فترة حضارية، بدءً بالعصر الحجري الحديث حين اعتمد الناس على الزراعة وتربية الحيوان والصيد؛ ولكنهم لم يتمكنوا من صنع الفخار. ولم يذكر الباحثون دليلاً على الزراعة، أو استئناس الحيوان. واتخذوا من نوع الأدوات الحجرية مؤشرًا لنسبة الموقع لهذه الفترة. ومن الأدوات الحجرية: الحراب والرؤوس مشحوذة الوجهين، والمخارز، والنصال، إضافة لبقايا منشآت بدائية عبارة عن أكواخ دائرية بسيطة. يلي ذلك مرحلة استعملت فيها المباني الدينية، مثل الأبنية الشريطية أو الدائرية أو المستطيلة، وعدد من المدافن. ويستمر الاستيطان في المنطقة حتى الفترة التاريخية (أبو درك وآخرون ١٩٨٤: ٩٧-١٣). إن ارتباط المنشآت الحجرية بمواد العصر الحجري الحديث، ظاهرة متكررة في أكثر من مكان في المملكة ولم يجر حولها استقصاء دقيق حتى الآن. كما أن النتائج، التي توصل إليها فريق البحث المذكور، تحتاج، هي الأخرى، إلى مراجعة متعمقة، خاصة ما يتعلق بإنتاج القوت وتاريخ الموقع[1].

وفي المنطقة الشمالية، وجدت مجموعة من المواقع بين المجمعة وشمال شرقي سكاكا، (وادي عرعر) وفي جبل أم وعال، تشتمل الأدوات الحجرية فيها على النصال المشحوذة على الظهر أو الجانب، والمناقش، والنوى الهرمية الشكل. وهي تماثل، بصفة عامة، أدوات العصر الحجري الحديث، قبل الفخار في بلاد الشام المؤرخ في حدود الألف الثامن قبل الميلاد. وتعد هذه الأدوات من أقدم الأدوات النصلية المعروفة في المملكة (Adams et al. 1977: 34، شكل ٤). وقد وجد عدد من المواقع المماثلة فوق كثبان النفود، فيها نصال وشفرات صغيرة ومخارز وقليل من رؤوس السهام. ولاحظ الباحثون وجود أنواع أدوات أخرى مختلفة، مختلطة مع سابقة الذكر، إضافة لقطعتين من الفخار. ومن المرجح أن تكون هذه المجموعة عائدة لفترة العصر الحجري الحديث المعدني (النحاسي/ الكالكوليثك).

ومن الملاحظ أن مواقع العصر الحجري الحديث في المنطقة الشمالية، لا ترتبط بمبانٍ مثل الدوائر الحجرية والدوائر الحلقية؛ بينما نجدها ضمن مخلفات مواقع العصر الحجري الحديث النحاسي (الألف الرابع قبل الميلاد). إن محتويات بعض هذه المواقع شبيهة، بمواقع الفترة نفسها في بلاد الشام، التي يوجد فيها من الأدوات المكاشط المتنوعة والمثاقب والسواطير... الخ. وتنتشر هذه المواقع بكثرة في المنطقة الممتدة من شمال وادي السرحان حتى حائل، وجنوبًا حتى الكهيفية كما توجد في المنطقة جنوبي النفود. ويقدر تاريخ هذه المنشآت بالألف الرابع أو بداية الألف الثالث ق.م (Parr et al. 1978: 36-40). وتنتشر في هذه المنطقة، أيضًا، أنواع أخرى من المنشآت الحجرية، ذات الأشكال المربعة والمستطيلة، والنُصب، والركامات الحجرية، والجدران المذيّلة. ومن الممكن تقسيم هذه المنشآت إلى أنواع مختلفة، حسب تفاصيلها المعمارية ومستوى رصف الأحجار. وتمثل المنشآت الحجرية، بصفة عامة، ظاهرة أثرية يحفها الغموض، وتثير كثيرًا من الأسئلة. فهي من ناحية جغرافية واسعة الانتشار، وتوجد في بيئات مختلفة، كما أنها تتباين في أشكالها ومستوياتها المعمارية. وهناك صعوبة حقيقية في الحصول على تواريخ مؤكدة لها، لخلوها، عادة، من المواد



القابلة للتأريخ العلمي، أو معثورات أخرى يمكن تقدير أعمارها. وهي، عمومًا، تغطي فترة زمنية طويلة، تمتد من العصر الحجري الحديث النحاسي، حتى تاريخ قريب. وعلى الرغم من إجراء قليل من الدراسات المنهجية حولها (Al-Sharekh: 2002)، فهي لا تزال مصدر إشكاليات علمية، تتعلق بانتشارها ووظائفها وتاريخها. وهذه موضوعات سوف تظل تشغل بال العاملين في حقل الآثار السعودية لوقت طويل.

اكتشفت بعثة وكالة الآثار والمتاحف في المنطقة الشمالية الغربية، عددًا من مواقع العصر الحجري الحديث، التي تشبه محتوياتها من الأدوات الحجرية تلك التي سبق وصفها في الإقليم الشمالي ومثيلاتها، من الفترة نفسها بالأردن. ومن أهم هذه المواقع الموقع (٢٠٠-١٠٤) في شمال غربي تبوك بالقرب من العيينة، حيث وجدت المخلفات الأثرية فوق تل صغير يطل على قاع بحيرة. وتشمل الأدوات الحجرية النصال الرفيعة، والشفرات الصغيرة، والأدوات القزمية، والرؤوس والأدوات ذات الشكل الهلالي. وقد وجدت هذه الأدوات منتشرة داخل الدوائر الحجرية. وهي، عمومًا، مماثلة لأدوات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار، في الأردن وفلسطين.

ومن ضمن المعثورات السطحية، أيضًا، وجدت أحجار الرحى وعظام الطيور، كما كشف عن أساسات لمبانٍ مهدمة من الحجارة، عبارة عن غرف مختلفة المساحات، وأسوار وفناءات. ويبدو من حجم المنشآت أنها كانت مستوطنة شبه مستقرة، أقيمت في تاريخ مبكر نسبيًا، يقدر ببداية الألف الثامن أو السابع ق. م. وهذا الموقع شبيه بتلك المواقع الشمالية، مثل أم وعال وغيرها في وادي عرعر ووادي السرحان وكلوة. وفيما يتعلق بمواقع العصر النحاسي في هذه المنطقة، فهي غير معروفة بصورة قطعية. فقد وجد العديد من المنشآت الحجرية المعروفة، مثل الركامات والدوائر الحجرية والمصائد، ولكن القليل منها تحوي الأدوات المتوقع وجودها في هذه الحالة، ما يصعب معه تحديد ما إذا كانت هذه المنشآت تعود للعصر النحاسي، أو الفترة اللاحقة له، أو حتى تاريخ حديث (Ingraham et al. 1981: 66-68).

وفي المنطقة الجنوبية الغربية، كشف المسح الأثري، الذي أجرته وكالة الآثار والمتاحف، عن مواقع مهمة، وصفت بأنها من العصر الحجري الحديث المتأخر، وفيها من الأدوات الحجرية: رؤوس السهام ثنائية الوجه، والأدوات ورقية الشكل، التي تؤرخ مثيلاتها في الشام والعراق إلى الفترة ما بين ٥٠٠٠ و ٢,٥٠٠ ق. م. وقد عرفت مواقع العصر الحجري الحديث في أجزاء متفرقة من المنطقة الجنوبية الغربية؛ ففي بئر حما، غربي جبل طويق، وفي شمالي نجران، ووادي تثليث، ومرتفعات عسير من جبل السودة، والمنخفضات حتى غربي نجران، وجدت أكثر هذه المواقع. وتشمل الأدوات الحجرية: النصال، والشفرات، والرقائق المشحوذة، والمكاشط الجانبية والطرفية، وأدوات ثنائية الوجه، ورؤوس الحراب النصلية، والرؤوس المجنحة والشوكية.

ومن الملفت أن الأدوات صُنعت من صخور مختلفة الأنواع، تشمل: الكوارتزايت الأبيض، والشيرت، والحجر الرملي، والأوبسيديان، وحجر الصوان، وبعضها جلب من أماكن بعيدة عن هذه المواقع. ومن المعثورات، أيضًا، بقايا بيض النعام، وعظام الحيوانات المتكلسة، كذلك كسر أحجار الرحى وأواني الحجر الصابوني. وهناك، أيضًا، منشآت بسيطة البناء، عبارة عن دوائر حجرية صغيرة ورصفات أحجار مواقد النار. ولم يكشف المسح الأثري عن وجود مواقع مماثلة في المنطقة الممتدة من تهامة، حتى ساحل البحر الأحمر، عدا أدوات حجرية متناثرة، فوق مساحات واسعة. وبناءً على نوع تلك الأدوات، قدّر تاريخها إلى فترة الألف الخامس/ الثالث ق. م.

ويمثل أسلوب تشكيل أدوات العصر الحجري في عسير، تنوعًا آخر من تقنيات تلك الفترة في المملكة. وتفتقد هذه المواقع في المناطق الداخلية، الفخار مثل غيرها. وعلى النقيض من ذلك، فقد وجد الفخار ضمن المكونات الحضارية للمواقع المكتشفة على ساحل البحر الأحمر، التي وصفت بأنها ركامات من الصدف والمحار. ولم يتمكن الباحثون من تحديد العلاقة التاريخية أو الحضارية، بين مواقع أكوام الصدف ومواقع العصر الحجري الحديث في عسير.

ومن أكبر مواقع ساحل تهامة موقع سهي (٢١٧-١٠٧)، الذي يبعد نحو ٤٠ كلم من الحدود اليمنية. والموقع عبارة عن



كوم من المعثورات مساحته ١٥٠×١٥م، ويبعد عن الشاطئ الحالي بنحو ٦٠ مترًا. ومن ضمن المعثورات كمية كبيرة من كسر الفخار، ذات اللونين الأحمر والبرتقالي، والعجينة الفخارية، ممزوجة بحبيبات الرمل الخشن. ومن أنواع الفخار البارزة، وجدت سلطانيات كاملة أو مكسورة، وهي متنوعة الأشكال والأحجام والزخارف. كذلك الأواني واسعة الفوهة، والجرار الكبيرة والصغيرة، والفناجين، وأرجل الأواني.

وتشمل الزخارف الخطوط المتموجة، والتنقيط، والأشرطة الرأسية، والأفقية، والتخريم (الشكل ٥). أوضحت التنقيبات، التي أجريت، أن الموقع كان مستوطنة موسمية، قصدتها جماعات الصيادين للاستفادة من الموارد البحرية. وتوجد المعثورات حتى عمق ٣٠سم فقط تحت السطح، ولم تكتشف بقايا منشآت معمارية.

وقد أجريت اختبارات تأريخ كربون ١٤ على ثلاث عينات من المحار، الموجود بالموقع. وكان متوسط التأريخ بين ١٥٤٠-١٢٠٠ ق. م. ومن ثم يكون الفخار الموصوف هنا من أقدم أنواع الفخار، في جنوبي الجزيرة العربية. وبمقارنة أنواع هذا الفخار وزخارفه، تبيّن أنه منتشر في أكثر من موقع على ساحل البحر الأحمر، وفي جزيرة فرسان. وفي خارج الجزيرة العربية، يمكن مقارنة فخار سهي بفخار حضارة المجموعة (ج)، المعروفة في بلاد النوبة، وحضارة كرمة المؤرخة لنحو ٢٢٠٠-١٠٠٠ ق. م في شمالي السودان. ويتخذ بعض الدارسين من هذا دليلاً على وجود صلات قوية بين الجزيرة العربية، وشمال شرقي أفريقيا، في الألف الثاني ق. م. ومن المعثورات الأخرى المكتشفة في سهي، أحجار الرحى من الصخر البركاني، والحجر الرملي، والجرانيت؛ وكذلك، كسر أواني الحجر الصابوني. كما عُثر على عدد من قطع النحاس كاملةً مثل المثاقب والحلقات ورؤوس الإبر أو النصال، أو أشكال غير معروفة. ومن الملفت أن النحاس لم يعرف في أماكن أخرى في المنطقة، في مثل هذا التاريخ (Zarins et al. 1981: 20-22, Zarins and Zahrani 1985: 92-97).

ويتضح من مجمل هذه المعلومات، أن فترة العصر الحجري الحديث وما بعده، شهدت تطورات حضارية مهمة تتصل بالتوسع في الاستيطان، في أماكن توافر المياه والموارد الطبيعية، في شتى أرجاء المملكة، خاصة الشمال والشرق والجنوب الغربي. وفي ذلك العصر اتجه بعض السكان إلى استغلال الموارد البحرية في المنطقة الشرقية، وفي ساحل تهامة. وتعكس المعثورات المكتشفة تنوعًا ثقافيًا في أقاليم المملكة، مع وجود قواسم مشتركة بينها. ومما لا شك فيه، أن التباين البيئي وتنوع الموارد الطبيعية، كانا أحد أسباب هذه الاختلافات الحضارية. وفي هذا الوقت برزت، أيضًا، حركة الاتصالات الحضارية، داخل أقاليم الجزيرة العربية والشام، بدليل وجود كثير من أنواع المواد الخام في غير أماكن توافرها الطبيعية. ومن السمات البارزة في هذه الفترة المنشآت الحجرية، التي تعد ظاهرة ملفتة لها مغزاها الحضاري الكبير. وتتصل ظاهرة المنشآت الحجرية، في بعض جوانبها، بالانتشار الواسع لممارسة الرعي، الذي أصبح أسلوب حياة لقطاعات كبيرة من السكان، في تاريخ مبكر. إن المنشآت الحجرية ومستوطنات ما بعد العصر الحجري الحديث، لا تزال تنتظر الدراسات المتعمقة، لكونها تمثل نقطة مفصلية في ربط فجر التاريخ وبدايته، في الجزيرة العربية عمومًا.

الفنون الصخرية:

لا يكتمل الحديث عن العصور الحجرية في المملكة، إلا بالتطرق إلى الفنون الصخرية الأكثر بروزًا في آثار المملكة، من ناحية تنّوعها وثرائها. ولا يوجد إقليم من أقاليم المملكة، يخلو من الرسومات والنقوش الصخرية، التي تتوافر في بعض المناطق بكثرة ملفتة، تجعل منها سمة من سمات التاريخ الحضاري القديم في المنطقة. وهي على كثرتها، وتنوع موضوعاتها، لم تنل بعد الحظ الوافر من الدراسة والتحليل، على الرغم من المجهودات المقدرة، التي بُذلت مؤخرًا في هذا الشأن. فقد انتبه كثير من المستكشفين، منذ أوائل القرن الميلادي الماضي إلى أهمية الفنون الصخرية في الجزيرة العربية، وعدّوها مصدرًا من مصادر التاريخ والمعرفة ببعض جوانب حياة السكان والبيئات، التي عاشوا فيها منذ قديم الزمان. ولكن لم تكن متوافرة، لهؤلاء المستكشفين، الوسائل،

الشكل ٦: نماذج للرسوم الصخرية: ١، ٢، ٣ (Anati 1968, 1974) ٣، ٤، ٥، ٦ (Adams et al. 1977).



التي يؤرخون بها هذه الفنون، ولا المنهجية المطلوبة لتصنيفها وتحليل محتوياتها. أعقب ذلك وصول البعثات العلمية الأجنبية، في العقود الأولى من القرن الميلادي الماضي، التي يأتي في مقدمها بعثة فيلبي وريكمانز وليبنز، التي وثقت عددًا كبيرًا من مواقع الفنون الصخرية، في مناطق متفرقة من المملكة. وهي المادة التي اعتمد عليها أناتي في دراسته المفصلة، عن الفنون الصخرية في الجزيرة العربية. وقد وضع أناتي في هذه الدراسة الأسس المنهجية في هذا الحقل من الدراسات الآثارية في الجزيرة العربية، ولا تزال آراؤه متداولة بين الباحثين (Anati 1968: 3-6).

وفي منتصف الثمانينات من القرن الماضي، أطلقت الوكالة العامة للآثار والمتاحف مشروع البحث الميداني، لتوثيق وتحليل الفنون والنقوش الصخرية في المملكة، ضمن خطة البحث الأثري الشامل. وانتهت أعمال هذا المشروع باكتشاف مئات المواقع، التي تحتوي على ثروة هائلة من الفنون الصخرية، في معظم أرجاء المملكة. وقد أوضحت الدراسات الأولية أنها تعبر عن كم هائل من المعلومات، التي تعيننا في معرفة التاريخ الحضاري لسكان الجزيرة، خلال العصور الحجرية المتأخرة وما بعدها.

وضع أناتي الأسس، التي رأى أنها مناسبة لاعتمادها في تصنيف الرسوم، بعد أن رتبها في جدول زمني، نتيجة لتطبيق تلك الأسس. وتتمثل تلك الأسس في أشكال وقياسات الحيوانات المرسومة، والأفراد، والخطوط، وأسلوب تنفيذ الرسم. وتوصل إلى إنها، من ناحية تاريخية، يمكن تقسيمها إلى عدة مراحل، تبدأ بما سماه: عصر الصيد القديم، ويعني به أقدم النماذج، التي قدّر لها تأريخًا يتجاوز ٦٠٠٠ ق.م ويليه عصر الصيد والرعي القديم (٦٠٠٠-٤٠٠٠ ق.م)، ثم عصر الصيد والرعي الوسيط، وفيه ثلاث مراحل (٤٠٠٠-١٠٠٠ ق.م)، وأخيرًا ثلاثة عصور تاريخية، آخرها العصر الإسلامي. ويعنينا أن أناتي لم ينسب شيئًا من هذه الفنون للعصر الحجري القديم الأمر الذي أيدته نتائج المسح الأثري الأخير بصورة عامة. وقد حدد أناتي، من خلال دراسته التحليلية، نحو خمسة وثلاثين أسلوبًا، يمكن تمييزها في هذه الرسومات. وعلى الرغم من النقد والمراجعة لبعض استنتاجاته، إلا أن عمله يعد من أميز ما أنجز عن دراسة الفنون الصخرية في الجزيرة العربية (Anati 1968: 5, 153-184, 197, 1974: 30-75, Khan 1993: 30-39).

يغطي الفن الصخري في المملكة العربية السعودية فترة زمنية طويلة. وتتداخل في مسيرة تطوره أساليب التنفيذ، ونوع الأشكال المرسومة، وكذلك موضوعات الرسم، ما يجعل التصنيف الزمني أمرًا صعبًا. ويزيد الأمر صعوبة ارتباط الرسوم، أحيانًا، بمعثورات أثرية تعود لفترات حضارية مختلفة. ويعتمد الأثاريون، عمومًا، في تأريخهم لنماذج هذه الفنون، على المقارنة الشكلية للعناصر المرسومة، وعلى درجة لون غشاء العتق، ثم خطوط الحفر أو النقر، وتراكب الرسومات في السطح الواحد. وقد حاول مجيد خان وضع تسلسل زمني للرسوم الصخرية في منطقة وادي ضم، يبدأ بمرحلة العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر (Epi-Palaeolithic)، الذي تليه مرحلتان منسوبتان للعصر الحجري الحديث، ثم فترة العصر الحجري المعدني (٣٥٠٠-٢٠٠٠ ق.م)، ثم العصر البرونزي (٢٠٠٠-١٥٠٠٠ ق.م) والعصر الحديدي نحو (١٥٠٠ ق.م). وفي ظل غياب أدلة مباشرة تعين في تأريخ هذه الرسوم، تظل هذه التقديرات الزمنية مبدئية، على أحسن الفروض(Khan 1993: 103-111).

ومن المتفق عليه، أن النماذج المبكرة للفنون الصخرية توجد في شمالي وشمال غربي المملكة في مواقع، مثل: كلوة، سكاكا، الجوف، المليحية وجبة ووادي ضم والحناكية وحائل. فرسومات كلوة على سبيل المثال، تعد الأقدم (٩٠٠٠-٧٠٠٠ ق.م تقريبًا) في المملكة، نسبة لأسلوب تنفيذ الرسم بنقر الخطوط الخشنة، ثم تآكل السطح موضع الرسومات، إضافة إلى نوع الأدوات الحجرية الموجودة بالقرب منها. ورسوم الحيوانات والأشكال الآدمية بطريقة تخطيطية وتجريدية، ولم تكن متقنة. وقد نُفذت كما اعتمد الرسم على النقر المباشر غير المنتظم، وهو أسلوب وجد في أماكن محدودة في شمالي المملكة، ما يعني أنها تمثل مرحلة أولية، في تاريخ الرسوم الصخرية في تلك المنطقة (:Adams et al. 1977



39-40). وتتغير أساليب الرسم في غالب الفنون، التي تعود لفترة العصر الحجري الحديث في المنطقة، حيث تبرز دقة التفاصيل المتعلقة بحجم الشكل الطبيعي، والخصائص الجسمية للإنسان أو الحيوان (Parr et al. 1978: 47-48) (الشكل ٦).

ومن المكتشفات المهمة في فنون ما قبل التاريخ، ما وجد في المنطقة الجنوبية الغربية، خاصة في المنطقة الواقعة بين وادي الدواسر وبئر حما وبيشة. ويرى زارينز أن الفنون الصخرية، وما تعكسه من أساليب في التنفيذ ومن موضوعات، تماثل ما وجد في شمالي المملكة. وتؤكد في - الوقت نفسه -، صحة التقسيم الذي وضعه أناتي بصفة عامة. ويرى زارينز أيضًا أن أقدم نماذج هذه الفنون هو ما يسمى: بأسلوب الصيادين الأوائل، ويؤرخ لفترة ما قبيل العصر الحجري الحديث. وهذا الأسلوب المبكر هو نفسه، الذي وجد في المناطق الشمالية والوسطى والغربية. ويليه في التسلسل رسومات العصر الحجري الحديث، أو ما يسمى: بأسلوب الصيد والرعي، المعروف، أيضًا، في جبة وحائل والحناكية في المنطقة الشمالية؛ بينما يتركز في المنطقة الجنوبية الغربية في بئر حما. ومن الحيوانات التي رسمت، الأبقار الوحشية، ذات القرون الطويلة والقصيرة، والأغنام، والغزلان، والوعول، والطيور. كذلك، تشمل اللوحات رسومات للرجال الصيادين ذوي الرؤوس البيضوية، بالحجم الطبيعي، وتبين تفاصيل الملابس والأسلحة المتستخدمة في الصيد، مثل الرماح والعصي (Zarins et al. 1981: 34-35).

وبصفة إجمالية تمدنا نماذج الفنون الصخرية، العائدة لفترة ما قبل التاريخ بموضوعات إنسانية مختلفة، ومضامين متنوعة، تعكس الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والشعائرية والفنية والنشاط اليومي، لجماعات الصيادين والرعاة في تلك الفترة. ويرى في مشاهد الصيد أنواع الحيوانات في البيئة، المحلية مثل: الوعول والغزلان والبقر الوحشي والجاموس، وكذلك الأدوات المستخدمة في الصيد، مثل: الحراب والسهام. أما مشاهد القتال، فتوجد فيها الأشكال الآدمية وهي تحمل الأقواس والسكاكين والرماح والهراوات. كما تعكس رسومات الأفراد ملامح الوجه، من شوارب ولحى وملابس وأغطية الرأس والزينة، المتمثلة في العقود والدلايات والأسورة. وأما مشاهد الرقص، بما فيها من حركة وتعبير، فتعطي لمحة عن حياة هذه الجماعات اليومية. كما أن رسوم الأشكال غير المعروفة، وبعض الأشكال الآدمية والحيوانية في أوضاع مختلفة، وأبعاد مبالغ في أحجامها، فلا بد أنها انعكاس عن معانٍ ومفاهيم كانت تجيش في صدور أصحابها، أرادوا أن يعبروا من خلالها عن مشاعرهم ورؤاهم حول الطبيعة، وما تزخر به من معطيات.

خلاصة

إن استعراض المعلومات المتوافرة عن فترة ما قبل التاريخ، في المملكة العربية السعودية، أبرز عددًا من النقاط، التي تشير إلى أهمية الاكتشافات الأثرية الحديثة، حول ما وجد من مواقع ومستوطنات، بما فيها من مواد أثرية. وكان من نتائج الدراسة المبدئية لهذه المكتشفات، ظهور بعض الإشكاليات العلمية، التي تستحق المتابعة. وانطلاقًا من الوصف والمناقشات في الصفحات السابقة، يمكن إبداء الملاحظات التالية:

١- إن البحث الميداني المنظم للكشف عن مواقع ما قبل التاريخ، ودراسة محتوياتها بمنهجية حديثة، بدأ متأخرًا نسبيًا، وما أنجز منه كان محدودًا في بعض الحالات، ولم يُعْطِ إجابات وافية لما كان مطروحًا من أهداف، كما ذكر الذين قاموا بالمسح الأثري أكثر من مرة. ومن ضمن أسباب القصور أن المسح الأثري لم يغطِّ كل أرجاء المملكة، بل إن الدراسات التي نشرت كانت مبنية على الملاحظات الميدانية، التي لم تعقبها دراسات مفصلة للمعثورات المكتشفة، عدا حالات محدودة. ومما زاد الأمر تعقيدًا تلك الصعوبات الواضحة، التي واجهت الباحثين عندما وجدوا أن الغالبية العظمى من مواقع العصور الحجرية توجد موادها على السطح فقط، وهي أساسًا أدوات حجرية أو منشآت متصلة بها، وتخلو -في الغالب الأعم- من المواد العضوية، أو الظواهر الدالة على النشاط اليومي للصيادين، مثل مواقد النار أو عمل الأدوات أو غيرها من مواد. ومن ثم يصعب الحديث عن نمط الاقتصاد المعيشي، الذي كان سائدًا، ولا



أعـداد الجـمـاعـات، التي تركت هذه الأدوات... الخ. وظل الباحثون محصورين في افتراض ممارسة الصيد والجمع والالتقاط، كنمط للاقتصاد المعيشي، خلال العصر الحجري القديم، أو الزراعة وتدجين الحيوان، خلال العصر الحجري الحديث، دون الحصول على أدلة مباشرة عليه. ولم يكن في الإمكان، أيضًا، الحصول على تواريخ علمية لمعظم هذه المواقع ما جعل ترتيب حقب ما قبل التاريخ وصناعاتها الحجرية يعتمد أساسًا على نوع الأدوات، ومقارنتها الشكلية. ومهما يكن من أمر هذه الصعوبات العملية، فإن قاعدة المعلومات المتوافرة الآن أوضحت بجلاء، مساهمة المنطقة في تطور بواكير الحضارة الإنسانية، بما وجد فيها من مؤشرات أثرية مهمة، تضع المملكة في الخريطة الآثارية العالمية، التي ظلت بعيدة عنها لفترات طويلة. ومن جهة أخرى، يجدر القول إن المملكة العربية السعودية ليست هي البلد الوحيد، الذي تغلب فيها المواقع السطحية، فهي موجودة في أكثر من مكان في المنطقة. وهناك مشكلة أخرى تتعلق بأن عدداً كبيراً من مواقع ما قبل التاريخ في المملكة، تحتوي على مواد تعود لأكثر من فترة حضارية وتكون موجودة في حيزٍ مكاني واحد، ومن ثم يجد المرء نفسه أمام كرونولوجيا أفقية يتطلب فهمها تطبيق مناهج خاصة، لفرز هذه المعطيات وتحليلها.

٢- تمكّن الباحثون من عمل تسلسل لمراحل العصور الحجرية وتقسيماتها في المملكة متبعين في ذلك المنهجية المتعارف عليها في الشرق الأدنى وأوروبا. وقد سبب الالتزام، الصارم أحيانًا، بقوائم التصنيف النمطي للأدوات الحجرية المعروف في تلك المناطق، الذي تحدد المرحلة بناء عليه، في إشكاليات منهجية ومعرفية. فعلى سلبيل المثال، اتضح ان استعمال بعض المصطلحات، أو مسميات المراحل الحضارية المعروفة في تلك المناطق، قد يحد من استيعاب التنوّع أو الاختلاف، الذي تعكسه الصناعات الحجرية في المملكة. ويبدو أن مراجعة المصطلح، أو أسس التصنيف، ستبقى في مقدمة اهتمام الأبحاث المستقبلية عن العصور الحجرية في المملكة. وبالنظر إلى التسلسل الحضاري، الذي تعكسه الدراسات الحالية، تبرز السمة الأساسية لعصور ما قبل التاريخ، هي ظاهرة الاتساق أو التوافق مع النموذج الحضاري المعروف في العالم القديم أحياناً، أو الابتعاد عنه أحياناً أخرى، عندما تسود تجارب حضارية مختلفة، ذات صبغة محلية.

٣- في فترة العصر الحجري القديم بمرحلتيه، الأولدوانية والأشولية، تتوافق المعطيات الأثرية في المملكة مع ما هو معروف في أفريقيا وآسيا إذ وجد فيها أدلة تدل على انتشار أقدم السلالات البشرية. كما تشير إلى احتمال اكتشاف المزيد والأقدم زمنًا، وعندها يتضح الدور، الذي لعبته الجزيرة العربية، بصفة عامة، كمعبر لانتقال الجماعات البشرية المبكرة بين شرقي أفريقيا وآسيا. كذلك، فإن القليل من مواد المواقع الأشولية، التي حظيت بدراسة مفصلة، كشفت بجلاء السمات المشتركة مع المناطق المجاورة. كما عكست نوعًا من الوحدة الحضارية، داخل أرجاء المملكة نفسها.

٤- ليس معروفًا متى انتهت المرحلة الأشولية لتحل محلها مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط، التي عرفت فيها تقنية تجهيز النوى لشطر الشظايا، وعمل الأدوات المشذبة منها. وتقدر بداية هذه الفترة، عادة، بنحو ١٠٠,٠٠٠ عام، قبل الوقت الحاضر. وتستمر في معظم أنحاء المملكة لفترة زمنية طويلة، تشمل الزمن المحدد للعصر الحجري القديم الأعلى في المناطق المجاورة، كبلاد الشام على سبيل المثال. فالصناعة الموستيرية ،التي عرفت في المملكة، لا تلتقي مع مثيلاتها في شرقي المتوسط أو شمالي أفريقيا، إلا في صفات عامة يصعب معها الحكم بتقارب حضاري، بل هناك ما يشير إلى أن مسيرة تطور حضارات العصور الحجرية، اتخذت اتجاهًا مغايرًا في بعض جوانبه عن التسلسل الزمني المعروف، في بقية أنحاء الشرق الأدنى. ولم تظهر التقنية النصلية إلا في، أو بعد، نهاية العصر الحجري القديم، وذلك في حيز جغرافي محدود في المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية الغربية. وهكذا، فإن استخدام مصطلح: العصر الحجري القديم الأعلى، غير مطابق لواقع الحال، الذي تعكسه المادة الأثرية المعروفة لدينا حتى الآن.

٥- يزداد الأمر تعقيدًا عند النظر في فترة العصر الحجري الحديث ومعطياتها الأثرية، إذ تم تعريفها بناءً على تصنيف الأدوات الحجرية ومقارنتها بالمناطق المجاورة. وفيما



عدا حضارة العبيد في المنطقة الشرقية، وبعض المواقع في جنوب غربي المملكة، التي لا يتعدى تاريخها الألف الرابع ق. م، فإن مواقع العصر الحجري الحديث تخلو من الفخار. أضف إلى ذلك غياب الأدلة المباشرة لتدجين الحيوان، أو ممارسة الزراعة، في تلك المواقع، التي يظن أنها مبكرة في تاريخها. وهكذا، فإن الانتقال لمرحلة إنتاج القوت ونشوء المستوطنات في المنطقة، يصبح موضوعًا مهماً للأبحاث الآثارية المحلية، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار تطور المستوطنات الزراعية الصغيرة، بالقرب من السواحل، أو أحواض الأودية الكبيرة، التي تأسست بحلول الألف الرابع ق. م. ودخولها عصر المعادن (النحاس والبرونز). كما تؤكد على ذلك الأدلة الأثرية المباشرة. ومن جهة أخرى، شهدت المملكة تطورًا حضاريًا آخر يتمثل في ممارسة نمط اقتصاد الرعي، إذ إن جزءاً من السكان اتجه نحو ذلك، ربما منذ الألف الخامس ق. م. إن آثار الجماعات الرعوية هي الأكثر إشكالية وغموضاً، فبعضها يوجد في المنشآت الحجرية أو القبور المعزولة ومحدودة العدد، التي تملأ فضاء المملكة، وبعضها الآخر في الفنون والنقوش الصخرية، الأكثر ثراءً في آثار المملكة.

٦- إن مسيرة التطور الحضاري وتفاصيله في المملكة، خلال أواخر العصور الحجرية، في هذين الاتجاهين، يتطلب البحث الموجه نحو إيضاح معالم التنوع الحضاري الداخلي، ودور التحولات المناخية والطبيعية، وانعكاساتها على حياة الجماعات السكانية، في ذلك الوقت. ويبقى، أيضاً، السؤال الملّح عن الكيفية، التي أفضت بها تجارب العصور الحجرية المتأخرة، إلى ظهور قرى ومستوطنات المدنيات التاريخية، أو ما يُعرف بالممالك العربية القديمة. وبمعنى آخر، ما دور المنجز الحضاري المحلي، الذي تكّون خلال العصور الحجرية المتأخرة في ما يليها من أنظمة جديدة في الاستيطان، والاقتصاد المعيشي، وتنظيم المجتمع؟ ذلك نوع من الأسئلة، التي تبدو صعبة، ولكنها، من جهة أخرى، شيقة وذات أهمية معرفية ، تجعل البحث الآثاري فيها أكثر جاذبية وجدوى علمية.

د. يوسف مختار الأمين: قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ص. ب: ٢٤٥٦ - الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية.

هامش:

(١) تجري حاليًا دراسة ميدانية شاملة لموقع الثمامة الأثري، برئاسة د. عبد الله الشارخ، وعضوية: د. العباس محمد علي، ود. يوسف الأمين (قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود)، بدعم من مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

أبو درك، حامد ومراد، عبد الجواد والبراهيم، محمد، ١٩٨٤، "الاستكشافات والتنقيبات الأثرية في موقع الثمامة الذي يرجع تاريخه إلى العصر الحجري الحديث"، **أطلال** ٨: ٩٧-١٠٣ .

محمد علي، العباس سيد أحمد، ١٤٢١، "ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية"، **الدارة** ٣٠، السنة ٢٦، ٨٩-١٣١ .

محيسن، سلطان، ١٩٩٤، **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ - المزارعون الأوائل**، الأبجدية للنشر، دمشق.

مصري، عبد الله حسن، ١٩٨٤، "ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها"، **دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الجزيرة العربية قبل الإسلام**، إشراف د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري، جامعة الملك سعود.

وزارة التعليم العالي، ١٤١٩، **أطلس المملكة العربية السعودية**، الرياض.

المراجع

ثانياً: المراجع غير العربية:

Adams, R, McC, Peter J. Parr, Muhammad Ibrahim, Ali S. al Mughannum. 1977. "The Preliminary Report on the first Phase of the Comprehensive Archaeological Survey Program" **Atlal: The Journal of Saudi Arabian Archaeology**, 1: 21-40.

Alsharekh, Abdullah M. 1995. **The Archaeology of Central Saudi Arabia: Investigations of Lithic artefacts and Stone Structures in Northeast Riyadh**. Ph.D Dissertation, University of Cambridge, U.K.

Alsharekh, Abdullah M. 2002. "An Archaeological Study of Stone Structures in Northeast Riyadh, Saudi Arabia", **Adumatu** 5: 35-66.

Anati, E. 1968. **Rock Art in Central Arabia, Vol. 1. The 'oval headed' people of Arabia**. Bibliotheque du Museon, Louvain.

Anati, E. 1974. **Rock Art in Central Arabia. Vol. 4, Corpus of the Rock Engravings**. Bibliotheque du Museon, Louvain.

Bordes, F. 1961. **Typologie du Palaeolithique Ancien et Moyen**, Bordeaux.

Bordes, F. 1972. **A tale of Two Caves.** Harper and Row.

Cornwall, P. B. 1946. "Ancient Arabic: Explorations in Hasa, 1940- 41", **The Geographic Journal**, No. 107.

Edens, C. 1982. "Towards a Definition of the Western Ar-Rubcal-Khali 'Neolithic'", **Atlal**, 6: 109-123.

Elamin, Y. M. 1981. **Later Pleistocene Cultural Adaptations in Sudanese Nubia,** B.A.R 114. Oxford.

Elamin, Y. M. 1987. "The Later Palaeolithic in Sudan in the Light of New Data from the Atbara". In: Tamas Hagg (ed.) **Nubian Culture Past and Present,** Almqvist and Wiksell int., Stockholm. Pp. 31-46.

Field, H. 1951. "Reconnaissance in Saudi Arabia", Journal, **Royal Central Asian Society,** Vol. 38, 185-97.

Field, H. 1955. "New Stone Age Sites in the Arabian Peninsula", **Man,** No. 145. P. 136.

Field, H. 1960. "Stone Implements from the Rubcal-

Khali", **Man**. No. 30. P. 25.

Gamble, C. 1993. **Timewalkers: The Prehistory of Global Colonization**. Alan Sutton. U. K.

Gibert, J., Gibert, LL, Ighesias, A. and Maestro, E. 1998, 'Two Oldowan' assemblages in the Plio-Pleistocene deposits of the Orce region, Southeast Spain', **Antiquity** Vol. 72, No. 275, pp. 17-25.

Gilmore, M., Mohammed Al-Ibrahim and Abduljawad S. Murad 1982, "Preliminary Report on the Northwesten and Northern Region Survey 1981 (1401)", **Atlal**, 6: 9-23.

Gowlett, John, 1984. **Ascent to Civilization. The Archaeology of Early Man**. Roxby Archaeology Limited, London.

Harris, J. 1983. "Cultural beginnings : Plioctocene Occurrences from the Afar, Ethiopia", **The African Archaeological Review**. 1. 3-31.

Ingraham, Michael, L., Theodore D. Johnson, Baseem Rihani and Ibrahim Shatla. 1981. "Preliminary Report on A Reconnaissance Survey of the Northwestern Province (with a note on a brief survey of the Northern Province)", **Atlal**, 5: 59-84.

Killick, A. Whalen, N, James, N. Morsi, G. and Kamal. M. 1981. Saudi Arabian Archaeological Reconnaissance 1980. Preliminary Report on the Western Province Survey. **Atlal**, 5: 34-59.

Khan, Majeed. 1993. **Prehistoric Rock Art of Northern Saudi Arabia**. Ministry of Education. Department of Antiquities and Museums. Riyadh.

Masry, Abdullah Hassan, 1974. **Prehistory in Northeastern Arabia: The Problem of Interregional Interaction.** Field Research Projects, Coconut Grove, Miami, Florida.

McClure, Harold A. 1971. **The Arabian Peninsula and Prehistoric Populations**. Field Research Project, Coconut Grove, Miami, Florida. Edited by Field, H.

McClure, Harold A. 1994: "A new Arabian Stone tool assemblage and notes on the Aterian industry of North Africa", **Arabian Archaeology and Epigraphy**, 5: 1-16.

Oates, J, Davidson, J. E, Kamilli. O. Mckerrell, H. 1977. "Seafaring merchants of Ur?", **Antiquity** 51: 221-34.

Overstreet, W. C. 1973. **Contributions to the Prehistory of Saudi Arabia: Vol. I Field Research Projects.** Coconut Grove, Miami, Florida.

Parr, Peter J., Juris Zarins, Muhammed Ibrahim, John Waechter, Andrew Garrard, Christopher Clarke, Martin Bidmead and Hamad al-Badr. 1978, "Preliminary report on the second phase of the northern province survey 1397/1977", **Atlal**, 2: 29-50.

Philby, H. St. J. "Rubcal-Khali", **Geographical Journal,** No. 82. P. 1.

Redman, C. L. 1978. **The Rise of Civilization. From Early Farmers to Urban Society in the Ancient Near East**. Freeman and Co.

Rice, M. 1994. **The Archaeology of the Arabian Gulf.** Routledge, London.

Roaf, M., Galbraith, J. 1994. "Pottery and P-values: 'Seafaring merchants of Ur?' re-examined", **Antiquity** 68: 770-83.

Rose, Marks, 2002. "Skulls make headlines", **Archaeology.** September/October: 10-11.

Smith, P. L. and Maranjian, G. 1962. "Two 'Neolithic' Collections from Saudi Arabia", **Man**. No. 17. P. 21.

Thomas, B. 1932, **Arabia Felix**. New York.

Whalen, N., Killick, A., James, N., Marsi, G. and Kamal, M. 1981. "Preliminary Report on the Western Province Survey, **Atlal**, 5: 43-85.

Whalen, N., Sindi, H., Wahidah, G. and Siraj, J. 1983. "Excavation of Acheulian Site Near Saffaqah in al-Dawadmi (1402/1982), **Atla**, 7: 9-21.

Whalen, N., Siraj- Ali, J, and Davis Wibon. 1984. "Excavation of Acheulien Sites Near Saffaqah, Saudi Arabia, 1403/1983", **Atlal**, Th 8: 9-24.

Whalen, N., Siraj-Ali, J., Sindi, H. and Pease, D. 1986. "A Lower Pleistocene Site Near Shuwayhitiyah in Northern Saudi Arabia", **Atlal**, 10: 94-101.

Whalen, N., Siraj-Ali, J. Sindi, H., Pease, D. and Badein, M. 1988. " A Complex of Sites in the Jeddah-Wadi Fatimah Area, **Atlal**, 11: 77-85.

Whalen, N., Davis, W., and Pease, D. 1989. "Early Pleistocene Migratians into Saudi Arabia", **Atlal**, 12: 59-75.

Zarins, J., Ibrahim, M., Potts, D. and Edens, C. 1979. "Prelininary Report on the Survey of the Central Province 1978", **Atlal**, 3: 9-42.

Zarins, J., Murad, A. and A;--Yaisk, kh. 1981. "The Second Preliminary Report on the Southwestern Province", **Atlal**, 5: 9-42.

Zarins, J., Rahbini, A. Aziz, and Kamal, M. 1982. "Preliminary Report on the Archaeological Survey of the Riyadh Area", **Atlal**, 6: 25-38.

Zarins, J. and Zahrani, A. 1985. "Recent Archaeological Investigations in the Southern Tihama Plain. The Sites of Athar and Sihi, **Atlal**, 9: 65-107.

Zeuner, F. E. 1954. "Neolithic Sites from The Rubcal-Khali, Southern Arabia", **Man**, No. 209. P. 133.



نشأة الكتابة بين واديي النيل والرافدين في ضوء الأختام الأسطوانية المبكرة

اسماعيل عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

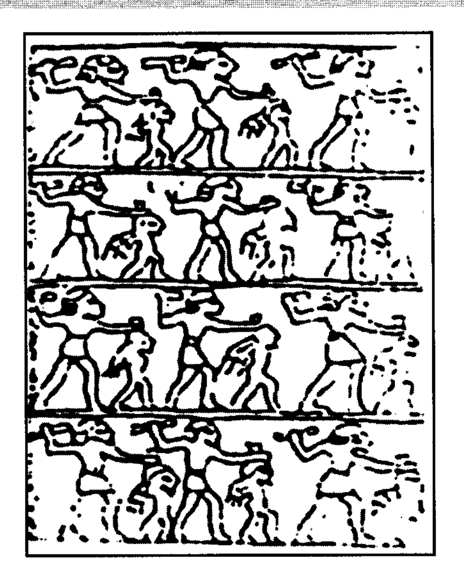
ملخص: استعملت الأختام الأسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، منذ الربع الأول للألف الثالث ق. م، خلال الحقبة الزمنية، الممتدة ما بين نهاية عصر جمدة نصر وبداية عصر فجر السلالات السومرية. وترجع معرفة إنسان ما بين النهرين للاختام الأسطوانية، الى ما قبل معرفته الكتابة. وقد استخدمت هذه الأختام في الأنشطة التجارية، كختم بضائعهم لتأمينها ضد السرقات، أو لتمييزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، وإلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة. وربما كانت تلك الأختام تشير إلى رموز دلالية ارتبطت بالختم . ومن أهم الرسوم، التي امتازت بها الأختام، مناظر ذات طابع ديني، ومناظر الأعداء والأسرى، ورسوم للحيوانات والطيور، وأطلقوا على هذه الأختام اسم: "البروكيد"، لتشابه زخرفتها مع النسيج أو حياكة الحصر والسلال. وكان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه وسهولة فهم المقصود منه. ويرجع تاريخ الأختام الأسطوانية في مصر الى الالف الثالث ق. م، وهو يقدم أمثلة تقليدية ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة، في منطقة الشرق الأدني القديم.

Abstract. *Cylinder seals were discovered in central and southern Iraq in the first quarter of the third millennium B.C., during the time falling between the end of Jamdat Nasr period and the beginning of that of the Sumerian dynasties. The Mesopotamian man knew cylinder seals before having known writing. Merchants and business people used those seals in their commercial activities to insure their goods against theft and to distinguish their properties from those of others. This fact indicates increasing commercial traffic and growing sense of personal ownership and identity. Again, the characteristics of those seals might have reflected the traits of those who used them. The drawings and engravings on those seals were mainly of religious nature, and included scenes of offerings to the gods, enemies, prisoners of war, different animals, and birds. Those seals were so intricately knitted that they were named "Brocade" because they were similar to knitted straw mats and baskets. Those seals, however, represented an early form of writing in Mesopotamia; and ancient Iraqi writing was a form of pictography similar to the system of writing used by ancient Egyptians. In Egypt, the history of cylinder seals goes back to the third millenium B.C. and thus presents a classic example of mutual cultural influences in the region of the Near East.*

من المعروف أنه منذ الربع الأول للألف الثالث قبل الميلاد، اكتُشفت الأختام الأُسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، التي ترجع إلى الفترة الزمنية ما بين نهاية عصر جمدة نصر، وبداية عصر فجر السلالات السومرية. وكان قد سبق ذلك انتقال سكان العراق القدامى، من حياة البداوة – التي تعد سمة من سمات العصور الحجرية – إلى حياة التحضر، المتمثلة في معرفة الاستيطان في تجمعات، ومعرفة الزراعة وسائر الفنون الحضارية الأخرى؛ وكذا اختلاط أو اندماج الشعوب العراقية القديمة، من ساميين وسومريين وغيرهم، بعضهم ببعض، الأمر الذي نتج عنه ظهور الارهاصات الأولى لحضارة راقية. وكان ذلك أثناء الألف السادس والخامس والرابع قبل الميلاد (فرج ١٩٨٦: ٣٣٠).

العدد الثامن جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٣م
(ص ص ٤١ - ٦٦) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩





الشكل ١: يوضح منظرا للأسرى والأعداء، من مناظر أختام جمدة نصر (نقلاً عن: عطالله ١٩٩٨: ص ٢١٢).

وقد استخدم العراقيون القدماء الأختام بكثرة، وربما كانت تشير إلى علامات شخصية مميزة لهم. فقد اعتاد الإنسان القديم بالعراق على استخدام الأختام للتوقيع على الوثائق، إذ لم يترك نظام الكتابة هنالك مجالاً كبيراً، للخطوط والكتابات الشخصية المتميزة. وكان الشكل الأسطواني هو الأكثر شيوعا لتلك الأختام. وكان الختم، آنذاك، عبارة عن أُسطوانة مثقوبة على طول محورها، ويراعي أن يسمح الثقب بإدخال خيط أو حبل بداخله، حتى يمكن تعليق الختم على رقبة صاحبه (موسكاتي ١٩٥٧: ١١٢). كما ظل يحدث إلى فترة قريبة جدا في عصرنا، ليس فقط في العراق، بل في مصر وبلدان عربية أخرى.

أهم المناظر

إن المناظر التي كانت على هذه الأختام بشكل عام، كانت ذات طابع ديني، إلى جانب تسجيل اسم صاحب الاسطوانة "الختم" وإهداء للإله. وكانت هناك مناظر للملحمة "جلجاميش"، خاصة الصراع مع الوحوش، إلى جانب مناظر المآدب والشجرة المقدسة (موسكاتي ١٩٥٧: ١١٢؛ Gibson 1977: 65-68).

ومن أهم مناظر أختام جمدة نصر مناظر الصيد، التي من بينها منظر لبطل عراقي يظهر فيه وهو يتحكم في الأسود أو الفهود. ومن الجدير بالذكر، أن الأطوار الأولى لتلك الأختام الأُسطوانية من الوركاء/ أوروك وجمدة نصر، كانت تُقلد بمناظرها في مصر، كما كانت العناصر المصورة عليها، هي الأخرى من مجموعة العناصر الفنية المصرية القديمة (عطالله ١٩٩٨: ١٨١-١٨٢).

ومن مناظر أختام جمدة نصر أيضاً، من مناظر الأعداء والأسرى، على بعض الاسطوانات العاجية ضمن ودائع أساسات معبد "هيراكينوبوليس"، التي يُشاهد عليها منظراً لاقتياد الأسرى المقيدة أذرعهم إلى الخلف، وكذلك ضربهم بالمقامع (الشكل ١) (عطالله ١٩٩٨: ١٨٣-١٨٤؛ Helck 1971: 8).

وقد وجد العديد من الأختام الأُسطوانية، التي تحمل نقوشا هندسية محفورة، يتخللها في معظم الأحيان رسوم للماشية: كالغزلان والماعز، أو مناظر للطيور والأسماك؛ لذا، عُدت بداية لعصر جديد، أُطلق عليها اسم "البروكيد"، لتشابه زخرفتها بالنسيج، أو بشكل حياكة الحصر والسلال. وقد وجدت هذه الأختام الأُسطوانية في العديد من المواقع، مثل: "تولوب" حاليا-"خفاجي"- في الطبقات من الرابعة إلى السابعة من طبقات معبد "سن"، وفي معبد الإلهه الأم "تنتو"، وفي "تل أسمر- "أشنونا" في معبد آبو إله النبات"، وكذلك في أعماق معبد "شارة"، و في حفائر منطقة "أور"، خاصة في الطبقات من الرابعة للثامنة، و في منطقة الوركاء، فضلا عن مناطق "كيش" و"نفر" و"فارة". وتتميز تلك الأختام، التي تُعرف باسم "البروكيد"، بأنها نحيفة وطويلة الشكل، صممت على نحو يمكّن من دحرجتها على الطين باستمرار، لتشكيل أو لنقش المناظر المطولة التي لا نهاية لها (فرج ١٩٨٦: ٣٤-٣٥؛ Grawford 1991: 9, 23-27).

ولقد أكتشف نوعان من هذه الأختام الأُسطوانية، التي ترجع إلى عصر فجر السلالات. النوع الأول، الذي سبق الحديث عنه، وهو ما يطلق عليه "البروكيد"، وينسب إلى نهاية عصر جمدة نصر، ذات الزخارف الهندسية. اما النوع الثاني، فينسب إلى عصر فجر السلالات الأول. وكان ذلك النوع من الأختام، يطبع أو يختم به على أغطية الجرار الفخارية. ويختلف النوع الثاني من تلك الأختام عن النوع الأول، في



الشكل ٢: نموذج للأختام الأُسطوانية، التي تعرف باسم أختام "البروكيد" محفوظ بالمتحف العراقي، عُثر عليه في منطقة تل أسمر، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "١").

طريقة الحفر؛ فتبدو فيه خشنة. أما المناظر، فكانت غالباً ما تمثل الملاحم الأسطورية السومرية، مثل: شجار الحيوانات، وهجوم الأسود على الماشية، التي يحميها راعيها البطل، وكذلك مناظر الولائم والحفلات الموسيقية، ونقشت كلها بطريقة الكشط، مكونة خطوطاً عريضة وعميقة غير دقيقة المعالم (فرج ١٩٨٦: ٣٥-٣٦).

ويوجد بالمتحف العراقي العديد من نماذج الأختام الأُسطوانية، التي تنتمي إلى النوع الأول "البروكيد" (فرج



الشكل ٣: نموذج للأختام الأسطوانية "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة تل أجريب. (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٣").

١٩٨٦: ٣٦؛ Postgate 1992: 77). وترجع، كما ذكرنا، إلى عصر جمدة نصر.

وفيما يلي عرض لأهم تلك الأختام مع الوصف الأثري لها:

الختم رقم (١) (الشكل ٢): "مقاساته (٥,٥ × ٠,٩) سم": وجد هذا الختم في منطقة تل أسمر"أشنونا". وعليه منظر ثور، وفوقه ثور آخر مقلوب، وإلى جانبيهما ما يشبه ورقة الشجر، أو ربما طير صغير.

الختم رقم (٣) (الشكل ٣): مقاساته "٥,٧ × ١,٨ سم": وجد على سطح تل في موقع "تل أجرب"، وينسب إلى أختام البروكيد، التي ترجع إلى نهاية عصر جمدة نصر. رسم هذا الختم بطريقة الكشط، وتتخلله خطوط عميقة عريضة تصور "ايلاً" كبيراً، له قرنان يشبهان الأجنحة، أو شكل المشط، ويتبعه حيوان آخر صغير الحجم. أما في الصف العلوي، فمنظر لماعز مقلوب، يتبعه ماعز آخر صغير الحجم.

الختم رقم (٤) (الشكل ٤): مقاساته ٣,٢ × ١سم: يُعد من أجمل أختام صنف البروكيد، التي ترجع لنهاية جمدة نصر. عثر عليه في موقع"خفاجي"، وهي منطقة سكنية، تنسب إلى

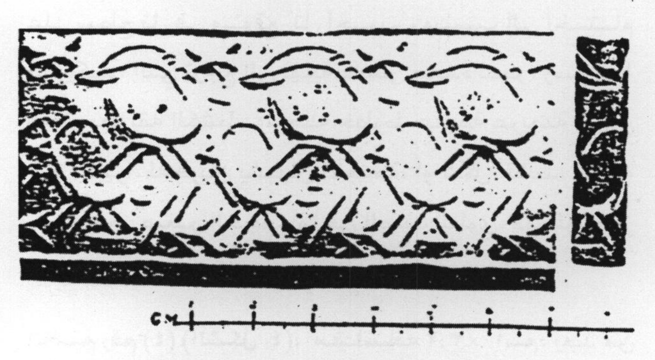


الشكل ٤: نموذج للأختام الأُسطواني "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة خفاجي، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٤").

عصر فجر السلالات الأول، مع أن طراز حفره يعود به إلى نهاية عصر جمدة نصر. يحمل الختم نقشاً لغزال، ويشف النقش عن رشاقة متناهية في الذوق. ويلاحظ أن أرجل الغزال تنتهي ببكرات صغيرة، كأنها حفرت بالمثقاب، مثلما نقشت غالبية نقوش جمدة نصر، ويُرى أمام الغزال أحد الطيور باسطاً جناحيه أحدهما على الآخر، ويشاهد وهو يطير بعكس اتجاه الغزال، ويُشاهد في أعلى مناظر لأباريق مقلوبة لها مصابها.

الختم رقم (٦) (الشكل ٥): مقاساته ٣,٩ × ١ سم: منشأه المعبد المربع من تل أسمر، نقش عليه صفّان من الماشية، في الصف العلوي ماعز له قرنان منحنيان على ظهره، في الصف الأسفل حيوان صغير الحجم، ويحيط بالمناظر من أعلى وأسفل ما يشبه الأسماك، أو ربما طيور.

الختم رقم (٧) (الشكل ٦): مقاساته ٤,٨ × ١ سم: عُثر عليه

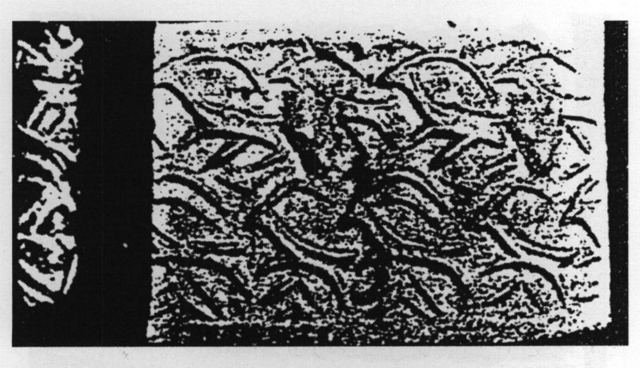


الشكل ٥: نموذج للأختام الأُسطوانية "البروكيد"، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في المعبد المربع من تل أسمر، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٦").

في تلول خطاب، في الجهة المقابلة لموقع الشحالي وخفاجي من نهر ديالي؛ لذا، يعد ذلك الختم ضمن أختام منطقة ديالي، التي أمدتنا بالعديد من أختام "البروكيد"، ذات الزخارف الهندسية، ولو وصفنا نقوش ذلك الختم نقول: عليه صفان من الماشية تبدو كأنها تقفز في تتابع، ويلاحظ في الصف الأسفل نقش لماعزين جبليين متتابعين، ولو دُقق النظر يُشاهد للماعز الكبير قرنان، أما نظيره الصغير فله قرن واحد فقط (فرج ١٩٨٦: ٣٧، ١٤٦).

التقنية:

في البداية، لا بد أن نشير إلى أن مادة الأختام الأُسطوانية العديدة، التي وجدت على مر العصور العراقية القديمة، لا تعد دليلاً مؤكداً يُرشد إلى العصر، الذي تنتمي اليه، وإن كانت بعض تلك المواد هي الأكثر شيوعاً وشعبية، خلال عصور معينة؛ فمن أختام (أوروك) الأُسطوانية، نعرف أنها صُنعت من بعض المواد الشائعة آنذاك، كالرخام الأبيض، أو القرنفلي اللون. وقد استمرت الأختام تصنع من تلك المواد، حتى عصر جمدة نصر، الذي فضل استخدام حجر الكلس الملون، خاصة الأبيض اللون، الذي يميل إلى اللون الرمادي وكان شائعا آنذاك هنالك. وفي نهاية ذلك العصر، استخدمت الأختام الأُسطوانية، القصيرة الشكل والسميكة الحجم، التي كانت تصنع من حجر الكلس، الأخضر أو الرمادي. كما كانت هناك، أيضاً، الأختام الأُسطوانية الطويلة الشكل، ذات الأشكال الهندسية، أو التي تحوي أشكالا هندسية. وكانت مادة صناعتها من الفيانس، أو



الشكل ٦: نموذج للأختام الأُسطوانية، محفوظ بالمتحف العراقي، عثر عليه في منطقة تلول خطاب في الجبهة المقابلة لموقع الشمالي وخفاجي من نهر ديالي، (نقلاً عن: فرج ١٩٨٥: صورة رقم "٧").

الخزف، أو الإستياتايت المزجّج (Frankfort 1939: 4).

أما مع بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، فان تقنية ومادة الصُنع لتلك الأختام الأُسطوانية ذات الاطار أو الشكل المزخرف، كانت من حجر الكلس الأخضر، أو الأزرق، أو الأسود، أو من حجر السربنتين الأسود. وفي النصف الأخير لعصر الأسرات الأولى، استُخدم الحجر الأبيض نصف الشفاف، أو الأخضر وحجر السربنتين الأخضر، والحجر الأرجواني، ولب المحار أو الصدف، الذي ظل مستخدما حتى بداية الأسرة الثالثة، وكان يجلب من الخليج العربي (الشكل ٧). و ظلت الأحجار البيضاء نصف الشفافة، تستخدم لعمل الأختام الأُسطوانية الصغيرة، التي كانت غالبا ما ينقش عليها مناظر دينية، أو مناظر رعي، بينما كان هناك إفريز مزين بالحيوانات المتصارعة. وكان هذا الطراز من المناظر شائعاً آنذاك على الأختام الأُسطوانية (Heuzey 1969: 383).

واستمر ذلك الطراز من المناظر، على الأختام الأُسطوانية الصغيرة من اللازورد، وفي بعض الأحيان على الأختام الأُسطوانية المصنوعة من الذهب والفضة، سواء كانت صلدة أو مصنوعة من رقائق معدنية طليت بالقار. أما في العصور الآكادية، فتنوعت مادة صنع تلك الأختام الأُسطوانية؛ فمنها ما صنع من حجر اليشب، أو من صخر الكريستال. وقد استخدمت هذه المواد عند ندرة وجود لب الأصداف الرّخوة، وكان ذلك قبيل نهاية ذلك العصر. أما أختام الأسرة الثالثة لأور، فقد صنعت من المواد نفسها، التي صنعت منها أختام العصر الأكدي. ومع ذلك، فإن اللازورد استخدم أحياناً كما كان من قبل، بشكل استثنائي لصناعة الأختام النفيسة والقيّمة. وفي سورية، استخدم لصناعة تلك الأختام الهيماتيت، وبعد ذلك استخدم الفخار المطلي أو الفيانس، خاصة في عصر الميتانيين. وقد استمر استخدام هذه المواد بشكل كبير فيما بعد (Frankfort 1939: 4).

أما الأدوات والآلات المستخدمة في تقنية صناعة الأختام الأُسطوانية، فقد ارتبطت بظهور المعادن في بلاد النهرين، التي كانت تستخدم في نحت تلك الأختام وقطعها. وكانت تلك الأختام تثقب بواسطة مثاقب من النحاس. وقد عُثر على



الشكلان ٧- ٨: من: Frankfort M. A. H; op.cit ; pl.II.
الشكل ٧ : مناظر تمثل بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، عليه مناظر دينية ومناظر رعي، ويزينه إفريز من الحيوانات المتصارعة.
الشكل ٨: يوضح الآلات المستخدمة في تقنية الأختام، ويؤرخ بعصر سرجون الأول، عثر عليه في منطقة تل أسمر.

العديد من تلك الأدوات، التي كانت تستخدم لثقب الأختام في منطقة (تل أسمر)، وفي بعض المنازل الخاصة، التي تؤرخ بعصر سرجون الأول في (آكاد). وكانت تلك الآلات عبارة عن كومة في قدر صغير، يحوي بعض الأختام الأُسطوانية غير مكتملة الصناعة، مع بعض حبيبات من الخرز، إضافة إلى قطع نحاسية وفضية (الشكل ٨). ويلاحظ أن عملية ثقب تلك الأختام الأُسطوانية، لم تكن فى اتجاه واحد؛ بل كانت تصنع فى كل نهايات الختم الاسطواني، لتشكل بذلك زوايا صغيرة الحجم داخل الختم. ويوجد أمثلة قليلة كانت معروفة فى العصر البابلي، فقد وجدت مجموعة من الأختام الأُسطوانية بها ثقوب دائرية وإسطوانية. وكان شكل الختم، آنذاك، أكثر عرضاً وعمقاً فى المنتصف، منه في النهاية الخاصة به. أما فى العصور الآشورية، فاستخدمت الأختام السابقة بتقنية الصناعة نفسها. لم تكن تلك التقنيات -بداهة- تشبه ما تقوم به عجلة الفخراني، التي كانت تدار بالقدم فى حركة دائرية سريعة. وهناك بعض الأختام الأُسطوانية من ميزوبوتانيا، ظهر

عليها تأثيرات أرمينية، تمثلت في شكل نقوش مزيّنة بمناظر، يغلب عليها الطابع الأرميني، وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخها تماماً (Frankfort 1939: 4-5).

أما أختام أوروك وجمدة نصر، فكانت عملية الثقب فيها، الخاصة بالأختام الأُسطوانية، عبارة عن ثقوب محورية. وهذه الطريقة لم تكن سائدة آنذاك. كما استخدموا تلك الثقوب لتُعلّق الأختام منها.

أما في عهد سرجون الأول، فظهرت بعض الأختام المقعّرة أو المحدبة الشكل، خلافاً للأختام الأخرى، التي تنتسب إلى الفترة نفسها، التي تتميز بأحجامها المختلفة؛ ثم شاعت، بعد ذلك الأختام الأُسطوانية الصغيرة الحجم والارتفاع، واستمر استعمالها في الاستعمال حتى العصر الكاشي.

الشكل ٩: يمثل أقدم ختم أسطواني عراقي من الحجر الرمادي، "ج، د، هـ "تمثل ختماً عراقيا آخرا من الحجر، ولكنه أكثر تطوراً ومزيناً بأشكال هندسية؛ "و" يمثل نموذجاً آخر من الأختام الأُسطوانية العراقية؛ "ز" نموذج يعد الأكبر من أختام العراق الحجرية يميل لونه إلى الأخضر الضارب بالزرقة؛ "ح" يمثل نموذجاً من الأختام العراقية الحجرية، تشبه أشكال الأزرار، ومزين بخطوط مموجة (نقلاً عن: سليم١٩٩٥: الشكل "٩١").



أختام اسطوانية عراقية من الحجر:

أقدم ما يمثل تلك الأختام الحجرية نوعان: الأول ختم مصنوع من الحجر الرمادي، وهو على شكل قرص مثقوب من المنتصف، نحتت عليه خطوط مزدوجة (الشكل ٩)، أما النوع الثاني: فيبدو أكثر تطوراً ومزيناً بأشكال هندسية (الشكل ٩ "ج، د، هـ"). وفي طبقات أثرية أخرى، وجد العديد من تلك الأختام (الشكل ٩ " و")، لعل من أبرزها الختم الذي يعد الأكبر فيها، وهو مصنوع من حجر يميل لونه إلى الأخضر الضارب للزرقة، ومزين بخطوط وفتحات دائرية صغيرة أنظر (الشكل ٩ "ز"). أما الختم، الذي في (الشكل ٩ "ح")، فهو مصنوع من حجر ضارب للخضرة وهو على شكل الزر وقد زين بخطوط مموجة (سليم ١٩٩٥: ٢٩٧-٢٩٨).

الأختام وبدايات الكتابة العراقية:

استخدمت تلك الأختام في الأنشطة التجارية، في ختم البضائع، ربما كنوع من التأمين ضد السرقات، أو لتميزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، ويشير، أيضاً، إلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة (سليم ١٩٩٥: ٢٩٨).

وبناء على ما تقدم، يتضح أن معرفة انسان ما بين النهرين القديم للأختام الأُسطوانية، يرجع إلى ما قبل معرفته لاختراع الكتابة -وربما كانت تلك الكتابة شأنها شأن التصوير والنحت- نشأت فناً خزفياً، إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم. وبذلك، تكون الطينة نفسها، التي تحولت في يد الخزّاف إلى آنية، وفي يد النّحات إلى تمثال، وفي يد البناء إلى قالب من الطابوق، قد هيأت للكاتب العراقي مادته، التي خط عليها كتابته.

وكانت تلك الأختام شائعة جداً بين الإنسان العراقي القديم، في تعاملاته المختلفه. ولم تكن تلك الرموز، التي على الأختام، صوراً، بل كانت في معظمها علامات تجارية، تدل على الملكية والكمية، أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري؛ اذن لم تكن تلك العلامات حروفاً كالمصرية القديمة، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة واحدة، أو فكرة بأسرها. ومع ذلك، فمعظم تلك الرموز، أو العلامات، كانت شديدة الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية. ويرى بتري (Petrie F.) أن مجموعة كبيرة من تلك الرموز، استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى، كالتجارة؛ ثم ما لبث أن تدولت من قُطْر إلى آخر، حتى -كما يقول بتري- كتب النصر لنحو ستة من تلك الرموز، فأصبحت ملكاً مشاعاً لطائفة من التجار، بينما أخذت سائر الأشكال، التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار، تموت في عزلتها شيئاً فشيئاً " (ديورانت: ١٨٢-١٨٣).

واقدم ما وصل الينا من تلك الأختام الأُسطوانية، وجد على السّدادات الصلصالية. وتمثل تلك الأختام الأُسطوانية مرحلة بدائية جداً للكتابة العراقية القديمة؛ اذ كانت تحوي أرقاماً منحوتة، ربما لتساعد الإنسان العراقي القديم على التذكر؛ ثم تلي تلك المرحلة إضافة أحرف الكتابة إلى الأرقام (Frankfort 1939: 1; Falkenstien 1936: 37).

وعندما أصبحت الكتابة التصويرية هي المعتادة، آنذاك، تحولت العلامات أحادية (الصوت) وهي الأرقام والأحرف- التي عرفت سابقاً- إلى مجموعات كتابية تصويرية، بإضافة الاسم إليها. وقد وجدت طريقة الكتابة الجديدة هذه، في العقود والخطابات والوثائق وغيرها، كطريقة شرعية، وفقاً لتلك النقوش، التي أصبحت سمة خاصة بالختم الشخصي الرسمي. وكان يُستخدام ذلك الختم بتمريره، أو دحرجته، على سطح الصلصال اللّين.

ولم يكن استخدام تلك الأختام الأُسطوانية قاصراً على العراق القديم وحده، بل كانت في مصر خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك في فترات أخرى مختلفة في كلٍ من سورية وفلسطين والأناضول. وكانت أختام تلك المناطق يبدو عليها واضحاً التأثيرات البابلية القوية. وقد انتشرت تلك الأختام بكثرة في بلاد ما بين النهرين، خلال الألف الأول ق٠م، على الرغم من أنه في حالات استثنائية وجدت تلك الأختام الأُسطوانية في كل الفترات. ولكن يلاحظ في الفترة الآشورية ازدياد شهرة تلك الأختام. وبحلول القرن السابع الميلادي خاصة، أصبحت تلك الأختام الأُسطوانية تستخدم محل الأختام، التي كانت موجودة فى الفترة الفارسية. أما أقدم



اللوحات، التي وجدت تحمل طبعات تلك الأختام، فإنها تؤرخ بالألف الرابع ق.م، في حين أن تاريخ الكتابة على الأختام الأُسطوانية يغطي فترة الثلاثة آلاف عام (Frankfort 1939: 1).

ويُستنتج من الوجود البدائي لتلك اللوحات، التي تحمل طبعات الأختام الأُسطوانية، أن الختم الرسمي، الذي اشرنا اليه من قبل، أو ما يسمي بـ "ختم الوثائق"، الذي كان يعد وسيلة شرعية للاستخدام الشخصي في مختلف التعاملات، لم يكن هو الوحيد الممثل للوظيفة الأساسية لتلك الأختام، ذات الطبعات الأُسطوانية؛ بمعنى أن كلاً من الأختام ذات الأرقام والأحرف، وتلك اللوحات التي تحمل الطبعات الأُسطوانية، تمثلان معاً الوظيفة الأساسية للأختام الأُسطوانية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن احتمال كتابة الوثائق بواسطة طباعة الأختام، يعد استخداماً ثانوياً للأختام الأُسطوانية، يفهم من مضمون محتوى الختم، عن الختم الذي يعبّر عن ملكية خاصة. وقد عثر على العديد من تلك الأختام الأُسطوانية، التي كانت تستخدم، غالباً، في المعاملات التجارية، معبأة أو مكدسة داخل الجرار. وكانت تلك الأختام ملفوفة في كل الاتجاهات.

وقد ظهرت بدايات الكتابة في العراق القديم، في ما يُطلق عليه: عصر التاريخ المدون، في منتصف الألف الرابع ق.م، بينما هناك من يرجّح ظهور بدايات الكتابة العراقية، منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء، وحضارة جمدة نصر، وذلك في أواخر فجر التاريخ العراقي القديم. وقد بدأت الكتابة بالطريقة التصويرية، ثم تطورت على أيدي السومريين باضافتهم المقاطع الصوتية لها (باقر ١٩٦١: ٢٣٤-٢٣٦؛ Kramer 1944: 43). فقد كانت الكتابة عبارة عن صور، ثم اتخذت طابعاً مقطعياً رمزياً عبارة عن خطوط مستقيمة، لها دلالة أو قيمة صوتية، بدلا من الصور السابقة. بدأت الكتابات بالطريقة التصويرية، التي كانت تعبّر عن الماديات، أكثر من تعبيرها عن الفكرة المعنوية، التي غالبا ما عبرت عنها بشيء مادي يرمز اليها، كالذراع الذي يرمز إلى القوة، والقدم التي تدل على حركة المشي، وغيرها. ثم عُرفت بعد ذ لك بالكتابة المسمارية (العتيقة)، أي القديمة، وسرعان ما استخدمت تلك الكتابة لتدوين أسماء الملوك والمعتقدات الدينية والأساطير، وكل ما يتعلق بحياتهم اليومية. وكانت ألواح الحجر أو الطين والمسلات الرخامية، تستخدم للكتابة على أسطحها (فرج ١٩٨٥: ٣٣؛ Cottrell 1965: 47).

كانت الكتابة بذلك الخط المسماري الأركائي القديم، الذي يرتبط ببداية عصر فجر السلالات العراقية القديمة. وقد كتب ذلك الخط على ألواح حجرية أو طينية، وعلى مسلات الرخام. واذا رجعنا إلى الوراء قليلاً، أي إلى ما بعد منتصف الألف الرابع ق.م، فاننا نجد كتابات تصويرية على ألواح حجرية وطينية، وجدت فى الطبقة الرابعة من حضارة الوركاء، وأسفل طبقات حضارة أور، وفى منطقة فارة، وتل الصلابيخ، والعقير؛ وكلها ترجع إلى نهاية عصر أوروك، وعصر جمدة نصر، أي منذ بداية الألف الثالث ق.م. وقد تطورت تلك الكتابة فيما بعد، وعرفت باسم الكتابة المقطعية الرمزية. ومع أنها البداية المهمة لتطور الكتابة العتيقة المسمارية، بعد أن أُدخلت عليها الصيغ الفعلية والقيمة الصوتية، إلا أنها كانت تدون باللغة السومرية، وإن كانت تلك الكتابة تحوى في بعض الكلمات والألفاظ السّامية. وكانت تستخدم فى تدوين الأخبار وقوائم الأشخاص، والمواد المختلفة (فرج ١٩٨٥: ٣٥).

وبدأ فك طلاسم تلك الكتابة العراقية القديمة، عندما اكتشف رولنسون (H. C. Rawlinson) -قنصل بريطانيا في بغداد آنذاك، وكان شغوفاً بالبحث عن النصوص القديمة- فوق الهضبة الايرانية بأرض الرافدين، بالقرب من منطقة بهستون (Bwhistun) بفارس، نقشاً مسمارياً قديماً مكتوباً بثلاثة خطوط، أحدها الخط الفارسي "مكتوباً بالخط البابلي القديم". وقد أمكن استعمال ذلك الخط الفارسي - الذي كان سلفاً قد استطاع العلماء فك طلاسمه - كمفتاح لتفسير الخطوط الأخرى في ذلك النقش القديم (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٢؛ Kramer 1963: 37-39).

وفي عام ١٨٥٧، عهدت الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، إلى أربعة من علماء الآشوريات ترجمة نص واحد، كل على حدة؛ فكانت ترجماتهم الأربعة متطابقة تقريباً، ما ساعد على فك طلاسم نقوش وكتابات بلاد الرافدين القدامى. واتضح من خلال تلك الدراسات والترجمات، أن الإنسان العراقي القديم استخدم نظاماً واحداً للكتابة، بلغتين مختلفتين تماماً. كانت



الأولى لغة السومريين، وهم سكان هذه البلاد في الألف الثالث ق٠م، والثانية لغة البابليين والآشوريين، وهما من الشعوب السامية، التي جاءت في شكل موجات متعاقبة وأقامت اقامة مستقرة في بلاد الرافين القديمة. أما عن تفسير اللغتين البابلية والآشورية، فقد تم من خلال معرفة اللغات السامية الأخرى ومقارنتها بها (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٣-٦٤؛ Tostado 2001: 1-2).

وكان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى، نظاماً سومرياً وهو عبارة عن علامات مستنبطة من صور مختلفة، وذلك ما جعله نظاماً بالغ التعقيد والصعوبة، وهو ما يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها من قبل المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه وسهولة فهم المقصود منه ٠

وكانت الكتابات ترتب على هيئة خطوط رأسية، تبدأ عند الطرف الأيمن العلوي للوح الكتابة، المصنوع من الصلصال الأملس؛ وللتيسير كانوا يديرون لوح الصلصال إلى اليسار، بما يعادل ٩٠ درجة. فكانت الكتابة تبدأ في الركن الأيسر العلوي، ثم تُرتب في خطوط أفقية، تُقرأ من اليسار إلى اليمين، كما فعل الآكاديون. أما الساميون، فكانوا يفضلون الكتابة من اليمين إلى اليسار.

وما يؤخذ على الكتابة المسمارية، أنها لم تكن قادرة على التعبير عن الأفكار المجردة، والصيغ المختلفة للفعل. وفي خطوة نحو تلافي ذلك، بدأت تلك الكتابة تستعمل العلامات، ليس للتعبير عن معاني الصور، التي اشتقت منها تلك العلامات، بل للتعبير عن القيمة الصوتية المتعلقة، أو المتصلة بها؛ وكمثال لذلك استخدمت الكتابة المسمارية كلمة: (جا - ga)، للدلالة على اللبن، فأصبحت هذه الكلمة تستعمل لكتابة المقطع (جا - ga) بغض النظر عن معناه. وأطلق على ذلك التطور كتابة صوتية وهي خطوة نحو تبسيط الكتابة الا أن واقع تلك الكتابة كان شديد التعقيد والصعوبة، إذ أصبحت القيم الرمزية لعلامات تلك الكتابة تترجم أو تفسر تارة على أساس رمزي، وأخرى على أساس صوتي، وذلك وفقا لسياق الجملة. ومما يؤخذ، أيضاً، على تلك الكتابة العراقية القديمة، عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية، فضلا على عدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة، التي عرفها المصريون، لا سيما صفحات البردي (Kromer 1944: 431).

وهكذا، نرى أن نظام الكتابة، الذي عرفه الإنسان العراقي القديم، يعدُّ من أصعب النظم الكتابية، التي استعملت في العصور القديمة؛ ولكن، في الوقت نفسه، يمثل تقدماً لا بأس به في فن الكتابة، خاصة بعد أن تمكنت شعوب سامية أخرى في العصور المتأخرة، أن تضيف إلى نظم تلك الكتابة الملاءَمة العملية والقيمة الذاتية، بإضافة الأبجدية إلى تلك النظم (موسكاتي ١٩٥٧: ٦٤-٦٥).

أختام مصر الأسطوانية

يقدم تاريخ الأختام الأُسطوانية في مصر، أمثلة تقليدية ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة، في منطقة الشرق الأدنى القديم. فقد استخدمت تلك الأختام بشكل عملي واضح، في كل أنحاء مصر خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اتسمت أشكال تلك الأختام بهيئة مصرية خالصة. ويعد استخدام الأختام الأُسطوانية الملفوفة في "نقادة". وكذلك رسم مناظر الحيوانات على تلك الأختام، خاصة ما عثر عليه من نماذج لذلك في مقبرة (واجي) بسوهاج، مخالفاً لما كان قبله، دليل تقدم عما وجد في مقابر "هيراكينوبوليس"، "وأمبوس" "وديسبوليس بارفا" (Helck 1990: 87; Kaiser 1990: 296).

ومن دلائل التقدم نفسه، رسم النجوم فوق القرون والأذنين والجبهة، مشبهة في ذلك الحيوانات الإلهية أو المقدسة ذات القوى الكونية، قبل بداية الأسرة الأولى بحوالي ثلاثمائة عام على الأقل (Petrie 1912: 7; Kaiser 1987: 296).

وقد عُثر بمقبرة صغيرة بأبيدوس، على بعض الأشياء الصغيرة، مثل: قوارير غريبة المصدر، وختم عليه منظر حيواني من عصر "عحا"، وختم آخر من المقبرة رقم ١٠٣٥ في "أبو صير الملق". وهذا النوع من الأختام عرف قبل تلك الأختام التي عرفت حتى الآن بحوالي مائتي عام (Kaiser 1987: 296; Scharff 1931: 379). (الشكل ١٠) فقد عُرف منذ عصر نقادة الثالثة، ويعد نموذجا لتلك الأختام، ويرجح أن له

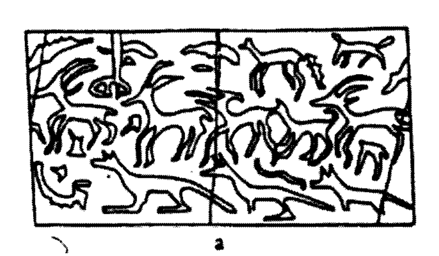
صلة بغرب آسيا، إذ كان معترفاً بوجوده هناك، وخلافاً لمجموعة الأختام الأخرى، التي تعود إلى أبعد من ذلك الزمن، على الأقل، وربما لبداية عصر نقادة الثانية. ويمثل ذلك الشكل ختماً دائرياً من عصر الملك "عحا" .

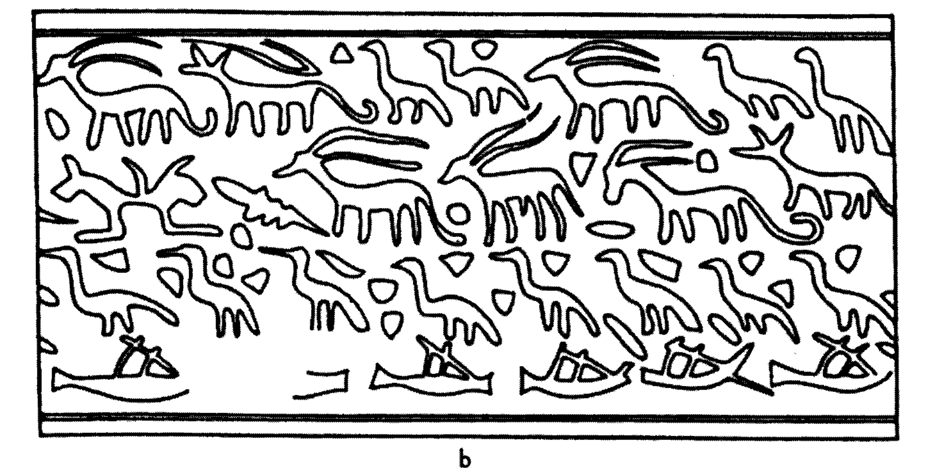
وقد وصفت هذه الأختام بأن بها طابعاً آسيوياً، ومع ذلك أظهر المصريون القدماء طابعاً جديداً لها (Kaiser 1987: 298).

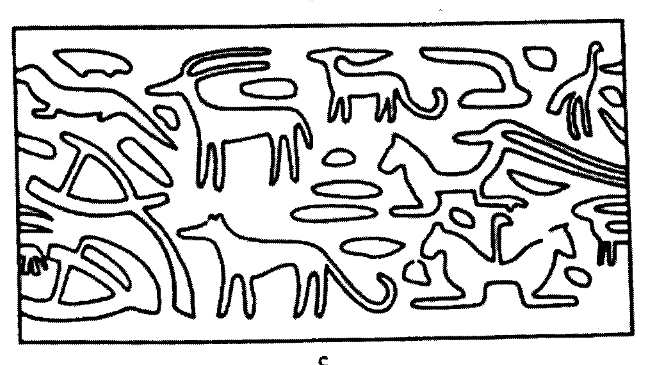
ويخلص الباحث مما تقدم إلى أنه، وإن كانت بعض تلك الأختام قد استوردت ونقلت من الجانب الآسيوي، المتاخم لمصر القديمة، أو ربما قلدت، فإن المصري القديم استطاع أن يطوع هذه التقنية لصالحه، بل أضاف اليها وابتكر وجدد فيها ٠

ومن الأختام، التي تتشابه مع هذه التصنيفات تلك الأختام المحفوظة تحت الأرقام (١، ٢، ٦، ١٠، ١٥)؛ بينما الأختام المحفوظة تحت الأرقام (٣، ٥، ١٢) يظهر النظر إلى المناظر التي عليها، أنها تتشابه فقط مع مثيلاتها الآسيوية، مع مراعاة عدم الخلط بينهما، إذ وجد نوع الختم المقارن نفسه مع شبيهه الآسيوي في عصري نقادة الثانية والثالثة (Kaiser 1987: pl. 68; Kantor 1952: 269; berkeley 1965: 197; Brunton 1948: 5).

ويوجد ختم أكثر تطوراً من


a


b


c



الشكل ١٠: ختم من أختام مصر الأسطوانية، عثر عليه بالمقبرة ٣٥.١ في أبو صير الملق، ويعد من أقدم الأختام الأسطوانية التي عرفت في مصر، (من : Kaiser , w; op.cit; abb 2).

سابقيه، هو الختم رقم (١٢) النقادي الأصل، كما يوجد ختمان (رقم ١٣، ١٤) هما أيضا كالختم رقم (١٢). وتعد هذه الأنواع من الأختام ذات أهمية وقيمة، لما تحويه من نقوش ومناظر، فضلا عن استخداماتها العملية. وهناك سلسلة من الأختام الدائرية الشكل، التي عثر عليها في "أبيدوس" تحت أرقام (u.k - u.j)، يعود أقدمها إلى بداية عهد نعرمر (نارمر)، الذي يرجع إلى عهد قريب جداً، قبل استخدام الأختام على الاطلاق (Kaiser 1987: 298; Kaplony: 70).

أهم المناظر على أختام تلك الفترة:

توجد مناظر لأسماك ونسيج، أو ما يشبه الشبكة، ومنظر لبناية صغيرة، ربما منزل. كما توجد على بعض الأختام كتابات قديمة، ترجع إلى عهد "عحا"، ومناظر أخرى ربما لمخازن قصر أو مبنى له. كذلك توجد على بعضها مناظر للنحلة، خاصة على الختم رقم (١٢)، ما يدل على أن الختم له علاقة بمصر السفلى (kaplony: 295; Kaiser 1987: 298).

أختام الأسرة الأولى:

إذا دققنا النظر في أختام الأسرة الأولى، نجد أن الأختام الأسطوانية لتلك الفترة تشبه أختام بلاد النهرين الأسطوانية، مع ملاحظة أنه على الرغم من ذلك التشابه، فإن التأثير الناتج عن اتصال مصر القديمة ببلاد النهرين، لم يؤد إلى النسخ الحرفي للأصل الميزوبوتامي لتلك الأختام، لدرجة أنه من النادر أن يوجد ختم أسطواني مصري يمكن اعتباره نسخة من أختام بلاد النهرين الأُسطوانية. والحقيقة أنه في الوقت الذي ظهرت فيه الأختام المصرية ذات الطابع المصري الصميم، كانت الأختام الميزوبوتامية قد وصلت إلى وادي النيل، (Frankfort 1939: 292). وربما ظهرت، فيما بعد، بعض الصيغ الفنية والتقنية لتلك الأختام، التي استقتها مصر خلال تواصلها مع آسيا. وكان ذلك خلال عصر الأسرات السومرية، خاصة عصر جمدة نصر، الذي كان يعد عصر الانتشار لحضارة بلاد النهرين في كل الاتجاهات. ولذلك، فإن الأختام الأُسطوانية الخاصة ببلاد النهرين، التي وجدت مثيلاتها بمصر القديمة، تتناسب تماما مع صورة ذلك العصر وسماته الفنية (Frankfort 1939: 292-93).

ويستنتج مما سبق، أن الأختام المصرية الأُسطوانية لم تصطبغ بصبغة الأختام الميزوبوتامية في باديء الأمر، بل اتخذت لنفسها طرازاً خاصاً بها، فضلاً عن أن النظر إلى الآثار المبكرة لبلاد النهرين، خاصة أختامها الأُسطوانية، يظهر أنها في تصنيفاتها لم توضح تأثيرات آسيوية على حضارة وادي النيل، وربما كانت المراحل الحضارية لكلا البلدين، مصر والعراق، مشتركة.

وقد عثر (فلندرز بتري) في حفائره بنقادة، على مقبرة ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات، بها جرتان وختم أسطواني واحد، من تلك الفترة، التي تُؤرخ بالفترة المتأخرة من حضارة جرزة. وكان الختم الأُسطواني، نوع من الأختام العادية لحضارة بلاد النهرين في عصر جمدة نصر، إضافة إلى أن مادة صنع الختم من الحجر الجيري الأشهب، الذي كان نادر الوجود في مصر، وكذا في بلاد ما بين النهرين، ما عدا فترة جمدة نصر، التي شاع استخدام ذلك النوع من الأحجار الجيرية فيها .

وينطبق الشيء ذاته على ختم أسطواني آخر من الأقصر، يتميز تصميمه بأنه مغطي بطلاء أزرق. ويعتقد أن هذا الختم غير مصري الصنع، نظراً لما هو معروف من أن الأختام الأسطوانية لم تعرف في مصر قبل الأسرة الأولى، وحينذاك كانت تلك الأختام الأُسطوانية على نوعين، أحدهما: قصير ومعوج، والآخر منحني. بينما الشكل المذكور لم يكن مألوفا بين أختام عصر جمدة نصرالأُسطوانية، في بلاد ما بين النهرين، ولا توجد أي طبعات له في مصر، ما يرجح احتمال أن تلك الأختام كانت تستخدم لأغراض أخرى، غير الاستخدامات العادية لتلك الأختام الأُسطوانية (Frankfort 1939: 293).

ونظراً لأن تلك الأختام وجُدت في بعض المقابر- خاصة التي على شكل مصطبة- فمن المحتمل أن تكون استخدمت كتمائم جنائزية، خاصة أنها، في معظم الأحيان، تُظهِر شخصاً على مائدة مليئة بالأرغفة. وعندما بدأت النقوش في الاستخدام، مع بدايات عصر الدولة القديمة، ظهر شكل آخر يشبه الشكل السابق، ويبين بوضوح شخصاً جالساً على سرير،



باسطاً يديه على منضدة مليئة بأصناف الطعام. كما ظهرت نقوش تمثل دعوات للمتوفى، حفظتها نصوص الأهرام في صيغ متعددة، فيها يعامل المتوفى كشخص نائم، تدعوه تلك النقوش إلى تلك المنضددة العامرة بأصناف الأطعمة، أو ما يُطلق عليه مائدة القرابين (Frankfort 1939: 293)، إذ تقول النقوش: "هلم (انهض) أيها الملك "ببي" انهض، اجلس على آلاف الأرغفة والبيرة ... وما إلى ذلك" (Petrie 1917).

وبالنظر إلى التشكيلات العادية لتلك الأختام، المعوجة أو المنحنية، لحضارة ما بين النهرين، التي كانت في الغالب من نوع الأختام الأُسطوانية نفسها، المصرية المنشأ أو الصنع، نلاحظ - مرة أخرى- ديناميكية تقنية الاقتباس المصري، التي لم تتمثل في التقليد فقط، بل في استخدامات فنية محددة، للتعبير عن أفكار مصرية خالصة نابعة منهم كمصريين. وينطبق ذلك الأمر على الأختام الأُسطوانية المصرية المبكرة، وتحديداً تلك التي كانت تستعمل كأختام عرفت من خلال الطابعات الخاصة بها. ومن المهم معرفة أن استخدام تلك الأختام في مصر، كان شبيهاً باستخدام مثيلاتها في حضارة ما بين النهرين خلال عصر جمدة نصر، وعصور بداية الأسرات المبكرة. وكانت تستخدم لختم الطرود والجرار، التي كانت تحتوي على مواد ومنتجات تجارية (Frankfort 1939: 294).

ونادراً ما تعكس مناظر تلك الأختام المصرية مناظر حيوانية، كالتي كانت شائعة في ما بين النهرين (Petrie 1912: 101-104; Ayrton and Loat 1911: pl. xxvii, 1)، إذ دمجت الحضارة المصرية تلك التأثيرات بقوة، بطريقة تتلائم مع شخصيتها وقوميتها، لدرجة أن معظم تلك الأختام، خاصة في بداية الأسرات المصرية، لا توضح أي تأثير أجنبي. فلقد تعددت وظائفها إذ صممت لا لاستخدامها كأدوات زينة فقط، بل كأدوات للاستعمال اليومي في الحياة العادية. وقد صممت تلك الأختام من مواد لم تستخدم من قبل في بلاد النهرين، لمثل تلك الأغراض أو الاستخدامات السابقة. فهي صنعت من الأخشاب الصلدة والعاج (Frankfort 1939: 294).

وبناء على ما تقدم، يرى الباحث، أن فكرة استخدام الأختام الأُسطوانية في مصر القديمة، وإن كانت فكرة مستعارة من الخارج، الا أن التعبير عنها كان مصرياً خالصاً، لأن تشكيلات الأختام الأُسطوانية المبكرة في مصر القديمة، كانت تمثل البدايات الأولى للكتابة الهيروغليفية. فقد كانت تحوي نقوشاً صغيرة جداً، تحوي في الغالب اسم أحد الملوك وألقاب موظفيه (Frankfort 1939: 294).

ومن ناحية أخرى، تختلف أختام هذه الأسرة عن غيرها، بشكل عام، في الكيفية أو الجودة، عن مثيلاتها، التي كانت في الدولة القديمة. وقد شهدت أختام أواخر عصر الأسرة الأولى (الشكل ١١) تقدماً ملموساً، فيما يتعلق بالتقنية الواضحة، بالمقارنة مع مثيلاتها المبكرة أو البدائية (الشكل ١٢) (Frankfort 1939: 295).

ونجد في هذه الأسرة، أن الأختام ذات التصميم الزخرفي اختفت، وأنها نقشت أو حفرت بالكتابة فقط؛ فمثلاً الأختام، التي كانت تستخدم لأغراض رسمية، فإنها تحوي اسم الملك ولقب الموظف وليس اسمه الشخصي، أو كانت تحوي اسم الوظيفة فقط. ومن ثم اختلف الشكل الخاص بهذه الأختام، مقارنة بأختام ميزوبتاميا، وكذا بأختام مصر المبكرة (Frankfort 1939: 29).

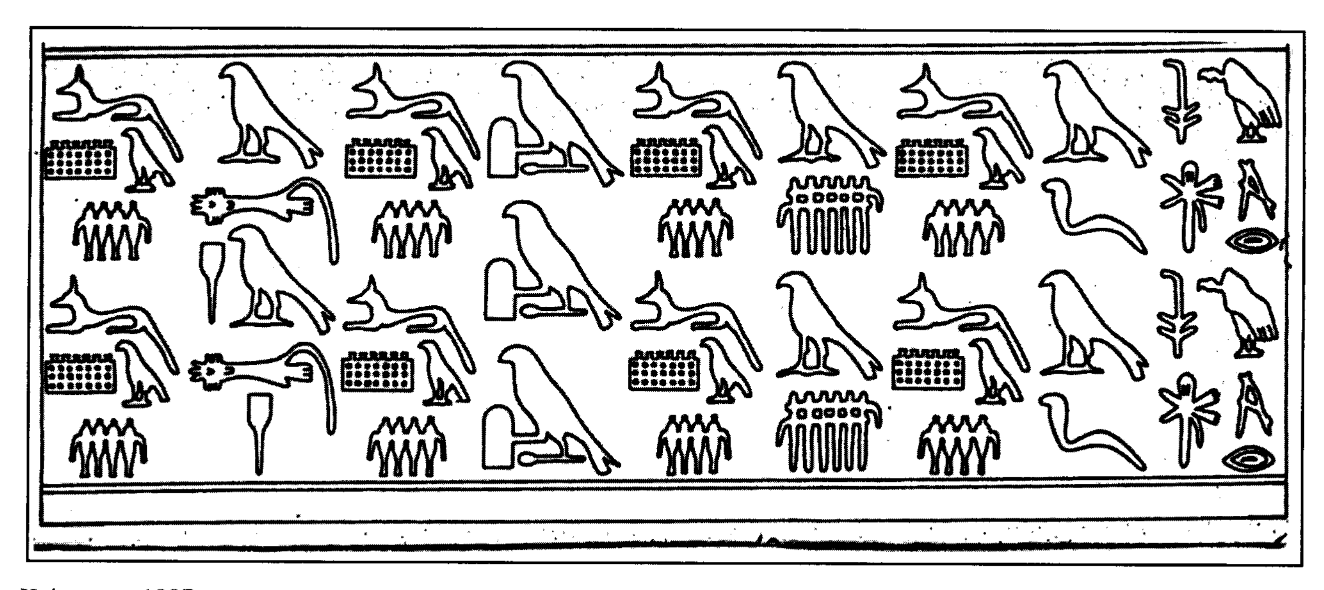
وكمثال مهم على أختام تلك الفترة، لدينا ذلك الختم، الذي أسفرت عنه إحدى بعثات الحفائر الحديثة بمنطقة أم الجعاب:

أولا: قصة اكتشافه: هذا الختم من اكتشاف المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، برئاسة "درايز" (G. DREYER)، في إطار المشروع الرابع لحفائر المعهد بأم الجعاب. عُثر عليه بالقرب من مدخل حجرة الدفن بمقبرة "دن" (Dewen). وهو ختم أسطواني (الشكل ١٣). ويرى "درايز" (G.DREYER) أنه منذ عصر "نارمر" حتى عصر "دن" (DEWEN) لم تكن هناك قائمة ملكية، بل فقط شخصيات إدارية، وأن هذا الختم ربما يرجع إلى أحد الملوك أو القادة، وذلك من خلال الطقوس الجنائزية، التي أجريت له. وربما يوضح وجود الختم بالقرب من مدخل حجرة دفن "دن" علاقة الختم بصاحبه (Kaiser 1987: 115).

إن هذا الختم، الذي وجد في أم الجعاب، ربما يؤكد أن الملك العقرب قد دفن هنالك. أما عن تحديد عصره، فإنه

الشكل ١١: من: Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 96.

الشكل ١٢:من: Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 94-95، وكلاهما يمثل أختام الأسرة الأولى المصرية ذات التقنية المتقدمة مع المقارنة بمثيله في الفترات المبكرة .



الشكل ١٣: ختم أسطواني من حفائر المعهد الألماني للآثار بالقاهرة بأم الجعاب، عثر عليه بالقرب من مدخل حجرة الدفن بمقبرة "دن"، (Kaiser , w. 1987: op.cit; abb 2).



يرجع إلى ما بين عصري الملك "نارمر" و "عحا" (Kaiser 1987: 118).

التقنية: لا تبدو على الختم أي تغييرات يدوية، قد تكون طرأت عليه، فسحب الختم على الطين الرخو يبدو واضحاً. كما أن الجزء المطبوع من الختم لا يمثل كل أجزاء الختم، لأن الطينة ربما كانت غير مكتملة في سطحها العلوي، أو ربما رمم جزء منها. وكذلك، يلاحظ وجود جزء معدني يغطي محيط الختم بقطر ٥ سم، أو ربما كان هذا الجزء يلتف حول اسطوانة خشبية أو حجرية، وهو أمر لم يكن مألوفاً مقارنة بالأختام الأُسطوانية السابقة (Kaiser 1987: 119; Peisner: 1, 31, 44).

ويلاحظ أن تقنية صناعة ذلك الختم، كانت خاصة فقط بمنطقة أم الجعاب، خاصة في عهد الملك (دن). أما بعد موته، فيبدو أن الحاجة أو الوقت لم يكونا كافيين لصناعة ختم جديد. وكل ما فعله من أتى بعده، آنذاك، هو إكمال ما هو ضروري لذلك الختم، وبالتقنية نفسها(Kaiser 1987: 119).

وكمثال لأختام الأسرة الأولى، ذلك الختم الأُسطواني، الذي يُعرف باسم "ختم طرخان"، وقد عثر عليه في مقابر طرخان، وجاء ذكره في معبدي "أوسركاف" و "نيوسررع" الجنائزية. وهو من عصر الملك "نعرمر"، أحد ملوك الأسرة الأولى (الشكل ١٤) (عبدالفتاح ١٩٩٦: ١٦٤، شكل ١٤؛ Kaplony 1981: 122, pl. 50; Dolzani 1961: 172-4, pl. 3).

وهناك ختم آخر مهم للأسرة الأولى أيضاً، عليه نقش لتمساحين كاملين، وآخرين غير مكتملين، يتخللهما بعض الرموز الهيروغليفية (bti Sbk)، التي ربما تعني نبات الغاب الخاص بالمعبود "سوبك" [1] (عبدالفتاح ١٩٩٦: ٤٩؛ Dolzani 1961: 172-4).

أختام الأسرة الثانية المصرية:

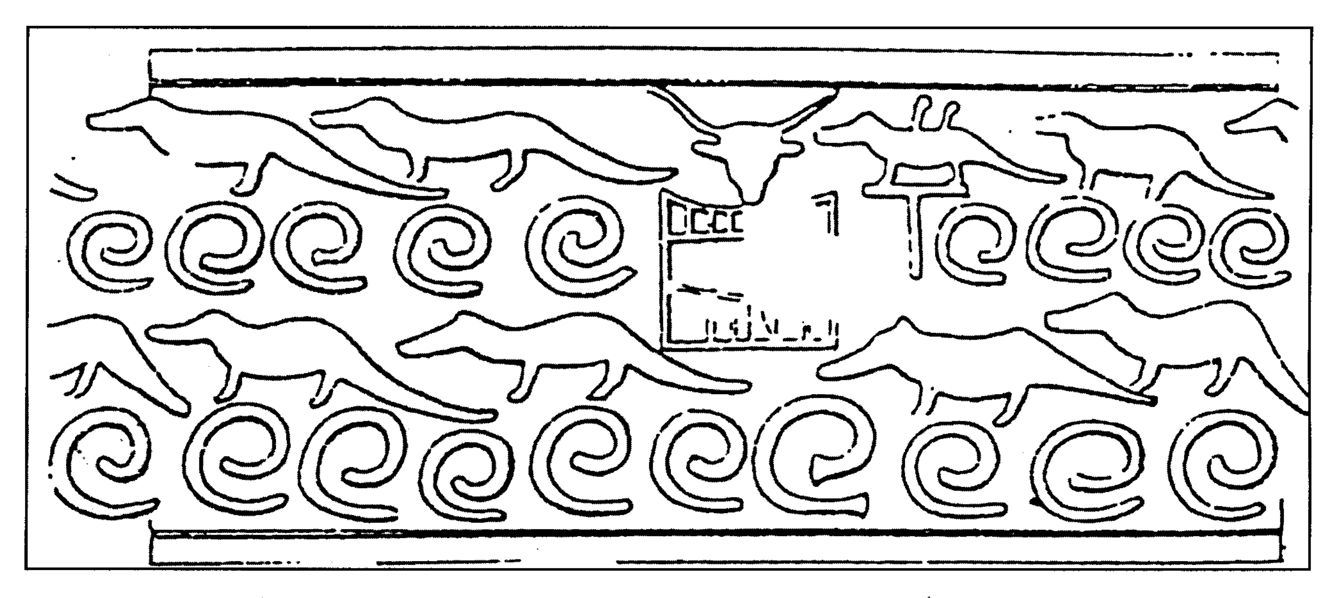
استمرت أختام هذه الأسرة على التقنية نفسها ذات الهدف الواضح، الذي صنعت من أجله (الشكل ١٥) حتى العصر الكلاسيكي للدولة القديمة،التي أدخلت على هذه الأختام نوعاً من التحسين والوضوح، خاصة من الناحية التقنية. كما توجد مجموعة مما يُطلق عليها "أختام اسطوانية"، من الصعب أن يُطلق عليها أو تصنف كتمائم، أو حتى كأختام. وهي ذات أشكال قصيرة وسميكة، ويظهر عليها بعض النقوش الهيروغليفية، وإن كان ينقصها وجود أسماء ملكية عليها (Frnkfort 1939: 295, pl. XLv1h-K).

كما توجد مجموعة مما يُطلق عليها "أختام أُسطوانية"، من الصعب أن يُطلق عليها أو تصنف كتمائم، أو حتى كأختام. وهي ذات أشكال قصيرة وسميكة، يظهر عليها بعض النقوش الهيروغليفية، وإن كان ينقصها وجود أسماء ملكية عليها.

أختام الدولة القديمة وعصر الانتقال الأول:

كانت أختام الدولة القديمة عبارة عن أنبوبة طويلة، اسطوانية الشكل، ذات ثقب عريض من دون ذلك التصميم الزخرفي، الذي كان يُمَيِّز، أو يُفرِّق، بين الأختام المصرية وبين نظيرتها، التي كانت في بلاد النهرين (Frnkfort 1939: 296). وعلى كلٍ فالأختام الأُسطوانية، التي كانت سائدة في مصر آنذاك، تأثرت نسبياً بالتأثيرات الآسيوية، التي نلحظها (الشكل ١٦) في بعض الأشكال الغريبة، خاصة في الفراغ الموجود بالأختام الأُسطوانية، التي كانت سائدة خلال الدولة القديمة بوجه خاص. أما أختام عصر الانتقال الأول، الذي يمثل فترة انهيار تام للسلطة المركزية، بعد حروب دارت ما يقرب من ثلث فترة حكمه الأخيرة، المقدرة بـ ٩٤ عاما في فترة حكم "ببي الثاني". فقد احتل البدو منطقة الدلتا، وساد عدم الرضى، وانهارت وحدة البلاد وأصيبت بالشلل التام. ففي ذلك العصر دخلت الزخرفة آخذة طريقها إلى تقنية الأختام. ويوضح الشكل ١٦ أحد هذه الأختام الأُسطوانية، التي تنسب لأحد موظفي الملك "ببي الأول"، نُحت بشكل خشن التقنية، ويشبه إلى حد كبير تقنية الأختام الدائرية الشكل، التي تشبه "الأزرار"، وقد كانت سائدة في جميع أنحاء مصر، منذ الفترة المتأخرة للأسرة السادسة وما تلاها (Frnkfort 1939: 296; Scharff 1936: Heft 8)

لم تكن هذه الأختام ترتبط بأي شيء معروف في مصر،

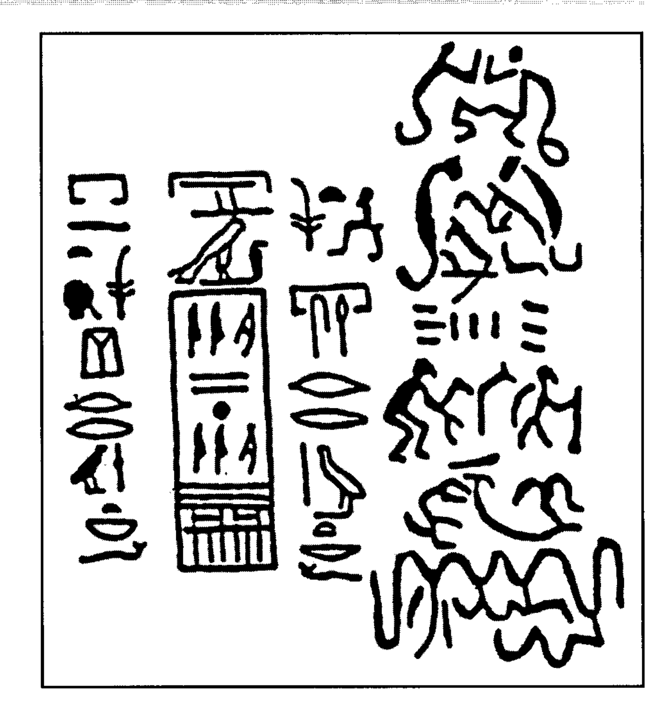


الشكل ١٤: ختم طرخان، مثال على الأختام الأسطوانية للأسرة الخامسة المصرية، ويؤرخ بعصر الملك "نعرمر" الأسرة الأولى (نقلاً عن: عبد الفتاح ١٩٩٦: الشكل رقم "١١".

Text-fig. 97. Sealing from the tomb of Khasekhemuy.

الشكل ١٥: يوضح نموذجاً لأختام الأسرة الثانية المصرية، ويبدو عليه نوع من التحسين والوضوح، أكثر ما كانت عليه، خاصة من ناحية التقنية، (Frankfort 1939. op.cit ; text.fig.97- 98).





الشكل ١٦: يمثل أختام الدولة القديمة الأسطوانية، ويبدو عليه التأثير النسبي بالتأثيرات الآسيوية (Frankfort 1939; op.cit ; text.fig. 99).

قبل فترة عصر الانتقال الأول. وكانت التصميمات الخاصة بها ترتبط بالأختام السورية والكريتية (نسبة إلى جزيرة كريت بالبحر المتوسط) (Frnkfort 1939: 297; Matz: 30-38).

ولم تكن بها تأثيرات أجنبية في الشكل العام، بل ظلت الشخصية المصرية واضحة فيها تماما. وهكذا نرى، مرة أخرى، أن المصري القديم طوّع ذلك التصميم، أو التأثير الأجنبي، بدرجة تواكب استعماله وأنماطه الخاصة به، حتى أن الأصول الأجنبية لهذه التصميمات، في ظل ذلك التطويع المصري، أصبحت غير ذات أهمية إطلاقاً. ويعني ذلك أن التطويع المصري القديم كان متقناً، في إطاره وتقنيته وأنماطه المصرية الأصيلة (Frnkfort 1939: 297).

وفي ذلك العصر ظهرت قاعدة الجعارين، على شكل نماذج منحوتة تشبه تلك الخاصة بالأختام الدائرية، التي تشبه الأزرار. وكانت أشكالها عبارة عن عدة نماذج لأختام تحوي أشكالاً ذات مقابض، في شكل حيواني وقاعدة منحوتة (Brunton 1927: 1, 56).

ويخلص الباحث، مما سبق، أن المصريين القدماء أدركوا الفوائد العملية، لاستعمال جعارين دقيقة الشكل، بدلاً من استعمال الأختام، ذات الأشكال الكبيرة. ولا غرو في ذلك، فقد كتبوا قديماً على ورق البردي، وليس الصلصال كما فعل انسان بلاد النهرين القديم. كما نجدهم، أيضاً، حافظوا على وثائقهم ومنتجاتهم، بأختام ليست أكبر حجماً من الختم الذي يُستعمل في عصرنا الحاضر.

وقد ذكر "برنتون" أنه حتى في مصر، فإن الكثير من هذه الجعارين ربما كانت تستخدم كتمائم. وقد استخدمت الأختام الصغيرة في المحافظة على المخازن، وذلك بختم الجرار والسلال للاحتياط من السرقات والسطو عليها. وكذلك لبيان محتوياتها بالأرقام. وفي تلك الفترة استخدمت سورية الأختام كأداة قانونية، حيث كانت تشكّل من الأقراص الطينية (Frnkfort 1939: 297). أما تأثير الأختام الأُسطوانية الآسيوية، فلم يكن معروفا بشكله الواضح في مصر قبل عصر الانتقال الأول.

طابع الأختام الأسطوانية المصرية

كانت الأختام الأُسطوانية الأولية تمتلك روحاً خاصاً بها، لا توحي بأنها تقليد لنظيرتها الآسيوية، وإن كانت الأختام الأُسطوانية التي كانت سائدة في مصر آنذاك، قد تأثرت نسبيا بالتأثيرات الآسيوية (الشكل ١٦). ومن أهم النقوش، التي حملتها تلك الأختام المصرية حيوان الإله "ست" (Seth)، يقابله عمود "جد" (Ded). كما نشاهد الكوبرا في الأمام رافعة جسدها، وأسفلهم منظر لرجل رياضي وقزم وقرد. وهذه الأشكال كانت معروفة جيدا في نقوش الطقوس الجنائزية ومناظرها. وكذلك هناك منظر النحلة وحروف هيروغليفية تحمل اسم ملك مصر السفلى. يلي ذلك منظر لتمساح، أو ربما ورل، ومنظر لرأس الاله حتحور، وأجزاء أمامية من ثيران، وأسدان منحنيان يقابلان بعضهما من أعلى. وتمثّل أرجل الأسود الأمامية قرون الاله حتحور. وكان ذلك الختم منقوشاً في نهايته، وقد تكررت خاصية النقش هذه مراراً في ختم أسطواني آسيوي، ذي علاقة بذلك الختم السابق. وكما عرفت أيضاً أختام اسطوانية ودائرية عديدة

بهـذا الشكل (Frnkfort 1939: 296; pl. xlvll. m. n.; Scharff 1931: 95-102; Jequier 1933: 33, fig. 16; Brunton: pl. LX, 2).

ومن التأثيرات الآسيوية- خاصة من حضارة جمدة نصر- على بعض الأختام المصرية، بعض المناظر، التي وجدت في مصر قبل بدء الكتابة المبكرة، وهي تتمثل في مجموعتين: المجموعة الأولى تصور مجموعة من الحيوانات ومائدة للقرابين، لا علاقة لأحدهما بالآخر. وإذا حاولنا تفسيراً لذلك، من خلال مشاهدتنا للختم المصري، الذي يصور صفوفاً من الحيوانات تسير رافعة ذيولها (الشكل ١٧ " ٤٢")، فانه يمكن مقارنته بشبيهه تماماً من حضارة جمدة نصر (أنظر شكل رقم ١٧ "٤٧")، والشيء نفسه مع صفوف الأسماك، التي تبين، إضافة إلى ترتيبها، المصري المتناسق (الشكل ١٧ "٤٨-٤٩")، جانبا زخرفياً من بلاد النهرين، إضافة إلى صفوف الحيوانات، التي يبينها ختم "أبو صير الملق" (الشكل ١٧ "٤١")، توجد أمثلة عديدة مشابهة من حضارة الوركاء ٤ (الشكل ١٧ "٤٦") فهذه الحيوانات ترى مرتبة تارة، وأخرى تسير في صف وراء بعضها، وحينما يكون الأسد بينها، فإنه يهاجم الحيوانات من الخلف (Scharff 1941: 29).

ولعل من العلامات المميزة لصفوف الحيوانات، التي رأيناها من قبل على رؤوس المقامع، وجدت -على الأقل- على الأختام المستديرة في حضارة الوركاء (الشكل ١٧ "٥١")، ولكن هذا العنصر الخاص من تلك العلامات المميزة، فيدل على الأشياء المستديرة، مثل المقامع والأختام الأُسطوانية، لكنه لا يوجد على اللوحات ذات الزوايا، التي لا بد أن يقطع فيها الحيوان الأول والأخير. وهذا يتطابق، أيضاً، مع ملعقة للزينة من الصدف- نرى أنها مصرية، لوجود الكتابات الهيروغليفية عليها؛ ولكن المناظر على كلا الجانبين متأثرة تأثراً شديداً بالفن العراقي (الشكل ١٧ "٤٥"). وهناك أيضا بعض المناظر التي تعد مثاراً للجدل، إذ نجد على الوجه الأمامي لها (الشكل ١٧ رقم "٤٥")، التي عليها مناظر للأبقار، وفي (الشكل ١٧ "٥١") تمثيلاً أو تأثيراً عراقياً تماماً بالنسبة للقرون، وعلى ظهر اللوحة (الشكل ١٧ "٤٥") نشاهد صفوفاً من الماعز متقاطعة مع بعضها، وتلك المناظر على ختم مستدير عراقي، عليه صور لماعز في صفوف غير منتهية.

أما المجموعة الثانية من الأختام، فيُرى فيها الشيء نفسه. إلى جانب العلامات الهيروغليفية غير المفهومة؛ فنجد شكلاً بشرياً بشعر طويل، يجلس خلف منضدة (الشكل ١٧ رقم "٤٤") عليها العديد من أرغفة الخبز، هلالية الشكل، والكرسي الصغير مزيّن بسيقان الثور وحوافره، وهناك ختم مشابه اكتشف في العراق، يرجع إلى عصر حضارة جمدة نصر (الشكل ١٧ رقم "٥٠") به منظر للشراب بالكيفية نفسها، وما يلفت النظر إلى ذلك، التشابه مع الكرسي الصغير، المزيّن بسيقان الثور وحوافره (Scharff 1941: 30).

الأختام الأسطوانية ونشأة الكتابة

تُعَدُّ الكتابة الحد الفاصل، الذي نقل المصري القديم من مراحل عصور ما قبل التاريخ، إلى العصور التاريخية. وكان ذلك مع بداية الأسرة الأولى، التي بدأت في القرن الواحد والثلاثين قبل الميلاد تقريباً. وعلى كلٍ فإن محاولات الإنسان القديم في مجال الكتابة، بدأت قبل الأسرة الأولى بحوالي قرنين من الزمان، على أقل تقدير، أي في العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبل الأسرات (نورالدين ١٩٩٨: ٨-٩). وتعد أقدم الرموز التصويرية، التي عُرفت بمصر القديمة، وجدها "بتري" (Petrie) على قطع الفخار وآنيته، وعلى قطع من الحجر، في مقابر ما قبل التاريخ، وحدد عمرها بنحو سبعة آلاف سنة. وبمرور الزمن حدث تطور تمثل في نقل الرسم، أو الرموز الأولى، إلى كتابة يعبّرون بها عن أفكارهم، هي "الكتابة الهيروغليفية". وكان ذلك في عام ٣٦٠٠ ق.م، أو قبل ذلك التاريخ بزمن طويل (ديورانت د. ت: ١٨٠-١٨٣).

ومما لا شك فيه، أن أقدم الأختام الأُسطوانية استخدمت في نطاق الثقافة النقادية. ومعنى ذلك أن الكتابة ترجع إلى عصر نقادة الثانية، أهي من نتاج الثقافة النقادية، أم من نتاج حضارة مصر السفلى، أم هي من نتاج تأثير آسيوي ؟ وقد أظهرت النتائج بشكل واضح، أن المحاولات الأولى للكتابة في

الشكل ١٧: ٤١ ختم أبو صير الملق، تظهر عليه صفوف من الحيوانات؛ "٤٥" ختم أسطواني عراقي عليه صور الماعز بصفوف غير منتهية؛ "٤٦" ختم من حضارة الوركاء عليه مناظر لحيوانات يهاجمها أسد من الخلف؛ "٤٧" ختم أسطواني من جمدة نصر؛ "٤٨" ختم أسطواني مصري يظهر عليه صفوف متناسقة من الأسماك، وتبدو الزخارف، التي تعود إلى بلاد النهرين؛ "٥٠" ختم أسطواني من عصر جمدة نصر عليه منظر للشراب؛ "٥١" ختم يمثل أختام الوركاء الأسطوانية، (Scharff1941; pls.8 (41-42)- 9 (46, 47, 48, 49, 50, 51) .

مصر القديمة كانت منذ عام ٣٤٠٠-٣٣٠٠ ق.م، وربما يدلل على ذلك البرهان الواضح، المتمثل في خطوط هيروغليفية قديمة وجدت في مقبرة (واجي)، بما يعد دليلاً مباشراً من التاريخ القديم على اكتشاف ومعرفة الكتابة في مصر في وقت مبكر. هذا ومما يعضد ذلك تلك الوثائق والمكتشفات الأثرية وهي بحالة جيدة والتي تعد في حد ذاتها حقائق عاملة (Kaiser 1987: 299).

ومن ناحية أخرى، يعتقد "فلندرز بتري" أن أهل نقادة كان لهم دور لا يُستهان به في الرقي والتحضر، في مصر القديمة آنذاك؛ وذلك من خلال العلامات، التي خطّوها على أوانيهم التي كانت ترمز في البداية إلى أصحابها أو صانعيها؛ أي كانت بمثابة علامات كتابية تخطيطية شخصية؛ ثم ما لبثت تلك العلامات أن أصبحت من أدوات التفاهم بين الناس.

بدأت هذه العلامات - كما يري بتري - بثلاثين علامة في عصر نقادة الأولى، اختفت منها ست علامات في نقاد الثانية وحلت محلها أربع عشر ة علامة أخرى جديدة، في حين ظل أهل نقادة الثانية في استخدام تلك العلامات في تعاملاتهم الكتابية. و بلغ عدد هذه العلامات في الأسرة الأولى ثلاثاً وخمسين علامة. وظلت هذه العلامات حتى الدولة الوسطى، على أقل تقدير. وفي عصر الأسرة الثانية عشرة ظهرت ثلاث علامات جديدة، كتب بها رجال المناجم في شبه جزيرة سيناء، ثم احتضنها الكنعانيون وتعلموها من نصوص سيناء. كذلك تعلم الكنعانيون نظرية المصريين القدماء، في استخدام شكلٍ خاصٍ للتعبير عن أول حرف هجائي من اسمه. وقد أسفر ذلك عن تعلمهم اثنين وعشرين علامة هجائية، كتبوا بها نصوصهم. وعن الكنعانيين، تعلم أهل جنوب شبه الجزيرة العربية هذه العلامات، كما اقتبس منهم قدماء الإغريق وزودوا بها كتاباتهم المقطعية القديمة (صالح ١٩٧٩: ٥٣-٥٤؛ pertie 1940: 41).

بداية الأسرات ونشأة الكتابة

من نتائج الحفائر الحديثة بأم الجعاب، يتضح وجود بعض المقابر التي ترجع إلى عصر نقادة الثالثة، وذلك من خلال فحص ما عُثر عليه في تلك المقابر من ثقافات تعود إلى العصر نفسه، ومن حفائر أخرى أجريت في شمال شرقي الدلتا، أوضحت أيضاً، أن الثقافة النقادية ربما عمت كل مناطق مصر السفلى. كما توضح حفائر (بوتو) أن النتاج المادي للثقافة النقادية وصل إلى كل مصر تقريباً، ويبدو أن لهذه الحضارة المصرية العليا "الصعيدية" طابعاً خاصاً ومميزاً، عمَّ مصر القديمة كلها (Kaiser 1990: 288).

وفضلاً على ما تقدم، فإن ما عُثر عليه في احدى تلك المقابر الملكية بأم الجعاب، على بعض القطع العظمية، التي عليها نقوش هيروغليفة، يوضح أن الثقافة والاقتصاد والادارة في مصر القديمة، كانت على مستوىً عالٍ آنذاك، وهو أمر لم يكن موجوداً قبل ذلك العصر. وترجع تلك النقوش أو الكتابات الهيروغليفية إلى ما قبل الأسرة الأولى بحوالي مائة وخمسين عاماً. وأن أقدم المخربشات التي عُثر عليها لم تكن أقدم الا بعشرات السنين، إذ تعود لحوالي مائتين وخمسين عاما قبل الأسرة الأولى. وخلال تلك الفترة كانت الحضارة النقادية تعم الدلتا كلها، وساحل البحر المتوسط.

ويرى الباحث أن انتشار الثقافة النقادية في كل أرجاء مصر القديمة، آنذاك، ربما ساعد على انتشار الكتابة في الدلتا ومصر السفلى، وكذا في جميع أرجاء مصر القديمة في ذلك العصر.

وربما يدل ذلك التطور المبكر للكتابة في مصر القديمة، آنذاك، أن ثمة اتصال ما بين حضارة الأسرة الأولى، وما قبلها في عصور ما قبل التاريخ؛ وأن هذا التطور المبكر للكتابة المصرية القديمة، ساعد على تطوير النتائج التاريخية، ثقافياً واقتصادياً قبل الأسرة الأولى، بنحو مائتين وخمسين عاماً تقريباً.

وكان استخدام الكتابة في بداية الأمر، مقصوراً على دائرة الملوك والأمراء والجهاز الإداري للمملكة المصرية القديمة، التي كانت قبل الأسرة الأولى تتألف من مصر العليا ومصر السفلى. ووجدت تلك الكتابة على قبر (واجي)، و (إري حور) بأبيدوس. وتدلل هذه الكتابات أن كليهما كانا ملكين، وأنهما حكما كل المصريين، سواء في مصر العليا أو السفلى. كما وجدت بعض العلامات البدائية "المخربشات"، على جنبات جرار النبيذ (Kaiser 1987: 290).

ووجدت في منطقة "بأبيدوس" نفسها، نماذج أخرى من هذه الكتابة، على ما يسمى: "واجهة القصر"، تتضمن أسماء هيروغليفية ورموزاً أخرى تصور الصقر المزدوج، ما يبرهن أن مملكة مصر العليا كانت آنذاك تحكم المملكة المصرية القديمة كلها. كما يبرهن على وجود طراز راقٍ من الادارة، قبل الأسرة الأولى بنحو مائة عام، على الأقل (Kaiser 1987: 291).

رؤية حول نشأة الحروف الهجائية

اختلفت الآراء حول منشأ الحروف الهجائية؛ فهناك من يُرجعها إلى الخط المصري القديم، وهنالك من يرجعها إلى الخط المسماري البابلي. وقد دار جدل حول ذلك الأمر، الذي تبنته مدرستان: فالمدرسة، التي تبنت الأصل المصري لحروف الهجاء، من أبرز أعضائها "دي روجيه" (De Rouget)، الذي يعتقد أن الحروف الفينيقية مشتقة من المصري الهيراطيقي، على اعتبار أن الخط الفينيقي يشترك مع الخط المصري القديم، في الصفة الهجائية الصوتية، أي الحروف "هجائية صوتية". وهذا الرأي على خلاف ما هو معروف عن الخط المسماري البابلي، من أنه مكون من مقاطع. ويتبع دي روجيه في اعتقاده" د. اسحق تيلر" (Dr. Isaac Taylor)، وكذلك "جون بيترس" (John p.Peters) و "بتري" (Petrie)، الذي يرى أن نشأة الحروف الهجائية كانت في مصر من الرموز، التي اكتشفت في المقابر الملكية للسلالات المصرية الأولى. وقد تطورت تلك الرموز، فيما بعد، إلى حروف هجائية، تكوّن منها الخط الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي (Taylor: 145; Peters 1901: 177-198; Petrie 1900: 31-32, pl. 52).

أما المدرسة الثانية، التي تُرجّح أن أصل حروف الهجاء تُعزى إلى الخط المسماري البابلي، فتضم مجموعة من المستشرقين، من بينهم "ديكه" (Deecke)، و"هومل" (Hommel) اللذان يرجحان الأصل البابلي للخط الفينيقي، وأن حروف الهجاء جاءت إلى الفينيقين، وإلى الشعوب الأخرى المجاورة لهم، من جزيرة العرب، محل ولادتها ومنشأها. ويستند أصحاب هذه النظرية، إلى بعض القرائن، التي من أهمها: اعتقادهم أن اللغة المصرية والخط المصري القديم، كانا منتشرين خارج مصر، ببلاد الشرق القديم. وفي المقابل، يرون أن اللغة البابلية والخط البابلي، كانا منتشرين في الشرق الأدنى، خاصة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ وان كانت اللغة المصرية القديمة، دخلت فينيقية وفلسطين من بلدان الشرق الأدنى - خلال عهد الأسرة التاسعة عشرة- فإن اللغة البابلية وخطها البابلي، كانا متداولين في تلك الأقطار في مراسلات الملوك المصرية الرسمية وأتباعهم، في تلك الأقطار (باقر ١٩٦٥: ٤٥؛ Curdy: vol. III Sec. 873).

وهناك مدرسة معتدلة بين هاتين المدرستين السابقتين، دُعي أصحابها بـ "الموفقين"، أي إن آراءهم تقوم بعملية توافق بين آراء أصحاب المدرستين السابقتين. ويمثل أصحاب مدرسة التوفيق هذه "فردريك ديلتش" (Friedrik-Delitzsch) الذي يري أن مخترعي الحروف الفينيقية، أخذوا عن الخط المصري القيمة الصوتية الهجائية؛ بينما أخذوا معظم حروفهم عن الخط البابلي المسماري، مستنداً إلى أن معظم الحروف الفينيقية -خمسة عشر حرفاً من مجموع اثنين وعشرين حرفا- لها معانٍ في اللغات السامية، ولا سيما البابلية، مع وجود تحريف بسيط أحدثه الفينيقيون أنفسهم، وفقاً لما اقتضته خصائص لهجاتهم. وهذا يعني -في رأيه- أن الحروف الهجائية اخترعها الفينيقيون أو الكنعانيون، لا الآراميون أو العرب الجنوبيون، كما يرى بعض الباحثين (باقر ١٩٦٥: ٤٥؛ Delitzsch 1897: 34).

وهكذا، رأينا أن هناك جدلاً دار بين العلماء، ولا يزال، حول منشأ الحروف الهجائية؛ ولكن يؤخذ على شكل الأحرف - التي كانت محكاً أو محلاً للنقاش أو الجدل بين العلماء- أن لا بد كان لها أشكالا حروف أخرى أبسط، نشأت أو انبثقت منها، على أن يتوافر لتلك الحروف صفة القدم. لذا، رأى بعض العلماء أن مثل هذه المخطوطات غير كافية، لحل مشكلة أصل الحروف الهجائية. وتركوا الأمر إلى ما قد يظهره المستقبل من مخطوطات تحوي أحرفاً أقدم وأبسط. وتدور عجلة الزمن، وتأتي حفائر شبه جزيرة سيناء بما اشتهاه العلماء. فقد كُشف النقاب عن نقوش كتابية اشتهرت باسم: "مخطوطات سيناء" اكتشفها "فلندرز بتري " (Flinders Petrie) عام ١٩٠٤ م، في منطقة "سرابيط الخادم"،؛ لذا، انكب فريق من العلماء



لبحث تلك المخطوطات ودراستها؛ وعلى رأسهم "جاردنر" (Gardiner)، و"زيته" (Sethe) (Gardiner 1916: 1-6;) Zethe 1916: 78-161)، و"جرم" (Grimme)، و"ليك" (Lake)، و"بليك" (Blake)، وغيرهم (Grimme 1923: 34).

وتعد هذه المخطوطات على قدر كبير من الأهمية، إذ عدها هؤلاء العلماء بمثابة مفتاحٍ لأحرف الهجاء، لكونها أبسط وأقدم نقوش سامية مكتوبة بحروف هجائية، عُثر عليها إلى الآن؛ بل هي على الأرجح أول حروف هجائية عالمية، نشأت منها بقية أنواع الحروف الهجائية المعروفة.

ونخلص مما سبق من أراء، حول أسبقية معرفة الكتابة بين مصر والعراق، إلى الآتي:

أولاً: العراق: هناك من العلماء مَنْ يرجّح ظهور بدايات الكتابة العراقية، منذ المراحل الأخيرة لحضارتي الوركاء وجمدة نصر، وذلك في أواخر فجر التاريخ العراقي القديم. بينما يحدد آخرون تلك البداية بالكتابة على الألواح الطينية، وذلك في ٣٢٠٠ ق٠م تقريباً، في حين حددوا تاريخ النقوش السومرية بعام ٣٦٠٠ ق٠م تقريبا.

ثانياً: مصر: يرى "ول ديورانت" أن الرموز التصويرية، التي وجدها "فلندرز بتري" على فخار ما قبل التاريخ بمصر، هي التي أرخت لتلك الرموز التصويرية بسبعة آلاف سنة. وبمرور الزمن حدث تطور تمثل في نقل الرسم أو الرموز الأولى، إلى كتابة يعبرون بها عن أفكارهم هي "الكتابة الهيروغليفية"، وكان ذلك في عام ٣٦٠٠ ق٠ م، وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل، فضلا عمّا أثبته بعض العلماء في هذا المضمار، من أن أهل نقادة خطّوا على أوانيهم علامات كتابية تخطيطية ٠ إضافة إلى الرأي الذي يقول: إن المحاولات الأولى للكتابة في مصر، ترجع إلى ٣٤٠٠- ٣٣٠٠ ق٠م تقريباً.

وهناك من يرى أن محاولات الكتابة الأولى في مصر، ترجع إلى ما قبل الأسرة الأولى بقرنين من الزمان، على أقل تقدير، أي في العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات. ومما يؤكد ذلك، العثور باحدى المقابر الملكية بأم الجعاب، على بعض القطع العظمية، التي عليها نقوش هيروغليفة.

إضافة إلى ذلك يرى "دي روجيه" وهو - كما أوردنا سابقا- من أنصار أن الخط المصري القديم هو الأصل في الحروف الهجائية (الكتابة)، أن الحروف الفينيقية مشتقة من الخط الهيراطيقي، ويشاطره رأيه كل من: "إسحق تيلر، وجون بيترس، وبتري، وجاردنر".

فضلاً عما جاءت به "مخطوطات طور سيناء"، التي اكتشفها "فلندرز بتري" (Flinders Petrie) عام ١٩٠٤ م في منطقة "سرابيط الخادم". وتعد هذه المخطوطات على قدر كبير من الأهمية، إذ عدّها هؤلاء العلماء بمثابة مفتاحٍ لأحرف الهجاء، لكونها أبسط وأقدم نقوش سامية مكتوبة بحروف هجائية عثر عليها إلى الآن، بل هي، على الأرجح، أول حروف هجائية عالمية، نشأت منها بقية أنواع الحروف الهجائية المعروفة.

وفضلاً على كل ما تقدم، فإن ما عُثر عليه من نقوش وأجزاء من كتابات "واجهة القصر"، التي وجدت في "أبيدوس- محافظة سوهاج بصعيد مصر"، تتضمن أسماء هيروغليفية، وأجزاء أخرى للصقر المزدوج. وترجع هذه الكتابات والنقوش إلى ما قبل الأسرة الأولى بنحو مائة عام على الأقل، وذلك دليل مادي على أن الكتابة عرفت بمصر قبل ذلك التاريخ.

وفي ضوء ما سبق، يرى الباحث، بعد تحليل ومقارنة مختلف الآراء، التي دارت في ذلك المضمار، والجدل العلمي حوله، وكذلك النظر إلى ما أتيح للباحث من المصادر الأثرية، التي نعدها المصدر الرئيسي والأهم للتأريخ، أن الكتابة عرفت في مصر القديمة قبل أن يعرفها الإنسان العراقي القديم بنحو أكثر من قرنين من الزمان على أقل تقدير. وان كانت هذه الدراسة لا يعدها الباحث نهائية، في معرفة المدى الزمني الحقيقي، الذي سبق به إنسان مصر القديمة في معرفة الكتابة. فلا يزال يساورني الشك في أن ذلك التاريخ التقريبي، الذي وصلت اليه الدراسة، أقل بكثير من التاريخ الحقيقي لمعرفة الإنسان القديم في مصر للكتابة. ونأمل أن تكشف الحفائر الآثارية العلمية المستقبلية، المدعومة بجهد وبحث ودراسة، للعلماء والمتخصصين في العالم العربي، ما يعينهم في تحديد هذا التاريخ على نحو دقيق.

أهم النتائج

١- استعملت الأختام الأُسطوانية في جنوبي العراق ووسطه، منذ الربع الأول للألف الثالث قبل الميلاد، وهي الفترة التي ترجع إلى الحقبة الزمنية ما بين نهاية عصر جمدة نصر، وبداية عصر فجر السلالات السومرية.

٢- استخدم العراقيون القدامى الأختام بكثرة، خاصة في الأنشطة التجارية؛ في ختم البضائع، كنوع من التأمين ضد السرقات، أو لتمييزها عن البضائع الأخرى، ما يشير إلى زيادة النشاط التجاري، وكذلك إلى نمو الشعور بالذات والملكية الخاصة. وربما كانت تلك الأختام تشير إلى رموز دلالية ارتبطت بالختم.

٣- أهم المناظر، التي كانت على هذه الأختام بشكل عام، هي مناظر ذات طابع ديني، إلى جانب تسجيل اسم صاحب الاسطوانة "الختم"، وإهداء للآلهه، إلى جانب مناظر المآدب والشجرة المقدسة. ومن مناظر أختام جمدة نصر، مناظر الأعداء والأسرى، إلى جانب الأختام الأُسطوانية التي تحمل نقوشاً هندسية محفورة، يتخللها – في معظم الأحيان – رسوم للماشية، كالغزلان والماعز، أو مناظر للطيور والأسماك. هذه الأختام أطلقوا عليها اسم: "البروكيد"، وذلك لتشابه زخرفتها بالنسيج، أو بشكل حياكة الحصر والسلال. أما مناظرالأختام الأُسطوانية الصغيرة، فكانت مناظر دينية أو رعي، بينما كان هناك إفريز، هو عبارة عن نسيج مزين بالحيوانات المتصارعة.

٤- أكتُشف نوعان من هذه الأختام الأُسطوانية، يرجعان إلى عصر فجر السلالات؛ النوع الأول، وهو ما يطلق عليه "البروكيد"، وينسب إلى نهاية عصر جمدة نصر، وهي الأختام ذات الزخارف الهندسية. أما النوع الثاني، فينسب إلى عصر فجر السلالات الأول.

٥- تنوعت مادة الأختام الأُسطوانية العديدة، التي وجدت على مر العصور العراقية القديمة؛ فأختام (أوروك) الأُسطوانيــة، صنعت من بعض الموادالشائعة، آنذاك، كالرخام الأبيض، أو القرنفلي اللون. واستمرت الأختام تصنع من تلك المواد حتى عصر جمدة نصر، الذي فضّل استخدام حجر الكلس الملون، وخاصة الأبيض اللون، المائل إلى اللون الرمادي، شائع الاستخدام آنذاك. وفي نهاية ذلك العصر، صنعت تلك الأختام من حجر الكلس الأخضر، أو الرمادي، ومن الفيانس، أو الخزف، أو الاستياتايت المزجّج. أما مع بداية عصر الأسرات الأولى في العراق، فإن تقنية ومادة الصنع لتلك الأختام الأُسطوانية، ذات الاطار أو الشكل المزخرف، فكانت من حجر الكلس الأخضر، أو الأزرق، أو الأسود، أو من حجر السربنتين الأسود. وفي النصف الأخير لعصر الأسرات الأولى، استخدم الحجر الأبيض نصف الشفاف، أو الأخضر، وحجر السربنتين الأخضر، والحجر الأرجواني، ولب المحار أو الصدف (الذي استمر مُستَخْدَماً حتى بداية الأسرة الثالثة، وكان يجلب من الخليج العربي). وظلت الأحجار البيضاء، نصف الشفافة، تستخدم لعمل الأختام الأُسطوانية الصغيرة، وكذلك اللازورد أو الذهب والفضة، سواء كانت صلدة أو مصنوعة من رقائق معدنية مطلية بالقار. وفي عصر سرجون الأول، تنوعت مادة صنع تلك الأختام الأُسطوانية، فمنها ما صنع من حجر اليشب، أو من صخر الكريستال. كما استخدمت تلك المواد السابقة، في حالة ندرة وجود لب الأصداف الرخوة، قبل نهاية ذلك العصر. أما أختام الأسرة الثالثة لأور، فصنعت من المواد نفسها، التي صنعت منها أختام العصر الأكدي، ومع ذلك فإن اللازورد استخدم أحياناً، كما كان من قبل، بشكل استثنائي، لصناعة الأختام النفيسة والقيمة. وفي سورية استخدم لصناعة تلك الأختام الهيماتيت، وبعد ذلك استخدم الفخار المطلي أو الفيانس، خاصة في عصر الميتانيين.

٦- معرفة إنسان ما بين النهرين القديم للأختام الأُسطوانية، يرجع إلى ما قبل معرفته لاختراع الكتابة. وتمثل تلك الأختام الأُسطوانية مرحلة بدائية جداً، للكتابة العراقية القديمة، إذ كانت تحوي أرقاماً منحوتة، لتساعد الإنسان العراقي القديم على التذكّر؛ ثم تلي تلك المرحلة اضافة أحرف الكتابة للأرقام، وكان ذلك في منتصف الألف الرابع ق٠م. وكانت الكتابة عبارة عن صور، ثم

اتخذت طابعاً مقطعياً رمزياً في شكل خطوط مستقيمة، لها قيمة صوتية بدلاً من الصور السابقة. ثم عُرفت بعد ذلك بالكتابة المسمارية (عتيق) أي القديمة، وسرعان ما استُخدمت لتدوين أسماء الملوك، والمعتقدات الدينية، والأساطير.

٧- كان نظام الكتابة في اللغة الخاصة بأهل العراق القدامى، يشبه الكتابة التصويرية (pictographic)، التي استخدمها المصريون القدماء، وذلك برسم الشيء المراد كتابته، أو جزء مميز منه، للتعبير عنه لسهولة فهم المقصود منه. ومما يؤخذ على الكتابة المسمارية، أنها لم تستطع التعبير عن الأفكار المجردة، والصيغ المختلفة للفعل.

٨- أما أختام مصر الأُسطوانية، فان تاريخها يقدم أمثلة تقليدية، ناشئة عن تأثيرات حضارية متبادلة في منطقة الشرق الأدني القديم. فقد استخدمت الأختام الأُسطوانية بشكل عملي واضح، في أنحاء مصر كلها خلال الألف الثالث قبل الميلاد. واتسمت أشكال تلك الأختام الأُسطوانية بهيئة مصرية خالصة. واستطاع المصري القديم أن يطّوع تلك التقنية لمصلحته، كما أضاف اليها وابتكر وجدد. وكانت تلك الأختام الأُسطوانية الأولية، تمتلك روحاً خاصة بها، فلا توحي بأنها تقليد لنظيرتها الآسيوية.

٩- وإن كانت فكرة استخدام الأختام الأُسطوانية في مصر القديمة، فكرة مستعارة من الخارج؛ فإن التعبير عنها كان مصرياً خالصاً، لأن تشكيلات الأختام الأُسطوانية المبكرة في مصر القديمة، كانت تمثل البدايات الأولى للكتابة المصرية.

١٠- شهدت أختام أواخر عصر الأسرة الأولى تقدماً ملموساً، فيما يتعلق بالتقنية الواضحة ذات المعنى، مع المقارنة بمثيلاتها المبكرة، أو البدائية ٠ ونجد في هذه الأسرة اختفاء الأختام ذات التصميم الزخرفي، وأنها نقشت أو حفرت بالكتابة فقط؛ ومن ثم اختلف الشكل الخاص بهذه الأختام، مع المقارنة بأختام بلاد النهرين، وكذا بأختام مصر المبكرة.

١١- أدرك المصريون القدماء الفوائد العملية، لاستعمال جعارين دقيقة الشكل بدلاً من استعمال الأختام، ذات الأشكال الكبيرة. ولا غرو في ذلك، فلقد كتبوا قديماً على ورق البردي وليس الصلصال، كما فعل انسان بلاد النهرين القديم، ونراهم أيضا قد حافظوا على وثائقهم ومنتوجاتهم بأختام، ليست أكبر من الذي يُستعمل في الوقت الحاضر.

١٢- انتشار الثقافة النقادية في أرجاء مصرالقديمة، آنذاك، ساعد على انتشار الكتابة في الدلتا ومصر السفلى، وكذا جميع أرجاء مصر القديمة، في ذلك العصر.

١٤- التطور المبكر للكتابة في مصر القديمة، آنذاك، يدل على أن هناك اتصالاً ما بين حضارة الأسرة الأولى، وما قبلها من عصور ما قبل التاريخ؛ وأن هذا التطور المبكر للكتابة المصرية القديمة، ساعد على تطوير النتائج التاريخية، ثقافياً واقتصادياً قبل الأسرة الأولى بنحو مائتين وخمسين عاماً تقريباً.

١٥- كان استخدام الكتابة، في بداية الأمر، مقتصراً على دائرة الملوك والأمراء والجهاز الإداري، للمملكة المصرية القديمة.

١٦- عرف الإنسان المصري القديم الكتابة قبل الإنسان العراقي القديم بنحو مائتي عام، على أقل تقدير ٠

د٠ اسماعيل عبد الفتاح محمد عبد الفتاح - كلية الاداب- جامعة جنوب الوادي بقنا - (حالياً. كلية التربية للبنات بتبوك - قسم التاريخ - المملكة العربية السعودية؛ تبوك ص٠ ب؛ ٧٩٦). Email: altaawoos@hotmail.com

الهوامش :

(١) من المعروف أن نبات الغاب ونبات البردي كانا يمثلان الأحراج، التي كانت بمثابة الموطن الطبيعي للتمساح، الذي عبد فيه قدماء المصريين قوته وضراوته؛ لذا عبدوه – كما اعتقدوا – درءاً لشروره بالتقرب اليه بالعبادة والقربان كغيره من معبودات مصر القديمة .

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

باقر، طه ١٩٦٥، "أصل الحروف الهجائية وانتشارها"، **مجلة سومر**، مجلد رقم (١).

ديورانت، ول، **قصة الحضارة، المجلد الأول، نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، ترجمة د.زكي نجيب محمود، محمد بدران .

سليم، أحمد أمين ١٩٩٥، **دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم منذ الدهور الحجرية وحتي بداية العصور التاريخية في مصر وبعض مناطق الشرق الأدنى القديم**، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

صالح، عبد العزيز ١٩٧٩، **الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول مصر والعراق**، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية.

عبد الفتاح، اسماعيل ١٩٩٦، سوبك منذ بداية الأسرات وحتي نهاية الدولة الحديثة، دراسة حضارية لغوية، رسالة دكتوراة غير منشورة في الحضارة المصرية القديمة ، جامعة الزقازيق.

عطالله، مصطفى ١٩٩٨، "الهيئات الآدمية غير التقليدية في عصور ما قبل التاريخ والعصر المبكر في مصر (من خلال مناظر الصيد ومناظر وتماثيل الأعداء والأسرى)"، **مجلة كلية الآثار**، العدد التاسع، جامعة القاهرة.

فرج، بصمة ١٩٨٥-١٩٨٦، الحقبة الزمنية بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية في بلاد الرافدين، **سومر**، الجزء الأول والثاني، المجلد الرابع والأربعون.

نور الدين، عبد الحليم ١٩٩٨، **اللغة المصرية القديمة**، جامعة القاهرة.

موسكاتي، سبتينو ١٩٥٧، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: د. السيد يعقوب أبو بكر، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، لندن.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Ayrton, E., W. Loat 1911. **Pre-dynastic Cemetry at El Mahasna**, London.

Brunton, G. 1927. O. B. E. with chapters by Alan Gardiner and Flinders Petri, 'Qau and Badari I", **BSAE** XLIV, London.

Brunton, G. 1928. "Qau and Badari II", **BSAE,** London.

Brunton , G. 1948. **Matmar**, London.

Cottrell, L. 1965. **The quest for Sumer,** G. P. Putnamsson, New york.

Crawford, H. 1991. **Sumer and the Sumerians**, Cambridge University Press, New York .

Cros, Nouvelles Fouilles de Telloh.

Curdy, MC . **History probhecy and the monuments**, vol. III, section 873.

Delitzsch, F. 1897. **Die Entstehung des altesten Schriftsystems** .

Dolzani, C 1961. II Dio Sobk, atti de/lla accademia nazionale dei lincei, CI. Di scienze morali, storiche e filologiche, **Serie** VIII, 10.4, Rome .

Frankfort, M. A. H. 1939. **Cylinder seals, a documentary essay on the art and religion of the ancient near east**, London.

Falkenstien 1936. **Archaische Texte aus Uruk**, Berlin.

Gardiner, A. 1916. "The Egyptian origin of the Semitic", **J. E. A**; III.

Gibson, M., R. D. BIGGS 1977. **Seals and sealing in the ancient near east**.

Grimme 1923. **Althebaische Inschriften Von Sinai**.

Helck, Z 1990. "Untersuchungen zur Thinitenzeit gesamtagyptischen, Staates", **MDAIK**, 46.

Helck, W. 1971. **Die Beziehungen Agyptens zu Vorderasien** i, 3. und 2. Jahrtausend v. Chr. Agyptologische Abhandlungen 5.Wiesbaden (Second Edition) .

Heuzey, 1969. **Catalogue des Antiquites Chaldeennes** .

Jequier 1933. **Les Pyramides des Reines Neit et Apouit, Fouilles de Saqqarah**.

Heuzey 1969.**Catalogye des Antiquites Chaldeennes**.

Kaiser, W. 1990. "Zur Entstehung des samtagyptischen staates", **MDAIK**, 46.

Kaiser, W. 1987. "Zum Siegel mit fruhen Konigsnamen von Ummel-Qaab", **MDAIK**, 43.

Kaiser, W. 1990. "Zur Entstehung des gesamtagytishen Staates", **MDAIK**.

Kaplony, P. 1981 . **Die Rollsiegel des alten Reich II B, Brussels.**

Kaplony, **Die Inschriften der Egyptischen Fruhzeit 1.**

Kramer, N., S. 1963. **The Sumerians**, University of Chicago.

Lythgoe, A., M. 1965. **Edited by Dows Dunham, The predeynastic cemetery, N 7000: Naga-ed-Der**, Berkeley, university of California.

Petrie F. 1900. **The Royal Tombs of the earliest dynasties,** part I, London.

Petrie, E. G. 1917. **Scarabs and cylinders with names,** illustrated by the collection in university collegge, London.

Peters, J, P. 1901. **Journal of The American Oriental Society first half**, vol.22.

Petrie, Wainwright, Mackay. 1912. The Labyrinth, Gerza and Mazguneh, **BSAE**, XXI, London.

Petrie, F. 1940. **The Wisdom of Egyptians,** London.

Postgate, J. N. 1992. **Early Mesopotamia, Society and Economy at the Dawn of History**.

Scharff, A. 1941. **Die fru"hkultur A"gyptens und Mesopotamiens**, Leipzig.
Scharff, 1931. **Zeitschrift fur Aegyptische Sprache,**



LXV11.

Scharff 1936. **Sitzungsberichte der Bayerischchen Akademie der Wissenschaften**, Phil.-Hist. Abt, Heft .
Sidney, S. **Early History of Assyria.**
Tostado, C ; A. Taylor, 2001. **Middle east and west Asia chronology, Sumer 3500-1900 BC**.

Zethe, 1916. **Der Ursprung des Alphabets, Nachrichten der K.Gesellschaft der Wissenschaften zur Gottingen Geschaftliche Mitteilungen**.



أضواء على الجريمة والعقاب في مصر القديمة

سمير أديب

ملخص: يُلقي هذا البحث بعضاً من الأضواء، على جانب من جوانب القانون والقضاء في مصر القديمة، هو جانب "الجريمة والعقاب". فقد عرفت مصر القديمة أنواعاً من الجرائم مثل: القتل، والسرقة، والرشوة، والاختلاس، والزنا، والشهادة الزور، وجرائم عسكرية، وأخرى تمس الملك، وغيرها من الجرائم. كما عرفت أيضا العقوبات، التي يمكن توقيعها ضد المخالفين. ونجد كثيرا من النصوص، التي تدعو إلى حسن الأخلاق، وتهدف إلى منع خرق اللوائح والقوانين. وكانت من تلك العقوبات الرادعة: الإعدام بأنواعه المختلفة، والأشغال (الشاقة)، والسجن، والنفي، كما عرفوا أيضا العقوبات المالية، والجزاءات الدينية. كما يتناول البحث الوسائل والإجراءات الجنائية، ثم يعرض نماذج لأشهر الجرائم وطريقة مكافحتها، والعقوبات التي طُبقت عليها. وهكذا يتضح أن تلك الأنظمة القضائية والإجرائية كانت من أدق الأنظمة القديمة، في الوصول إلى العدالة والحقيقة.

Abstract. *The paper highlights one aspect of the judiciary system in Ancient Egypt; namely, crime and punishment. Ancient Egypt did know many crimes such as, among others, murder, theft, bribe, misappropriation, adultery, perjury, those of military nature, and those that touched the King. Consequently, Ancient Egypt knew corresponding punishments imposed on violators. In addition to texts calling for decent behavior and abstention from violating laws and statutes, there were severe punishments which included all kinds of capital sentencing, hard labor, incarceration, and exile. Religious and financial penalizations were also known. The paper then addresses the judicial means and procedures, and presents samples of the most notable crimes and how they were fought and what punishments were enforced. The paper makes clear that those judicial statutes and procedures were among the most refined and accurate ancient systems in the service of justice and truth.*

بنى المصريون القدماء أساس سلطة حكومتهم، على مجموعة من المبادئ والقواعد، التي ينبغي أن يسيروا عليها. وقد حدّدت هذه المجموعة وظيفة كل فرد وعلاقته بغيره. وحاولت أن توجد نظاماً عملياً لكل شئ، يبعث على حسن النظام واستتباب الأمن. وكان الملك يصدر عدة مراسيم لحفظ النظام، وقمع المجرمين والمخالفين، والتعيينات في المناصب، وتخصيص الأوقاف. ومن الواضح أن القانون نشأ في مصر منذ عهد بعيد، وكان يتضمن مبدأ المساواة في المعامله. وسوف يتضح من هذه الدراسة أن القضاء في مصر القديمة، كان منظماً تنظيماً جيداً، ويقوم على قانون متقدم ومكتمل.

يمكن تصنيف الجرائم في مصر القديمة إلي قسمين:

١- جرائم جنائية، بالمعنى الفنى الدقيق (أو جنايات).

٢- جرائم جنائية بسيطة (أو جنح).

١- جرائم الجنايات وعقوباتها:

اتسمت عقوبات الأفعال الجسدية بكونها بدنية وقاسية، مثل (الإعدام - التشويهات الجسدية - قطع أنف أو قطع لسان - أو قطع يد - جَلد)، وإن كان (Pirenne) يعتقد أن قدماء المصريين لم يعرفوا عقوبة قطع اليد (Pirenne 1943:139).

وقد لاحظ (Breasted) أن عقوبة قطع الأنف كانت من العقوبات الشائعة، ليست تجاة جريمة الزنا فحسب، بل أيضا

العدد الثامن جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٣م
(ص ص ٦٧ - ٨٨) ردمد ١٣١٩-٨٩٤٧

حيال جرائم أخرى متنوعة (Breasted 1926: 50).

ويتمثل أساس العقاب البدني لدى المصريين القدماء، في ضرورة معاقبة الشخص في جسده لأنة ارتكب الجريمة بهذا الجسد. وتطبيق ذلك يؤكد القاعدة؛ فالجاسوس يُقطع لسانة، ومزّيف العملات تُقطع يداه.

وبجانب هذه العقوبات الأصلية وجدت عقوبات تبعية، من أبرزها الحرمان من الحقوق المدنية والدينية. كما كان العقاب الأصلي يستتبع مصادرة الأموال، في جرائم معينة، أو حرمان الجاني من الانتماء إلى أسرته، ما يؤدي إلى حرمان أولاده من الميراث من أموال الأسرة (صدقي ١٩٨٦: ٢٩).

٢-جرائم الجنح وعقوباتها:

كان أمر تجريمها وعقوبتها يخضع لتقدير القضاة، أي كان القاضي يختص بالبحث فيما إذا كانت الواقعة تُشكل جرماً جنائياً أم لا؛ فإذا ما انتهى بحثه إلى وجود جرم جنائي بسيط، حَكم بالعقاب الذي يراه مناسبا للجرم حسب الظروف والملابسات (Mcdowell 2001: 315-320).

ونتناول الآن بشيء من التفصيل موضوع "الجريمة والعقاب" في مصر القديمة:

أولا: الجرائم:

١- القتل:

كان القتل جريمة يُعاقب عليها بالإعدام إذا وقع عمداً، سواء أكان القاتل حراً أم عبداً، على أساس أن حياة الإنسان أمر مستقل عن حالته المدنية. ويتضح من هذا الحكم أن المصريين القدماء توصلوا إلى فكرة "العمد الجنائي".

أما في حالة قتل الأباء، فكان القاتل (الابن أو الابنة) يُقتل حيا على أشواك، وفى حالة قتل الأبناء فكان على الأب أو الأم القاتل أن يحضن ابنه أو ابنته القتيل ثلاثة أيام. (الصقلي: فقرة ٧٧).

٢-الحنث باليمين، أو اليمين الكاذبة:

كان يعاقب بالإعدام على الحنث باليمين، ولا يجوز التسامح بهذه العقوبة أو العفو عنها. والحكمة من تقرير هذه العقوبة هي أن هذه الجريمة تُعد اعتداءً على مصلحتين مهمتين في المجتمع، هما: الاحترام الواجب للمعبودات وعدم إهانتها، وكذلك احترام العقيدة.

ويتضح من هذا العقاب أن المجتمع المصري القديم لجأ إلى هذا القانون، لحماية الأخلاق والدين، بل والضمير من الانحراف، ووجدوا في تغليظ القانون الوسيلة المثلى لتحقيق المجتمع المثالي. وكان من أنواع الحلف المقدسة الحلف على قبر "أوزيريس".

٣-الامتناع عن تقديم المساعدة لمن يحتاجها:

عاقب المشرِّع الجنائي المصري القديم على فعل الامتناع عن تقديم المساعدة لمن يحتاجها؛ فمن يقابل في طريقه إلى عمله (أو حقله) رجلاً يعتدى على غيره، بأي صورة من صور الاعتداء البدنيي كمحاولة قتله أو هتك عرضه، أو أي من الأمور التي ينبذها المجتمع (كالسرقة مثلاً)، ولم يدافع عنه مع استطاعته ذلك، يعاقب بالإعدام. أما إذا كان لا يستطيع مساعدته، فيجب -على الأقل- أن يسارع بالتبليغ عن المعتدي، ويقّدم المعلومات التي عرفها بنفسة.

وإذا ما قصّر الشخص في واجب التبليغ عمّا شاهده من جرائم بوجه عام، تعرض هذا الشخص لعقاب بدني ونفسي يتمثل في الجلد، وكذا بعقاب الترك بلا غذاء ثلاثة أيام.

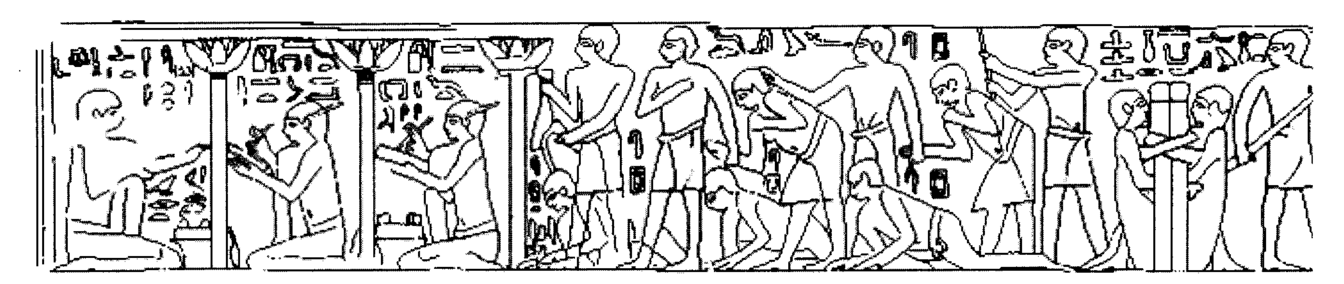
٤- تقديم إقرارات الذمة المالية بصورة مزورة:

وفقاً لأحكام القانون المصري القديم، كان من الواجب على كل مصري أن يقدم إقراراً يتضمن إسمة ومهنتة أو حرفتة ودخلة للسلطة القضائية، وإذا ما تبين من فحص هذا الإقرار ورود بيانات غير صحيحة فيه، أي ثبت وجود تزوير في هذا الإقرار، كان الشخص يعاقب بالإعدام. وكان العقاب نفسه يوّقع على الشخص، الذي يثبت بعد فحص إقرارة أن مهنته هى مهنة غير مشروعة.

ونقرأ في تعاليم "أمنمؤوبى لابنة:

- "لاتؤلفن لنفسك وثائق مزيفة، لأن ذلك خيانة عظمى (تستحق) الإعدام".
- "لا تزيفن في الدخل على دفاترك، وبذلك تفسد تدبير الأله" (حسن ١٩٤٥/ ج ١: ٢٦٨).





الشكل ١: مناظر مختلفة من تنفيذ عقوبة الضرب على المحكومين.

وتجدر الإشارة إلى أنة من الثابت تاريخياً أن "صولون ". واضع التشريع اليونانى القديم المعروف . قد اقتبس هذا الحكم من المصريين ليسنه في أثينا . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن اليونانيين، اقتبسوا من التشريع المصري القديم مبدأ تأجيل تنفيذ عقوبة الإعدام في الجرائم الأربعة السابق ذكرها، على الحوامل حتى يضعن حملهن.

٥- تزييف أو إستخدام العملات أو الموازين أو المقاييس أو المعايير المغشوشة، أو غير السليمة:

كانت هذه الجريمة تواجة بعقوبة قطع يدي الجاني، وكذا يسري العقاب نفسه على الكتبة العموميين، الذين يزوّرون أو يضيفون أو يلغون بعض العقود، في مستندات التصرفات، التي يقومون بتحريرها أو بتوثيقها . (الصقلي: فقرة ٧٨).

ونقرأ أيضا في تعاليم "أمنمؤوبى "لابنة:

- "لا تتلاعبن بكفتى الميزان، ولا تطففن الموازين، ولا تنقصن المكاييل، فإن تحوت يراقب الميزان، وإذا رأيت إنسانا يغش ابتعد عنه ".

-"لا تطفف في الكيل، وأوف المكيال بالدقة الواجبة، لا تتخذ لنفسك مكيالاً ذا حجمين، لا تغش فإن الله يمقت الرجل المدلّس ".

كذلك نقرأ في الاعتراف السلبى للمتوفى، أمام محكمة الآلهة قولة: "أنا لم أنتقص من المكيال، لم أنتقص من الأرورا، لم أغش فيما يتعلق بمساحة الأراضى المزروعة، لم أطفف الميزان، لم أزد أو أنقص مقياس الحبوب ".

٦- السرقة:

كانت السرقة تُعد جريمة جنائية عامة تمس المجتمع كله، لا الضحية وحدها . وكان عقابها ألف جلده على حسب قانون "حورمحب". وفي حالات أخرى كانت تصل العقوبة إلى الحبس أو الإعدام. كما كان السارق يوصم بعلامات ظاهرة، في خمسة أوضاع مختلفة من جسمه، كما نص عليه في المادة السابعة من قانون "حور محب " (لبيب ١٩٤٢: ٣٧ -١٤٧).

ويعقِّب Bedell بأن فرعون مصر كان يملك إصدار القرار الأخير حيال السارق، يعني أنه يستطيع أن يعفو عن هذه العقوبة (Bedell 1973: 147- 148). كما ثبت أن عقاب السرقة كان يوقّع على الرجل وعلى المرأة على قدم المساواة، مما يوضح أخذ المصريين القدماء بمبدأ المساواة في العقاب.

وهناك رأي آخر يرى أنّ عقاب السرقة كان قطع الأنف، كما في معاقبة جريمة الزنا (De Boys 1845: 20)، ورأي ثالث يرى أن عقاب السرقة كان الجلد؛ ولكن تُجمع كل الآراء على أن عقوبة السرقة في أواخر عهد الفراعنة أصبحت عقوبات مالية (غرامات)، ومن ثم لم يكن لها أي فاعلية (Bluche 1975: 144).

وفي النصوص المصرية نجد مثلاً، "ونى" من الأسرة السادسة يتباهى في حملاتة بأن في عصره" لم يسرق أحد رفيقه "، وفى قصة "الفلاح الفصيح "نجده يصف الحالة التي وصلت إليها البلاد بقوله: "إن من يكيل أكوام الحبوب يغش لصالحه، ومن يملأ مخزن غلال الغير لا يكيل بالقسطاس أملاك هذا الأخير، ومن كان عليه أن يشرف على (تطبيق) القوانين يأمر بالسرقة... "

وفى الاعتراف السلبى للمتوفى يقر بقولة: "أنا لم أسرق، أنا لم أسرق ملكية إله، أنا لم أسلب طعاما، أنا لم أسرق حصة الخبز".

ونقرأ في مرسوم "نورى" من عهد "سيتى الأول ": "أي

فرد يوجد سارقاً متاعاً خاصاً ببيت "من ماعت رع" سيعاقب بجلده مائة جلدة وينتزع منة المتاع الخاص ببيت "من ماعت رع" بوصفة متاعاً مسروقاً بنسبة مائة لواحد".

ومن أمثلة جرائم السرقة ما نُصّ عليه في معاهدة التحالف، التي عُقدت بين الملك "رمسيس الثاني "وملك الحيثيين: "إذا ارتكب أحد رعايا الطرفين سرقة، وجب نفيه وتسليمه لدولته ".

وهذا النص يدل صراحة على أن الإبعاد كان محتماً على كل فرد من رعية أحد المتحالفين، إذا ماترك وطنة لسبب جنائي. ويقابله في القانون الحديث "اتفاقيات تسليم المجرمين". (لبيب ١٩٤٢: ١٠٣).

ومن أهم الأمثلة على جرائم السرقة، ما حدث في الأسرة العشرين من سرقة عدة مقابر لأفراد وموظفين وملوك. ويُفهم من تطبيق العقوبة على فاعليها، أن هذه الجريمة كانت في حكم ما نسميه الآن: "حق النظام العام "، فكانت الدولة هى المجني عليها في هذه السرقات، باعتبارها جريمة مخلة بأمن المجتمع وكيانه.

٧- الرشوة:

من جرائم الرشوة ما نُصَّ عليه في قانون "حورمحب "، في المادة الرابعة من مجموعة قوانينه من معاقبة المرتشي بالنفي إلى الحدود وجدع أنفة. كما نص كذلك على مجازاة الموظفين المكلفين بجباية الضرائب، الذين يقبلون الرشوة من جانب المكلفين بدفعها. كما نص على عقوبة الموت للقاضي المرتشي، وكذلك عقاب مختلسي أموال الناس بالباطل.

ونقرأ في قضية السرقات الكبرى، التي حدثت في عهد "رمسيس التاسع"، أن "حعبى ور" قال: "إننى رتبت الأمور لكي لا يكون حرس الجبأنه في نوبتهم الليلة. لقد كان الأمر يسيراً، فقد رشوت الكاتب التعس في قسمنا ليكتب مذكرة بإمضاء مجهول أمليتها بنفسي تشير إلى أن كاتبها علم أن محاولة ستتم الليلة على قبر في الوادي بواسطة عدد ضخم من الرجال، ثم أرسلت المذكرة إلى مدير البوليس، وإنني سوف أحس أنني استحق الاتهام بالغباء بقية أيام حياتي إن لم يرسل رجال الشرطة الليلة إلى الوادي نتيجة هذه الأشارات المزيفة" (شورتر ١٩٥٦: ١٩٧-١٩٨).

و نقرأ فى النصوص المصرية، في تعاليم الملك "خيتى"، قوله لإبنة "ريكارع": "أكثر العطاء لكبار رجالك ليقيموا أحكامك، الانسان الثرى في داره لن يكون منحازاً، لأنه يمتلك الخيرات وليس له إحتياجات، أما الإنسان المعوز فلن يتحدث طبقاً للحقيقة، ولن يستطيع أن يكون عادلاً ذلك الذي يقول: آه لو كان عندى، ولسوف يميل ناحية من يرضيه ويحابى من يقدم له المكافآت (أي الرشاوى) ".

ونقرأ في تعاليم "أمنمؤوبى" لولده:

- لا تقبل هدية رجل قوي لتظلم الضعيف من أجله، فالعدل هبة غالية من الله يهبها لمن يشاء".

- "لا تتقبل رشوة من صاحب نفوذ".

وفى عهد الرعامسة نجد كثيراً من النصوص، التي تُعَبِّر عن صورة لقضاء مرتشٍ تقوم العدالة الصادرة عن العالم المقدس بالتعويض عنه، فنقرأ مثلا: "آمون رع يا أول من ولى المُلك، يا رب الأصول ووزير البائسين، يا من لا يقبل رشوة من متهم ولا يوجة كلاما إلى شاهد، ولا ينظر إلى من يغدق بالوعود، آمون يستكشف الأرض بأصابعة وينطق وفق ضميرة، إنه يُصدر حكمه على المدان ويضعه في النار الشرقية ويضع العادل في الغرب، آمون قاضي الفقراء ". (هوسون وفالبيل ١٩٩٥: ١٣٢-١٣٣).

٨- اختلاس الأموال الأميرية:

وهى جريمة عقابها واضح في قانون "حورمحب "، وهو جدع أنف المختلس ونفيه إلى بلدة "ثارو "على الحدود الشمالية الشرقية، كما جاء ذلك في المادة الأولى من مجموعة قاونينة، وكما جاء كذلك في مرسوم "نورى "من عهد "سيتي الأول ".

٩- الزنا:

كان الزنا في مصر القديمة يُعدُّ خطيئة دينية، ولهذا كان المصري يقر دائماً على نفسة في وصيته أنة لم يرتكب أثناء حياتة هذا الفعل القبيح، فـفعل الزنا للرجل والمرأة يُعد إهانة (Capart 1899-1900: 15).



وفيما يتلق بعقوبة الزنا، فتوجد نظريتان:

- **النظرية الأولى:** ويأخذ بها (ديودور الصقلي) الذي يميز بين "فعل الزنا"، وفعل "هتك العرض" أو "الأغتصاب"؛ إذ يقرر أن الزنا لو تم بالغصب أو بالعنف، كان الجزاء يتمثل في قطع الأعضاء التناسلية. أما لو تم بغير عنف، فإن الرجل الزاني يجلد ألف جلدة والمرأة الزانية تجدع أنفها (Dagallier 1914: 177- 178).

وواضح أن الحكمة من إقرار هذا العقاب، هو ايلام الرجل يقصد إيلامة في رجولتة، مقابل اللذة الأثمة؛ أما المرأة فيجعلها العقاب عبرة ومحل خدش حياء وعار دائماً، وكذلك يحرمها نهائياً من جمالها وفتنتها، التي أثارت في الرجال الانحطاط في غرائزهم.

- **أما النظرية الثانية:** فتذكر أن العقوبة الإعدام، وكانت تطبق على الجناة حتى لو كانت الجريمة في مرحلة الشروع.

كما كانت تتطلب في الغالب شاهدين، كشرط أساسي لتطبيق عقوبة الإعدام. وواضح أن عقوبة الإعدام لم تكن تُوقع إلا في حالة الفعل الفاضح العلني ذائع الصيت بين الناس، استناداً إلى نصوص بردية (بولاق ١). وكما نرى في بردية (ليد)، فإن الناس كانوا يكفِّرون عن خطاياهم حينما يرتكبون فعل الزنا بالإعدام، وأن الشروع في الزنا كان يواجة العقوبة نفسها، أي حتى لو لم يُرتكب فعل الزنا بأبعادة المادية.

وهناك من ينتقض نظرية (ديودور) السابقة بناءً على قصة "خوفو والسحرة"، التي توضح أن الالقاء في الحطب لإعدام النساء الزانيات علناً، كان الطريق المتبع لتنفيذ عقوبة الإعدام (Bedell 1973 :166).

وربما امتد عقاب الإلقاء في الحطب (أي الحرق بالنار) إلى الرجل الزاني أيضا، فنقرأ في "كتاب الموتى"، الفصل ٢٥، السطر ١٥، على وجة التحديد اعتراف الرجل بأنه لم يزنِ، وفى السطر ١٩، من اعتراف الرجل أو شهادتة بأنه لم يرتكب أي فعل شائن مع أيّ امرأة متزوجة أو أيّ زنا.

و نقرأ فى القصص المصرية في قصة "الأخوين" أن "أنوبيس" ألقى بزوجته غير المخلصة إلى الكلاب بعد قتلها؛ وكذلك الدعوى التي رفعها "بيتان" ضد زوجتة الزانية أمام محاكم فرعون، وتأكيد "حتحور" بأن الزانية لاقت عقاب الإعدام بتقطيعها بالسكين، وكذلك إحراق زوجة "أوبنير"، وإلقاء رفاتها في النيل هي وعشيقها. وكما هو واضح هنا فإن عقاب الزاني بالمتزوجة (العشيقة)، هو عقاب الزوجة الزانية نفسه (Sedky 1981- 82: 479).

ونتذكر ما جاء في نصائح "بتاح حتب" لولده قائلا:

"إذا أردت أن تطيل صداقتك في بيت تزوره، سيداً كنت أم أخاً أم صديقاً فاحذر من الاقتراب من النساء في أي مكان تدخلة، فهو مكان غير لائق لمثل هذا العمل، وليس من الحكمة أن تُفرط في الملذات، فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك، إنها لحظة قصيرة كالحلم، والموت جزاء الاستمتاع بها".

كذلك يُحذِّر الحكيم "آنى" من الاتصال بزوجة رجل آخر بقوله:

"إن المرأة التي غاب عنها زوجها تقول لك كل يوم إني حسناء، وليس هناك مَن يشهدها وهي تحاول إيقاعك في فخها؛ إنها جريمة يستحق صاحبها الموت، عندما يعرف الناس أمرها".

ومن تعاليم عنخ شاشنقى:

- "من زنا بامرأة من الطريق، كان كمن نقب كيسه وحمله".
- "من نكح امرأة جاره، نُكحت زوجته على عتبة داره".
- "من نكح زوجة غيره على سرير، نُكحت زوجته على الطين".

ومن الاعتراف السّلبي للمتوفى أمام محكمة الآلهه:

"أنا لم أكن شهوانيا، أنا لم أقترف زنا، أنا لم أدنس نفسي"، أي لم تكن لدى علاقات جنسية مع زوجة رجل آخر. (بريتشارد ١٩٨٧ /ج٥،: ١٢٦).

وكذلك يقول: "أنا لم أزن في المكان الطاهر المخصص لإلهة مدينتي".

١٠ - البلاغ الكاذب وشهادة الزور:

كان يُعاقب على الكذب أو التبليغ الكاذب، بقدر ما كان يُعاقب على حلف اليمين الكاذب،ومع ذلك فقد كانت الظروف المحيطة بالكذب في التبليغ، تؤثر في تقدير العقاب تخفيفاً



وتشديداً؛ فمثلاً، مَن كان يكذب أمام القضاة عن طريق تعيشه كان يعاقب بالإعدام. وكقاعدة عامة كان يعاقب مقدِّم البلاغ الكاذب بالعقاب المخصص للجريمة المبلغ عنها كذبا، أي أن مبدأ القصاص كان يُطبق في هذه النوعية من الجرائم. أما إذا اتخذ الكذب صورة إقدام على تزييف عملات، أو تقليد أختام، عُوقب المزيف أو المزور بقطع يديه، أي أداة الجريمة، (Pastoret 1817: 181-270).

ونقرأ في الاعتراف السلبي للمتوفى:

- "أنا لم أرو كذباً، أنا لم أشوة سمعة عبد عند رئيسه".
- "أنا لم أنهمك في القيل والقال".

وفى تعاليم "أمنمؤوبى "يحذر ولده قائلا:

- "لا تشهد زوراً ولا تستعمل قلبك في الباطل، والله يمقت مَن يزوِّر الكلام".
- "لا تتحدث بالإفك والبهتان، فإن الكذب يمقته الله".
- "لا تدخل المحكمة وتزيّف كلماتك".
- "قل الصدق أمام القاضي ولا تجعل لأحد سلطاناً عليك".

١١- الجرائم الماسة بالعدالة:

تضمّن القانون المصري القديم جزاءً على بعض الأفعال، التي تنطوى على مساس بالعدالة. فقد جعل - مثلاً - من خروج القاضي على ما تقتضية وظيفته من نزاهة واستقامة، جريمة يعاقب عليها بمنتهى الشدة. فقد رأينا كيف كان قانون "حورمحب" يعاقب القاضي المرتشى بالموت، كذلك الجزاء الذي وقِّع على القاضيين اللذين سمحا لبعض النساء المتهمات في قضية المؤامرة ضد "رمسيس الثالث" بزيارتهما واستمتعا معهن بمجلس الشراب، والذي تمثل في صلم آذانهما وجدع أنفيهما (زناتى ١٩٧١: ٢٠٠).

١٢- قتل الحيوانات:

كانت حياة الحيوانات محمية بقانون العقوبات المصري، كحياة الانسان تماماً، بمعنى أن قاتل الحيوان كان يعاقب بالإعدام، إذا ثبت تعمده قتله. أما قتل الحيوان بصورة غير مُتعمّدة، فكان يستوجب الغرامة. وفيما يتعلق بالمعاملة السيئة للحيوان، كالضرب مثلاً، فقد كانت جريمة عقوبتها دفع غرامة للكاهن، وقد تصل العقوبة إلى حد الإعدام لو كان الاعتداء واقعاً على حيوان مقدس، إذ إن الأمر في هذه الحالة يتعلق بالآلهه لا بالحيوان. وكان الشعب غالباً - في حالة الاعتداء على حيوان مقدس - يتولى القيام بدور الجلاد والمنفِّذ للعقاب، دون انتظار لصدور حكم ضد الجاني (صدقي ١٩٨٦: ٥٢-٥٣).

١٣ - الجرائم العسكرية:

عرف قدماء المصريين النظام العسكري، وفطنوا إلى حتمية إيجاد نظام جنائي خاص بأفراد القوات المسلحة، وخصصوا عقوبات جسيمة، بل أكثر جسامة من عقوبات النظام المدني، لضمان حسن الانضباط بين صفوف الجنود.

ومن الجرائم العسكرية وعقوباتها المقررة:

أ - الهروب من الحرب:

كانت تُعد جريمة تستوجب الإعدام؛ ولكن إذا قام المتهم بهذه الجريمة بعمل بطولى بعد ذلك، يعوض بة جريمة الهروب، كان يُعفى من عقاب الإعدام ويعاقب بعقوبة أخرى، هى فقدان الاعتبار.

وعلق (ديودور الصقلي) على موقف القانون المصري في هذا الخصوص بقوله: إن المشرِّع جعل عقوبة فقدان الاعتبار أشد من عقوبة الإعدام، حتى يتعود الناس النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور. فضلاً عن أن المشرِّع رأى أن الذين يُقضى عليهم بالإعدام لا يفيدون الحياة العامة بشئ، بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونوا مصدر خير كثير، لحرصهم على استرداد اعتبارهم (الصقلي: فقرة ٧٨).

ب - عدم إطاعة الأوامر:

اعتبر عدم إطاعة الأوامر أو عدم تنفيذها أمراً يستوجب الحكم بالإعدام؛ ولكن كان القيام بعمل بطولى من قبل الجاني مبرراً ليُعفى من تنفيذ العقوبة. وبهذا الأسلوب المتميز في باب الأعفاء من العقوبة، جعل المشرِّع الجنائي الغاية من العقاب، قبل تنفيذ العقاب لا العقاب في حد ذاته.

ج - إفشاء الأسرار:



كان الجندي يواجة إفشاء الأسرار العسكرية بعقاب قطع اللسان. وكما هو واضح، فالمشرِّع الجنائي كان يتخير نوع العقوبة لتكون مشتقة من الجريمة ذاتها، ومن وسيلة ارتكابها. ففي عقوبة إفساء الأسرار يقطع اللسان، فيتأكد المشرِّع من أن الجاني لن يعود مطلقا لإرتكاب هذا الفعل، ويضمن استحالة العود الجنائي في الجريمة ذاتها، التي أُوقع عليها العقاب الجنائي (صدقي ١٩٨٦: ٥٤).

د - الخيانة العسكرية:

تُطالعنا النصوص بأن الهكسوس استطاعوا أن يستغلوا بعض الخونة من المصريين، ليقفوا بجانبهم. فقد كان على "كامس" أن يعاقب "تتى بن بيبى"، الذي كان على ما يبدو شخصية مصرية، أغلق على نفسه مدينة "نفروسى"، التي جعلها بؤرة للأسيويين. وعلى أي حال فقد لقى الخونة من "كامس" جزاءً مناسباً، إذ يقول عنهم كما ذكرت لوحة (كارنارفون): "خربت مدنهم وأحرقت أماكنهم، أذقتهم العار لما فعلوة مع مصر، لأنهم جعلوا أنفسهم يخدمون الأسيويين، ولأنهم تركوا مصر تعانى الأحتلال".

واستمر الخونة يعملون في صفوف المصريين، خلال حرب التحرير، التي قادها "أحمس" وفي ذلك يقول قائده "أحمس بن إبانا "، على جدران مقبرته في الكاب: "وبعد ذلك جاء (آتا) صاحب الجنوب، إذ ساقه حتفه وآلهة الوجه القبلى مستولون عليه. وقد وجده جلالته في (تنتاعا) وأحضره جلالته أسيراً، ثم أتى بعد ذلك الخائن المسمى (تتى عن) وقد جمع العصاة معة فذبحه جلالته وقضى على بحارته" (إبراهيم ١٩٨٦: ٤٣).

١٤-الخيانة العظمى:

وكان القاضي أو القضاة، الذين يتولون هذا النوع من القضايا، معينين من قبل الفرعون نفسه، وكانوا يتمتعون بسلطات واسعة مؤقتة، أي محددة بوقت إنتهاء القضية. ففى حكم الملك "بيبى الأول"، من الأسرة السادسة، نجد أنه عهد إلى وزيره "ونى" الفصل في قضية سرّية وقعت في حريم الملك؛ ولكن لا نعرف طبيعة الجريمة، أو طبيعة الحكم الذي صدر فيها، وإن يبدو أنها كانت مؤامرة ضد شخص الملك. ونجد أن الوزير سمع زوجة الملك بمفرده، دون أن يشاركه جلسة التحقيق أحد، إذ يقول "ونى": "وقد حدثت أن أُثيرت مسألة سرية كانت محل تحقيق في الحريم الملكى ضد زوجة الملك المحظية الكبرى، وقد طلب منى جلالته أن أتولى الحكم بمفردى دون أن أشرك معى أي وزير، أو قاضٍ خلافي".

ثم يذكر بعد ذلك: "لقد قمت بنفسي بتحرير المحضر، ولم يشترك معي إلا واحد من الموظفين المندوبين في هيراكونبوليس ". (هوسون وفالبيل ١٩٩٥: ١٣٥).

١٥ - الجرائم الماسة بالملك:

عندما حدثت مؤامرة في حريم الملك "رمسيس الثالث"، عهد الملك بالتحقيق فيها إلى لجنة فوق العادة مكونة من اثني عشر عضواً، قُسِّموا إلى قسمين، القسم الأول: يتكون من خمسة أعضاء، وكان يُطلق عليهم (الأمراء العظام لمحكمة العدالة)؛ والقسم الثانى: يتكون من سبعة أعضاء من الضباط. وكما يبدو فقد كانت لجنة مخصصة لمواجهة المهام الصعبة، ومشكلة من مستويات مختلفة؛ فهناك عضوان اثنان من مديرى الخزانة، واثنان من حملة الرايات، وخمسة من السّقاة، وأحد المنذرين الملكيين، وكاتبان (Buck 1937 : 152-164).

وقد أختير نصف أعضاء هذه اللجنة فقط ليحضروا المحاكمة كمحكمين لإصدار الحكم على مجموعة أولى من المتهمين، وكلّف باقي أعضاء اللجنة بالفصل في أمر مجموعتين أخريين من المتهمين. وبصفة عامة كانت الأحكام والعقوبات محدّدة، وقد انتحر كثير من المتهمين. وأصدرت المحكمة أحكاماً مختلفة، فبرّأت المتآمر الذي عَدل عن الأشتراك في الجريمة، وحكمت بإعدام الأمير "بنتاؤر"، الذي طُلب منة أن ينتحر. كما حكمت بقطع أذني ويدي من سهل للمتآمرين تنفيذ الشروع في المؤامرة، دون الأشتراك معهم.

وقد فوّض الملك هذه اللجنة في إصدار القرار، بإعدام أو تبرئة كل من يتعرضون لهم أثناء التحقيق؛ أي كان لأعضاء اللجنة حق حياة أو موت من يرونه مستحقاً لذلك. وكان من حقهم كذلك الاحتفاظ بأسماء المذنبين، وألا يطلعوا الفرعون

عليهم، ولا على العقوبات، التي اختاروها حيالهم.

وهنا نرى شبهاً كبيراً بين ما اتخذتة المحكمة من تبرئة المتآمر، الذي عَدل عن الاشتراك في المؤامرة، وما يتبعه القانون الحديث حيال "شاهد ملك". كما نرى أيضا احترام الملك لسيادة القانون ونزاهة القضاء، وتطبيقاً لمبدأ الفصل بين السلطات (لبيب ١٩٤٧: ١٠٢).

وكان الفرعون يقصد من هذا كلة ضمان استقلال وحرية القضاة، عند الفصل في القضايا الخطيرة والماسة مباشرة بشخصه. وقد يكون قصد الملك من هذا التفويض عدم السماح للمدانين بطلب العفو منه (Capart 1899 - 1900: 30).

ولكن من الملفت للنظر أنه قد لوحظ محاكمة أعضاء هذه اللجنة، في حالة تعسفهم في استعمال سلطتهم القضائية، وخيانتهم لثقة الملك، كما حدث في قضية "بنتاؤر" (Dagallier 1914: 171).

ثانيا: العقوبات

نجد بياناً بالعقوبات، التي يمكن توقيعها ضد المخالفين، في النصوص التي تدعو إلى حسن الأخلاق، أو التي تهدف إلى منع خرق القوانين واللوائح. وتعد المراسيم الملكية بالتأكيد من أهم المصادر التي تعطينا بيانات في هذا الشأن (Lorton 1977: 1 - 64).

ففي عصر الأسرة الخامسة، يهدد الملك "نفر إير كارع" رجال الأقليم، الذين يحاولون إعاقة الكهنة والعمال في معبد أبيدوس عن أداء مهامهم، أو تحويلهم عنها، بعقوبة الأشغال الشاقة في محاجر الجرانيت، وحرمانهم من المقررات المخصصة لهم من القمح والشعير. أما القضاة والقائمون بأعمال الملك ممن يرتكبون مثل هذه الأعمال، فهم معرضون بأن تصادر ممتلكاتهم وخدمهم.

وقد تضمّن مرسوم ملكي آخر، يرجع إلى عصر الإنتقال الأول، تدابير أخرى، منها: الحرمان من الأموال الخاصة والعائلية، لمن يعتدي على حرمة التماثيل الجنائزية وعلى موائد القرابين؛ ومنها كذلك الحرمان من حق الدفن في مدينة الأموات، والقيد بالسلاسل؛ وأكثر من هذا، فإن أقل تواطؤٍ أو تساهلٍ من جانب الموظفين نحو المذنبين، كان يستتبع فقد الوظيفة. كذلك صدر مرسوم في الأسرة السابعة عشر جاء فيه إن أي رئيس (أي حاكم او أمير محلي) يعفو عن مذنب بعد صدور حكم ضده، فهو معرض لأن يفقد عرشه.

وفى الدولة الحديثة ربط "حورمحب" كل مادة من مواد قانونه بتهديدات مناسبة بتوقيع عقوبات بدنية، مثل: الضرب بالعصا، وبتر الأعضاء، والنفي إلى ثارو. أما مرسوم "نورى "، الذي صدر في عهد الملك "سيتى الأول"، فقد أورد مجموعة من العقوبات البدنية، مشابهة لتلك التي وردت في قانون "حورمحب". إضافة إلى أنه قرر أنه بعد استرجاع الأموال، التي جرى تبديدها وتحويلها عن هدفها، أن يُلحق الجاني بفريق الرقيق، الذي يخدم في المؤسسه المعتدى عليها (Allam : 1 - 6).

بعض أنواع العقوبات:

١ - عقوبة الإعدام:

من الثابت أن مصر القديمة عرفت الإعدام، وكان على نوعين: نوع بسيط، ونوع مصحوب بتعذيب. وكان يتولى تنفيذ عقوبة الإعدام ممثلو السلطة العامة، ومع ذلك فيبدو أنه كان يُفَرّق بصدد تنفيذها بين النبلاء والعامه. فالنبلاء، وخاصة أفراد الأسرة المالكه، لم يكونوا يقتلون أو يعدمون بواسطة ممثلى السلطه؛ وإنما كانوا يتركون ليضعوا بأنفسهم حداً لحياتهم، أو بعبارة أخرى كان يفرض عليهم الانتحار.

وقد جاء في قضية مؤامرة الحريم ضد "رمسيس الثالث"، عن بعض المتهمين، أن القضاة "قد فحصوا أمرهم ووجدوهم مذنبين، لقد تسببوا في جعل الأحكام تُوقّع عليهم، وقبضت عليهم جرائمهم"، وهى طريقة مهذبة بدلا من القول إن حكم الإعدام نُفّذ فيهم. أما المجرمون ذو المكانة الكبيرة فقد عوملوا بما يقتضيه قانون الشرف، "وجدوهم مذنبين وتركوهم لأنفسهم في ساحة المحكمة، فانتحروا ولم توقع عليهم العقوبة " (زناتى ١٩٧١: ٢٠٦).

كان الإعدام يُنفذ علناً، ولكن عادة ما كان يوقف تنفيذه على المرأة الحامل، إلى أن تضع حملها.

أ - الإعدام البسيط:

وكان إما بالشنق أو قطع الرأس. وكانت هذه العقوبة تُوقع في حالات، منها:

- السحر وانتهاك الحرمات المقدسة، أو أي جريمة تمس الدين.
- عدم الكشف أو التبليغ عن المؤامرات، التي تحاك ضد فرعون.
- عدم إطاعة الأوامر.
- القتل.
- الإخلال والخطأ، أو عدم مراعاة القواعد الفنية لممارسة الطب.
- الحنث باليمين.
- البلاغ الكاذب، وفى بعض حالات الكذب.
- من يشهد جريمة قتل ولا يساعد الضحية، إذ كان موقفه السلبي يعد نوعاً من الاشتراك في القتل.
- عدم تقديم إقرارات الذمة المالية، أو تقديم إقرارات مزورة، أو تقديم إقرارات تتضمن مصادر دخل غير مشروعة للكسب.
- الفنان أو الصانع الذي يتدخل في السياسة العامة، أو المسائل العامة، على أساس أن انشغاله في هذه الأعمال يقلل من مهارته الفنية.
- جرائم الرشوة والإختلاس.
- قاتل الحيوانات المقدسة.

ويبدو أيضا أن الإعدام بقطع العنق كان مقرراً للجرائم السياسية، إذ نشاهد على صلاّية "نعرمر"، الملك وهو يقطع رؤوس عشرة من أعدائه الثائرين عليه. كما نشاهد أيضا على رأس دبوس الملك العقرب، سكان مدن الدلتا وقد ظهروا مشنوقين في رموز مقاطعتهم المختلفة. ونعلم من بردية "وستكار" أن مجرماً حبس حتى ينفّذ فيه حكم الإعدام بقطع عنقه.

ب - الإعدام المصحوب بتعذيب:

كان للقاضى الخيار في اختيار طريقة التعذيب، ونجد أن زوجة الملك "أمازيس" لم تسلم من التعذيب، عند اتهامها بالشعوذه.

وكان من أنواع الإعدام المصحوب بالتعذيب:

١ - التعذيب بالنار: كان عقاب الزانية والعاهرة، التي تنتمى إلى الطبقه الأولى في المجتمع، ثم أصبح عقابها بعد ذلك قطع الأنف.

٢ - التعذيب بالصلب: وكان يستخدم ضد الخائنين، وضد المتمردين، حتى لو مات المجرم قبل تنفيذ حكم الإعدام. وقد ورد في القرآن الكريم أن الفرعون المصري على زمن النبي موسى عليه السلام، توعَّد السحرة بعد إيمانهم بأن "يصلِّبهم" على جذوع النخل، (سورة الأعراف، آية ١٢٤، وسورة طه، آية ٧١).

٣ - الإعدام على خازوق: وهو من أنواع الإعدام المصحوب بالتعذيب، مثل ما جاء في مرسوم "نورى". كذلك جاء في بردية "ماير أ" الخاصة بسرقات المقابر في الأسرة العشرين، أن سبعة من اللصوص أُعدموا على الخازوق. وكان هذا العقاب يشار إليه كثيراً عند حلف اليمين أثناء تأدية الشهادة إذ يقول الشاهد: "إذا تكلمت كذباً فلأوضع على خازوق".

٤ - الإعدام بالأغراق: جاء ذكر هذه العقوبة، في بردية "وستكار "، فقد كان الموت عقوبة الزانية، أو الزاني، غرقا أو حرقا. ففي روايتها عن علاقة شاب بامرأة كاهن، أن الشاب افترسه تمساح بتنفيذ الكاهن نفسه، بعد أن نزل به إلى الماء؛ وأن المرأة أُحرقت علناً. وعلى كل حال فهناك ما يشير إلى تخفيف هذه العقوبة، فيما تلا ذلك من عصور.

٢ - عقوبة الأشغال العامة (الشاقة):

كانت هذه العقوبة تُفرض على المحكوم عليهم، إذا ما صدر عنهم عفو؛ إذ من الثابت تاريخياً قيامهم ببناء المدن، والمعابد، وشق الترع، وحفر المناجم...الخ. وكانت توجد معسكرات للأشغال الشاقه، وقد أصبحت محاجر الجرانيت



في أسوان - على الأرجح - منذ عصر الأسرة الخامسة تعد من ضمن هذه المراكز العقابية.

وقد أشارت وثيقتان من وثائق دير المدينة، ترجعان لعصر الرعامسة، إلى ورشة لتقطيع الأحجار كانت قائمة في (مكان الحقيقة)، على الضفه الغربيه لطيبه، وكانت هذه الورشه مكانا يعمل فيه المحكوم عليهم لتنفيذ العقوبات الصادره ضدهم. ويتعلق الأمر في هاتين الوثيقتين بأعمال شاقة، كان يُكلف بها الأشخاص الذين صدرت ضدهم أحكام في جرائم خطيرة؛ ولكن العمل في هذا المكان لم يكن قاصراً على المذنبين وحدهم (هوسون وفاليل ١٩٩٥: ١٣٩، ١٤٠). و(مكان الحقيقه) "st - mAat" في اللغة المصرية القديمة هو الأسم الأصلي لقرية عمال دير المدينة.

٣ - عقوبة السجن:

يبدو أن عقوبة السجن كانت من العقوبات القاسيه. فقد كُتب في نقش على جدران مقبرة "بايرى"، في جبّانة شيخ عبد القرنة رقم ١٣٩، خاص بـ "باو اح " من عظماء عهد الملك "توت عنخ أمون " : "إن قلبي لفرح يا آمون يا ناصر الفقير... إنك مثل نَفَسٌ الحرية إلى رجل كان في السجن"، وجاء في إحدى الأناشيد لأمون رع: "السجين يتطلع إليك، والذي أصابه المرض يناديك".

وكان المجرمون يحتجزون في سجون خاصة ما داموا رهن التحقيق؛ فإذا صدر الحكم عليهم أرسلوا إلى سجون أخرى، لينفذ فيهم العقاب. وقد يقترن السجن بتسخير المذنب في أداء بعض الأعمال. ومن قبيل ذلك ما نص عليه المرسوم الصادر من الملك "نفر اير كارع"، الذي أعفى كهنة معبد أوزيريس بأبيدوس من أداء السخرة، وقضى بمجازاة من يأخذ أحد الكهنة الموجودين في حقل الأله، والذين يؤدون عليه خدمة كهنوتية من أجل السخرة أو أي عمل آخر، بإيداعه سجن المعبد، واستخدامه هو نفسه في أي سخرة.

ومن تعاليم الملك "خيتى" لولده "مريكارع" نقرأ: "إذا وقعّت عقوبة فليكن بالضرب أو السجن، ومن ثم تستقر أحوال البلاد". وعلى الرغم من ذلك يحدثنا الملك "إنيوتف الثالث"، من الأسرة الحادية عشرة، بأنه فتح السجون وأفرج عمّن فيها.

وكانت المحاكم تطّبق عقوبة السجن على عامة القوم، فضلا عن كبارهم من الموظفين والكهان؛ ومن ثم فقد سجل "ببى عنخ "، من وزراء الأسرة السادسة على جدران مقبرته أن محكمة السّراه برأته من تهم وجهّت إليه، عندما كان الكاهن الأكبر لحتحور في مدينة قوص، وأن هذه الاتهامات كانت عقوبتها السجن (مهران، جـ ٥ ١٩٨٤ :٢٢٥، ٢٢٦).

٤ - عقوبة النفي:

لم يكن النفي لبلاد أخرى غير مصر، أو ممتلكتها، التي تشرف عليها؛ ومع ذلك فالتعبير بالنفي تعبير غير دقيق، وإن استخدمته النصوص المصرية، لأن معناه إبعاد المجرمين خارج البلاد، بينما كان يجري -في الواقع- إبعاد المجرمين، إلى منطقتين تُستخدمان لهذا الغرض، داخل البلاد، هما: النوبة (كوش) في الجنوب، و "ثارو "على الحود الشماليه الشرقيه للبلاد. ولذلك كان الأصوب إستخدام التعبير الحديث: "اعتقال المجرمين ".

ومن الحالات التي كان يُقضى فيها بالنفي، الاستيلاء على قارب يستخدم في نقل الضرائب. فقد نص قانون "حورمحب "على مجزاة الفاعل بقطع أنفه، ونفيه إلى "ثارو "؛ وكذلك جاء في قضية سرقات المقابر في الأسرة العشرين: أن الشخص في قاعة المحكمة رغبة منه في الإقناع بصحة ما يذكره، كأن يقول: "لتجدع أنفي، وتصلم أذنأي وأرسل إلى كوش، لو أن ما قلته كذباً ". ويظهر أن بعض المجرمين كانوا يرسلون إلى بلاد كوش للعمل في مناجم الدهب، أو لمجرد العقوبة فقط.

وفي عهد الأسرة الحادية والعشرين نشبت ثورة في طيبة، واستطاع الملك "بانجم" أن يسحق الفتنة، وأن ينفي بعض الثوار إلى الواحات، ويولي ابنه "من خبر رع" كرئيس لكهنة أمون، الذي استقبل عهده سائلاً الإله أمون: "ألا فلتعطف على من أمرت بنفيهم، ألا فلتأمر بألا يقاسي واحد مرارة النفي بعد اليوم"، وقد استمع أمون إلى رجائه، وأعيد أولئك الذين كانوا قد عوقبوا بالنفي إلى طيبة (إبراهيم ١٩٨٦: ١٦٣).

٥ - العقوبات التعبيرية:

وكانت من نماذجها:

- قطع يد المزيفين والمزورين.
- قطع لسان الجواسيس ومن يكشفون أسرار الدولة.
- قطع يدي المرأة المتهمة بنكاح المحارم.
- قطع العضو التناسلي للرجل المغتصب الأعراض (Dagallier 1914 : 177).
- صلم الأذنين وجدع الأنف.
- كسر أداة الجريمة حتى لايعود المجرم إلى إرتكابها، بواسطة هذه الأداه.
- قطع الأذنين لمن يزحزح الحدود (كما جاء في مرسوم نوري).
- قطع الأذنين وجدع الأنف للسرقه (كما جاء في مرسوم نوري).

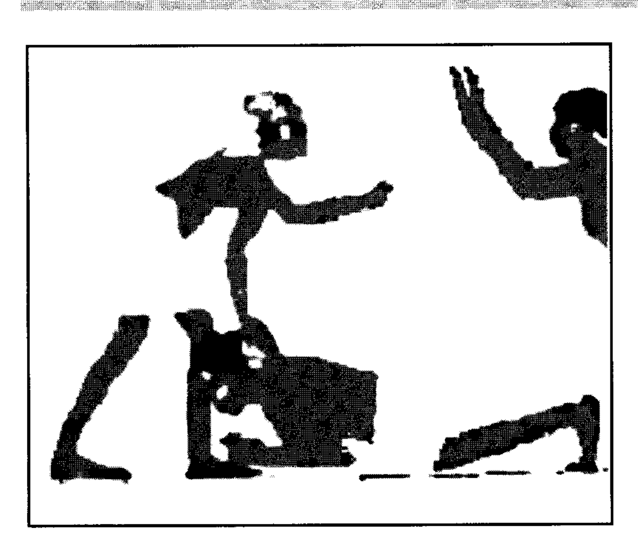
٦- العقوبات الأستثنائية:

عرفت مصر القديمة العقوبات الاستثنائية لمواجهة جرائم إستثنائية، كجرائم قتل الأبناء آباءهم (فالجاني تقطع أطرافه، ويحرق تحت أشواك)، وقتل الآباء أبناءهم (فالجاني يحمل جثة ابنه ثلاثة أيام في الطرق)، كنوع من العقاب النفسي.

٧- العقوبات البدنية:

كان الضرب هو أكثر الجزاءات شيوعا على الأطلاق؛ ففي عصر الدولة القديمة نجد "نزايب" رئيس الأسرار، الذي عاش في عهد الملك "إسيسي"، يقول: "لم أُضرب قط منذ ولادتي أمام عضو محكمة السراه". ومن الجرائم التي كان يُعاقب عليها بالضرب، ما نصّ عليه المرسوم، الذي أصدره الملك "سيتى الأول"، بهدف حماية مؤسسة دينية في أبيدوس. فقد قضى هذا المرسوم بمعاقبة أي شخص يأخذ بالقوه ودون وجه حق، راعياً من رعاة المؤسسة، فيتسبب عن ذلك خسارة في الماشية، بالضرب مائتي عصا، ودفع مائة مِثْلٍ للماشية المفقودة، على سبيل التعويض.

كذلك، ما نصَّ عليه قانون "حورمحب" من مجازاة الجندي الذي يغتصب جلوداً من أحد الفلاحين بالضرب مائة عصا،



الشكل ٢: أحد مناظر العقاب بالضرب من مقبة مننا.

فضلا عن شق جلده في خمسة مواضع. ويبدو أن جُرح الجزء المضروب كان ضرورياً عقب الجلد، حتى لا ينحبس الدم.

كما كان الضرب بالسياط من العقوبات البدنيه المنتشرة، وفي عصر الانتقال الأول ينصح "خيتى" ولده "مريكارع" فيقول: "اذا وقعّت عقوبة فليكن بالضرب أو السجن، ومن ثم تستقر أحوال البلاد. كما ينصحه في الوقت نفسه بعدم توقيع عقوبة الإعدام، إلا في حالة الخيانة، وقد كان مقدار عقوبة الجلد يتراوح ما بين جلدة واحدة إلى ألف جلدة.

ويلاحظ أن العلاقة الوثيقة، التي توجد أحياناً في العقلية المصرية، بين فكرة سؤال الأعضاء المحققين في المحكمة، وبين فكرة الحض على جواب صادق، قد عُبر عنها في اللغه المصرية ببعض جمل مثل "يمتحن بالضرب". وكانت الطرق التي تُستعمل في حضّ الشاهد على الكلام ثلاثاً، وكلها ذكرت في بردية بالمتحف البريطانى رقم (١٠٠٥٢) وهى خاصة بسرقات المقابر في الأسرة العشرين، وهى العصا أو فرع الشجره وكذلك الضرب بالفلقة. وقد كان التعذيب من أي نوع يستمر حتى يقول الشاهد "قف سأعترف"، وبعد ذلك يتلو بيانه، فإذا وُجد أنه غير مُرضٍ ضُرب ثانية أو عُذب. وقد يحدث أن يُشفع ذلك بالضرب مره ثالثة. وكان هذا الضرب يؤدي الى الاعتراف، عادة، بالمعلومات المطلوبة؛ وإذا لم يؤد إلى ذلك، فإن هذا الجزء من المحاكمة كان ينتهى بقول الشاهد "إنى لم أرها"، أو يكتب الكاتب الذي يسجل الشهادة: "إنه لا يريد الاعتراف". وقد كان يعترف أحياناً بغير الحقيقه

من شدة ألم الضرب.

٨ - العقوبات المالية:

وكان من أمثلتها:

أ - المصادرة والعزل من الوظيفة:

كانت هذه العقوبة شائعة الاستعمال، لدرجة أن المؤرخين عدوا الملك "مازيس" متعسفاً في استعمالها بقصد الثراء لنفسه. وقد كانت هذه العقوبة مخصصة لمن لا يحترم أوامر الملك. ونقرأ ما قضى به مرسوم "نفر اير كارع"، من الأسرة الخامسة، بمجازاة أي موظف، أو أي قريب ملكي، أو معاون زراعي يخالف أحكام هذا المرسوم، بالعزل من وظيفته، وتقديمه إلى المحكمة، ومصادرة البيت والحقول والناس وكل شيء في حيازته.

كما نقرأ في خاتمة قصة (الفلاح الفصيح): "عندئذ أمر رئيس الحجاب"، رنسي بن مرو ، "اثنين من الحرس بأن يتوجهوا لإحضار "جحوتى نخت "، وأحضروه، ثم جرى تجريده وتجريد رجاله من أملاكه، خلافا لمؤنه وشعيره في الوجه القبلى وقمحه وحميره والماشية وخنازيره وأغنامه، وسُلم "جحوتى نخت" هذا (كخادم في خدمة) هذا الفلاح (الى جانب) تسليم كل أملاكه للفلاح".

وفى أمر ملكي يرجع إلى الأسرة السابعة عشرة، نجد بياناً للعقوبات، التي أمر الملك بتوقيعها على أحد كهنة معبد، فقط جزاء على الجرائم الخطيرة التي ارتكبها. فقد قضى الأمر الملكي بفصل الكاهن من الوظيفة، ومحو اسمه من الوثائق الرسمية، ومصادرة ما يمتلكه في المعبد. وفيما يلى نص الأمر الملكي: "فليطرد من معبد أبي مين، وحولوا بينه وبين وظيفته في المعبد، وكذلك (أبناؤه) ابناً بعد ابن (وورثته)، وريثاً بعد وريث، اطرحوه على الأرض وخذوا ايراده، وعقد تمليكه وما يحصل عليه ككاهن، وامنعوا ذكر اسمه في المعبد، فهذا ما يستحقه من كان مثله، ثائراً على الإله وعدواً له، ولا تتركوا شيئا كتبه في معبد مين، سواء أكان في وثائق الخزينة، أو أي وثائق أخرى مماثلة" (Wilson 1963: 387).

كذلك، نقرأ في مرسوم "نورى" أن أي، شخص يغتصب، أو يسلب، أي شيء من مستحقات بيت "من ماعت رع"، تنتزع من الشخص المغتصب وتصادر، الأشياء المغتصبة.

ب - الغرامة:

تتمثل الغرامة في الحكم على الجاني بقدر من المال. وفي جرائم الأموال قد تتخذ الغرامة صوره مضاعفة لقيمة المال المسروق، أو المختلس. ومن قبيل ذلك ما نص عليه مرسوم الملك، "سيتى الأول" الذي قضى بمجازاة من يستولي على أحد الرعاة الخاصين بوقف معبد أبيدوس، بحيث ينجم عن عمله هذا ضياع ماشية، بالحصول من الجاني على الماشية المفقودة بمعدل مائة رأس مقابل كل رأس، فضلاً عن جلده مائتي جلدة. كذلك، كانت تطبق عقوبة الغرامة على من يقتل حيواناً مقدساً دون عمد، وكان يحدد قيمة الغرامة كاهن المعبد؛ وكذا من يدفن موتاه في حرم المعبد.

٩ - الجزاءات الدينية:

لم تكن العقوبات، التي سبق استعراضها، هى الجزاءات الوحيدة التي يتعرض لها الجناه. فقد كان الأشرار يتعرضون - طبقا للمعتقدات المصرية - لجزاءات من نوع آخر، وهى جزاءات توقعها المعبودات بالجناة في الحياة الدنيا وفى الآخرة، على السواء. فهناك إشارة صريحة في النصوص الدينية إلى تدخل الآلهة وإنزال العقاب، لا على الجاني وحده بل حتى على أفراد أسرته؛ فيذكرون أن "أوزيريس" سوف يطارد الشخص، الذي يعلم بوجود جريمة ولا يبلغ عنها، هو وزوجته وأولاده ليقضي على اسمه، ويحطّم روحه، ويمنع جثته من أن تستقر في الجبانه: "أما من يتجاهل هذا الأمر فإن أوزيريس سيطارده، وستطارد إيزيس زوجته، وسيطارد حورس أولاده، وسيحاسبه الآلهه العظام سادة الجبانة " (Wilson 1963: 387).

كذلك، جرت عادة المصريين بأن ينقشوا على جدران مقابرهم عبارات، تتضمن استنزال لعنة الآلهة على من يتجاسر على العبث بمحتوياتها. وكان الخوف من هذه اللعنة وآثارها، عاملاً فعالًا في معظم الأوقات، في توفير الحماية اللازمة لهذه المقابر؛ ولكن في فترات الشدة والقحط، وفى عهود الفوضى والاضطراب، كانت المقابر كثيراً ما تتعرض



للنهب والسرقات، وكانوا أحياناً يضربون عُرض الحائط بما كان على جدرانها من تحذيرات ولعنات. ومن هذه اللعنات: "كل من قام بأي عمل ضد ما هو موجود بهذا المكان، فليهاجمه التمساح في الماء، والثعبان في الأرض، ولن تُعمل له أبدا احتفالات جنائزية والإله هو الذي سيتولى إدانته".

وفى مقبرة لأحد حكام أسيوط، نقرأ على جدرانها: "كل الرجال، وكل الكتبة، وكل العلماء، وكل أفراد الطبقة الوسطى وأفراد الطبقة العامة، الذين يثيرون ضوضاء داخل هذه المقبرة أو يتلفون الكتابات المنقوشة عليها، أو يحطمون تماثيلها، سوف يتعرضون لغضب تحوت، أسرع الآلهه انتقاماً، وتُسلط عليهم سكين جلادي الملك المستقرين في القصور الكبرى، ولن تَقبل آلهتهم قرابينهم من الخبز". وعلى العكس، "فإن البركات العميمة سوف تُمنح للزائر المحتشم، الذي يقدّس هذا المكان، وسوف يُعمّر طويلا في بلده، ويكون موضع الاحترام في مقاطعته". (مونتيه ١٩٦٥: ٣٥٠).

وقد جاء في وصايا الملك "خيتي"، لابنه "مريكارع" قوله: "يجب ألا تؤمن بأن كل شيء سينتهي إلى عالم النسيان في يوم الحساب، لا تعتمد على طول سني الحياة فإن الحياة عند الآلهة ساعة واحدة مما تعدون، ذلك أن حياة الانسان تستمر بعد وفاته، وإن أعماله تتكدس بجواره، ومن تقدم بين يدي قضاة الموتى دون ذنوب كان بمثابة إله، واستطاع أن يسير بحرية مثله مثل سادة الأبديه".

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد، كان المصريون يحرصون على أن يدوّنوا على جدران قبورهم من العبارات ما يفيد ابتعادهم عن الشرور والآثام، وتجنبهم ارتكاب المعاصي والذنوب، وأنهم عاشوا حياه فاضلة أحسنوا فيها إلى ذوي القربى، ومدّوا يد العون إلى المحتاج (زناتي ١٩٧١ : ٢١٢، ٢١٣).

وقد تضمن كتاب الموتى فصلاً به تصريحٌ مطولٌ من المتوفى، ببراءته من عدد من الذنوب والآثام، نقرأ منها: "أنا لم أرتكب إثما ضد البشر، لم أسئ معاملة أحد من رجالي، لم أكلفهم القيام بعمل فوق طاقتهم، لم أفترِ على الآلهة، ولم أعُذّب الفقير، لم أجوّع أحداً، ولم أطفف الكيل، لم أقلل في القياس بالقصبه، لم أغش في مساحة الحقول، لم أقلل في الوزن، لم أحذف شيئا من ثقل الميزان، لم أغش في الوزن، لم أنزع اللبن من فم الأطفال، لم أعوق سير المياه في مواسم الفيضان، لم أعطل سير الإله عند خروجه ...".

وهكذا يتضح مما تقدم أن الأنظمة القضائية والإجرائية في مصر القديمة، كانت من أدق الأنظمة - بوجه عام - في الوصول إلى العدالة والحقيقة. وإذا كانت بعض الأخطاء، قد حدثت في التطبيق، فهي إنما ترجع للأشخاص لا إلى سلامة النظام.

ثالثا: وسائل البحث الجنائي

اتُبعت في عملية البحث الجنائي عدة طرق ووسائل مختلفة منها:

١- سجلات الجرائم والمجرمين:

تتلخص أحدث وسائل التحقيق الجنائي في عصرنا الحديث، في حفظ سجلات المجرمين مقسمه، حسب أنواع جرائمهم ووسائل ارتكابها؛ فإذا ارتكبت جريمة ولم يُعرف الفاعل، يمكن الرجوع إلى هذه السجلات لمعرفة المجرمين المتخصصين في ارتكاب مثل هذه الجريمة، بالأسلوب الذي ارتكبت به. وبذلك يمكن حصر الشبهات في عدد محدود من المجرمين، إذ لوحظ أن المجرم لا يغير نوع الجرائم التي يرتكبها، ولا اسلوبه في ارتكابها. فهل استُخدمت هذه الطريقة نفسها في مصر القديمة؟ (إبراهيم ١٩٨٦ : ١٤١ - ١٥١).

ويتضح من نقوش مقبرة "رخميرع" أن من واجبات الوزير، عند سماع قضية في قاعته عن موظف لم يكن كفئا في أداء عمله، (وينبغى هنا أن يؤخذ هذا التعبير بمعنى أوسع، أي هو الموظف الذي يرتكب جريمة تتعلق بعمله، كالرشوة أو الإختلاس مثلا، لأنه من غير المعقول أن يُقيد الموظف في سجل المجرمين، فقط بسبب إهماله أو تراخيه في عمله)، فينبغي أن يسمع الوزير حجة الموظف في هذا الموضوع؛ فإذا وجده مذنبا عند سماع ظروف القضية، فعلى الوزير إذن أن يقيد الموظف في سجل المجرمين.

وتذكر برديات سرقات المقابر في الأسرة العشرين مثل هذه السجلات. فقد جاء في بردية (أبوت) أنه عندما أُجري التحقيق مع النحاسين، واتضح أنهم لا يعرفون مكان قبر

الفـرعـون، أطلق الأشـراف سـراحـهـم، ووضـعـوا تقـريراً عن الإجراءات التي اتُخذت، ووضع التقريرفي سجلات الوزير.

بل إن برديات (أبوت وأمهرست وليوبولد الثانى)، التي تحتوى على تفاصيل دقيقه عن المجرمين: أسماؤهم وألقابهم ووظائفهم واتهاماتهم والتحقيقات التي أُجريت معهم. كانت في رأي بعض المؤرخين سجلات حقيقية. وكانت صورة من هذه السجلات تُحفظ في المعابد والأدارات العامة. وهكذا يتضح أنه كان لكل قضية أوراق تُحفظ في السجلات الخاصة.

أما استخدام هذه السجلات والأستعانة بها لمعرفة اللصوص، فيتضح من بردية (أبوت)؛ فعندما ثبت للجنة الأولى المُشكّلة لفحص المقابر برئاسة "بويرو" أن بعض المقابر قد سُرقت فسرعان ما وضعت أمام الوزير ورجاله قائمة كتابية بأسماء اللصوص، في سرعة مدهشة. وكان من بينهم "بيخال بن خارى"، الذي قيل في تعليل اتهامه: "وكان هذا الرجل قد وُجد هناك بالقرب من المقابر، وضبط مع اثنين آخرين تابعين للمعبد القريب من المقابر، وهو الذي كان عمدة المدينه قد حقق معه هو والوزير نب ماعت نخت في السنة الرابعة عشرة ".

أي أن السبب في اتهام هذا الرجل بسرقة المقابر، في ذلك الوقت الذي اكتشفت فيه سرقات المقابر، وبدأ البحث عن مرتكبيها، هو أنه سبق أن اتهم بذلك الجرم قبل عامين وحُقق معه.

وليس من المنطق أن نتصور أن "بويرو"، بعد ما اكتشف سرقة بعض المقابر، وظهرت رغبته الملحة في معرفة مرتكبي الجرائم لتقديمهم للوزير، أنه رجع بذاكرته عامين مضيا يبحث عمن سبق اتهامه في قضايا مشابهة، ثم اختار" بيخال بن خارى" بهذه السرعة؛ إنما الأوقع والأصح أن نتصور أن "بويرو" حال معرفته بسرقات المقابر، أسرع إلى السجلات يبحث فيها عمّن سبق اتهامه في جرائم مشابهة، ومن ثم قدم "بيخال" وزملاءه على هذا الأساس.

وهكذا نرى أنه كانت هناك سجلات للجرائم وللمجرمين، وأن هذه السجلات كانت مقسمه في بعض الأحيان حسب أنواع الجرائم، ولهذه السجلات كان يُرجع اليها لمعرفة الفاعلين الحقيقين، في الجرائم المجهولة.

٢ - استخدام الكلاب في اقتفاء أثر المجرمين:

يُشاهد في لوحة يرجع تاريخها للأسرة الثانية عشرة أُقيمت تذكاراً لموظف كبير أُوكلت إليه مهام أعمال الشرطة في الصحراء الغربية (وكانت في ذلك الوقت مأوى المجرمين الهاربين من وجه العدالة، وكان من واجب الشرطة البحث عن المجرمين في هذا المكان وضبطهم) صاحب اللوحة وقد تسل بالقوس والسهام ويصحبه كلبه.

ولعل في اصطحاب هذا الرجل لكلبه، وقد خرج إلى الصحراء يبحث عن المجرمين، دليل على أن الكلب كان يؤدي دورا مهماً في اقتفاء آثار المجرمين ومهاجمتهم، وإن كان لا يستبعد -على أي حال- أن يكون اصطحاب الكلب لحراسة شخصه (إبراهيم ١٩٨٦: ١٤٩ - ١٥١)

٣ - استخدام المرشدين:

استخدم رجال الشرطة في مصر القديمة المرشدين بنجاح، لمعرفة الجريمة قبل وقوعها وضبط المجرمين. ومن أمثلة ذلك ماجاء في بردية (ماير أ)، الخاصة بسرقة صناديق صغيرة فيها كنوز كانت موضوعة في بيت المال الخاص بمعبد مدينة هابو. وقد استطاع رئيس الشرطة أن يقبض على اللصوص متلبسين. وقد أعلن عنهم رئيس الشرطة "نسأمون" حسب دور كل منهم، وكان واقفا مع اللصوص، عندما وضعوا أيديهم على صناديق النفائس.

ويُسأل رئيس الشرطة في التحقيق عن ظروف ضبطهم: "وأُحضر رئيس الشرطة "نسأمون " وقالوا له: كيف وجدت الرجال (أي اللصوص)... فقال: لقد سمعت أن رجالا قد ذهبوا ليرتكبوا عسفاً في صندوق النفائس هذا، وقد ذهبت ووجدت فعلا هؤلاء الرجال الستة الذين ذكرهم اللص "باك إمن"، وإني أشهد عليهم اليوم".

ومن الواضح أن رئيس الشرطة استطاع أن يقبض على المجرمين متلبسين، من طريق استخدامه للمرشدين، الذين أفشوا اليه وقت ارتكاب الجريمة ومكانها.

رابعا: الإجراءات الجنائية



يُعد عصر الأسرة العشرين هو أكثر العصور إمداداً لنا بالمعلومات عن الإجراءات الجنائية، ومنها:

١ - البلاغ الجنائي والتحقيق الأولي:

تصل الدعوى الجنائية، أو بمعنى أدق الواقعة الجنائية، إلى علم الجهات بإحدى ثلاث طرق، وهي:

أ - التبليغ عن الجريمة: أن يتقدم المتضررون من الجريمة مباشرة عند وقوعها بالبلاغ عنها إلى الجهات المختصة بالبلاغ نفسه.

ب - الشكاوى: أن يُرفع الأمر إلى جهاز الشرطة، ذاته أي إلى الأشخاص المنوط بهم حفظ الأمن العام.

ج - التقارير: أن يتقدم برفع الأمر فئة من المراقبين، أو المهيمنين على الإدارة، في البلاد مثل: عمدة المدينة أو حاكم المقاطعة، أو أي عضو آخر. وكان يُخطر بالأمر الى الملك أو إلى الوزير. أو إلى قضاة التحقيق، وهذا ما تشهد به بردية (أبوت).

وقد جرت العاده أن تُقدم صور البلاغ الجنائي الثلاثة إلى الوزير، وفى حالة توجيه اتهام إلى شخص ما، يُلقى القبض عليه، ويحبس حبساً تحفظياً وقائياً إلى حين استجوابه. كما كان الوزير في بعض الحالات يُجري الاستجواب بنفسه، ويعاونه في ذلك بعض أعضاء المحكمة. (Dagallier 1914: 168).

٢ - إثبات الحاله:

وكان على رئيس الشرطة أن يثبت الحالة فور تلقي البلاغ، ثم يُخطر حاكم المدينة عقب ذلك مباشرة وكان تقاعس رجل الشرطة في واجبه، يستوجب عقاباً قاسياً، كما نقرأ ذلك في بردية (أبوت).

٣ - التحقيق الابتدائي:

كان التحقيق الابتدائي، أو الأولي، يُلجأ اليه في كثير من القضايا الجنائية، وفى حالة ثبوت التهمة يحال الجاني إلى المحكمة المكونة من أربعة أعضاء هم: الوزير (عضو ورئيس)، وضابط ملكي، ونائب ملكي، وعضو رابع متغير حسب الدعوى.

٤ - المعاينة:

في بردية (أبوت) إشارة إلى وجود المعاينة إذا ما أثبت التحقيق ضرورة إجرائها. وكان قاضي التحقيق (عادة الحاكم في الإقليم، أو الوزير في العاصمة) يفوض لجنه لإجراء المعاينة.

وحسب ما ورد بهذه البردية، فقد شُكلت لجنة مكونة من: كاتب الحاكم، وكاتب رئيس خزانة الملك، ورئيس الجّبانة، وضابطين من الشرطة النظامية، وكاهنين من درجه عالية، ورجال شرطة الجبانة، وغيرهم من الشخصيات، إلى جوار من ضبط الواقعة أساساً، وذلك لإجراء المعاينة.

وبعد هذه المعاينة الأولية - التي غرضها خدمة التحقيق الجنائي - كان الحاكم يقوم يجري مع عدد من القضاة معاينه ثانية للخسائر والتلفيات. وفى نهاية التحقيق يقدم الحاكم نتائج التحقيق، التي اهتدى اليها بنفسه، كما يقدم رئيس الشرطة النظامية تقريره الجنائي، وهذا ما يتضح من مطالعة بردية (أبوت) (Capart 1899-1900: 22).

٥ - القبض والحبس الاحتياطي:

من المعروف أن المتهم يُحجز قبل صدور الحكم الجنائي عليه. ومن الثابت تاريخياً حسب النصوص، أن إلقاء القبض كان يتم كذلك في حالة التلبس، إذ بمطالعة محاضر جلسات إلقاء القبض، التي كان يحررها كُتّاب المحاكم، يلاحظ وجود محضر خاص بـ "القبض"، حرَّره كاتب على لسان أحد القضاة، جاء فيه: "القضاة يسألون رئيس الشرطة المدعو "نسأمون"، بعد أن استدعوه، بأي طريقة وجدت هؤلاء الناس (المجرمين) المقبوض عليهم ؟ فرد عليهم قائلا: سمعت أن هؤلاء الأشخاص ذهبوا من أعلى لسرقة ما بداخل هذه المقبرة، فذهبت وانتظرتهم فوجدت هؤلاء الأشخاص الستة".

وفى حالة التلبس كان لا بد أن يسبق إلقاء القبض إجراء تحريات كبيره وأكيده، وهذا يعنى تعقّب من يثبت ارتكابه لجريمة ما، وهذا واضح في شاهد مقبرة رئيس الشرطة

"مــاهو". وكــان رجــال الشــرطة يقــدمــون تقــارير بنتــائج تفويضـهم، في مراقبة المتهمين قبل القبض عليهم. (صدقي ١٩٨٦ : ٩٦).

٦ - الاستجواب الأولي في المحكمة :

بعد استيفاء التحقيق الأولي وإلقاء القبض على المتهمين واستدعاء الشهود، تبدأ المحاكمه. وقد عُثر على الديباجة الأفتتاحية لمحضر إحدى جلسات المحكمة، وكان نصها: "العام الأول...... تحت حكم رمسيس العاشر بدأت محاكمة من سرق مقبرة رمسيس الثاني ومعبد سيتي الأول القريب من خزانة رمسيس الثالث".

وكان المتهمون يساقون إلى المحكمة في صحبة حرس مزودين بعصا. وقد أبرزت النقوش بدقه الإجراءات، التي تتبع أثناء الاستجواب، سواء حيال المتهمين أو حيال الشهود. وعند الاعتراف بالتهمة يتم التحقيق في صحة الوقائع، التي وردت في الاعتراف. أما في حالة الإنكار، فتبدأ إجراءات البــحث عن الإثبــات الجنائي والأدلة الجنائيــة (Capart 1899-1900: 23-24).

٧ - الأدله الجنائيــة:

وكانت تُجمع من طريق وسائل عدة، منها:

أ - **حلف اليـمين:** كان حلف اليمين يجري داخل المعبد، ويكون الحلف بالآلهة أو برأس الملك وحياته، أو بالحيوانات المقدسة. وكان من يحلف اليـمين يقرر أنه سينتحر، إذا لم يقل الحقيقة. وفى حالة ثبوت كذب في شهادة من حلف اليمين، كان يعاقب جنائياً على كذبه، وعلى انتهاكه حرمة المقدسات.

ومن صيغ الحلف باليمين، المتضمنة عقاب من يحنث في يمينه، مــا جــاء في بردية بالمتــحف البــريطانى: "إذا كنت أكذب فلأشوه ولأقاسِ الأعمال الشاقة ... كل ما أقوله هو الحق، وإذا ظهـر غداً ... بأمون وبحق الأمـيـر أني كـاذب فلأرسل إلى المناجم ... إذا ظهر أن أحداً أعطاني ذهباً أو فضة لأشهد كذبا فلتشوهوني ولتعذبوني". (pap. B M. 10052، ٣، ٢٢، ٢٣).

ويبدو أن القضاة في بعض الأحيان كانوا يحكمون بناء على حلف اليـمين، وهذا يدل على المكانة العليا، التي كـان يحظى بها حلف اليمين. ويبدو أن العقوبات الشديدة للحنث باليـمين، كـانت ترهب كل من تسـول له نفسـه الكذب من الشهود فيما حلف باليمين عليه، ومن هذه العقوبات قطع الأذنين أو الأنف، وكـذلك الأشـغـال الشـاقة في بلاد كوش (Dagallier 1914 : 168).

ب - **الأستعانة بأهل الخبرة:** استعان المصريون القدماء بالخبراء أثناء التحقيق، وذلك في المسائل التي تحتاج لخبرة خاصة، ومن ذلك ما جاء في بردية (هاريس) رقم ١٠٠٥٤ بالمتحف البريطانى. وهي تحتوى على عدة نصوص خاصة بالسـرقـات، التي كـانت تحـدث في المقـابر في الأسـرة العشرين. ففي إحدى هذه السرقات، اعترف الكاهن "بنو ان حاب" أنه ذهب مع كهنة آخرين إلى مكان لم يُعَيّن، وسرق أوراقاً من الذهب كانت تغشى تمثال الإله، "نفرتوم" الخاص بالملك "رمسـيس الثـاني"؛ فضـلا عن أن الكاهن اتهم بأنه ذهب إلى مكان خاص بهذا الإله وسـرق منه أربع قطع من الفضة، ووضع مكانها أخرى مصنوعة من مادة غيرها.

ولما كان موضوع نزع الذهب والفضة، ووضع مواد أخرى بدلاً منهما من المسائل الفنية، التي لا يستطيع المحقق العادي أن يجزم فيها برأي، فقد دُعي صائغ للتحقيق في الموضوع.

ج - **التعذيب:** كان التعذيب إحدى الوسائل، التي يُقصد بها معرفة الحقيقه. وكانت إحدى وسائله الضرب بالعصي، وقد حدد الضرب بالعصي أو الجلد مائة جلدة، أو ظهور خمسة جروح على الجسم. كما كان يستعمل التعذيب أيضاً لمعرفة شركاء المجرمين في السرقة، لمعرفة مكان إخفاء المسروقات. وكان أي اعتراف من الجاني أثناء تعذيبه، يدوّنه الكاتب، وكذلك كان أي اعتراف يصدر من الجاني، فلا بد من التحقق من صحته.

٨ - التفتيش:

من الثابت تاريخياً أن اللجنة المكلفة من قبل المحكمة، كانت تستطيع تفتيش منزل المتهم، وكذا المنازل المشتبه إخفاء



المسروقات فيها. ونقرأ في بردية (أبوت) أن اللجنة المشكلة برئاسة "خعمواست"، اتجهت إلى غربي طيبة لإجراء معاينة بإرشاد المتهمين. وقد أخذوا معهم "بيخال" معصوب العينين. فذهب إلى مقبرة "رمسيس الثاني"، وكانت مفتوحه لم يدفن فيها أحد، وإلى منزل عامل الجبانة "أمنمؤوبي" وقال: "انظروا هذين المكانين الذين دخلتهما".

٩ - المناقشه أو الأستجواب النهائي:

بعد حلف اليمين واللجوء إلى الضرب، يبدأ الاستجواب النهائي. وتجدر الإشارة إلى النصائح، التي قدّمها "بتاح حتب" الى القضاة: "إذا عُهد إليكم بالتحكيم بين الناس، فاصغ إلى أقوال الأطراف ولا تُسيء معاملتهم، فإن ذلك لا يشجعهم ويثبط همتهم عن القول، ولا تقل لهم: لقد قلت ذلك سلفا، إن التسامح يشجع المستجَوب في توضيح أقواله، كما يجب أن توسع صدرك للضحيه في توضيح ملابسات الحادثة كتوضيح الحادثة نفسها". وعندما يتضح للقضاة براءة المتهم، فعليهم أن يطلقوا سراحه فوراً.

١٠ - المواجهة:

كانت المواجهة شائعة لا سيما بين الشهود والمتهمين، وكانت تُسفر عن تبرئة المتهم لو قرر الشاهد عدم رؤيته المتهم ضمن اللصوص. كما استخدموا أيضاً المواجهة بين المتهمين بعضهم بعضاً، ومثاله ما ورد في الجزء الأول من البردية رقم ١٠٠٥٢، بالمتحف البريطاني، الخاصة باتهام الراعي "بو خع اف "وآخرين، بالهجوم على المقابر الملكية. وقد لجأ المحقق إلى مواجهة المتهمين بعضهم بعضاً: "وأُحضر الراعي "بوخع اف"، ومطلق البخور "شد سو خنسو "، ونافخ البوق "بربثو"، والمواطنة "نسموت"زوجته، والمواطنة "موت م ويا" زوجة كاتب السجلات المقدسة "نسأمون"، ليتهم كل واحد منهم زميله، في أثناء وقوفهم جميعاً هناك".

ولم تقتصر المواجهة على المتهمين فقط، بل كان من حق المتهم أن يطلب مواجهته بالشاهد. فقد جاء في بردية (ماير أ): "وقد حُقق مع أحد المتهمين" أمن منتو "فقالوا له: ما لديك لتقوله عمّا قرره النوتي "نسأمون"، الذي عبر بك إلى هذا الجانب مع شركائك في الجريمة الذين سيأتون ليتهمونك. لقد قلت: دع إنسانا يأتي ليتهمني. وقد أُحضر البحار "نسأمون" واتهمه فقال: لقد كنت أنا الذي عبرت به مع الراعى "آهومح".

١١ - التحقيق من صحة ما ورد في اعترافات المتهم:

ثبت من بردية (أمهرست) إصطحاب المعترفين بسرقة الملك "سوبك ام ساف"، بواسطة حاكم المدينه، والمندوب الرقابى الملكى "نسأمون"، إلى مكان الجريمة. وكذلك ما ثبت من واقعة أخرى من بردية (أبوت)، من اقتياد حاكم المدينة، المتهم بسرقة مقبرة وهو معصوب العينين، إلى مكان الحادث، ليصف له ما بداخل المقبرة، التي اتهم بسرقتها.

وإذا تؤكد من صحة الاعتراف وجب توقيع العقوبة؛ فإذا كانت الجريمة بسيطة صدر فيها الحكم بالحبس أوبالجلد والضرب بالعصى؛ أما إذا كانت الجريمة جسيمة، فيرفع تقرير للملك ليوقّع عقاباً أقسى، على أساس أنه صاحب الحق في توقيع العقوبات الجسيمة.

خامسا: نماذج من الجرائم وعقوباتها

١ - من قضايا سرقات المقابر

بدأت سرقات المقابر في وقت مبكر من التاريخ المصري القديم، ولم تنقطع اللعنات

ضد مخربي المقابر وناهبيها طوال عصر الدولة القديمة. كما يُشاهد تحذير بين نقوش مقابر أمراء الأسرتين الخامسة والسادسة لكل من يستولي عليها: "سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير".

ففي نهاية عصر الدولة القديمة، وأثناء عصر الانتقال الأول، اقتحم الثّوار قبور الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة؛ فنهبوها وعبثوا بكل ما فيها. واستمر الاعتداء، إذ نجد في نصائح "خيتي" لابنه "مريكارع" ما يحذّره من الاعتداء على آثار الآخرين، وان عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار، من محاجر طرة، لبناء قبره، وألا يأخذ أحجار مما تخرب من قبور الناس (حسن ١٩٩٢ ج ١: ٣٤٥ - ٣٤٦).

ويصور "إيبوور" الاعتداء على المقابر، وقد بُذلت جهود



عديده لإيقاف هذه الاعتداءات. ولم تكن جهود إيقاف السرقات سلبية، بل اهتمت الحكومة منذ وقت مبكر، بتشديد الحراسة على المقابر. وكانت محاكمات سرقات المقابر من أهم القضايا وأخطرها. وكان قضاتها يُختارون من أعلى الوظائف. ففي أيام الملك "رمسيس التاسع"، اشترك في محاكمة لصوص المقابر، الوزير "خعمواست"، والكاهن الأكبر لأمون رع في الكرنك، وكاهن معبد فرعون الجنائزي، وشخصان مهمان من رجال الحاشية، وأحد كبار الفرسان، وحامل علم في البحرية، و "باسر" حاكم طيبة.

أما عن العقوبات، التي كانت تُوقّع على سارق المقبرة وناهبها، فيُعلم شيء عنها مما جاء في بردية (أبوت)، الخاصة بسرقات المقابر. ففى الصفحة السادسة ورد أنّ "بورعا" أمير غرب المدينة، كانت لديه خمس تهم خاصة بسرقات المقابر، قال عنها: "لم يكن في الامكان إخفاؤها، لأنها تهم خطيرة تُعاقب بالبتر والوضع على خازوق، أو أقسى العقوبات".

كما يوجد من عهد الأسرة العشرين، اعتراف "أمن نفر" بسرقة مقبرة الملك "سخم رع شد تاوي" فيقول: "لقد قسّمنا الذهب الذي وجدناه مع مومياتها، والغنائم والحلى والتوابيت، إلى ثمانية أقسام، وخص كل منا عشرون دبنا من الذهب، فكان المجموع ١٦٠ دبنا من الذهب، ولم أُقسّم باقى الأثاث".

والواقع أنه على الرغم كل الوسائل، التي اتخذت للمحافظة على المقابر، وجهود الشرطة وتشديد العقوبات، استمرت سرقات المقابر وانتشرت عن ذي قبل؛ فالعمال أنفسهم كانوا أحياناً هم لصوص مقابر ومعابد؛ فمثلا ظهر أن هرم "أمنمحات الثالث "فى اللشت، شُيد بأحجار أخذ الكثير منها من المعابد، أو المقابر الأقدم عهداً، ومنها أحجارا منقوشة أتوا بها من معبد ملوك الأسرة الرابعة من الجيزة، والأسرة الخامسة من سقارة. وقد كان الكهنة أنفسهم يسرقون المقابر، إذ من السهل عليهم الوصول إليها بحكم أداء الشعائر الدينية للمتوفى؛ فقبر الملك "سقنن رع " -مثلاً- ، فالغالب أن يكون الكهان القائمون على حراسته ورعايته هم الذين سرقوه، وتدل على ذلك الطريقة التي اتبعت في نهب القبر؛ فاللصوص لم يكونوا من عامة الشعب، إنما كانوا من رجال الدين، الذين يؤمنون بالآلهة لأنهم انتزعوا صفائح التابوت الذهبية وأبقوا على رسوم الآلهة، التي ازدان بها التابوت؛ ثم عادوا فلوّنوا مكان الصفائح بلون الذهب، ليخفوا معالم الجريمة.

وهكذا، لم يكن أمام الحكومة في النهاية إلا أن تعترف بعجزها التام عن إيقاف هذه السرقات؛ فاضطروا إلى هجر المقابر، التي كانت معرضة للخطر واكتفوا بمحاولة إنقاذ المومياوات الملكية، ونقلوها سراً من مقبرة إلى أخرى، وأخفوها هي ومومياوات كهنة وكاهنات أمون، واحتفظ الزمن بهذه الوديعة الغالية حتى عام ١٨٨١ (إبراهيم ١٩٨٦: ١٧٥ - ١٨٠) وكذلك (هورنونج ١٩٩٦: ٨١، ٨٢).

٢ - من قضايا مؤامرات الحريم

أ - مؤامرة زوجة الملك "بيبي الأول":

اتهم الملك "بيبي الأول" زوجته الملكة "إمتس" فى أمر ما، وربما اتهم معها أيضاً وزيره، وهو أمر لم تُفصح النصوص المعروفه حتى الآن عن كُنْهه. وقد يكون الاتهام خيانة زوجية، أو تآمراً من هذه الزوجة على إحدى ضرائرها الأثيرات لدى زوجها، أو تآمراً على أحد أبناء هذه الضرة للحيلولة دون بلوغه العرش، أو ربما تآمراً على زوجها الفرعون نفسه.

ويبدو أن الملك لم يرد أن ينفرد بمساءلة زوجته أو إدانتها، ولذلك عهد إلى أحد كبار رجال بلاطه، وهو "ونى"، بالتحقيق معها؛ ورفع التقرير إليه. ومره أخرى لم يسجل التاريخ فحوى هذا التقرير، ولا قرار الملك بشأنه.

جاء في حديث "ونى": عن القضية قوله: "عندئذ عُرضت دعوى تخص الحريم ضد "إمتس"، الزوجة الملكية الكبيرة، وكانت دعوى في غاية السرية، وأدخلني جلالته لأستمع أنا وحدي، ولم يكن موجوداً هنا أي قاضٍ أو وزير، أي موظف كبير، (لا أحد) بمفردي، ذلك لأنني كنت طيباً، وكنت لطيفاً على قلب جلالته، فقلب جلالته كان مفعماً بي، وأنا الذي أصدرت (الحكم) كتابةً، أنا بمفردي، ومعي قاضٍ واحد ملحق بمدينة نخن، بينما كنت أشغل منصب رئيس مشرفي الأملاك الملكية، ولم يكن قد حدث قط من قبل



لواحد من نظرائي أن أستمع إلى سر من (أسرار) الحريم، ولكن جلالته سمح لي بالاستماع..... ". (صالح ١٩٨٨: ٣٥ ؛ لالويت ١٩٩٦: ٢٢٩).

ب - مؤامرة الحريم في عهد الملك "رمسيس الثالث":

وردت قصة هذه المؤامرة في بردية (تورين القضائية)، وبردية (رولن)، (de Buck 1937 : 152 - 164). وقد تآمرت الملكة "تى"، إحدى زوجات الملك"، رمسيس الثالث" على حياته، وأرادت تولية ابنها "بنتاؤر" على العرش. واشترك معها في المؤامرة رئيس الحجرة المسمى "بيبككامن". واسمه يعني الخادم الضرير. وساقي الملك المسمى "مسد سورع". وقد حصل الأول من المشرف على ماشية الفرعون، المسمى "نبحوابن"، على عدد من التماثيل السحرية، كما قدّم شخصان آخران تماثيل أخرى مماثلة، هُرِّبت إلى داخل الحدود الملكية. ومن طريق هذه القوى السحرية، اعتقد المتآمرون أنه سيكون في يدهم قوة يستطيعون بها أن يشلُّوا قوة الحرس الملكي.

تتضح خطورة هذه المؤامرة في أن معظم المتآمرين، كانوا في خدمة الفرعون الشخصية، إضافة إلى أن المؤامرة لم تقتصر على داخل القصر، بل امتدت إلى خارجه. وكانت الرسائل إلى المتآمرين خارج القصر، على هذا النحو: "أثيروا القوم، حرّكوا الأعداء لكي يبدأوا الأعمال العدوانية ضد مولاهم". وكان على الفرق العسكرية في بلاد النوبة أن تشق عصا الطاعة على الفرعون، وتهجم على مصر. وكان رئيس هذه الفرق "بانحسى"، قد انضم إلى المؤامرة بتحريض من أخته التي اشتركت فيها ضمن حريم القصر.

قبل أن تُنفذ المؤامرة كاملة، كُشف أمر المتآمرين بطريقة ما، وأمكن الحصول على براهين قاطعة عن الجريمة، التي أرادوا تنفيذها. وكانت المؤامرة من الخطورة بحيث لا يحسن تطبيق إجراءات القانون الرسمي العادي ضد المتآمرين، وذلك حتى لا تُعلن أمور من الخير أن تبقى بعيده عن أذهان الشعب. وكان التقرير القصير بشأن إجراءات المحاكمة، قد أُعد لكي يحفظ في قسم المحفوظات الملكية. وتظهر صيغة التقرير - التي ستعمل فيها الحذر كله أن كاتب التقرير تجنب بحكمته الدخول في التفصيلات.

شُكّلت المحكمة من أربعة عشر عضواً: اثنين يحملان لقب المشرف على الخزانة، واثنين من حاملي الأعلام للجيش، وسبعة من سقاة فرعون، وحاجب ملكي، وكاتبين. وكان من بين هؤلاء الأعضاء أربعة من الأجانب. أما إجراءات المحاكمة فهي أن يبيّن المتهمون حالتهم البدنية، وتعلن التهم المنسوبة إليهم. ويُلاحظ أن بعض التهم، التي وجهت لبعض المتهمين، كانت جرائم سلبية؛ أي أنهم علموا بالمؤامرة ولم يبلّغوا عنها. وكان على المحكمة أن تقرر أخيراً مدى صحة الاتهامات، وتنطق بالحكم. وانتهت المحاكمات الثلاث، التي أُجريت، بإدانة ٣٢ موظفاً من مختلف المراتب وجدوا مذنبين. وكان المحكوم عليه بالإعدام يترك وحيداً في غرفة المحاكمة لينهى أيامه بيده؛ إضافة إلى أنه قد حُكم على أربعة من المتهمين بجدع أنوفهم، وقطع آذانهم. (مونتييه ١٩٦٥: ٢٩٥ - ٢٩٧؛ حسن ١٩٩٢، ج ٧: ٥٤١ - ٥٥٨).

٣ - من قضايا الاختلاس

قضية "خنوم نخت":

وردت هذه القضية في بردية محفوظة بمتحف تورين - في القسم الثالث منها - من عهد الملك "رمسيس الخامس". وتتلخص وقائعها في أن معبد خنوم باليفنتين كان يمتلك أرضاً في الشمال في الدلتا، وكان المحصول الذي يورد له منها ثابتاً ومقداره ٧٠٠ غرارة من الغلال سنوياً. وكان المفترض أن يختلف هذا المقدار من عام لآخر، تبعاً لحالة النيل؛ ولكن يبدو لبعد المعبد عن الأرض المملوكة له في الشمال، لم يكن باستطاعة المعبد إحكام الإشراف على عماله المزارعين هناك، ففرض عليهم توريد هذا المقدار الثابت ضماناً لحقه في كل الأحوال (إبراهيم ١٩٨٦: ٢٣١، ٢٣٢).

وتعاقد المعبد مع ربّان السفينة على نقل المحصول سنوياً إلى المعبد، ولكن هذا الربّان مات في السنه التاسعة والعشرين من حكم "رمسيس الثالث"، وحل محله أحد كاهن معبد آخر، هو "خنوم نخت"، الذي استمر يؤدي عمله، على ما يظهر، أربعة أعوام بالذمة والأمانة، "ولكن في العام الأول من حكم الملك رمسيس الرابع، الإله العظيم، حدث تزوير في

الغلال ".

وسجّلت الوثيقة في النهاية مجموع غرائر معبد خنوم، التي تآمر ربّان السفينة مع الكتبة والمفتشين والعمال الزراعين التابعين للمعبد، ليسرقوها، ويستولوا على ٥٠٠٤ غرارة ويبدو ان كاتب الوثيقه قد أخطأ في الجمع، لأن المقدار المستولى عليه هو ٥٦٢٤ غرارة، فربان السفينة لم يورّد إلا ٦٧٦ غرارة فقط، ومعنى هذا انه ورّد أقل من ١٠٪ مما تسلمه، على أساس ٩ سنوات × ٧٠٠ غرارة المقررة = ٦٣٠٠. وقد وردت في البردية تهم أخرى ضد ربّان السفينة، ولكن يحيط بها الغموض بسبب تمزّق البردية. كما وردت تهمتان خاصتان بالبحار "بن خت تا". كذلك تحدثت البردية في جزئيها الأول والثاني، عن تهم وجّهت للكاهن "بن عقت "، التابع لمعبد خنوم، وآخرين، باختلاسات وسرقات وهتك عرض ورشوة (حسن، ج ٨، ١٩٩٢: ١٤٥ – ١٥٦).

وهكذا يتضح من هذه الوثيقة أن الربان الجرئ وقع في يد القانون، هو والمتسترون عليه، أو المشتركون معه. وقد جاء ذكرهم في البردية، وهم: الكتبة والمفتشين والعمال الزراعين التابعين لمعبد خنوم. وما من شك في أن حصول هذا الربان على تلك الاختلاسات الضخمة واستمراره في الاختلاس دليل على الحالة المحزنة، التي وصلت اليها إدارة المعابد في تلك الفترة؛ بل أكثر من ذلك، فهويدل على انهيار النظام وضياع الماعت من الروح المصرية حينذاك.

٤ - من قضايا الزنا التي وردت في الأدب المصري القديم

أ - قصة الزوجة الخائنة:

وهذه القصة من مجموعة قصص محفوظة في بردية بمتحف برلين، تعرف باسم: بردية (وستكار). وقعت أحداث هذه القصة في عهد الملك "نب كا"، من الأسرة الثالثة. فقد ذهب الملك إلى معبد بتاح في منف. وكان "وبا أونر" كبيراً للكهنة المرتلين وكان متزوجا من امرأة أحبت أحد شباب المدينة وأخذت تراسله من طريق إحدى خادماتها، وتبعث اليه بالهدايا حتى قبل أخيرا الاتصال بها، والحضور اليها.

ونفهم من أحداث القصة أن الغرق كان عقاب الزاني، والحرق كان عقاب الزانية (فخري ١٩٦٥: ٢٩٧).

ب - قصة الأخوين:

تحكي هذه القصة أخوين كانا يعيشان معاً، اسم أصغرهما "باتا" وكان شاباً لم يتزوج بعد، واسم أكبرهما "أنوبيس" وكان متزوجاً. وكان "باتا" يساعد أخاه في الحقل، ويقوم بكل عمل شاق؛ لأنه يحب أخاه ويحترمه، فقد ربّاه ورعاه. وقد حاولت زوجة "أنوبيس" أن تُغري الشاب الصغير، فدعته إليها، فأبى، فاتهمته كذباً وحرضت عليه أخاه، الذي انتظره ليقتله؛ ولكن "باتا "استطاع الهرب. فجرى أخوه وراءه حتى تدخل إله الشمس فأنقذه منه، بأن جعل بين الأخوين بحيرة ملأى بالتماسيح. ووقف الأخوان أمام بعضهما، قال "باتا "لأخيه كل شئ، وأعلمه بجريمة زوجته، وأراد أن يثبت لأخيه براءته وعزوفه عن النساء، فمثّل بنفسه وقطع جزءاً من جسمه، وقال له إنه ذاهب إلى وادي الأرز، وسيضع قلبه فوق شجرة أرز، فاذا ما عرف "أنوبيس" بوفاة أخيه، وذلك بظهور علامة خاصة فليذهب وليبحث عن قلبه ويضعه في الماء، فيعود إلى الحياة لينتقم لنفسه. ويرجع "أنوبيس" إلى منزله، ويقتل زوجته الخائنة.

وتستمر القصة ولكن ما يهم هنا أنها تعالج موضوعاً مهماً في الحياة الأنسانية، وهو موضوع الزوجة الخائنة، التي تحاول إيقاع شاب طاهر عفيف، فاذا رفض وأبى، اتهمته وحاولت القضاء عليه انتقاما منه، لكنها تلقى العقاب المناسب لمثلها.

٥ - قراءة في بردية تقدم عريضة اتهام بعدة جرائم، ضد أملاك معبد

ذُكرت هذه التهم في بردية بمتحف تورين. والواقع أن محتويات هذه البردية تشبه في مجموعها ما جاء في بردية (سولت ١٢٤)، المحفوظة بالمتحف البريطاني تحت الرقم ١٠٠٥٥، وهى ترجع إلى عصر الملك "رمسيس الخامس". وقد كان المتهم الأعظم فيها كاهناً يُدعى "نبعا نكو"، وآخر يدعى "بنب "، ونقرأ فيها التهم، التي وجهها "أمن نخت " إلى رئيس العمال في الجبانة الملكية، المسمى "بنب "، وتشمل: السرقة، والزنا، وهتك العرض، والحنث باليمين (حسن ١٩٩٢، ج ٨: ١٢٢ – ١٥٦)

٦ - مجموعة تهم أخرى متنوعة

وهناك وثيقة أخرى تحتوى أيضاً على مجموعة تهم،



ضد أشخاص مختلفين، منها:

عدة تهم لهتك العرض، وسرقه للعجول المقدسة، والاستيلاء على صناديق مقدسة وأشياء تخص المعبد، سرقة من خزانة معبد خنوم، ورشاوى.... وغير ذلك.

وهكذا يتضح مما سبق، سوء الحالة الاجتماعية في ذلك العصر، وكيف أن الأمور كانت سائرة بالبلاد نحو التدهور السريع، الذي أدى في النهاية إلى سقوط عصر الرعامسة وقيام أسرة الكهنة.

وأخيراً فإننا نجد أن مصر الفرعونية تُعلن في وثائقها الرسمية، وفى توجيهات الفراعنة لوزرائهم، إلغاء الفوارق الإجتماعية، وأن يُعامل كل الناس، رجالاً ونساء، على قدم المساواة. وهكذا يبدو أن مصر القديمة قد اتخذت مبدأ: "الدولة تجسيم العدالة المنظم"، الذي قال به أفلاطون في مقالته عن السياسة، وان هذا المثل الأعلى كان هو الهدف، الذي يصبو إليه الحكام في مصر القديمة.

د. سمير أديب: قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة قناة السويس. samiradib_60@hotmail.com

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

إبراهيم، بهاء الدين ١٩٨٦، **الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة**، القاهرة.

بريتشارد، جيمس ١٩٨٧، **نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم**، ج ٥، ترجمة، عبد الحميد زايد، مراجعة، محمد جمال الدين مختار، القاهرة.

حسن، سليم ١٩٤٥، **الأدب المصري القديم**، ج ١، القاهرة.

حسن، سليم ١٩٩٢، **مصر القديمة**، ج ١، ٧، ٨، مطبوعات مكتبة الأسرة، القاهرة.

زناتي، محمود سلام ١٩٧١، **تاريخ القانون المصري**، القاهرة.

شورتر، آلن ١٩٥٦، **الحياة اليومية في مصر القديمة**، ترجمة، نجيب ميخائيل، مراجعة، محرم كمال، القاهرة.

صالح، عبد العزيز ١٩٨٨، **الأسرة المصرية في عصورها القديمة**، القاهرة.

صدقي، عبد الرحيم ١٩٨٦، **القانون الجنائي عند الفراعنة**، القاهرة.

عبد المتعال، زكى (بدون تاريخ)، "التراث القانوني لمصر القديمة "، **تراث مصر القديمة**، القاهرة.

فخري، أحمد ١٩٦٥، "الأدب المصري القديم "، **موسوعة تاريخ الحضارة المصرية**، ج ١، القاهرة، ص ٣٩٧.

لالويت، كلير ١٩٩٦، **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، ج ١، ترجمة، ماهر جويجاتي، مراجعة، طاهر عبد الحكيم، القاهرة.

لبيب، باهور - وأبو طالب، صوفي حسن ١٩٧٢، **تشريع حورمحب**، القاهرة.

لبيب، باهور ١٩٤١، "من آثار التاريخ القانوني، مجموعات قوانين مصريه"، **مجلة القانون والاقتصاد**، العدد الخامس، السنة الحادية عشر، القاهرة.

لبيب، باهور ١٩٤٢، "القانون العقابي الفرعوني"، **مجلة**

القانون والاقتصاد، العدد الأول، السنه الثانية عشرة، ، ص ٣٧ ـ ١٤٧، جامعة القاهرة.

لبيب، باهور ١٩٤٧ "شيء من القانون الجنائي عند الفراعنة"، **لمحات من الدراسات المصرية القديمة**، القاهرة، ص ١٠٢.

مونتيه، بيير ١٩٦٥، **الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسه**، ترجمة، عزيز مرقس منصور، القاهرة.

مهران، محمد بيومي ١٩٨٤، **الحضارة المصرية**، ج ٥، الاسكندرية.

هورنوج، إريك ١٩٩٦، **وادي الملوك، أفق الأبدية العالم الآخر لدى قدماء المصريين**، ترجمة، محمد العزب موسى، مراجعة محمود ماهر طه، القاهرة.

هوسون، جونيفييف - وفاليل، دومنيك ١٩٩٥، **الدولة والمؤسسات في مصر من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان**، ترجمة، فؤاد الدهان، القاهرة.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

Allam, S., " La droit egyptien ", **ZAS**, 105 pp. 1 - 6.

Bedell, E. D. 1973. **Criminal Law in the Egyptian Ramesside Period**, Michigan, U.S.A.

Bluche 1975. **La Peine de mort dans L, Egypte**, Rev. Int., de de L, astique, t. 22, p. 144, note. 5 et p. 168.

Breasted, J. H. 1906. **Ancient Records of Egypt,** iii, Chicago.

Breasted, j. H. 1926. **Histoire de L, Egypte**, 2, Bruxelle.

Capart, J. 1899 - 1900. **Esquisse d une histoire du droit penal egyptien**, t. V, Bruxlles.

Dagallier, J. 1914. **Les institutions judiciaire de L, Egypte Ancienne**, Paris.

de Buck, A. 1937. " The Judicial papyrus of Turin", **JEA**, 23, pp. 152 - 164, London.

Du Boys 1845. **Histoire du droit criminal des peoples anciens depuis la formation des societes jusque**, paris.

Lorton, D. 1977. " Treatment of Criminals in Ancient Egypt", **JESHO**, 20, pp. 1- 64.

Mcdowell, A. G. 2001. "Crime and Punishment", **The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypte**, vol. 1: 315-320, Cairo.

Pastoret, De 1817. **Histoire de la Legistation**, v, 2, Paris.

Peet, T. E., 1930. **The Great Tomb Robberies in the Twentienth Egyptian Dynasty**, 2 vol., Oxford.

Pirenne, j. 1943. **Histoir des institutes et du droit prive de L, ancienne Egypte**, t. 2, Bruxelles.

Sedky, A. R. 1981 _ 82. **Aspects de la Criminalite egyptien compare**, t. 2, Paris.

Wilson, J., 1963. **The Culture of Ancient Egypt**, Chicago.

الآثار العثمانية في السودان

انتصار صغيرون الزين

ملخص: تتناول هذه الورقة تاريخ وآثار فترة مهمة من تاريخ السودان، هي فترة الوجود العثماني - وهي فترة من الفترات التي تجاهلتها المصادر التاريخية، عدا الشذرات القليلة. وتحاول هذه الورقة إبراز أهم آثار هذه الفترة، الموجودة في مناطق النفوذ العثماني التي شملت المنطقة من الشلال الثالث حتى الحدود المصرية شمالاً. إضافة لميناء سواكن على البحر الأحمر. وتشمل الدراسة الآثار والقلاع، والمنازل، والمساجد، والخلاوي والزوايا. كما تطرق البحث بإيجاز إلى آثار التركية الثانية بعد حملة محمد علي باشا الألباني للسودان ١٨٢١م، من دون الدخول في مقارنات بينها وبين آثار مملكة الفونج، التي شملت أجزاء كبيرة من السودان جنوبي الشلال الثالث، ولا مع الآثار العثمانية في بقية الإمبراطورية؛ لأن الهدف من البحث تعريف الباحثين في هذا المجال للالتفات لهذه الفترة، ووضعها في إطارها الصحيح داخل منظومة الآثار العثمانية، بصورة خاصة، والآثار الإسلامية، بصوره عامة.

Abstract. *This paper throws light on one of the most important but ignored periods of the history of the Sudan, the Ottoman period. The Ottomans' advances into the Sudan go back to 1523 when they annexed Suakin at the Red Sea. Then they marched south through the Nile Valley from the mid 16th century onwards; that march culminated in 1584 in the agreement with the Fung rulers by which the territory between the two powers was fixed at Hannek, 10 km south of the 3rd cataract region. The archaeological remains included fortresses, forts, houses, mosques, seclusions (khalwas) and corners (zawyas). The area was in the periphery of the great Ottoman Empire and its archaeological remains have to be approached with caution. The paper seeks to draw the attention of scholars of Ottoman archaeology in particular and Islamic archaeology in general to the wealth of this period.*

مدخل:

كان للسودان، القطر المترامي الأطراف، القاري مناخاً وسكاناً، ثقافات وحضارات موغلة في القدم، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ القديم، وامتدت فروعها حتى العصور الوسيطة والحديثة. وقد كُشف - حتى الآن - عن بعض هذه الثقافات والحضارات، ولا تزال الأرض حبلى بالكثير من المواقع الأثرية، التي لم تكتشف بعد.

والملاحظ أن البحث الأثري في مجال العصور الوسيطة والحديثة، لا يتناسب مع ما خلفته هذه الفترات من آثار، إذ لا يزال معظمها شاخصاً منتظراً تقديم العون، قبل أن تختفي هذه الآثار تماماً، خاصة الآثار الإسلامية، التي تجاهلتها كل حملات إنقاذ النوبة تجاهلاً واضحاً. وقد استطاب هذا التجاهل مؤرخو هذه الفترة، إذ انحصر معظم عملهم على تاريخ دخول العرب السودان، وعلى قيام وسقوط ممالك الفونج والفور، فلا نجد بحوثاً تتناول الوجود العثماني في السودان قبل تركية عام ١٨٢١م، عدا بعض الشذرات القليلة هنا وهناك، التي تشير إلى وجود الأتراك شمالي الشلال الثالث، وفي سواكن، منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، التي تتزامن مع قيام مملكة الفونج الإسلامية، التي حكمت معظم أرجاء السودان الحالي، عدا سواكن وشمالي الشلال الثالث وبعض أجزاء دارفور.

غير أن الصحوة التي بدأت في إعادة دراسة آثار الإمبراطورية العثمانية بصورة عامة، واكبها مجهود فردي للدكتور جون الكسندر، من جامعة كمبريدج، وذلك بدراسته

العدد الثامن جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٣م
(ص ص ٨٩- ١٠٢) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩



العميقة والمتأنية للوجود العثماني في السودان. ومن خلال هذه الدراسة اتضح لنا وجود ثلاث فترات للأتراك في السودان؛ وهي التركية الأولى ١٥٢٤-١٨٢١ (العثمانية)، والتركية الثانية ١٨٢٢-١٨٨٥ (حملة محمد علي باشا)، والتركية الثالثة ١٨٩٨-١٩١٦ (الحكم المصري - البريطاني).

١- مقدمة تاريخية:

سيطرت الإمبراطورية العثمانية على أجزاء كبيرة من شمالي أفريقيا، وذلك في الفترة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر. ولعل اهتمامها بسلامة ولاية مصر، من جهة، وسياسة التحكم في الجزيرة العربية وشواطئ البحر الأحمر، من جهة أخرى، من أجل التجارة مع الهند، كانا من أقوى الأسباب التي أدت لتوغلها في السودان، عبر النيل وعلى شواطيء البحر الأحمر (Alexander 2000: 15).

بدا هذا التوغل في السودان منذ بداية القرن السادس عشر، أي قبل أكثر من ثلاثة قرون من الغزو التركي المصري للسودان عام ١٨٢١م، الذي يعده الكثيرون البداية الحقيقية لوجود الأتراك في السودان، وهو الرأي الذي أثبتت الدراسات الحديثه خطأه. فقد ثبت أن الوجود التركي كان واضحاً في الشلال الثالث، وخاصة جزيرة صاي، وكذلك شمال الشلال الثاني في منطقة قصر إبريم (الآن داخل النوبة المصرية)، إضافة إلى وجود الأتراك في سواكن على البحر الأحمر. وهكذا أصبح في الدراسات السودانية ما يعرف بـ "التركية الأولى"، وهي الفترة الممتدة منذ ١٥١٧-١٨٢١م؛ ثم "التركية الثانية"، وهي الفترة التي تلت حملة محمد علي باشا للسودان، والممتدة من: ١٨٢١-١٨٨٥م.

٢- مصادر الدراسة:

أقدم المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع ما كتبه الرحالة التركي أوليا شلبي، الذي يُعتقد أنه زار المنطقة في عام ١٦٧١م، في مجلده العاشر عن مصر والسودان (شلبي ١٩٣٨).

وكما ذُكر سابقاً فهنالك بعض الإشارات القليلة العابرة عن الوجود التركي الأول في شمال السودان، التي ذكرها بعض المؤرخين، أمثال: نعوم شقير (١٩٠٣)، ومكي شبيكة (١٩٩١)، وهي في مجملها إشارات قليلة. غير أن الوضع تغير بعد إكمال العمل الأثرى بموقع قصر إبريم وبعد بدء العمل الأثرى بموقع جزيرة صاي. فقد كُشف في قصر إبريم عن مجموعة كبيرة من الوثائق، التي تعود لتلك الفترة. كما نشرت أكثر من ٢٠٠ مخطوطة بالتركية والعربية، إضافة للأرشيف العثماني بالقاهرة واسطنبول (Soghayroun 2000-101).

شرحت هذه الوثائق الكثير عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية والتاريخية، كما استُقي منها الكثير من المعلومات، مثل تللك الخاصة بالقضاء مثلاً، وكيفية دفع أجور عساكر الحاميات. كما أوضحت هذه الوثائق التدهور الواضح في استخدام اللغتين العربية والتركية، في وثائق القرنين ١٧-١٨م، ما يجعلنا نفترض أن النوبية أصبحت هي اللغة السائدة. كما لوحظ من الوثائق أن سكان قلعتي إبريم وصاي، في نهاية القرن ١٩م، صاروا يفخرون بأنهم "أتراك عثمانيون"، كتمييز لهم عن النوبيين والعرب. كما ادعى بعضهم الأصل البوسني (Bosnian)، مثلما ادعى آخرون الأصل المجري (Hungarian) في منطقة وادي حلفا، وهي ادعاءات دعّمت بالأدلة والوثائق من قصر إبريم (Alexander 2000: 52).

٣- التركية الأولى (١٥١٧-١٨٢٠) م:

٣-١ التركية الأولى في وادي النيل:

طوّرت الإدارة التركية طريقتها في التحكم الحدودي في وادي النيل. فقد كانت مشكلتها الأساسية كيف تحمي ولاية مصر من الهجوم القادم من الجنوب. ومن خلال الأدلة الأثرية والوثائق ميّز الكسندر خمس مراحل، حدث فيها تغيير لسياسة الحدود بين الأعوام ١٥١٦-١٨٢٣م (Alexander 1996).

المرحلة الأولى (١٥١٧-١٥٦٠) م: وهي المرحلة التي أصبحت فيها مصر إحدى مقاطعات الإمبراطورية العثمانية، تسمى (إيلات). أصبحت المنطقة ما بين أسيوط وأسوان، وهي منطقة الصعيد، منطقة حدودية تسمى: "سنجوقية" (Sanjak) أي محافظة. وفي هذه الفترة وصل نفوذ الفونج دنقلا، ومنها، وعبر وكلائهم، وصل حتى الشلالين الأول والثاني، ما حدا



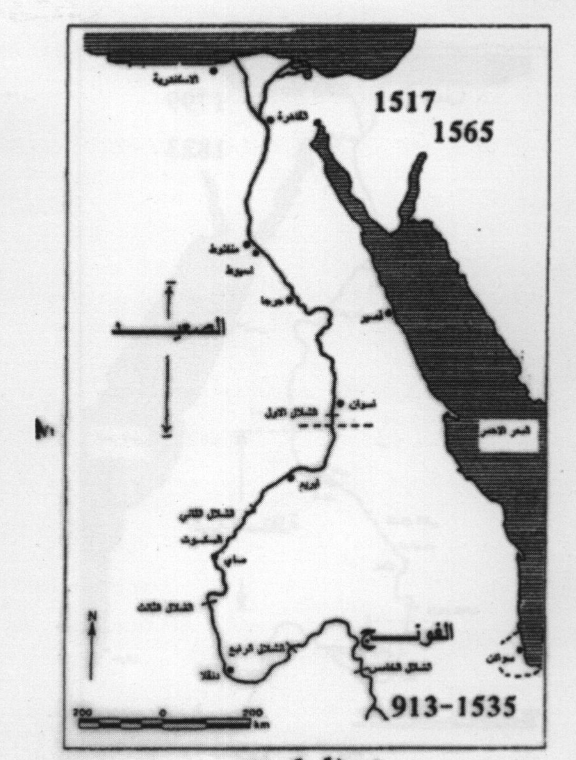
بالأتراك بناء برج مراقبة عام ١٥٥٠م بقلعة إبريم (الخريطة ١). وفي هذه المرحلة احتُلت سواكن وقامت "سنجوقية" الحبشة على الساحل الشرقي.

المرحلة الثانية (١٥٦٠-١٥٨٠)م: وهي المرحلة، التي تكونت فيها سنجوقية قصر إبريم، حيث وضع الدفاع الرئيسي بقصر إبريم، وقد كان لهذه القلعة أهميتها الإستراتيجية، كحماية لمصر. كما أصبحت قاعدة لسواكن وسنجوقية الحبشة؛ ولهذا أعيد بناء الحوائط من الحجر، وبناء مدخل جديد متطور لدخول الخيالة (الخريطة ٢).

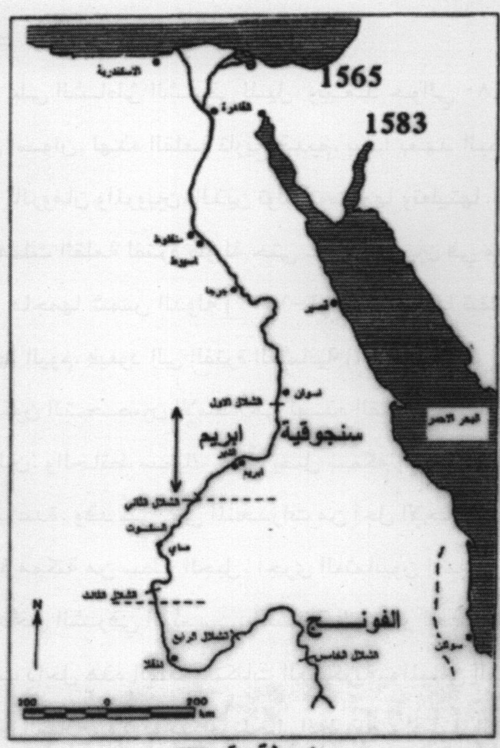
المرحلة الثالثة (١٥٨٣-١٥٨٦) م: وهي المرحلة، التي حدث فيها تقدم آخر في الحدود، كخطة للهجوم على الفونج. فقد تقدم العثمانيون عبر بطن الحجر حتى جزيرة صاي وجنوبيها، حيث وقعت معركة (حنّك) الشهيرة، بين الفونج والعثمانيين (١٠ كلم جنوبي الشلال الثالث). وقد اختيرت جزيرة صاي لإقامة قلعة فيها، فوجدوا قلعة تعود للفترة المسيحية المتأخرة، تحطمت جدرانها الشمالية بينما بقيت الجدران الأخرى حتى بداية القرن التاسع عشر. أعاد الأتراك بناء الحائط الشمالي، وشيدت سنجوقية جديدة، لتغطي منطقة الشلالين الثاني والثالث (سنجوقية المحس)، إضافة لسنجوقيتي إبريم والصعيد. وقد قصد من ذلك الحصول على موارد السودان، من ذهب وعاج وأبنوس وقطن وصمغ ورقيق. وقد ألغيت سنجوقية المحس بعد عام واحد من إنشائها. ومن أهم أحداث هذه المرحلة السماح للجنود بالزواج وممارسة أعمال إضافية، مثل الزراعة (الخريطة ٣).

المرحلة الرابعة (١٥٨٦-١٧٨٦) م: في هذه المرحلة استمرت قلعة صاي قلعة رئيسية، بها حامية منتظمة. وقد اتضح من الوثائق أن دور القلعتين (ابريم وصاي)، بدأ في التحول تدريجياً من دور عسكري إلى دور إداري، بغرض جمع الضرائب. وقد سُمح للجنود بالسكن داخل القلعة في إبريم حيث بنيت منازل سكنية من الحجارة، المعاد إستخدامها من المباني السابقة.

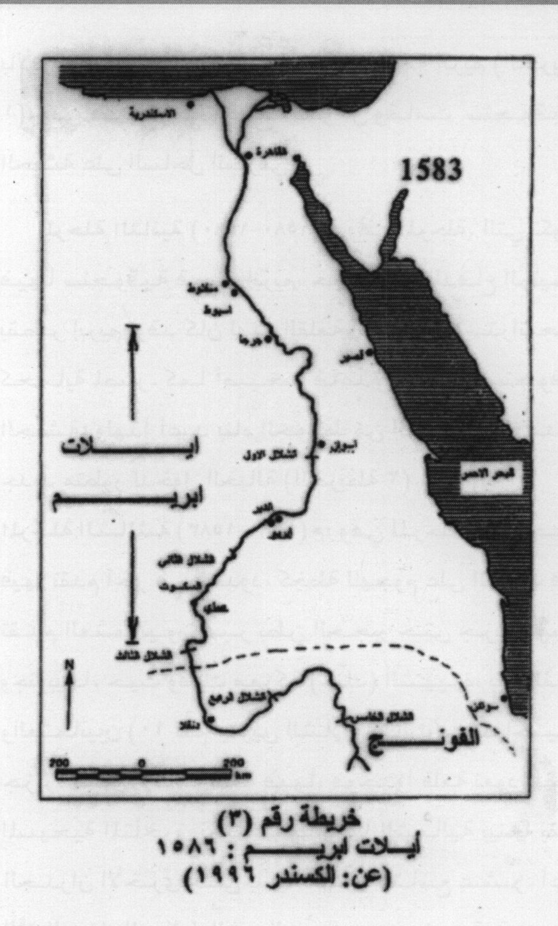
وقد بنيت المنازل على الطراز الإسلامي، وطليت باللون الأبيض، وكانت ذات أسقف مسطحة. كما شيدت مبانٍ



خريطة رقم (١)
الحدود العثمانية ١٥١٧-١٥٦٥
(عن: الكسندر ١٩٩٦)



خريطة رقم (٢)
الحدود العثمانية: ١٥٦٥-١٥٨٣. سنجوقية ابريم الجديدة (عن: الكسندر ١٩٩٦)



خريطة رقم (٣)
أيـالات ابريـــم : ١٥٨٦
(عن: الكسندر ١٩٩٦)



خريطة رقم (٤)
(أ) الفرنسيين (١٧٩٩-١٨٠٢) و (ب ، ج) الحدود العثمانية (١٨٠٢-٢٣).
(عن: الكسندر ١٩٩٦)

عسكرية وإدارية ومسجد ومخازن وغرف للحراس. وبنهاية هذه المرحلة، أصبحت قلعة إبريم قرية محصنة، يسكنها ما بين ٥٠-٧٠ أسرة، وظهر في هذه الفترة اسم "الكشاف" بكثرة.

المرحلة الخامسة (١٧٨٦-١٨٢٣) م: شهدت هذه المرحلة إعادة التنظيم الأخير للحدود الجنوبية. فقد أصبحت سنجوقية الصعيد تمتد حتى الشلال الأول جنوباً. أما المنطقة بين الشلالين الأول والثالث، فقد أصبحت تحت أمراء الهوارة (الخريطة ٤). وأوضحت الوثائق أن مرتبات الجنود في قلعتي إبريم وصاي، ظلت تصل إليهم حتى عام ١٧٩٦ . كما أوضحت الصور الجوية من قلعة صاي، سلسلة من المباني ذات الأسقف المسطحة، التي تركزت في الجانب الشرقي والجنوب الغربي، كما وجدت المباني ذات الطابقين والثلاثة طوابق.

٣-١-١ قلعة ابريم:

تقع هذه القلعة على جبل صخري معزول، يرتفع ٧٠ متراً على الشاطئ الشرقي للنيل، ويبعد حوالي ١٨٠ كلم جنوبي أسوان. لهذه القلعة تاريخ قديم، يبدأ بعهد البطالمة، مروراً بالرومان والمرويين، الذين تولوا توسيعها وتعليتها. وبعد ذلك أهملت القلعة لفترة طويلة حتى عهد الأيوبيين في مصر، عندما هاجمها شمس الدولة (١١٧٢-١١٧٣)م. أما ما تبقى من جدرانها اليوم، فيعود إلى الفترة العثمانية (الشكل ١).

يتكون التحصين الإسلامي لهذه القلعة من حائط ومدخلين. والحائط سميك جداً، يصل سمكه إلى ثلاثة أمتار في القاعدة. وقد بُني على المنحدرات من أجل الإحاطة بأكبر مساحة ممكنة من سطح الجبل. أجرى العثمانيون إضافة مهمة هي المدخل الشرقي الرئيسي، إضافة إلى ممر لجلب المياه. وأقيمت داخل هذه القلعة الثكنات العسكرية، والمباني العامة، ومخازن السلاح. ولا يوجد أثر لمحال الحرفيين، أو نُزل التجار.

أما المنازل السكنية، فكانت القاعدة العامة أن تتكون من طابق واحد، بسقف مسطح، خلافاً للأسطح المقنطرة

الشكل ١: مسقط أفقي لقلعة إبريم (نقلاً عن: Alexander 2000).

(Vaulted) الموجودة في قرى النوبة. كما وجدت في الفترة الأخيرة المنازل المكوَّنة من طابقين، وتحيط بها مساحات واسعة. وتتبع المنازل الكبيرة النظام التقليدي الإسلامي، وهي تشبه منازل العثمانيين الأولى في سواكن. وتتكون هذه المنازل من غرفة خارجية، تؤدى إلى ساحة واسعة تؤدي بدورها لغرفة المجلس الخاصة بالرجال (الديوان). وفي هذه الساحة يوجد مدخل صغير يؤدي إلى مكان النساء، الذي يمكن تقسيمه حسب عدد الزوجات. كما تم تمييز مكان الطبخ داخل هذه المنازل.

وفي قصر إبريم حوّل جزء من الكاتدرائية إلى المسجد، خلال المرحلة الثانية من الوجود العثماني بالمنطقة، وذلك بقطع محراب داخل الحائط الشرقي وبناء منبر.

٣-١-٢ قلعة صاي:

تقع هذه القلعة في جزيرة صاي، شمالي الشلال الثالث، وهي واحدة من أكبر جزر النيل، التي تسمح ضفافها بالزراعة. عرفت صاي منذ الألفية الثانية ق. م، كما دلت الحفريات الأولى (Vercoutter 1958). وعند وصول العثمانيين، كانت على جزيرة صاي قلعة ضخمة، تعود للفترة المسيحية المتأخرة، حائطها الشمالي متهدم، بينما بقية الجدران والأبراج، التي بنيت من الحجر والطوب الأخضر، شامخة لارتفاع ١٢ متراً. وأظهرت الأعمال الأثرية الأخيرة (Alexander 1997) وجود أربع فترات سكنية بالموقع. وبالمقارنة مع قلعة إبريم، فان قلعة صاي أقل منها في القوة والعمارة؛ ولكن التخطيط العام هو نفسه في القلعتين، إذ توجد أربعة أبراج ذات طُرز معمارية مختلفة، في ثلاث منها غرف. أما البرج الرابع وهو الجنوبي الغربي، فيه غرف للمدفعية والبنادق. والمدخل الوحيد للقلعة في الحائط الجنوبي، ما لم يكن هنالك آخر في الحائط الشمالي المتهدم. وكما هو الحال في إبريم، فان القلعة ضمت ثكنات ومبانٍ إدارية ومخازن للسلاح (الشكل ٢).

أما المنازل في صاي، وعلى الرغم من تدهور حالة الموقع الأثرى فيمكن تمييز تسعة منازل كبيرة من الطراز الإسلامي التقليدي، ذات المشربيات التي أوضحتها رسومات "بلفوندز".

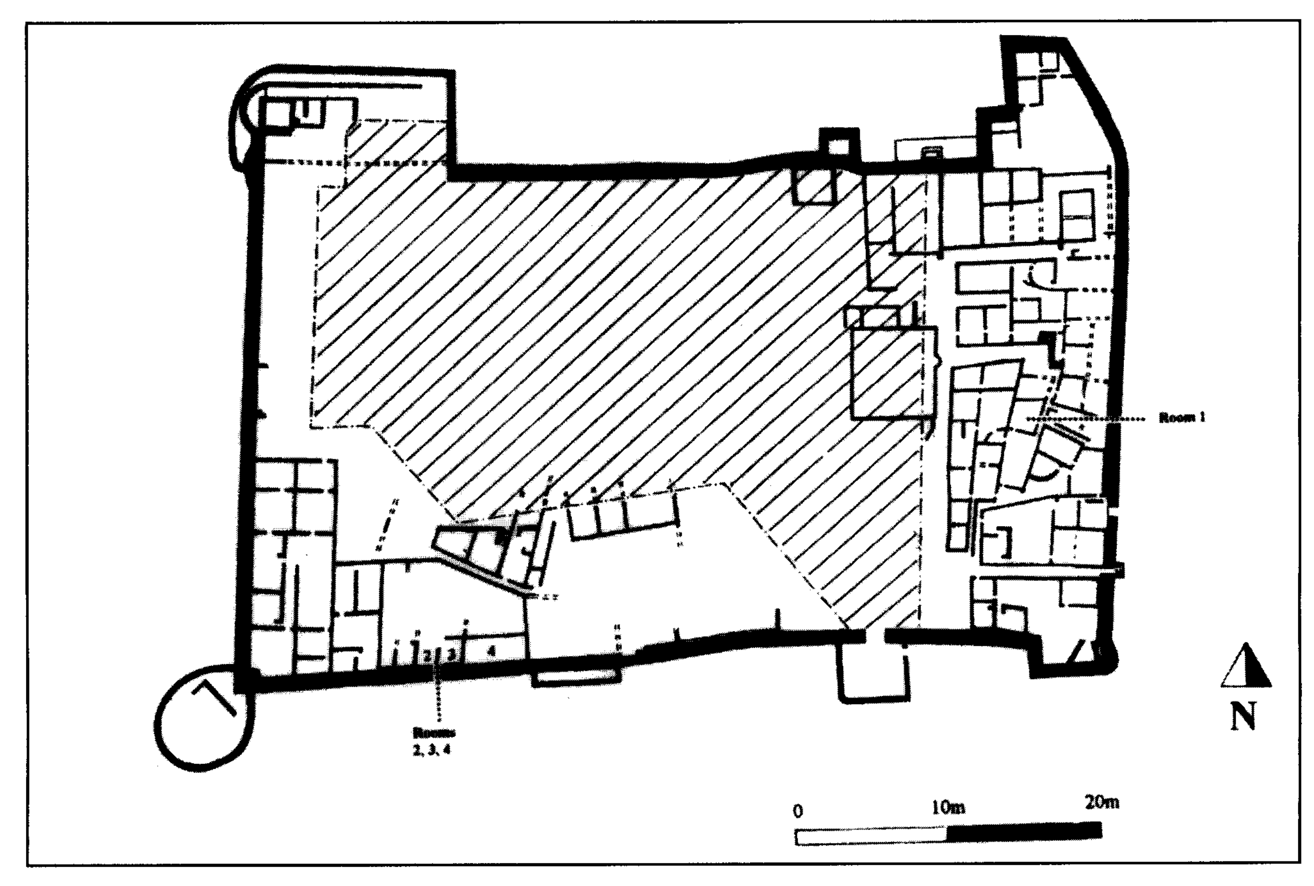
كما كُشف عن مسجد الجمعة، بالقرب من وسط القلعة، وهو المسجد الذي ذكره شلبي في عام ١٦٧٢ (Çelebi 1938). وقد جرى مسح هذا المسجد في عام ١٩٥٨م، وبلغت مساحته (١٢ X ١٢) متراً، إضافة لثلاث غرف صغيرة ومئذنة، وقد أشارت دراسة جون الكسندر سنة ١٩٩٧، إلى انه مبني من الطوب اللبن (Alexander 1997).

٣-١-٣ إقليم المحس (الشلال الثالث):

منطقة الشلال الثالث هي المنطقة الحدودية للعثمانيين. على الرغم من أن الحدود الجنوبية للعثمانيين هي جنوب الشلال الثالث مباشرة، إلا أن الأوضاع في هذه المنطقة تشير إلى تحالف المحس مع الفونج، أمر ربما وقع بعد جلاء المعركة، وتثبيت الحدود في حنّك، التي تراجعت بعدها الجيوش العثمانية واستقرت في الحامية الرئيسية بجزيرة صاي. إلا أن هذا لم يمنع من وجود بعض القلاع الصغيرة، والوحدات السكنية، التي تعود لهذه الفترة.

أجرى قسم الآثار في جامعة الخرطوم مسحاً آثارياً في هذه المنطقة، ضمن برنامج المسح والتنقيب الآثاري لهذه المنطقة في موسمه الأخير (فبراير - مارس ٢٠٠٢)، للكشف عن بعض هذه المواقع.

وقد وجد العديد من القلاع، التي يلاحظ فيها الاستفادة من البروز الصخري العالي، وإقامة القلاع عليه اعتماداً على شكل البروز الصخري، فقلعة موقع "دوني" شبه دائرية، وبها برج واحد في الاتجاه الشرقي، وقد بنيت من الحجر كأساس، وبقية الحوائط من الجالوص (الطين النيئ) ، وتلاحظ فتحات البنادق في جميع الجهات (اللوحة ١). وكذلك في جزيرة "سِمت"، قامت قلعة على الصخور البارزة المقابلة للنيل، وهي شبه مستطيلة ولها ثلاثة أبراج، وأساسها أيضاً، من الحجر، وبقية الجدران من الجالوص (اللوحة ٢). وفي جزيرة "مُسُل" نموذج ثالث للإفادة من المرتفع الصخري الطبيعي، أقيمت قلعة لها أربعة أبراج، وبداخلها عدد من الغرف، وأساسها من الحجر، وبقية الجدران من الطوب الأخضر والطوب المحروق (اللوحة ٣)، كما يلاحظ وجود فتحات للبنادق.



الشكل ٢ : مسقط أفقي - قلعة صاي (نقلاً عن: Alexander 2000)

وفي منطقة "نوري"، وجد مجمع سكني ضخم شمال جبل نوري، حائطه الجنوبي جزء من تحصينات العصور الوسيطة، ويتكون من أربع وحدات سكنية، أكبرها الشرقية (الشكل ٣)، التي نجد أن مدخلها من الناحية الشرقية، يؤدي لغرفة بها مصاطب للجلوس، وفيها مدخل إلى فناء داخلي تفتح فيه بعض الغرف. كما يوجد درج يقود للطابق الأعلى في الجزء الجنوبي الغربي (لوحة ٤). وداخل هذه الغرف نجد الرفوف الحائطية والتجاويف ثلاثية الفصوص. كما تلاحَظ بقايا الأبواب الخشبية المعروفة من قصر إبريم وسواكن حتى وسط السودان.

٣-١-٤ الأسلحة:

كانت الإمبراطورية العثمانية رائدة في مجال استخدام السلاح الناري، وكانت لديها وحدات من المشاة، الذين يستخدمون القرنيبه (سلاح ناري من طراز قديم) والمدافع.

ومع بداية القرن السابع عشر، أصبح استخدام البنادق والبارود شائعاً، إذ عثر على بقايا البنادق والطلقات في حفريات إبريم وصاي. كما عُثر في إبريم على مدفع بعيد المدى، تحت إحدى البنايات. كما توجد أيضاً إشارة لمدفع نحاسي في قلعة صاي، منقوش عليه اسم (سليم)، وقد جرى صهره خلال التركية الثانية (Bellefonds 1824)، كما أشار شلبي إلى استخدام البنادق في مملكة المحس (Çelebi 1938).

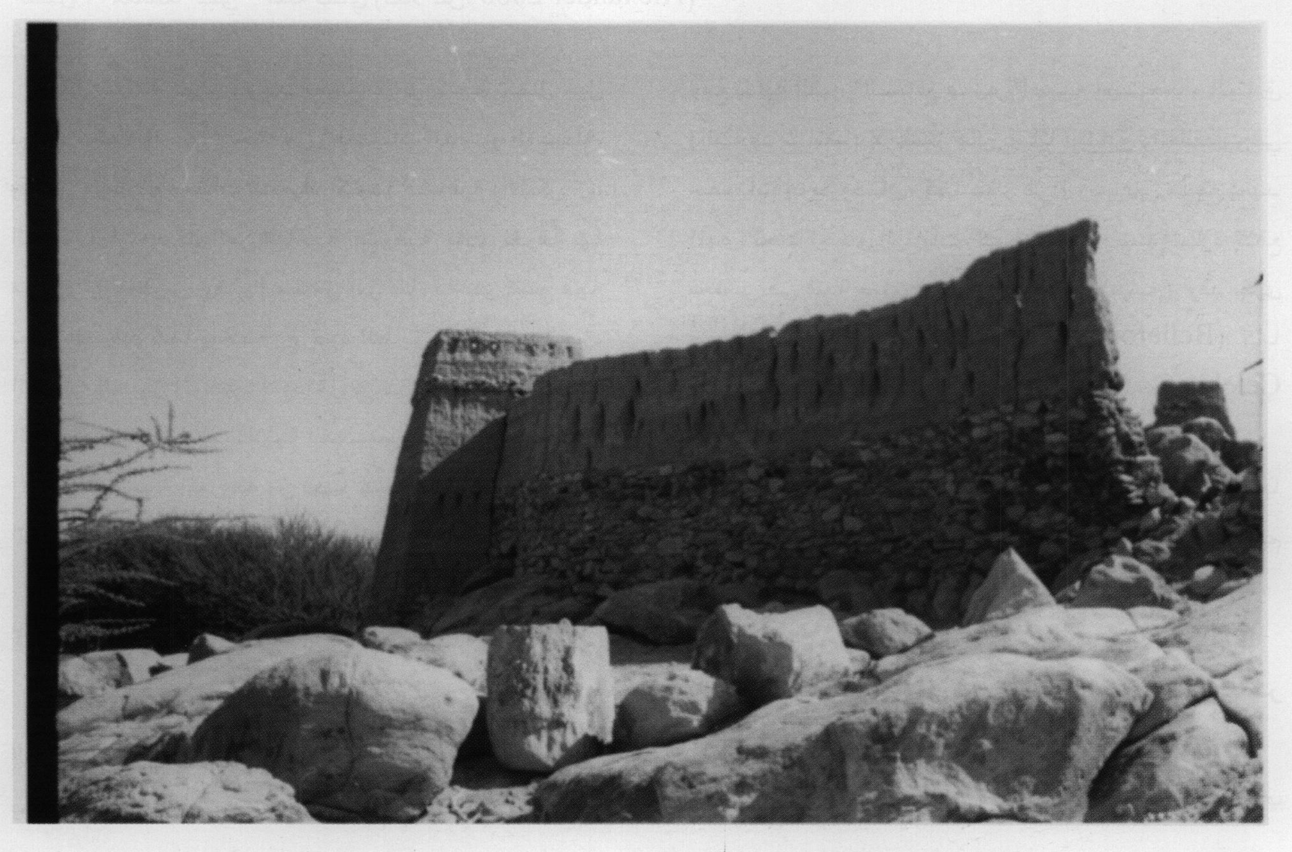
أما الأسلحة البيضاء، فقد عثر في قصر إبريم على بقايا السيوف المعقوفة، التي استخدمها سلاح الفرسان؛ ولكن لم يُعثر على بقايا دروع (Adams 1992).

٣-٢ التركية الأولى في شاطئ البحر الأحمر (سواكن):

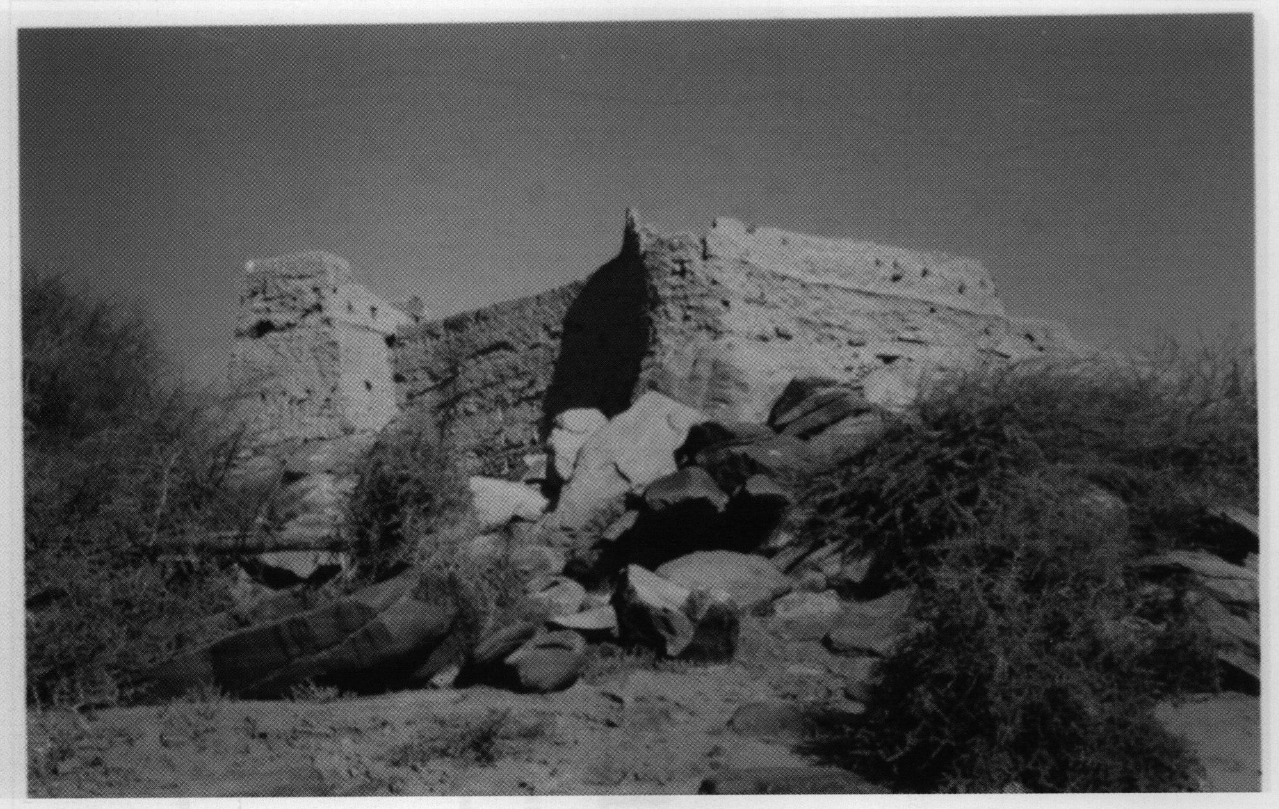
تعدُّ سواكن مثالاً لمدينة تركية بنيت بين القرنين، التي



اللوحة ١: قلعة دوني (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٢: قلعة جزيرة سمت (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٣: قلعة جزيرة مُسل (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٤: البرج - الوحده السكنية _ نورى (نقلاً عن: Soghayroun 2002).

أصبحت المصدر الرئيسي لدراسة فنون سواكن وعمارتها (Greenlaw 1976).

وكما هو معلوم، فان المناخ الساحلي يتطلب نوعاً من البناء، يختلف عن متطلبات الصحراء، وهو البناء الذي يجذب هواء البحر، ويجعله يدور بحرية داخل المنزل، مع إخراج الهواء الساخن وإبعاد ضوء الشمس. وقد تطور طراز البناء في ساحل البحر الأحمر ليقابل هذه الاحتياجات. فنجد المنازل تتكون من طابقين أو ثلاثة، تقطعها المشربيات، كما نجد النوافذ المفرعة والأسطح المجهزة للنوم.

لم تُخطط سواكن، فقد نمت مثل معظم المدن القديمة، مدينة ذات شوارع ضيقة، ومنافذ صغيرة بين بلكونات المنازل. وتحيط بها تحصينات كتشنر، التي أقامها عام ١٨٩٠، ذات المدخل الحصين.

٣-٢-١ المنازل :

بُنيت المنازل الأولى، عدا منزل خورشيد، في الجزء الجنوبي من الجزيرة وقليل منها بُني في الجزء الشمالي، ومعها بعض المساجد، مثل الحنفي والشافعي، وهو الجزء نفسه، الذي



الشكل ٣: مسقط أفقي – الوحدة السكنية – نوري (نقلاً عن: Soghayroun 2002)

شهد مباني نهاية القرن التاسع عشر، التي تضم المحافظة، والجمارك، والتلغراف، والبنك الأهلي المصري، ورئاسة كتشنر، وغيرها.

قسّم "قرينلو" المنازل إلى نوعين: النوع التقليدي، وهو من طابق واحد، ويتكون من غرفتين أو ثلاث غرف، الصغرى للعائلة والثانية للضيوف وهو يشبه نظام الخيمة عند البدو. ويوجد بداخل هذا النوع من المنازل، مميزات المنازل الكبيرة نفسها، مثل: الرفوف داخل تجويف الجدران، والمنظمة في ثلاثة أدوار باستخدام فواصل خشبية؛ كذلك زخارف أعلى المداخل والنوافذ الخشبية المفرّغة (الشكل ٤).

أما النوع الثاني، فهو الذي يتكون من طابقين فأكثر، ويحتوي على غرفة استقبال كبيرة، تجاورها غرفة صغيرة وحمام. وعندما تكون الغرفة في المدخل، فإنها تسمى "الدهليز" ويوجد في نهايته الديوان. ويتكون الديوان من جزئين، يرتفع الجزء الثاني منهما عن الأول بدرجين أو ثلاثة، ويحتوى على مصاطب للجلوس بارتفاع ٥ سم من الأرض إضافة للمشربية. أما الطابق الأول، وما بعده من طوابق، فهي أكبر حجماً وتحتوى على (الحرملك)، وهو للعائلة، ويتكون، عادة، من عدد من الأجنحة أو غرف للجلوس، تسمى المجلس. ويحتوي كل جناح على غرف صغيرة تسمى "الخزانة"، ومطبخ مستقل وحمام. وتتصل الطوابق العليا للمنازل -عادة- مع بعضها لتسهُل عملية خروج النساء دون اللجوء للشارع. وكما هو الحال في منازل إبريم وصاي، يوجد مدخلان للمنزل: مدخل للنساء والآخر للرجال.

من الملامح المهمة في منازل سواكن، "الروشان"، كما يعرف في سواكن وجدة، وهو "المشربية"، كما هو معروف في مصر،



و"الشناشيل" في العراق. ويطل الروشان يطل على الشارع، ويصنع من خشب التيك المستورد من جاوة، ويسمى "جاوى"، ويشحن من شرق الأنديز. ويمكن تتبع الروشان حتى الهند شرقاً، وليما في بيرو غرباً. وهو ظاهرة معروفة في جنوبي أسبانيا ومالطة ومصوع والصومال. إن حجم الروشان له علاقة بطول الإنسان، فهو عريض لينام فيه الشخص ومرتفع ليقف عليه ويطلع على الشارع بنحو ٦٠ سم؛ فإذا أضفنا هذا لسمك الحائط، يصبح الروشان أعمق وأعرض ما يسمح بجلوس اثنين أو ثلاثة لشرب القهوة. وتسمى أرضيته "الجلسة" ويضاء بمصباح كهربائي ينزل من السقف. وتتنوع الرواشين في زخرفتها وحجمها، وقوام الزخرفة أشكالا هندسية.

٣-٢-٢ المساجد :

توجد العديد من المساجد التركية في سواكن، التي من أقدمها المسجد المجيدي، ويتكون من رواق القبلة بمحرابه ومنبره ودكّة المبلّغ. وللمسجد ثلاثة مداخل، وملحقة به خلوة ومئذنة في الجانب الجنوبي الغربي. وهي مئذنة مبنية من الحجر، مثمّنة بها مقرنص، وبنيت شرفتها من الحجر خلافاً لبقية المآذن في سواكن، التي شرفاتها خشبية. يلي الشرفة جزء أسطواني تعلوه قبة صغيرة. كما يوجد أيضاً المسجد الحنفي، وهو في عمارته أفضل من المجيدي، ولكن في الحجم نفسه. ويتميز المسجد الحنفي بكثرة الزخارف على المحراب والمنبر، وله مئذنة. كذلك يوجد المسجد الشافعي، وهو أكبر من الحنفي والمجيدي وأكثر زخرفة، وله أربعة أروقة، وملحق به خلوة في الناحية الشمالية الغربية، ومئذنة في الجانب الجنوبي الغربي، وله ثلاثة مداخل. وهناك أيضاً عدد آخر من المساجد في سواكن.

أما الزوايا فهي على نوعين، النوع البسيط المكشوف في شكل مربع أو مستدير، له حائط قصير واتجاه القبلة ومدخل واحد من جهة الغرب. يتفرع من هذا النوع البسيط، نوع يتكون من أكثر من مساحة: جزء مفتوح، وجزء مظلل ومفتوح الجوانب، وجزء مسقوف. أما النوع الثاني، فهو ذو السقف المقبب، مثل زاوية موسى وزاوية المجذوبي.

وفيما يتعلق بالعمارة العسكرية، فهي في شكل تحصينات وبوابات رئيسية يعود معظمها للعهد الثنائي المصري البريطاني.

٤- آثار التركية الثانية:

من أهم آثار فترة التركية الثانية (١٨٢١-١٨٨١) م، قباب الأتراك في الخرطوم. تقع هذه المقابر في شرقي شارع القصر وشمالي شارع البلدية، وتتكون من قبتين: قبة أحمد باشا جركس المعروف بـ (أبو ودان)، الذي توفي عام ١٨٤٤م، وهي القبة الشرقية؛ أما القبة الغربية، فيرقد فيها موسى باشا حمدي، المتوفى عام ١٨٦٥م، وتضم أيضاً رفاة أحد أفراد عائلته.

أما في صحن المقبرة، فيوجد مدفن محمد ممتاز باشا، الذي حكم بين (١٨٧١- ١٨٧٣) م، وكذلك يضم هذا الفناء آدم باشا العريفي، وهو سوداني من ضباط الجيش المصري، والماظ باشا (سوداني) ، وإبراهيم بك مرزوق، وهو كاتب مصري، وآخرين.

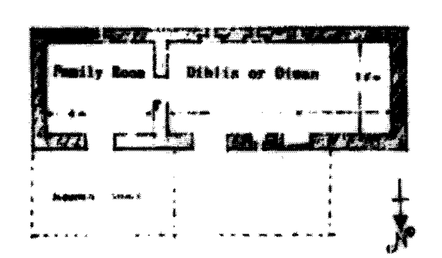
وإضافة إلى مقابر المسؤولين الأتراك، كانت هذه المقابر عامة وتعرف بمقابر الخرطوم، وتمتد غرباً حتى الجامع الكبير، الذي يعرف باسم (جامع عباس). وقد كان هذا الموقع على بعدٍ كافٍ من المباني الحكومية والسكنية في ذلك الوقت، كما أن اختيار الموقع كان بغرض أن يستطيع الناس رؤية هذه القباب، فيدركون أن الحكم التركي باقٍ.

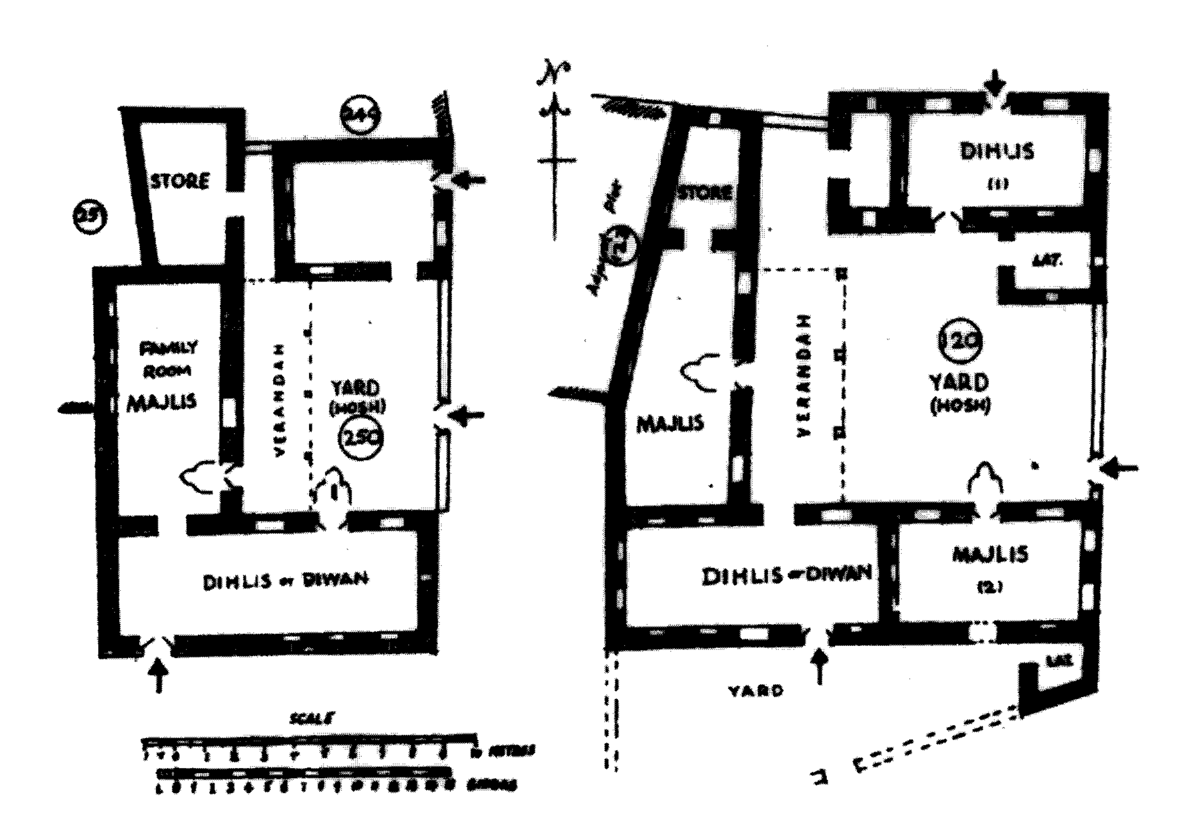
ومن المعلوم أن نظام الدفن تحت القباب كان معروفاً في السودان، ولكن يدفن الشيوخ فقط تحتها، وليس الحكام.

ولم تكن هذه القباب هي كل ما شُيِّد في تلك الفترة، ولكن معظم العمائر طالتها يد التغيير، مثل قصر الحكمدارية (وزارة المالية الآن)، وسراي الحاكم (القصر الجمهوري)، وغيرها من دواوين الحكومة.

٥- خاتمة :

وهكذا بدأت في السودان دراسات جديدة حول الوجود العثماني، أو التركية الأولى (١٥١٧-١٨٢٠) م، ولكنها دراسات لا





الشكل ٤: مسقط أفقي للمنازل في سواكن – النوع الأول. (نقلاً عن: Greenlaw 1976).

تزال تخطو خطواتها الأولى. فعلى وادي النيل، اكتمل العمل الأثرى في موقع قصر إبريم، كما شارف على الانتهاء في موقع جزيرة صاي، التي ستصدر عنها كتب خلال الفترة القليلة القادمة، وهي، بصورة عامة، تتحدث عن القلاع الرئيسية، ويبقى البحث والتنقيب داخل المراجع والأرشيف العثماني وداخل المواقع الكثيرة المنتشرة شمالي السودان، وذلك من أجل فهم الوضع الاجتماعي والسياسي، الذي نجم عن وجود الجنود من مختلف أنحاء الإمبراطورية، في منطقة النوبة، خاصة بعد السماح لهم بالزواج والاستقرار. وقد تلاحظ أن تلك الفترة تزامنت مع هجرة شيوخ الطرق الصوفية جنوباً وهي الهجرة التي ربما كانت بسبب الوجود العثماني السني في هذه المنطقة. كما وجدت العديد من المنازل المحصنة، التي عُثر على كتابات بالتركية على عتبات مداخلها، وهي قد تفيد في دراسة الأوضاع الاجتماعية.

كذلك يجب الاهتمام بدراسة منطقة الشلال الثالث، التي تمثل معضلة فى حد ذاتها بحسبانها منطقة حدودية. وتشير المخطوطات إلى وجود الحكام المحليين جنباً لجنب مع الاداريين



العثمانيين، كما تشير إلى تحالف ملوك المحس مع ملوك الفونج.

أضف إلى ذلك المشكلة المتوارثة، منذ تطور علم الآثار الاسلامية في نهاية القرن التاسع عشر، ألا وهي دراسة أثر الصفوة من قصور و مساجد ضخمة، و قطع فنية رائعة، نفتقدها في الدول الإسلامية جنوبي الصحراء.

وبصورة عامة، فإن هذه المنطقة تعد على أطراف أو هامش الامبراطورية العثمانية. وقد كانت، ولأزمان طويلة، منطقة حدودية تتقدم وتتراجع خلال التاريخ القديم للسودان؛ أما الجزء منها، الذي سادت فيه مملكة الفونج الإسلامية، فلم يكن في يوم من الأيام جزءاً من الخلافة الأسلامية. وهكذا فإن دراسة هذه المنطقة، كجزء من الامبراطورية العثمانية، يجب أن تلتمس بحذر كمنطقة هامشية، كما يجب مقارنتها بالدول الأخرى، التي كانت يوماً من الأيام على هامش تلك الأمبراطورية العظيمة.

إن هذه الدراسات لا تزال في بدايتها، وقد بدأ قسم الآثار بجامعة الخرطوم في تشجيع طلاب الدراسات العليا وتوجيههم نحو هذا النوع من الدراسات، باعتبارها جديدة، وجديرة بالبحث والدراسة، وفيها الكثير، الذي يمكن اكتشافه وإضافته لفهم جزئية من المجتمع السوداني، في فترة ما بعد العصور الوسيطة.

د. انتصار صغيرون الزين: قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة الخرطوم - السودان.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

مكي شبيكة ١٩٩١ . **السودان عبر القرون**، دار الجيل، بيروت، لبنان.

نعوم شقير ١٩٠٣ . **جغرافية وتاريخ السودان**، دار الثقافة، بيروت.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Adams, N. K 1992. "Life in Ottoman Times at Qasr Ibrim", **Etudes Nubiennes,** Vol. I. Geneve.

Adams, W. Y 1987. "Islamic Archaeology in Nubia: An Introductory Survey", **Tomas Hagg**, PP: 327-361. Uppsala.

-------------- 1996. **Qasr Ibrim: the Late Medieval Period. Egyptian Exploration Society**. London.

Alexander, J. A 1996. "The Turks on the Middle Nile". **Archéologie du Nil Moyen**. Vol. 7. Lille.

-------------- 1997. "Qalat Sai: The Most Southerly Ottoman Fortress in Africa. Sudan and Nubia", **SARS**. No. 1. PP: 16-19. London.

-------------- 2000. "The Archaeology and History of The Ottoman Frontier in the Middle Nile Valley 911-1233 AH/1504-1820 AD", **Adumatu**. Vol.1. PP: 47-61. Riyadh.

-------------- & Schlee, N forthcoming The Ottoman Fortress of Sai. Lille

-------------- forthcoming The Ottoman Fortress of Qasr Ibrim, Lille

Çelebi, E 1938. **Seyahatnameh, Misr, Sudan Habes 1672-1680,** Book X, Istanbul.

Greenlaw, J. P. 1976. **The Coral Building of Suakin**, Leeds.

Hinds, M 1991. **Qasr Ibrim in the Ottoman Period: Turkish and further Arabic Documents. Memoir,** Egyptian Exploration Society, London.

Luigi, M 1960. "Khartoum in 1842: One of the Three Impressions of Khartoum during the Turkiiya", **Sudan Notes and Records,** Vol xl. PP: 101-106, Khartoum.

Marill, W 1964. "The Wooden Locks of Wadi Halfa Region", **Sudan Notes and Records,** Vol. xxxxv, PP: 24-34, Khartoum.

Mathew, D. H 1953. "The Red Sea Style". **Kush**. Vol. I. PP. 65-86, Khartoum.

Menage, V.L 1988. "The Ottomans and Nubia in the Sixteen Century", **Annales Islamologiques,** Vol, xxiv, Cairo.

Plumley, J. M 1971. "Qasr Ibrim and Islam", **Etudes et Travaux,** xii. PP: 158-70. Cairo.

Sakkout, H & Hinds, M 1986. **Arabic Documents from the Ottoman Period from Qasr Ibrim,** London.

Soghayroun, I. E 2000. Islamic Archaeology in The Sudan. Unpublished Ph.D., Thesis, University of Khartoum.

Udal, J. O. N. 1998. **The Nile in Darkness: Conquest and Exploration 1504-1862,** Norwich.

Vercoutter, J 1958. "Excavation at Sai", **Kush,** Vol, 6. PP: 144-169, Khartoum.

Walkey, C. E.J 1933. "The Story of Khartoum", **Sudan Notes and Records,** Vol. xviii.Part ii, PP: 221-242, Khartoum.

صناديق أندلسية من العظم وقرون الوعول [ق ١٢-١٣م] ورشة قلعة تورّي جروسة دي خيخونا [أليكانتي](١)

تأليف : ر. أثوار و خ. أز لوبيث باديا (٢)
ترجمة : عبد الله بن إبراهيم العمير

مقدمة المترجم:

كان لاستقرار الدولة الفتية في الأندلس، أثر إيجابي بارز انعكس بشكل سريع على العديد من اهتمامات المجتمع الأندلسي، على المستويين الرسمي والشعبي، ومن ذلك العناية بمجالات الفنون الإسلامية المتنوعة، التي كانت تعد أحد أهم الوسائل، التي عبرت من خلالها الحضارة الإسلامية إلى خارج حدود أقاليمها. ولعل من أبرز مجالات الفنون الإسلامية، التي أولاها الفنان الأندلسي نصيباً وافراً من اهتمامه، مجال نحت وصناعة العاج والعظم، إذ تبين له أنّ بإمكانه أن يحوّل هذه المادة الخام الصّلبة، إلى مادة طيّعة سهلة التصنيع؛ فاستطاع أن يشكّل منها ما يتوافق ومواصفاتها الفريدة.

ونظراً لأن مصدر مادة العاج هو مما تشح به بلاد الأندلس، فقد حرص الخلفاء والولاة والتجار على جلب هذه المادة من مصادرها الأساسية، سواء كان ذلك من أفريقيا أو من شبه القارة الهندية، حتى أن الخليفة الناصر وابنه المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ) أوليا اهتماماً خاصاً لهذا الأمر، فسهّلا سبل جلب العاج والذهب إلى الأندلس عن طريق السفارات، التي كانت تتوافد على قرطبة، عاصمة الخلافة آنذاك.

وقد انتهج الحرفي في بداية إنتاجه لهذه المادة أساليب صناعية، كانت مزاولة في حضارات سابقة داخل شبه الجزيرة الإيبيرية وخارجها، إلاّ أنه سرعان ما ابتدع أساليب جديدة تنسجم وثوابت حضارته الفتية، حتى أصبحت مصنوعات العاج الأندلسية سلعة نفيسة تستحق التقدير والإعجاب؛ إذ استطاع الفنان الأندلسي أن يُكيّف مادتي العاج والعظم ويستثمرهما لصناعة العديد من المستلزمات الثمينة، التي نالت إعجاب الخلفاء والأمراء والأثرياء وعلية القوم، حتى أصبح اقتناء المصنوعات العاجية أحد مظاهر الترف والرخاء. فقد دخلت هذه المادة في صناعة مقابض السيوف والخناجر والسكاكين وأبواق الصيد، بل واستغلت حتى في مجال العمارة، وذلك لتجميل الحنايا والعقود والتيجان ومصاريع الأبواب والمنابر، ورصّعت بالذهب وأصناف الجوهر. كما كثر استخدامها في صناعة الصناديق المستطيلة الشكل، التي تتخذ لحفظ الحلي والمجوهرات، وكذلك لصناعة العلب الأسطوانية الخاصة بحفظ المسك والعنبر والكافور ونحوها. وهي استخدامات بيّنها أحد النصوص الشعرية المنفّذة على إحدى العلب، حيث يقول الشاعر على لسانها:

منظري أحسن منظر   نهد خود لم يكسر
خلعةُ الحسن عليّ   حلة تزهى بجوهر
فأنا ظرف لمسك   ولكافور وعنبر

وقد ارتبطت حرفة نحت العظام والعاج واستخدامهما ارتباطاً وثيقاً بالبلاط الخلافي، فأُنشئت ورش صناعتها على مقربة من قصور الخلافة ورجال الدولة، حتى أصبح للمشتغلين بهذه الصنعة مكانة مميزة عن غيرهم من الحرفيين وأرباب الصناعات، إذ وجد أن منتجاتهم تمثل أحد أنفس التحف، التي يمكن تبادلها على سبيل الإهداء بين الأمراء والأميرات والسفراء والملوك، داخل وخارج بلدان الأندلس وحواضرها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التحف العاجية المحفوظة في متاحف عالمية متفرقة، تعد أوفر مجالات الفنون الأندلسية حظاً في البقاء ووضوح الهوية، على الرغم من شح مادتها

وندرة منتجاتها، مقابل مصنوعات أخرى كالفخار والخزف والمعادن والمنسوجات ونحوها. ويعود الفضل في ذلك إلى جودة مادة صناعتها، ثم إلى الحرص عليها من قبل الجهات أو الأشخاص الذين وصلت إليهم، إلى جانب الاهتمام بما تحمله هذه التحف من عناصر زخرفية وكتابية متنوعة؛ فقد اتخذت بعض المصنوعات العاجية، وخصوصاً الصناديق المستطيلة والعلب الأسطوانية، من قبل رجال الدين المسيحيين، أوعية مقدسة لحفظ رفات القديسين والشهداء داخل الكنائس والكاتدرائيات. وبذلك تغيّرت وظيفتها من استخدام للأغراض الدنيوية إلى وظيفة مغايرة ذات أغراض دينية، فبقيت عبر قرون طويلة محل العناية والصيانة والتقدير. أما فيما يتعلق بما تحمله أسطحها من عناصر تجميلية، فإنها كانت تعد في المقام الأول رافداً متيناً يعتمد عليه في معرفة هويتها، كما يعتمد عليها - في الوقت نفسه - عند تأصيل وتأريخ القطع، أو العناصر الزخرفية المماثلة. ذلك أن معظم هذه التحف تحفل بنصوص كتابية معبّرة، تتضمن - في الغالب - جملة من المشتملات المفيدة في عملية التأريخ، مثل اسم الشخص الذي أمر بصناعتها، أو المهداة إليه، أو اسم صانعها، أو تاريخ ومكان صناعتها، ونحو ذلك.

وإلى جانب العناصر الكتابية، هناك العناصر النباتية والهندسية، التي أسهمت في الإبانة والكشف عن الكثير من المعطيات، حول نشأة وتطور وانتشار هذه العناصر على معظم مجالات الفنون الإسلامية، إضافة إلى العناصر الآدمية، التي تمثل مشاهد متنوعة للحياة اليومية لذلك المجتمع؛ فمن خلالها أصبح من الممكن التعرّف على أشكال اللباس، وأسلوب تصفيف الشعر، وكيفية الجلوس، وغيرها. وهكذا تتجلى أهمية هذه العناصر ليس فقط كزخارف تجميلية، بل كوثائق تاريخية ذات قيمة بالغة للمقارنة والتأصيل.

وخلال هذا البحث يحاول الكاتبان ر. أثوار، و خ. أ. لوبيث باديا، استجلاء وتقصّي بعض المفاهيم أو المسلّمات المتعلقة بالعظام وقرون الوعول والعاج، وذلك من حيث مادة وأساليب صناعتها وزخرفتها، ومراكز إنتاجها وتاريخها واستخداماتها، معتمدين في ذلك على مجمل نتائج الحفائر الأثرية، التي أجرياها خلال سنوات عديدة في مواقع إسلامية شرقي الأندلس.

وختاماً، لا بد من التنويه إلى أن المراجع، التي اعتُمد عليها في البحث قد أدرجت مختصرة بين هلالين داخل المتن الإسباني، ثم استكملت مشتملاتها حين رصدها في قائمة المراجع في نهاية البحث، وقد أبقيت كما جاءت مختصرة بمواقعها في هذه الترجمة العربية.

الترجمة:

كان للدعوة اللطيفة للمشاركة في أعمال هذه المجلة، أثر مباشر حفزني إلى الدخول في مجالات سبق أن أوعز بها لي في حينه صديقي كلاوديو توريس، من خلال أعماله المثيرة للحماس، وذلك حول القيمة الثقافية والشعبية للمواد المصنوعة من العظام أو قرون الحيوانات، لا سيما بحثه، الذي يعد خير مرجع لهذا الموضوع (Torres 1986). إذ تمكّن في بحثه المشار إليه من أن يقدم تحليلاً رصيناً، بدا عليه الطابع الثقافي والاثنوغرافي، متجاوزاً بذلك تلك التفسيرات التقليدية السهلة لاستخداماتها، التي طالما عرفت بأنها "مقابض سكاكين"، أو "قطع شطرنج"، كتعريف أكثر أرستقراطية - وهو تعريف لا يزال متبعاً في بعض الدراسات والكتلوجات (Granada 1995; no 182, 429) - وقد أشار في معرض حديثه أنها مما يستخدم كمقابض للمغازل التقليدية الخاصة بالنسيج.

ويبدو أن الخوض في هذا الموضوع غير مجدٍ في الوقت الراهن، فقد تعرّضت لهذا الأمر في حينه (Azuar 1989)، لذلك تبين لي أنه أكثر ملاءمة القيام بمراجعة وفحص مجموعة متنوعة ومهمة جداً من القطع المصنوعة من العظام، التي اكتشفت في حفائر أثرية سابقة أجريت في قلعة توري جروسة الواقعة في خيخونا بأليكانتي وتعود إلى العصور الوسطى. وقد نشرت معلومات عنها في حينه (Azuar 1985) لكن دون التعرض لها تفصيلاً. وإنما كان التركيز على تلك النواحي المتعلقة بالتعرف على ورش خاصة بصناعة القطع المعدة من العظم، أو قرون الوعول، مثل مقابض المغازل، والجوز المعد لإمساك وتر القوس الفولاذي، والأغطية، وخرز القلائد،

ونحوها (Azuar 1989). بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى تلك الجوانب، التي سنسلط الضوء عليها في هذا البحث، و تهتم على وجه الخصوص بتصنيع "الصناديق الصغيرة"، التي ربما تكون تقليداً للصناديق الصقلية - النورماندية، حسب رأي (Casamar 1985)؛ لكنها دون مجال للشك أندلسية الأصل، ومصنوعة من قرون الوعول، على قاعدة أو خلفية خشبية لتقويتها، وهي مواد ليست فاخرة كالعاج، لكنها مصنّعة وفق تقنية نحت متقدمة تفصح بجلاء عن الدرجة العالية، التي بلغها الصنّاع غير التابعين للبلاط وغير العاملين في الحواضر، بل من صُنّاع المجتمع الريفي، الذين يقطنون في أماكن محصنّة، كما هو حال قلعة خيخونا.

إن وجود هذه الورشة يضعنا أمام احتمالية فريدة، لظاهرة أو وضعية محلية صرفة (Azuar 1989: 366-7)، لكن ظهور ألواح مماثلة في السنوات الأخيرة، تابعة لصناديق صغيرة موشورية الشكل، ومن المادة الخام نفسها والتقنية الصناعية ذاتها في مواقع بعيدة جداً، مثل قلعة الأرك في ثيوداد ريال، أو في مورا بالبرتغال، يدحض هذه الفكرة، ويضعنا أمام تعميم هذه الصناعة داخل حدود الأندلس، وذلك في فترة متأخرة جداً يحتمل أن تكون خلال القرن الثالث عشر الميلادي، على وجه التحديد. لهذه الأسباب أصبح من الملح جداً إعادة الشروع في البحث في هذا المجال، الذي توقف في نهاية حقبة الثمانينات. والفضل في ذلك يعود لتعاون السيد خ. ل. لوبيث باديا، المتخصص بتكنولوجيا العظام في فترات ما قبل التاريخ وحتى العصور الوسطى، إذ تمكّن من إجراء دراسة تفصيلية عن جميع مراحل عملية إنتاج تلك الصناديق، كما تمكّن، في الوقت نفسه، من تحديد هوية قرابة مائة لوح عُثر عليها في الموقع، وأجرى دراسته تلك على مجموعة منها.

١ - ورشة قلعة توري جروسة دي خيخونا:

كشفت نتائج الحفريات الأثرية، التي أُجريت في قلعة خيخونا خلال فترة الأربعينات، عن معلومات جوهرية متنوعة، إلى جانب مجموعة من المعثورات، التي أسهمت بدورها في عمل قائمة تفصيلية من المعطيات المادية (Azuar 1985). ولقد أمدت هذه المكتشفات والمعطيات بقدر مهم من مواد العظام، من أبرزها كمية كبيرة من ألواح مستطيلة الشكل، ذات أحجام متفاوتة واستخدامات متعددة. ومن بين هذه المواد يمكن التعرف على: زهر النرد، جوز القوس الفولاذي، ومقابض المغازل، وغيرها من المعثورات، التي تشير لأول وهلة إلى أننا أمام بقايا ورشة صغيرة لإنتاج المصنوعات العاجية (Azuar 1989: 365).

إن احتمال وجودنا أمام ورشة لنحت العظام أو القرون، وليس لنحت العاج، قد تأكد فعلاً من خلال نتائج الدراسة المتأنية لبقايا العظام والقرون المشغولة، على وجه الخصوص (لوبيث باديا ١٩٩٥م). ولعل مما يدعم هذا التوجه ليس آثار النحت والأساليب المختلفة لمراحل صناعة الألواح فحسب، بل العثور على الكثير من المنتجات المعدة من مادة العظم، مثل: خرز القلائد، مقابض مغازل النسيج المتنوعة، وغيرها من المشغولات (Azuar 1989: fig. 126-127). وإلى جانب الأشياء الآنفة الذكر، لا بد من التنويه إلى أن هناك مجموعة من القطع المهمة والقرون المشغولة جزئياً، عُثر عليها أثناء التنقيب ولم تدرج في قوائم الجرد الخاصة بهذا الموقع، لكنها حفظت في متحف الآثار في أليكانتي، وتولى دراساتها السيد (Lopez P. 1995).

كان العثور على المنتجات المصنّعة وبقايا التصنيع في موقع إعدادها، العامل الذي مكّن من تتبّع خطوات تصنيع قطع العظام، التي تمت في هذه الورشة، ابتداءً من الحصول على المواد الخام، وحتى وضع اللمسات النهائية للمصنوعات. ومما لا شك فيه أن القرون، التي عُثر عليها في القلعة تخص أنواعاً من "الوعول المحلية"، لكن ليس من اليسير معرفة ما إذا كانت هذه القرون قد أُخذت من رؤوس الوعول بعد صيدها، أم أنه يتم جمع القرون في فترة سقوطها تلقائياً من تلك الحيوانات. ويمكن من خلال نماذج خيخونا أن نستنتج أن أحد هذه القرون، على الأقل، قد انفصل بصورة تلقائية عن رأس الحيوان، وهو أمر يشير إلى أن هذا النوع من المواد الخام يجمع بشكل انتقائي، ومن ثم يجلب للورشة لتصنيعه.

وحول هذا الموضوع تبدو من الأهمية بمكان تقديرات السيد (Benito 1990: 169)، الذي أشار إلى أن من أسباب ندرة بقايا عظام الغزلان والوعول في مواقع أخرى من أليكانتي



في العصور الوسطى، تعود إلى تفضيل المستهلك المسلم للحوم الأغنام والماعز الطرية، وكذلك لحوم الأرانب، على لحوم الحيوانات المصطادة، بما في ذلك أنواع الغزلان. ومع ذلك وحسب المعلومات الحالية، ربما يكون من غير المجدي الدخول في مناقشات تفصيلية مطولة، وإن كانت، في الوقت نفسه، شائكة، وذلك حول طبيعة تلك التوجهات المطروحة، وما قد ينشأ عنها من تشعبات متفرعة (Macgregor 1985: 35). لذلك لا بد من قبول احتمال وجود بقايا الوعول - على الرغم من قلة شأن هذا الرأي - في المواقع المعاصرة لقلعة خيخونا (Benito 1988:1993)، وذلك كأمر ربما يسهّل تدبّر معلومات هذا النوع من المنتوجات، ضمن حدود إطار منطقة إمداد محصورة بالمناطق الجبلية للموقع، الذي توجد فيه قلعة خيخونا، على مقربة من التكوينات الجبلية لسلسة جبال أليكانتي، التي تحتوي على غابات السنديان، وذلك على ارتفاع ١٠٢٠م فوق سطح البحر، وكذلك بالقرب من سلسلة جبال أتيانا، التي ترتفع ١٥٥٨م فوق سطح البحر أيضاً.

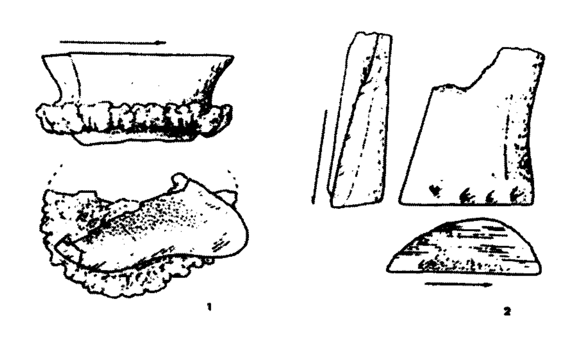
إن تجهيز ألواح، أو رقائق العظام، لصناعة، أو تركيب، الصناديق المصقولة، تُعد عملية معقدة جداً، ويظهر ذلك جلياً في دقة التفاصيل المنفّذة على أسطح المشغولات المختلفة المعدة من العظام. ويلاحظ في المقام الأول أن أغلب الألواح المصنعة تم قطعها بواسطة منشار معدني، بينما لم يكن من اليسير التأكد من أن بعضها الآخر قُطع بالمنشار فقط، أم بأدوات قطع مختلفة كالمدية الصغيرة. وفي قطع أخرى يمكن التعرف على بعض التعديلات، التي تطرأ على اتجاه القص أثناء التصنيع. وفي هذه الحالة يمكن القول إن هذه الخطوة لم تنفذ بواسطة المنشار المقوس. ومن جهة أخرى، يكثر على وجه الخصوص أسلوب نشر القطع بشكل مستقيم، وذلك بمساحات واسعة في ألواح القواعد المجزأة (شكل ١-١). وعلى الرغم من أنه تم العثور في القلعة على أدوات صناعة معدنية أخرى مثل الأزاميل، والمثاقف، والمحززات ونحوها (Azuar 1989)، فإنه لا توجد أية معلومات عن العثور على شفرة المنشار الخاصة بهذه الصنعة. إلا أنه يمكننا أن نتصور استخدام المنشار في هذا الموقع انطلاقاً من آثار استخدامه على القطع المصنعة، ويؤيد ذلك كون هذه التقنية معهودة منذ القرن الحادي عشر

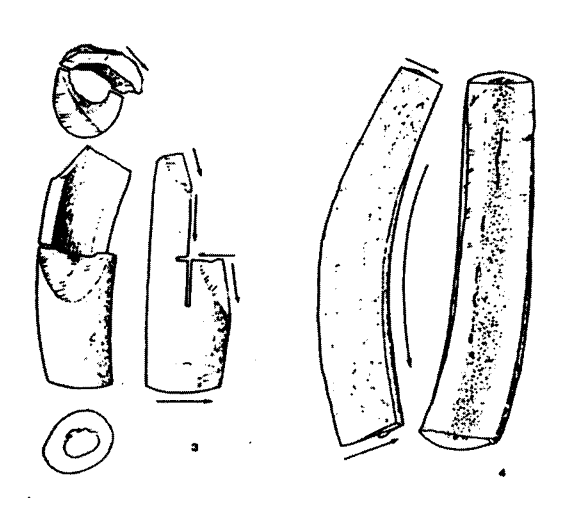


لوحة ١: عينّة من العظام وقرون الوعول، مع بعض المصنوعات التي تنتجها ورشة قلعة تورّي جروسة دي خيخونا.

الميلادي، كما هو مثبت على قطعة عُثر عليها في ليبتر بالباثيتي، وسنحت لي الفرصة للتعرف عليها عن كثب، وذلك بفضل لطف السيد (خ. نبارو)، الذي مكّنني من الإطلاع على مخطوطة دراسة تلك القطعة قبل نشرها.

إن أسلوب القطع بالمنشار يمثل، دون أدنى شك، أهم مراحل التشكيل الأساسية عند تجهيز القرون للصناعة؛ إذ إن التعامل مع كل نوع من القطع يتطلب عملاً محدداً، أو سلسلة من الأعمال المتتابعة المخصصة، للحصول على جزء مناسب من المادة الخام، لكي يسمح بتصنيعه في المراحل اللاحقة بصورة ملائمة. ويشكل فصل القرون من موضعها الطبيعي في الجمجمة خطوة أولية، لكنها تعد خطوة ضرورية عندما تؤخذ





(الشكل ١)

القرون من حيوانات تم قنصها، على وجه الخصوص. ومهما يكن الأمر، فإن كيفية فصل بعض القرون يمكن أن تدل على أن نشرها بطريقة عرضية، بالقرب من نقطة التحام القرن بالجمجمة هو شيء معتاد، حيث كانوا يستبعدون لاحقاً ذلك الجزء الدائري الملتحم بالرأس، وربما كان ذلك بسبب طبيعته الإسفنجية وهيئته غير المتناسقة (الشكل ١-١). ومع ذلك لا بد من القول إن هذه الخطوات ثبتت مزاولتها في بعض المواقع الأوروبية (Macgregor 1985)، لكن يصعب، في الوقت نفسه، البت حالياً في مدى مقارنة هذه الخطوات، بما هو متبع في ورش المناطق الأخرى من شبه الجزيرة الإيبيرية، نظراً لندرة المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع. وبعد قطع قاعدة القرن الدائرية يشرع مباشرة بتهذيب طرفه، وما قد يتبعه من زوائد أجزائه السفلية. ومما يلفت الانتباه أن كيفية قص الزوائد بالمنشار عرضياً، لا يتم في بعض الحالات بشكل كلي، بل إن ذلك يتم بنشره جزئياً ثم يكسر يدوياً. ويستخدم هذا الأسلوب، في الغالب، عند صناعة بعض أنواع المقابض وما هو على شاكلتها من المواد الأخرى.

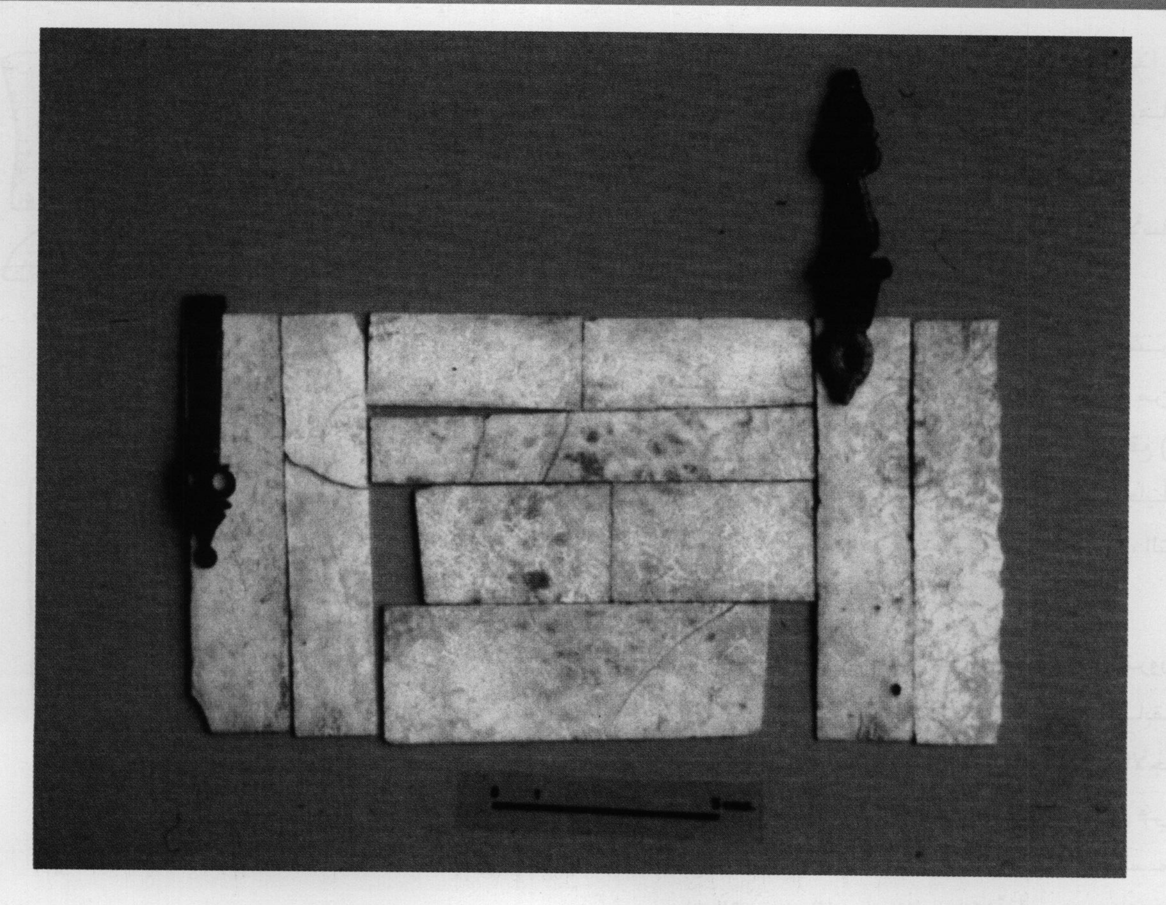
وعندما تكون أطراف القرن مقطوعة بهذا الأسلوب، فإن العمل يتم فيها لاحقاً بالتقنيتين التاليتين:

الأولى: تعتمد على طريقة الربط بين النشر الطولي والمتعامد، التي تسمح بنزع قصاصات مقطوعة من القرون، وقد عُثر فعلاً على العديد من هذه القطع في الموقع (شكل ١-٢) وعلى الأجزاء الصغيرة المقطوعة. ويلاحظ جلياً في هذه الأخيرة تلك الخطوط المتقاطعة المحزوزة بالمنشار، التي تسمح بتركيب القطع فيما بينها (شكل ١-٣).

التقنية الأخرى: تعتمد على نشر جدران القرون طولياً، خصوصاً عند الأطراف المقطوعة في مراحل سابقة. وتؤثر عملية النشر هذه، على وجه التحديد، في تلك الأجزاء التي تحتوي على كميات قليلة من النسيج الإسفنجي في العظام، كما تؤثر بالطريقة نفسها على تلك الأجزاء السميكة من جدران القرون، وذلك بإعطائها شكلاً شبه مستطيل، خصوصاً في تلك الأسطح المنفذة عرضياً.

وبعد المراحل التحضيرية الأولى، تخضع - غالباً - أجزاء القرون المعدّة بالطرق السالفة لعملية نزع الأجزاء الزائدة، المخصّصة لمراحل الصناعة النهائية للمنتجات. ولا بد من الإشارة إلى أن الشكل النهائي لكل نوع من القطع، يتحدد في كثير من الأحيان بناءً على هيئة أو تكوين قطعة القرن المستخدمة للصناعة، وذلك بالقدر نفسه الذي يفرضه، إلى حدٍ ما، اختيار جزء معين من القرن، بسبب شكل القطعة المراد صناعتها. ويبدو أن الكشط يستخدم بشكل مستمر في هذه المرحلة من علمية التصنيع، وتظهر آثاره بشكل واضح في بعض القطع المصنّعة كجوز القوس الفولاذي، التي تتعاقب فيها تقنية نشر ونزع أجزاء العظام، إلى جانب تقنية كشط وصقل الأسطح الخارجية، التي تنفذ خلال معظم مراحل تصنيع القطع.

ومما يلاحظ أن تلك الثقوب، التي تظهر على القطع المصنَّعة، إضافة إلى تلك الدوائر المزودة بحفرة صغيرة في



لوحة٢: صفائح عظمية وحدائد صندوق توري جروسة.

مـركـزهـا، تم تنفـيـذها بواسطة مـثـاقب، أو مـخـارط الشـد، المستخدمة لتنفيذ مثل هذه العناصر، والتي تكثر - على سبيل المثال - على مقابض أدوات الغزل. وهو أسلوب يزاول في هذه الصنعة في أوروبا (Macgregor 1985)، وكذلك في شبه الجزيرة الإيبيرية (Menenedz-Pidal 1984)، على الرغم من أنه لم يتم اكتشافها في موقع التنقيب.

وبناءً على هذه المعطيات يمكن القول إنه إذا كانت وفرة المنتجات المصنوعة من مادة العظام تدعو إلى افتراض وجود ورشة مخصصة لصناعة هذا النوع من المستلزمات (Azuar 1985)، فإن تحليل بقايا المواد المصنعة، إلى جانب التعرف على التقنية المستخدمة في إنتاجها، تبرهن قطعياً على وجود صانع واحد على الأقل في قلعة توري جروسة دي خيخونا متخصص في صناعة هذا النوع من المواد، في الوقت الذي تظهر فيه بوضوح أهمية قرون الوعول، كمادة خام أساسية في هذه الصنعة مقابل العظم والعاج، وهو أمر يرتبط، دون أدنى شك، بأسباب لا تتعلق بوفرة المادة فحسب، بل بعملية صناعتها.

٢ - ورشة صناعة الصناديق المعدة من قرون الوعول:

سُجل العديد من القطع المكتشفة خلال مراحل التنقيب في الموقع، وذلك في سجل مهم وحافل بما يقرب من خمسين قطعة من مواد متفاوتة؛ من بينها الخزفيات، والمعادن، والعظام والمحار.. ونحوها. وقد جرى فرز واختيار جميع تلك القطع ذات العلاقة بوظيفة الورشة، لا سيما ما يرتبط بصناعة الصناديق الصغيرة. وبذلك جمع الكثير من المواد المتعلقة بمراحل صناعتها، ومن ذلك ألواح أو رقائق القرون، والأجزاء الخشبية المتبقية من هياكل بعض الصناديق، إضافة إلى جميع المواد المعدنية ذات العلاقة، من قبيل الحدائد والصفائح التجميلية والمفصلات والأقفال وغيرها. وهذه، باختصار، عبارة عن مجموعة متناسقة تحتوي على أكثر من مائة قطعة



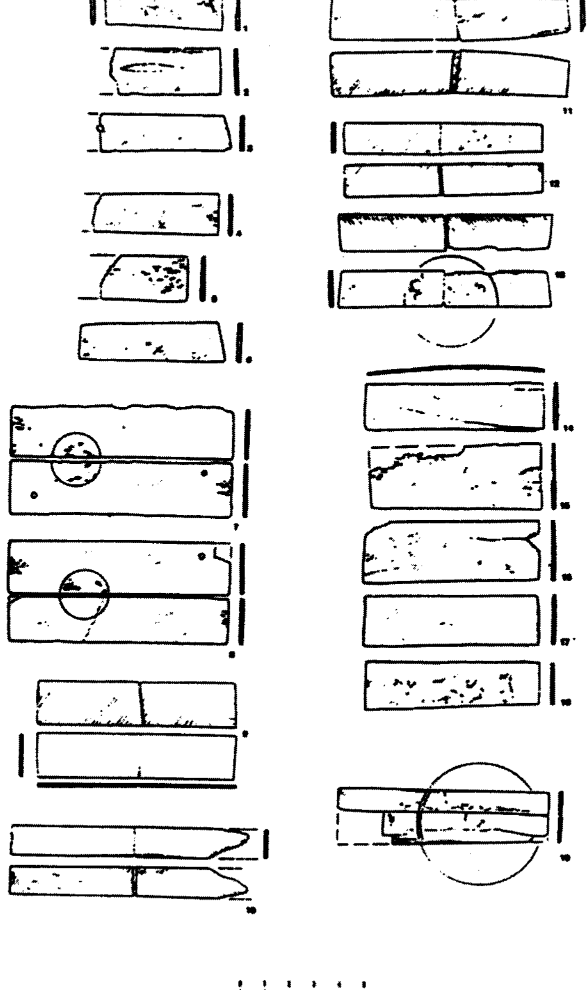
سبق وصفها بشكل دقيق (Azuar 1989; Lopez-Padilla 1995, 1995)، الأمر الذي يمكننا معه تجنب اختلال تصنيفها، وبذلك يقتصر الجهد على المعالجات الرئيسية، وذلك من خلال فقرتين عامتين تتعرضان للمواد العظمية والمواد المعدنية. وخلال هاتين الفقرتين ستجرى التعديلات المطلوبة لأخطاء ارتكبت حين حُددت وظائف تلك القطع، خلال الدراسات المشار إليها.

٢ - ١ - المواد العظمية:

يبلغ العدد الكلي للمجموعة المعدة من العظام، التي تم تحليلها ودراستها ٧٤ قطعة، منها ٣٦ قطعة ضمت أسطحها عناصر زخرفية؛ سواء كانت حزوز سطحية، أو رسم بالدهان أو التذهيب. ويلاحظ أن ما نسبته ٩٥٪ من الألواح مصنوعة من قرون الوعول، ويتضح ذلك في تكوين النسيج الإسفنجي المتبقي على وجه الكثير من القرون وظهرها (الشكل ٢: ٤-٥، ١٥-١٦؛ الشكل ٣: ١١). وفي المقابل، هناك كمية قليلة تحتفظ بآثار القناة النخاعية، الأمر الذي يشير إلى استخدام هذا النمط منها (الشكل ٢: ١-٢، ١٥)، بل إنه يمكن في بعض الحالات التعرف على موقع ذلك الجزء المستخدم لاستكمال مراحل الصناعة (الشكل ٢: ١١). وبناءً على هذه المعطيات فإنه يمكن تصور كيفية الحصول على الكثير من هذه الرقائق وذلك بواسطة نشر القناة العظمية، أو طرف القرن بشكل طولي، بحيث تكون الرقائق ذات هيئات غير منتظمة، فتصقل أطرافها وأسطحها لاحقاً بالأساليب والأدوات المناسبة.

ويجدر التنويه إلى أن نتائج دراسة وتحليل الرقائق العظمية، كشفت عن العديد من الاستنتاجات، التي أسهمت بدورها بمعلومات قيّمة عن التقنيات المستخدمة في عمل البطائن الملحقة بالإطارات الخشبية الداخلية للصناديق الصغيرة، وكذلك أنواع العناصر الزخرفية، التي تجمّل تلك الصناديق. وقد تم إصلاح وتركيب أذرع مكتملة التشكيل، بطول يتراوح بين ١٥ سم و٣٥ سم، ومكونة من رقائق بطول ٥ سم، منشورة عرضياً وبشكل دقيق جداً.

وإلى جانب الأمثلة الآنفة الذكر هناك النماذج المكونة من قطعتين من رقائق العظم، وقد تم العثور على أعداد كبيرة منها (شكل ٢: ٩-١٣). ومهما يكن الأمر، فإن هذه النماذج وما قبلها تعبر بوضوح عن سلسلة من القطع، التي يتم الحصول عليها بأسلوب النشر، يتوقف عددها وطولها على الأطوال المتباينة للقطع الأساسية، التي تعد المصدر الأصلي للرقائق. وللحصول على الألواح المعدة للتركيب، فإن جميع الألواح تنشر كخطوة أولى بالأسلوب نفسه، وذلك بإحداث شق أو فجوة معينة على هيئة "٧" بعمق ٧ر٠ مم على أحد الحواف، دون أن تقطع كاملة، بل يتم نزع ذلك الحيز بلطف (شكل ٢: ٩). وتبدو معظم أوجه القطع المعدة بهذه التقنية، التي يتم إحداث تلك الفجوة فيها، أقل صقلاً من الأوجه الداخلية، في حين يلاحظ أنها



(الشكل ٢)

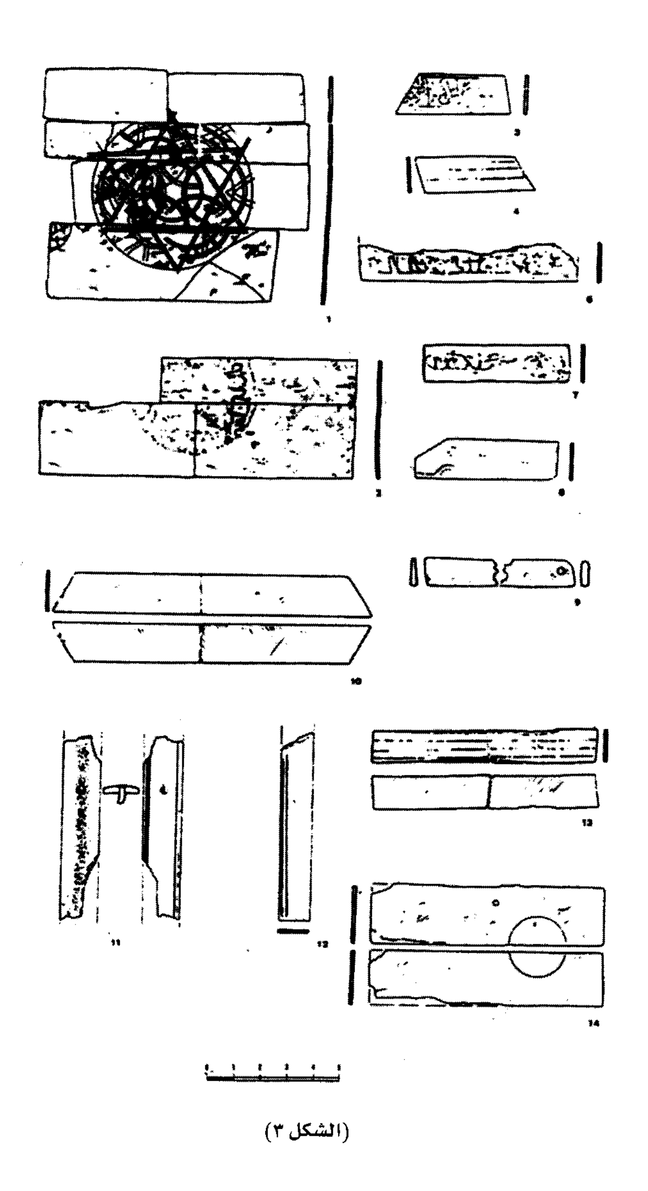
ذات نصيب أوفر من نسيج العظام الإسفنجي. وفي المقابل، فإن الصناديق، التي تحتوي على عناصر تجميلية، تنفّذ زخارفها على الأوجه المصقولة.

وفيما يتعلق بكيفية التمييز بين وجه وظهر الألواح المعدة من العظم، فيمكن التأكيد على أنه أمر ميسور في كل الحالات تقريباً؛ إذ إن الظهر أو الجهة الداخلية تبدو ذات حزوز عميقة خشنة، في حين يبدو الوجه الخارجي أملس ومصقولاً بعناية.

وفيما يختص بالتقنية المستخدمة بعمل بطانة الصندوق الخشبي، فإن القطع المدروسة تقدم معلومات قيمة حول هذا الجانب؛ إذ إتضح في المقام الأول أن تلك الثقوب الصغيرة المنفذة على كثير منها، و يتراوح قطرها بين ١٧ر٠ و ٢ر٠سم، لم تستخدم لإيواء المسامير المعدنية، حيث لم يُعثر على بقايا الأكاسيد المعدنية، التي تبقى في مثل هذه الأوضاع، بل إن تثبيت الأطر الخشبية يتم بوساطة شظايا صغيرة من العظم نفسه، إضافة إلى مادة غرائية لاصقة، لم يتم الوقوف على بقاياها حتى الآن. وهذا في الواقع استنتاج مردة إلى عدم وجود أية ثقوب على أسطح أو واجهات الألواح. وكحالة استثنائية عثر على قطعة واحدة بها بقايا مسمار برونزي (شكل ٣: ١١)، ومن المحتمل جداً أن يكون لهذا المسمار صلة بطريقة استخدام الصندوق.

أما فيما يتعلق بتركيب الألواح وترتيبها على الواجهات، فقد تبين أنها تتكون من مجموعات مشكلة من لوحين أو ثلاثة أو حتى خمسة آلواح، ويبدو ارتباطها ببعض من خلال العناصر الزخرفية المحزوزة، أو المرسومة بالدهانات على أسطحها (شكل ٣: ١ و ٢). وتبدو الألواح المتصلة فيما بينها، في بعض الحالات غير متناسقة الطول والعرض (شكل ٣: ١)، بينما في حالات أخرى تبدو الألواح ذات أبعاد متساوية (شكل ٢: ٧-٨ و شكل ٣: ١٤) بل هي في حقيقة الأمر أجزاء متشابهة استلت من القطعة الأساسية الأم نفسها (شكل ٢: ١٣ و ١٩). ومن الطريف والمهم جداً أن هذه الحالة الأخيرة تقود إلى التساؤل عن سبب قطعها وفصلها عن بعض، إذا كانت سترص من جديد بجانب بعضها البعض على اللوح الخشبي. ويبدو من نافلة القول أن نذكر أن هذه الرقائق تنفصل عن بعضها البعض بشكل عرضي طارئ، حيث تظهر عليها جميعاً، وكما أشرنا إلى ذلك آنفاً، آثار المنشار، الذي يستخدم لقطعها. ولعل التفسير المحتمل لهذه الوضعية مرتبط بالطريقة المميزة لقطع القضبان الصغيرة؛ وهي عدم قطعها كلياً، بل يعمل شق مناسب مقداره ٧ر٠ مم، يفصل من مكانه بلطف من حافة اللوح المنشور بواسطة المنشار. وهذا الحيز يسمح بالتحرك وفق هذا الهامش الصغير لضبطها بصورة ملائمة على الإطار الخشبي بحيث يمكن تقريبها أو إقصاؤها، حسب المسافة المتاحة. وأياً كان السبب، فيبدو أن هذا الأسلوب متبع في ألواح الواجهات الجانبية، وكذلك في ألواح الغطاء، على حد سواء (شكل ٣: ١٠).

ويبدو أن هناك بعض التعديلات المنفذة على الألواح، وإن


(الشكل ٣)



لوحة ٣: حدائد ومفصلات معدنية.

لم يكتمل تقدير نمط قياسي واضح لهذه المواد؛ وذلك مقارنة بقطع محددة الطول والعرض (شكل ٢: ٧-٨ و ١٤-١٨)، إذ تبلغ مقاسات قطع المجموعة الأولى ٢ × ٩ سم، ومقاسات المجموعة الثانية ٢ × ٧ سم، بينما تظهر قطع أخرى ذات أبعاد مختلفة؛ لكنها، بالرغم من ذلك، تشكل فيما بينها مجموعة متجانسة (شكل ٣: ١-٢). ومع هذا كله يمكن المخاطرة بإجراء تصور لإعادة تركيب افتراضية جزئية، اعتماداً على كيفية تطابق بعض القطع فيما بينها (الشكل ٦).

وترتبط المرحلة النهائية بأسلوب الزخرفة المتبع؛ إذ يتم تنفيذ هذه المرحلة عندما تنتهي كسوة الألواح الخشبية الداخلية برقائق العظام، المعدة بالأبعاد نفسها. ففي بعض الحالات تظهر آثار استخدام الفرجار، الذي تنفذ بواسطته الحزوز الدائرية التي تُغطى فيما بعد بعناصر زخرفية مذهبة. ويبدو من المحتمل أن الكتابات، التي تُجَمّل بها واجهات بعض القطع، يتم تنفيذها، كذلك، بعد مطابقة رقائق العظام على الألواح الخشبية (شكل ٣: ٣ و ٦-٧).

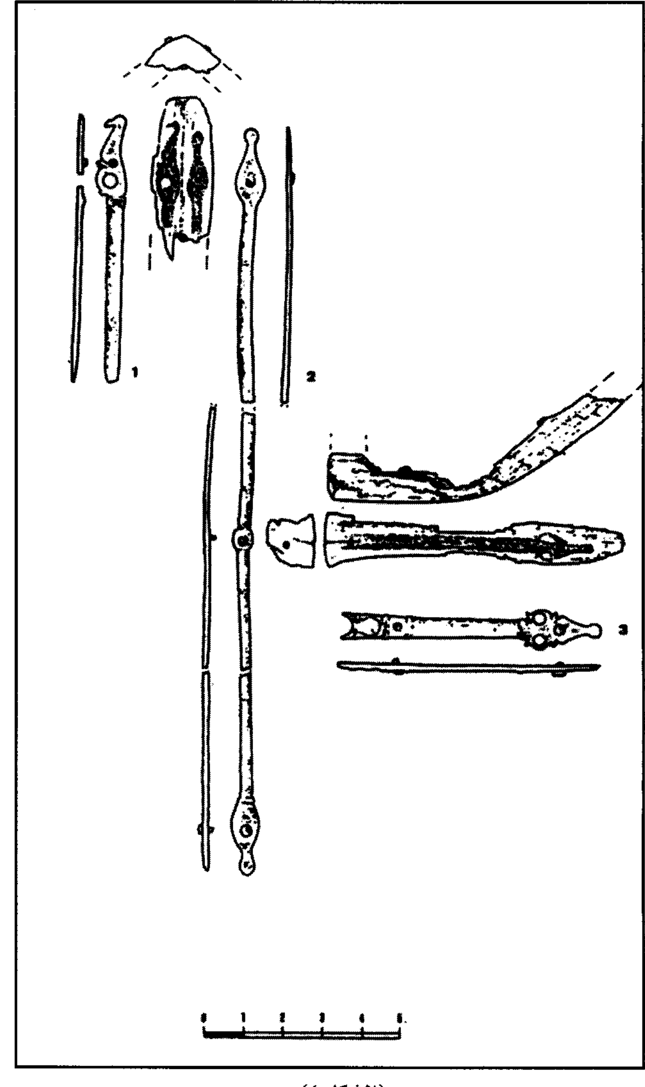
٢ - ٢ - المواد المعدنية:

ضمن مجموعة المواد المختلفة، التي عُثر عليها مع ألواح العظام، يوجد عدد من القطع المعدنية غير المكتملة، ومعظم هذه القطع مصنوع من البرونز، وبعضها مصنوع من النحاس، وقليل منها من مادة الصفر. وهي بمجملها تشكل أجزاء من مفصلات الصناديق، أو من قطع التصفيح والتقوية، أو من الصفائح التجميلية، التي تزود بها الصناديق في مرحلة التشطيب النهائية.

تجدر الإشارة إلى أن قائمة القطع المنشورة في حينه (Azuar 1989: 203)، اشتملت على خطأ يتعلق بالمفصلات: ٧٠٧٠، ٧٠٧٢، ٧٠٧٣، (Azuar 1985: 103 lote 214)، إذ صُنِّفت في ذلك الوقت على أنها مفصلات خاصة بالصناديق، والأصح أنها عبارة عن أبازيم أحزمة جلدية، أو ذات وظيفة خاصة باللباس. أما تحديد وظيفة بقية القطع المشار إليها، فيبدو أنها لا تزال مقبولة حتى الآن.

وهناك قطع معدنية يُرجّح أنها ذات ارتباط وثيق بتصنيع، أو تركيب، الصناديق المصنوعة من العظام، وهي على النحو التالي: الواقيات أو قطع التقوية رقم ٦٩٣٠ و ٧٠٩٦ (Azuar 1985: 103 no. 215) (الشكل ٤: ٣ و ٥: ٦) المصنوعة من البرونز على هيئة مستطيلة، أو رأسية، مع نهاية رمحية مدببة تتوّج أحد الأطراف، إضافة إلى ثقبين جانبيين متجاورين، بينما يبدو بالطرف الآخر أساس لما قد يكون برشامتي المفصلة المعدنية، ويلاحظ ذلك خصوصاً على القطعة رقم ٦٩٣٠، في حين تبدو القطعة رقم ٧٠٩٦ مجزأة في منتصفها على هيئة العيون. وتظهر العناصر الزخرفية في هذه القطع في أحد أطرافها محصورة داخل شريطين محزوزين، وفي الطرف المقابل هناك حزوز أخرى تحيط بمسمار أو برشامة التثبيت، وهناك حزوز سطحية أخرى ذات طابع زخرفي، لا سيما على القطعة رقم ٦٩٣٠.

كذلك تم جرد مفصلات معدنية أخرى تحمل الأرقام ٧٠٦٨


(الشكل ٤)

و ٧٠٦٩ (Azuar 1985: 103 no. 214) (الشكل ٥: ٣ و ٢)، وهذه القطع مصنوعة من البرونز، وتتبع صفيحة المفصلة نفسها، وهي، من ثم، تدل على وجود مفصلتين للصندوق؛ مقطع القطع يبدو شبه دائري وذلك بفعل انحناء جوانبها، أما طولها فيبلغ ٧٫٥ سم، في حين يبلغ عرضها ٠٫٨ سم. ويبدو من هيئة المفصلة، أو المصراع، أنها تعد من صفيحة طويلة على هيئة السهم، ثم تثنى من منتصفها وتبرشم لاحقاً في موقعها المناسب.

يجدر التنويه إلى أن المفصلة الوحيدة، التي عثر عليها مكتملة الشكل، هي التي تحمل الرقم ٧٠٧١ (Azuar 1985: 103 no. 214) (الشكل ٥: ٥)، وهي مصنوعة من النحاس، و طرفها مزوّد بزائدتين قصيرتين، أما طولها فيبلغ ٧ سم في حين يبلغ عرضها ١سم. ويلاحظ أن حجم الزائدتين مختلف إلى حد ما؛ فالصغرى أو الثابتة طولها ٣ سم وذات شكل مدبب، وبمنتصفها ثقب صغير مهيأ لإدخال مسمار التثبيت، كما أنها خالية من العناصر الزخرفية، ويبدو طرفها قابل للانطواء على نفسه، وعبر طرفيها السفليين يتم ربط الجزء الآخر من المفصلة بطريقة البرشمة. أما الكبرى المتحركة، فهي أدق صناعة من سابقتها؛ طولها يبلغ ٤٫٢ سم وعرضها يبلغ ١٫٢ سم. وتبدو مدببة على هيئة طرف الرمح، وبها ثلاثة فصوص صغيرة، وأعلاها مزوّد بثقب في منتصفه، أما الجانبين ففيهما حزوز سطحية، وعليهما زخرفة محزوزة بين الفصوص وفي مكان التقائهما، وينتهي هذا الجزء من المفصلة بطرف معكوف ومبرشم على غرار القطعة السابقة. أما خابور تثبيت القطعتين فيما بينهما، فهو مجرد قضيب رفيع من النحاس يدخل بثقوب المفصلة، ثم تعكف أطرافه لمنع سقوطه ولمزيد من إحكام المفصلة.

وفي إطار العناصر التجميلية، يمكن أن تلحق بها القضبان المعدنية التالية: مجموعة كبيرة من عدة قطع غير مكتملة مصنفة كمجموعة واحدة تحت الرقم ٢١٢، قيدت ببيان التسجيل رقم ٧٠٧٥، وخصص للنهايات المعدنية الرقم ٧٠٧٦ (Azuar 1985: 103 no. 212) (الشكل ٤: ٢). وتمثل هذه الكسر المعدنية قطعة تجميلية واحدة، هي عبارة عن قضيب نحاسي مقطعة كروي مبسط بمنتصفه فتحة دائرية، وتنتهي بطرفين متشابهين على هيئة سهم مثقوب عند منتصف نهايته، وذلك لتسهيل برشمته أو تثبيته بمسمار معدني صغير. ولا تزال تظهر على القطعة آثار المسامير المعدنية، التي تغرز عادة في سمك الألواح الخشبية الداخلية، كما هو الحال في القطعة رقم ٧١٥١ (Azuar 1985: 123 no. 245) (الشكل ٢: ٤). والأمر لا يختلف كذلك بالنسبة لجزء القضيب المعدني رقم ٧٠٧٤، وإن كانت نهاية هذه القطعة تنتهي بما يشبه منقار الطائر، المزود بفتحة لمسمار التثبيت على شكل العين (الشكل ٤: ١).

وفيما يتعلق باللسان التابع لمزلاج الصندوق الصغير (العلبة)، فمن المحتمل أن تكون القطعة رقم ٩٠٩٨ من البيان الآنف الذكر (Azuar 1985: 103 no. 215) (الشكل ٧:



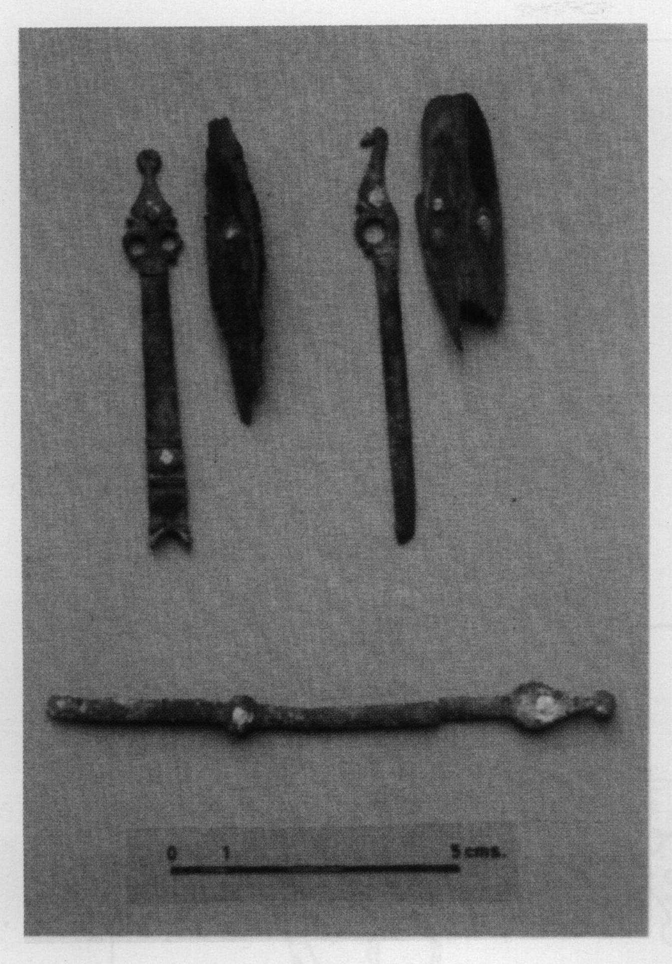
٥). ويبدو اللسان على هيئة ذراع ثماني المقطع: بثلثة العلوي من الخارج عناصر زخرفية الماسية الشكل، وينتهي طرفه العلوي بما يشبه كف اليد المبسوطة، وهي تمثل بقايا مفصلة الصندوق، ويقابلها في الطرف السفلي حلقة عرضية مواجهة مثبتة بترباس عرضي محكم.

وعلى الرغم من التعرف على وظيفة هذه القطعة، من خلال الاستنتاج والمعاينة السابقة، فإن هناك ما يؤيد ذلك مادياً، إذ تم العثور على جزء من لوح قفل تالف، يحمل الرقم ٧٠٣٢ (Azuar 1985: 105 no. 227) (الشكل ٥: ٨) مصنوع من النحاس وشكله مستطيل، طوله ٨ ر٤ سم وعرضه ٥ر٣ سم، ومزود بثقبين صغيرين في زوايا مؤخرته، أما منتصف مقدمته فتحتوي على فتحة صغيرة مستطيلة الشكل، وذلك لإيواء اللسان الخاص بموضع المفتاح.

ولعل إضافة القطعة المعدنية، التي سنقدمها في هذه الفقرة، تثري معلوماتنا عن استخدامات الأطقم، أو العدد المعدنية الملحقة بالصناديق المصنوعة من العظم. وتتمثل القطعة المعنية بمقبض معدني مكسور اعتبر حين العثور عليه أنه أداة مكونة من جزءين (Azuar 1989: 203)، أما في الوقت الراهن فقد تحددت ماهية استخدامها كقطعة واحدة وأخذت الرقم ٧٠٧٧ . وتميل هيئة القطعة إلى شكل شبه المعين بطول ٣٠٨ سم، وبها ثلمتان في الجزء الأكثر عرضاً، إضافة إلى حزوز عرضية في منتصف سطحها المواجه. طرف الأداة ينتهي بمقطع دائري غير حاد، وهو يمثل، في واقع الأمر، نقطة انطلاق المقبض المعهود، الذي يأخذ شكل " S نحو الداخل "، (Azuar 1985: 103 no. 213)، (الشكل ٥: ٩).

كذلك هناك جزء من قطعة معدنية أخرى عبارة عن القسم الرئيسي الأوسط، أي أن أطرافه المكملة هي المفقودة، والتي تشكل فيما بينها المفصلة الأساسية للصندوق (Azuar 1985: 103 no. 215) (الشكل ٥: ١).

ويدخل ضمن استخدامات القطع المعدنية في صناديق العظم، أداتان معدنيتان مصنوعتان من النحاس، الأولى: عبارة عن الخابور الخاص بتثبيت المقبض المعدني في غطاء الصندوق، ويأخذ هذا شكل طاقية كروية مزودة بثقب مركزي صغير، وذلك ليغرز من خلاله قضيب معدني مزدوج يخترق



لوحة ٤: حدائد معدنية مع رقائق خشبية تبين آثار تثبيت الحدائد عليها.

لوح غطاء الصندوق نحو الداخل، ثم توسّع أطرافه لتثبيته ولمنع خروجه، رقم ٧٠٣٥ (Azuar 1985: 105 no. 227) (الشكل ٥: ٤). أما القطعة الثانية: فيبدو أنها ذات طابع تجميلي، وهي عبارة عن قرص متعدد الفصوص ومزود بثقب مركزي للتثبيت، رقم ٧٠٩٥ (Azuar 1985: 105 no. 227).

وإلى تلك القطع المعدنية يمكن إضافة الكسر الخشبية الأربع، المسجلة ضمن المجموعة رقم ٢٤٥ (Azuar 1985: 118)، والمخصصة عادة لتثبيت زوايا الصناديق. وهذه القطع لا تزال تحتفظ ببقايا المسامير، أو البرشامات المعدنية المستخدمة لتثبيت الألواح العظمية على الأطر الخشبية، وكذا آثار بقايا القضيب المعدني المسجل برقم ٧٠٧٦، الخاص بالقطعة رقم ٦٩٣٠ والقطعة رقم ٧٠٧٤ (الشكل ٤).

وتجدر الإشارة إلى أن أنماط العناصر الزخرفية المجملة

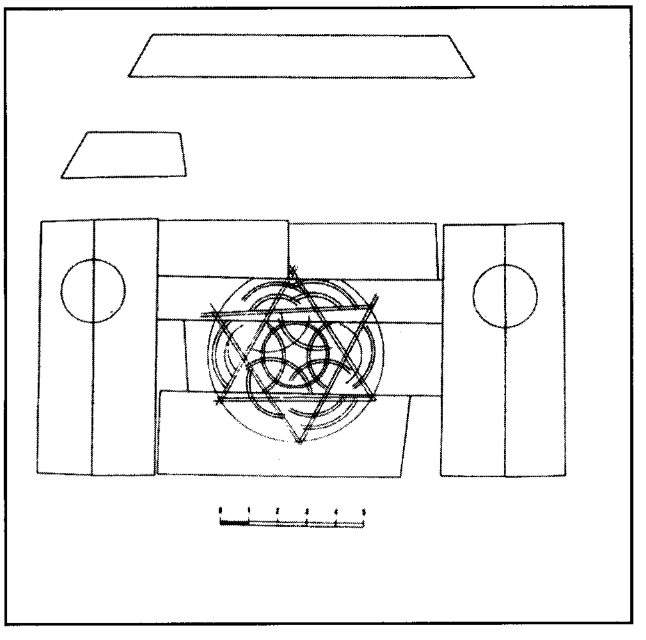
(الشكل ٥)



بها صناديق العاج الصقلية، هو مما يستخدم بشكل شائع واعتيادي جداً (Cott 1939)، سواء كان ذلك على الصناديق الموشورية الشكل، أو العلب الأسطوانية، التي انتشرت ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، حسب دراسة (Kuhnel 1971) الأثرية المعمقة. وفيما يتعلق بالصندوق الذي ندرسه ونحلّله، فإنه يحتوي على مفصلات معدنية ذات مقطع محدب، وتنتهي بشكل رمحي مدبب، وأخرى ذات مقطع مستوٍ مسطح؛ ونماذج النوع الأول شائعة جداً في تلك العلب العاجية الأسطوانية منذ العهد الفاطمي (كونيل ١٩٧١م)، وإن كانت مجمّلة بحدائد تنتهي بشكل منقار طائر وعين واحدة فقط. وهناك نموذج معبر لهذا النوع الأسطواني تم نشره في كتالوج معرض إستكهولم (١٩٨٥م، رقم ٤٢، ص ١٢٢).

إن الملحوظات المدونة على حدائد هذه الصناديق، تبين أننا أمام مجموعة تكاملية تتميز بظهور نهايات فريدة ثلاثية الفصوص، وهي تذكر بالعنصر النباتي التقليدي المستخدم على نطاق واسع، ضمن العناصر الزخرفية الشائعة، الذي غالباً ما يكون مزوداً بعيون أو ثقوب في وسطها. وتلازم هذه الزخرفة خطوط محززة لإبراز شكل نهايات، أو أطراف الحدائد التجميلية، والمناطق المزودة بمسامير التثبيت. ويعد هذا الأسلوب التجميلي تطوراً واضحاً لتلك النهايات المدببة، التي تتميز بها حدائد الصناديق العاجية المصنوعة في صقلية (Cott 1939) والتي لا يعرف منها سوى أعداد محدودة؛ ويعد الصندوق العاجي المعروف بصندوق كاتدرائية تورتوسة، أحد النماذج التي تحتوي على حدائد مماثلة لما هو بين أيدينا الآن (Ferrandis 1940: 262 no. 163, fig. 83) وقد حدد تاريخ تلك القطعة حديثاً بواسطة خ. ثوثايا (غرناطة، ١٩٩٢م، ص ٢٦٥، رقم ٥١) بنهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر الميلادي.

وفيما يتعلق بالقطع المزودة بحدائد تنتهي بزهرة معدنية متعددة الفصوص، فإن هناك نماذج قليلة جداً منها، والغريب أنها جميعاً من ذلك النوع الأسطواني الشكل؛ ومنها تلك العلبة المحفوظة بمجموعة سيرا بيلارو (Ferrandis 1940: 196 no. 74, fig. 53)، (التي تنسب إلى صقلية النورماندية، وتؤرخ بالقرن الثاني عشر الميلادي. وكذلك علبة القديس



(الشكل ٦)

دومينجو دي سيلوس ذات الغطاء شبه الكروي، التي تماثل حدائدها حدائد القطع المقدمة هنا، وتعود إلى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين (Casamar 1985: 26 no. 6). وأخيراً، هناك النموذج الخاص بصالة والتر للعروض الفنية في بلتيمور، الذي حصل عليه آنذاك ب. ب. كوت (١٩٣٩م، ص ٤٥ رقم ٩٦، لوحة ٦٠) ونسبها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، لكنه أشار إلى أن حدائدها ربما تعود إلى فترة لاحقة.

ويتضح مما سبق أن نهايات هذه الحدائد المميزة، تخالف ذلك النمط التقليدي السابق، الذي يتسم بأطرافه المدببة، التي تكون أسطحها ملساء خالية من الزخرفة، وذات مقطع محدب؛ وهي بالتالي تقود إلى الاقتناع بأنها سابقة لتلك النماذج، التي تتميز بأشكالها الدقيقة والمزودة بحبال رفيعة محزوزة على الصفائح النحاسية. ولعل الأمثلة المشابهة لهذه الحدائد هي تلك الموجودة على صندوق غرناطة، المحفوظ بمتحف الآثار بمدريد (Granada 1992: 268-9 no. 53) وكذلك على العلبة العاجية المثمنة الشكل، المحفوظة في معهد بالنثيا دي دون خوان بمدريد، تحتوي على حدائد بديعة الصنع، وهي كذلك تنسب إلى ورش غرناطة (Ferrandis 1940: 266-7 no. 168, fig. 87). وينطبق ما أسلفناه كذلك على القطعة المحفوظة في كاتدرائية طليطلة، التي ربما لا تعود إلى ورش غرناطة، وأرجعها م. كاسامار إلى القرنين الثالث والرابع عشر

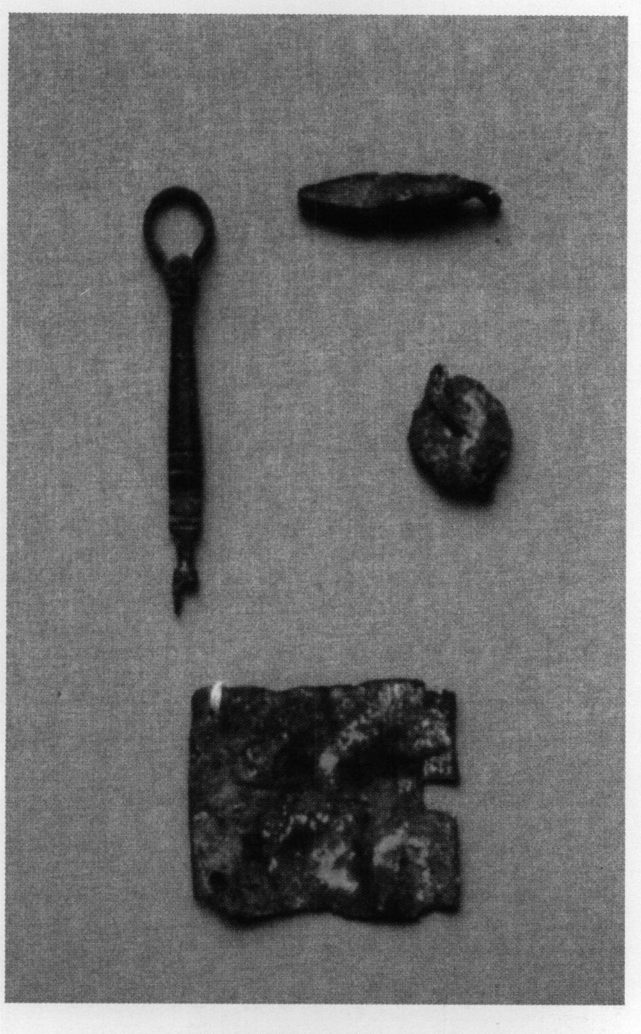
الميلاديين (١٩٨٥م، ص ٣٣، رقم ٤)؛ أي أنها تعود إلى فترة متأخرة بعض الشيء عن سابقاتها.

إن ظهور هذه الحدائد، إلى جانب مجموعة ألواح الصناديق وبقايا القرون، لا تترك مجالاً للشك في أن مصدر جميع هذه المعثورات هو هذه الورشة، التي تم اكتشافها في بلدة خيخونا، وبالتالي لا يمكن ربط هذه الحدائد بورش غرناطة، أو نسبتها إليها. وإذا ما افترض نسبتها إلى إحدى ورش الصناعات البرونزية الأندلسية، التي ربما كانت في إحدى مناطق بلنسية، حيث يمكن نقش وتجميل العلب المزخرفة المجلوبة من صقلية، فإن هذا الأمر معزز بظهور هذه الحدائد في صندوق كاتدرائية تورتوسة.

٢ - ٣ - أنماط الصناديق وعناصرها الزخرفية :

من خلال المعاينة الأولية لحجم وتقنية نحت الصفائح، أو الألواح العظمية المتخذة من قرون الوعول، يستطيع المرء أن يتحقق من وجود ورشة مخصصة لإنتاج صناديق مضلّعة الأشكال، وليس لإنتاج علب أسطوانية. كما يدل وجود بعض الألواح، التي تأخذ أشكالاً شبه منحرفة (الشكل ٣: ١٠)، على احتمالية كون نمط الصناديق المصنعة في هذه الورشة من النوع التابوتي الشكل.

ويبدو أن هذا النمط مرتبط بالعدد القليل من القطع، أو الصناديق المعدة من ألواح صغيرة الحجم. وقد عُدَّ إنتاج هذا النوع، حسب رأي كل من ب. ب. كوت و ج. فيرانديس، صناعة أندلسية أنتجت في إحدى ورش غرناطة، التي تعود لفترة بني نصر إبان القرن الرابع عشر الميلادي؛ ويمكن أن يدرج ضمن هذه المجموعة تلك القطع الكبيرة الحجم، كذلك الغطاء التابوتي الشكل المحفوظ في مجموعة السيد أوليجاريو جونيينت (Ferrandis 1940: 212 no. 92, fig. 62)، وصندوق سانتا مارية دي هويرتا (فيرانديس، ١٩٤٠م، ص ٢١٤، رقم ٩٤، لوحة ٦٣)، وكذلك صندوق كوليخياتا دي سوريا (Ferrandis 1940: 214 no. 95, fig. 64). والقطعة المحفوظة في مجموعة لاثارو جالديانو (Ferrandis 1940: 220 no. 101, fig. 69). وإلى هذه القطع لا بد من إضافة صندوق مهم جداً، وذلك بسبب صغر



لوحة ٣: حدائد وصفائح معدنية خاصة بغلق الصناديق.

حجمه (إذ يبلغ طوله ٩ سم وعرضه ٦ر٦سم وارتفاعه ٥ر٧سم) لكنه مصنوع في المكان نفسه ،الذي صنعت فيه القطع السابقة ويعود إلى الفترة التاريخية نفسها، ذلك هو الصندوق المحفوظ في متحف فيكتوريا وألبرت في لندن رقم ١٨٦٦/١١ (Cott 1939: 51 no. 132 fig. 57; Ferrandis 1940: 219 no. 100).

لقد مرَّ أكثر من نصف قرن منذ دراسة ونشر هذه القطع، وأعتقد أنها في الوقت الراهن تحتاج إلى شيء من المراجعة والتقويم، كتلك التي يقوم بها م. كاسامار، إذ طرح سلسلة من القطع غير المنشورة، التي لم تعرض في مثل هذه الدراسات التقليدية المعهودة. كما هو الحال في ذلك الصندوق التابوتي الصغير (٥ ر١٢ × ٨ سم × ١٠ سم) المحفوظ في كاتدرائية

طليطلة والمسجل بقائمة عام ١٩٧٦م، رقم ١٣٦، والذي اعتبره صقليّ المصدر ووضعه تاريخياً في أفق القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين؛ ويشتمل هذا النموذج على حدائد شبيهة بالحدائد المعروضة هنا، وإن كانت ذات عناصر زخرفية أكثر تطوراً من عناصر القطع المدروسة.

إن ما تتضمنه مجموعة الصناديق العاجية المهمة، من قطع مصنَّعة من ألواح صغيرة الحجم، يعد في حكم النادر، إذ لا توجد منها، حتى وقتنا الراهن، سوى ستة نماذج فقط، وهو عدد لا يمكن مقارنته، بأي حال من الأحوال، مع عدد تلك الصناديق الكبيرة. ومما يلفت الانتباه أن هذه الألواح، أو الصفائح الصغيرة المعدة من القرون، كان يُعتقد حتى يومنا هذا أنها ألواح عاجية، وكان يعزى سبب صغر حجمها إلى شح مادة العاج (Ferrandis 1940)؛ كما كانت تعد طريقة صناعتها الشاذة كأسلوب مستحدث في عهد بني نصر، دون الاعتماد على أدلة واضحة يعتد بها.

والواقع أن المصنوعات العاجية المنتجة في القرن الرابع عشر الميلادي، تتميز بأن صفائحها العاجية إما أن تكون مخرمة أو مرصّعة. وبناءً عليه، أرى أنه من المستحسن العمل، في المقام الأول، على تحديد نوع مادة صناعة هذه الصناديق، التي يبدو أن بعضها مصنوع من القرون، وليس من العاج كما هو سائد، بل إنه يمكن نسبتها إلى ورش أندلسية سابقة لدولة بني نصر.

وفي هذه المرحلة سيستند تحليلنا لهذه الأمور على المعطيات الموثّقة، الخاصة بورشة خيخونا على وجه التحديد؛ وكذلك على نتائج اكتشافات حديثة لألواح ذات حواف مثلومة، في مواقع مختلفة من شبه الجزيرة الإيبيرية. وعليه، ينبغي أن نشير إلى اكتشاف ما يصل إلى عشرين لوحاً أثناء الحفريات الأثرية، التي أجريت في قلعة الأرك (ثيوداد ريال)، وجدت مجتمعة مع بعضها البعض داخل غرفة واحدة، وهي ذات أحجام مختلفة. ويلاحظ على أسطح بعضها أنها مزخرفة برسوم مذهبة، أساسها عناصر نباتية محورة على هيئة الجامات الدائرية، بينما يلاحظ على بعضها الآخر بقايا زخارف كتابية. وقد نشرت جميع هذه الألواح من قبل م. كاسامار (Ciudad Real 1995: 282-3 no. 128) واعتبرها معاصرة لمعركة الأرك التي حدثت عام ١١٩٦م.

وهناك مجموعة أخرى من الألواح ذات أهمية بالغة، وهي تشكل فيما بينها الألواح الخاصة بصندوق محفوظ بالمتحف البلدي في مدينة مورا بالبرتغال، وقد عرّف بها السيد س. ماثياس في أحد أعداد هذه المجلة (Arqueoolgia Medieval 1993, p. 137, Figure 18)، ثم تناولها فيما بعد خلال دراسة مفصلة في الحلقة الأثرية الخامسة التي عقدت في لشبونة عام ١٩٩٣م (Macias 1994). ولقد دفعت تلك الأجزاء المكتملة بالسيد ماثياس خلال معاينته لها، إلى أن يتصور شكل الصندوق على هيئة موشورية طولها ٨ ر١٢ سم وعرضها ٢ر٦ سم، كما تبين له أن الصندوق صُنع من الخشب ثم ألصقت به من الخارج صفائح من العظم وليس من العاج. كذلك تعرّف الباحث على كيفية تثبيت الألواح وذلك عن طريق حدائد صغيرة لا زالت أجزاء منها باقية في أماكنها الطبيعية. ولقد تم إعادة تركيب اثنين من الواجهات الطولية للصندوق، وتبين أنهما يحتويان على عنصر تجميلي مركزي، يتمثل بزهرة ذات فليقات مشتبكة، وهي تماثل ذلك العنصر الذي يجمّل صندوق متحف فيكتوريا وألبرت الآنف الذكر، ويحيط بحواف العنصر زخرفة نباتية، مع أشكال آدمية متقابلة.

وفيما يتعلق بتاريخ هذه القطعة، فيمكن القول إنه حسب تشابه عناصرها الزخرفية مع تلك، التي تجمل خزفيات مورسية المرسوم عليها بالجرافيت، أنها تعود إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، كما لا يستبعد أن يكون مصدر صناعتها هو أحد ورش مدينة غرناطة (Macias 1994: 297) علماً بأن أجزاء القطعة تم اكتشافها أثناء التنقيب في طبقات الفترة الإسلامية بقلعة مورا، التي تعود للعصر الموحدي، التي استردت من قبل المسيحيين عام ١٢٣٢م.

جدير بالتنويه أن التشابه الملحوظ، بين الصندوقين المكتشفين في قلعة الأرك وبلدة مورا البرتغالية، والقطع المكتشفة في قلعة خيخونا، وخصوصاً فيما يتعلق بالشكل والحجم وكذلك الحدائد المضافة، تدعو إلى تأكيد ما ألمحنا إليه في حينه (Azuar 1989) وهو وجود ورشة محلية لنحت قرون الوعول، وصناعة أدوات متنوعة، مثل: مقابض المغازل، وجوزة القوس الفولاذي، والأغطية.. ونحوها، إلى جانب

كاتدرائية ليون
القديس دومينجو دي سيلوس
كوليخيانا دي سوريا
كاتدرائية تورتوسة
كاتدرائية طليطلة
الأرك
مورا
خيخونا

ورشة قلعة توري جروسة.
صفائح مستطيلة الشكل من العظام أو القرون.
حدائد ذات أطراف مثقوبة ثلاثية الفصوص.
صناديق.

(الشكل ٧)

صناعة الصناديق الخشبية المجملة بألواح من العظم.

أما فيما يتعلق بالفترة التي تعود إليها هذه القطع، فإنها تتزامن وعصر القطعتين اللتين عثر عليهما في حفريات الأرك ومورا، وهو عصر الموحدين أو نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وحتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، كما أنه عثر عليها في الطبقات الأثرية نفسها، التي تعود للفترة الإسلامية.

وأمام هذه المعطيات البالغة الأهمية، فإنه من الواضح أننا نجد أنفسنا، وللمرة الأولى، أمام قطع موثقة بواسطة تاريخ الطبقات الأثرية، وليس عن طريق تحليل أشكالها ومقارناتها ونحو ذلك. وعلى الرغم من المسافة الكبيرة، التي تفصل بين مجموع هذه القطع، فبعضها من أقصى الشرق والبعض الآخر من أقصى الغرب، لكنها تعود للتاريخ نفسه. وهذا في واقع الأمر يدل على أن صناعة هذه الصناديق كانت تزاول في هذه الفترة بشكل مستمر، وليس في ورش ريفية صغيرة، كما هو الحال في خيخونا، بل من المؤكد أن هذا كان يتم في أسواق المدن الأكثر أهمية.

ونظراً لندرة مادة العاج، فقد اضطر الصنّاع (النحات) إلى تطبيق خبراتهم التقليدية في نحت قرون الوعول لصناعة الصناديق، انطلاقاً من مقاساتها الطبيعية المحدودة، التي تحتم على هؤلاء أن تكون ذات أشكال موشورية، مع أغطية مسطحة،

أو تابوتية، أو هرمية. وتتطابق مجموعة الصناديق هذه مع المجموعة، التي استعرضها خ. فيرانديس، وكذلك مع المجموعة الأندلسية؛ لكن نظراً للمعلومات المستجدة الحالية، فقد أصبح من الضروري إعادة النظر بتلك الصناديق المصنوعة من ألواح ذات أحجام صغيرة؛ فقد لا تكون مصنوعة من العاج، كما قد يعاد النظر في أمر تاريخها. ذلك إن معاينة الحالات المشار إليها سالفاً، التي تأكدت المعلومات الخاصة بها آثارياً، تُمكّن من اعتبار معظمها من القرن الثالث عشر الميلادي.

وهناك معلومة مهمة أخرى مصدرها ورشة خيخونا، تتعلق بالحدائد الملحقة بالصناديق، إذ تبين أن عناصرها الزخرفية تختلف عمّا هو على منتجات صقلية، وكذلك الحال في تاريخها ونمطها؛ وعليه يمكن اعتبار معثورات ورشة خيخونا، التي تحمل هذه الخصائص، نماذج صنعت بشرقي الأندلس، وذلك قبل قيام دولة بني نصر.

د. عبدالله بن ابراهيم بن عثمان العمير: قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ص. ب: ٢٤٥٦ - الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية.

الهوامش:

(١) نشر هذا البحث باللغة الإسبانية في مجلة "Arqueologia Medieval" (آثار العصور الوسطى) العدد الخامس، مرتلة، ١٩٩٧م. ولا يفوتني أن أتقدم إلى الباحث ر. أثوار بجزيل الشكر والتقدير، حينما أذن لي بترجمته إلى اللغة العربية، ونشره في أحد الأوعية العلمية في المملكة (المترجم).

(٢) متحف الآثار بمنطقة أليكانتي، طريق المحطة، (٦-٠٣٠٧١ أليكانتي).

المراجع

Azuar Ruiz, R. 1985. "Castillo de la Torre Grossa (Jijona) ", **Alicante**.

--------------- 1989. "Denia Islamica. Arqueologia y Poblamiento", **Alicante**.

Benito Iborra. M. 1988. "Algunas aportaciones sobre la caza en el senorio de los Maca de Licana", **Betania**, 36.

----------------- 1993. "La evolucion estructural de las sociedades historicas del Sur de la Comunidad Valenciana a traves de la reconstruccion arqueozoologica". IV CAME, I, **Alicante**, 151-168.

Billamboz, A. 1979. "Les vestiges en bois de cervides dans les gisements de l'epoque holocene. Essai d'identification de la ramure et de ses differentes composantes pour l'etude technologique et l'interpretaion Palethnographique", Industrie de l'os Neolithique et de l'Age des Metaux (Paris), 93-129.

Casamar, M. 1985. "Marfiles islamicos poco conocidos", Cuadernos de la Alhambra, 21 (Granada), 11-29.

Ciudad Real 1995. "Alarcos. El fiel de la balanza", Toledo.

Cott, P. B. 1939. "Siculo-Arabic lvories", Princeton.

Estocolmo 1985. "Islam kunst och kultur", Stockholm.

Ferrandis, J. 1928. "Marfiles y azabaches espanoles", Barcelona.

----------------- 1935. "Marfiles arabes de Occidente",

vol. 1, Madrid.

----------------- 1940. "Marfiles arabes de Occidente", vol.2 , Madrid.

Granada 1992. "Al-andalus. Las artes islamicas en Espana". Granada.

Kuhnel E. 1971. "Die Islamischen Elfenbeinskulpturen VIII.XIII Jahrhundert", Berlin.

Lopez Padilla, J. A. 1995. "El castillo de la Torre Grossa de Xixona (Alicante). Un taller de eboraria del siglo XIII", Castells, 5 (Alicante), 33-36.

----------------- 1995a. "Instrumentos de asta de ciervo. Un taller medieval en el castillo de la Torre Grossa (Xixona, Alicante)", XXIII CNA, Elche (e.p.).

Macias. S. 1993. "Moura na baixa idade media: elementos para um estudo historico e arqueologico", **Arqueoolgia Medieval**, 2: 127-157, Mertola.

----------------- 1994. "A arqueta pintada do periodo islamico do Museu de Moura", V Jornadas Arqueologicas, 2 (Lisboa, 1993), Lisboa.

Menenedz-Pidal, G. 1984. "la Espana del siglo XIII leida en imagenes ". Cuadernos de La Alhambra, 19-20 (Granada), 3-61.

Macgregor, A. 1985. Bone, Antler, lvory and Horn. The Technology of Skeletal Materials Since the Roman Period, Londres.

Motos Guirao, E. 1991. El poblado medieval de "El Castillon "(Montefrio, Granada). Estudio de sus materiales, Granada.

Navascues y De Palacio, J. de 1964. "Una escuela de eboraria, en Cordoba, de fines del siglo IV de la Hejira (XI de J.C.), o las inscripciones de la arqueta hispano musulmana llamada de Leyre", **Al-Andalus**, 29: 199-206, (Madrid) .

Palma De Mallorca 1979. "Exposicion de cajas, cofres y arquetas a traves de la historia", Palma de Mallorca.

Valdes Fernandez, F. 1985. La Alcazaba de Badajoz I. Hallazgos islamicos (1977-1982) y testar de la Puerta del Pilar, E.A.E, 144, Madrid.

Varela Gomes, R. 1988. "Ceramicas muculmanas Do Castelo De Silves", XELB, 1.

Zozaya, J. 1986. "Arqueta andalusi ", en Thesaurus/ Estudis, "L'art als Bisbats de Catalunya, 100-1800"; cat. Exp., pp. 26-27, Barcelona (1985).

عرض الكتب

اسم الكتاب: الفخاريات البيزنطية والإسلامية المبكرة في سورية والأردن (بين القرنين الرابع والثامن بعد الميلاد).

أعمال ندوة عمان المنعقدة بتاريخ ٣، ٤ و ٥ كانون الأول ١٩٩٤.

المحررتان: إستيل فيلنوف و باميلا واطسُن.

E. Villeneuve & P. Watson

الناشر: المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى (IFAPO)، بيروت.

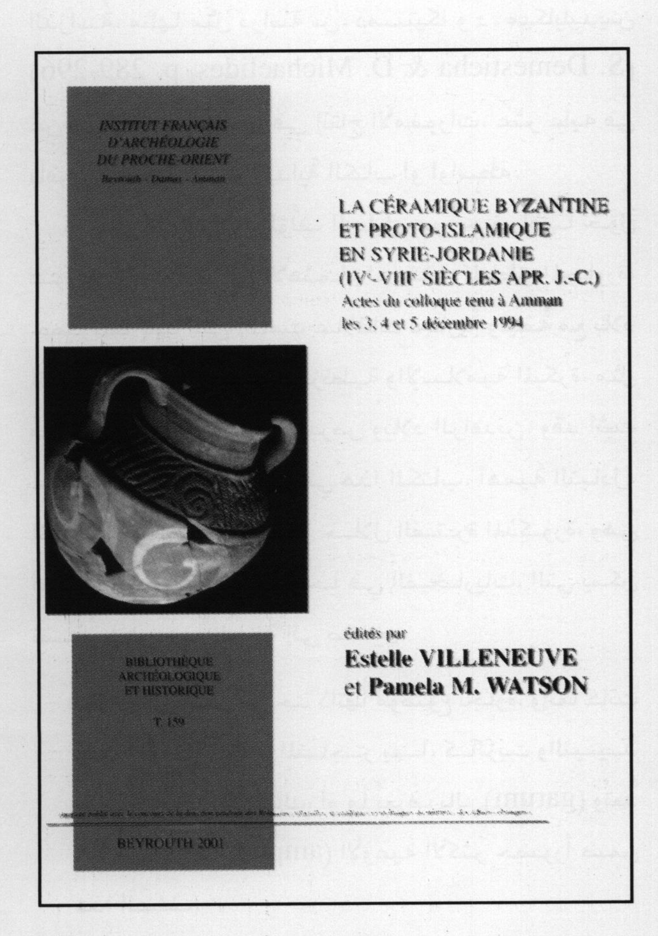
سنة النشر: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

التصنيف الدولي: ٥-١٠-٩١٢٧٣٨-١٠-٥.

مقاس الكتاب: ٢٢ × ٢٨ سم.

عدد الصفحات: i-v صفحة + ٣٣٢ صفحة (وتشمل ١٥٩ شكلاً ولوحة).

عرض: مولاي محمد جانيف



صدر مؤخراً، ضمن السلسلة المعروفة باسم (Bibliothèque archéologique et historique)، أو "المكتبة الآثارية والتاريخية"، التي يُصدرها بشكل منتظم المعهدُ الفرنسيُّ للآثار في الشرق الأدنى (IFAPO /IFPO)، كتابٌ مهم عن الإنتاج الفخاري في سورية والأردن، خلال الفترتين البيزنطية والإسلامية المبكرة، عنوانه:

(La céramique byzantine et proto-islamique en Syrie-Jordanie (IVe-VIIIe siècles apr. J.-C.) Actes du colloque tenu à Amman les 3, 4 et 5 décembre 1994)

والكتاب، إذ يختار هذه الفترة بالذات، فهو يختار الأصعب، لأن دراسة الفخاريات العائدة لفترة انتقالية بالغة الأهمية في تاريخ بلاد الشام، تطرح من الصعاب الشيءَ الكثيرَ، وتتطلب جهوداً استثنائية لتتبع التغيّرات، التي طرأت على الإنتاج الفخاري في المنطقة طيلة خمسة قرون (الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والثامن الميلاديين).

ولتحقيق هذه الغاية، تضافرت في هذا الكتاب جهودُ ما يزيد عن ثلاثين باحثاً، قدّموا دراساتٍ متباينةً موضوعاً، متحدةً هدفاً، إذ سعت كلُّها إلى فهم التطورات، التي ميّزت مسيرةَ الصناعة الفخارية في منطقة بلاد الشام، وتتّبعها، خلال الفترة المذكورة. ولذلك، يبدو مفهوماً أن تختار محرِّرتا الكتاب (إستيل فيلنوف و باميلا واطسُن) للدراسات المقدَّمة، ترتيباً عبر الزمان (diachronic)، بدل ترتيبها عبر المكان (synchronic). بيد المحررتين لم تُحافظا على التزامهما بهذا المبدأ، على امتداد صفحات الكتاب. فبدا أمراً غيرَ مفهوم، مثلاً، تصنيف دراسةُ هايس (J. W. Hayes, p. 275-282) عن الفخار الروماني المتأخر المعروف باسم (Late Roman Fine Ware)، وهو فخار

رفيعٌ كان يُستَورد إلى المنطقة وتتم محاكاتُه على الصعيد المحلي، في نهاية الكتاب تقريبا، وكان أولى أن تحتلَّ هذه الدراسةُ، مثلها مثل دراسة س. دمستيكا و د. ميكايليديس (S. Demesticha & D. Michaelides, p. 289-296) عن فرن فخار مختص في إنتاج الأمفورات، عُثر عليه في بافوس بجزيرة قبرص، بدايةَ الكتاب أو أواسطَه.

ومع أن عنوانَ هذا المؤلَّف الجليل يدور جغرافيا حول سورية والأردن، إلا أن الاهتمامَ لم يُغفل المناطقَ المجاورة، خصوصا تلك التي أقامت علاقاتٍ تجاريةً وثيقةً مع بلاد الشام، خلال الفترتين البيزنطية والإسلامية المبكرة، مثل منطقة بحر إيجه وجزيرة قبرص وبلاد الرافدين. وقد أثبت عددٌ من دراسات المقدمة في هذا الكتاب، أهميةَ التبادل، الذي ساد بين هذه المناطق خلال الفترة المذكورة، وهي أهمية تبدو أكثرَ وضوحا في الفخاريات، التي يمكن تقسيمُها في هذه الحالة إلى صنفين:

١- فخاريات لم تكن في حد ذاتها موضوعَ تجارة، وإنما كانت أوعيةً لنقل المواد المتاجَر بها، كالزيت والنبيذ ومستحضرات الأسماك، أو ما يُعرف بالـ (garum) وتُعدُّ الأمفورات (amphorae) الأوعيةَ الأكثرَ حضوراً ضمن هذا الصنف.

٢- أوانٍ فخارية كانت تُباع وتُشترى على نطاق واسع. وقد تمثل هذا الصنفُ أساسا في أوانٍ من الطراز الرفيع، كانت تُستخدم في أغراض المائدة. وقد كشفت بعضُ دراسات هذا الكتاب، على تركز الفخاريات من هذا النوع في مواقع تحتل الساحلَ الشامي، وإن عُثِرَ على نماذج منها في مواقع داخلية، مثل القدس وجرش... على أن الموقعَ الأخيرَ تفرَّد بإنتاج فخاري مشهور، تمثل أساساً في الصحون المعروفة باسم: "زبادي جرش" (Jerash Bowls)، التي يمكن أن تُعدّ تقليداً لبعض الفخاريات المستوردة؛ وهي بذلك لعبت دورَ هذه الفخاريات على الصعيد المحلي، فكانت موضوعَ تجارة جَهَوِيَّة نَشِطة.

ولعل النتيجةَ الأهم، التي يمكن استخلاصُها من هذه الدراسات، هو أن التغيرات الجذرية، التي طرأت على الصناعة الفخارية في المنطقة خلال هذه الفترة، لم تحدث في منطقة الساحل، بل في الأجزاء الداخلية من بلاد الشام، التي عرف إنتاجُها الفخاريُّ تغيّراً بطيئاً، وصل أوجَه في القرن الثامن مع ظهور فخاريات تمثل تجديداً حقيقياً في هذا الحقل. ولئن تركز هذا التجديدُ في منطقة شمالي سورية والجزيرة وأعالي الخابور (قلعة سمعان، الرقة، الرصافة...)، فهو لم يكن سوى صدىً لتغيّر أكثرَ عمقاً عرفه العراق، مع ظهور الدولة العباسية، حين برزت صناعاتٌ فخاريةٌ مالت بشكل واضح نحو محاكاة الأواني المعدنية، أو اتخذت منحىً أكثرَ أصالة تمثل بوجه خاص- في الفخاريات المزجَّجَة، التي انطلق إنتاجُها من سامراء والرقة... ليعمَّ منطقة بلاد الشام والمشرق العربي.

إن ما يمكن قولُه في ختام هذه المراجعة القصيرة، هو أن هذا المؤلَّف يشكّل قفزة نوعية في حقل الدراسات المهتمة بالصناعات الفخارية في بلاد الشام، خلال فترة انتقالية لا زالت معارفُنا عنها ناقصة إلى حد بعيد. فكم يبدو مثمراً ذلك اللقاءُ، الذي جمع نخبةً من المختصين في عمان قبل بضع سنين، وها نحن اليوم نستفيد من نتائجه القيّمة كاملةً دون نقص! وإذا كان انتظارنا لهذا المؤلَّف قد استغرق سنواتٍ قبل صدوره في ربيع سنة ٢٠٠١، فإننا جوزينا على طول انتظارنا كأحسنَ ما يكون الجزاء، وحسبُنا أن الكتاب خرج إلى النور جليلاً حسنَ الإخراج، خالياً من الأخطاء، عظيمَ الفائدة؛ وهذه حسناتٌ لا تجتمعَ -عادة- في مؤلَّف إلا إذا أولاهُ واضعوه أو المشرفون عليه من الاهتمام، ما يستدعي جهوداً جبارة...

غير أن عيبَ هذا الكتاب وطامَّتَه الكبرى يكمنان في رداءة ترجمة ملخصات الأبحاث إلى العربية. ولأن حرصَنا كبير على لغة الضاد، ورغبتَنا أكيدة في تصحيح الأخطاء الفادحة الكثيرة الواردة في هذه الترجمة، ارتأينا أن نقدم في هذا المقام عرضاً مفصلاً لمعظم العثرات، التي وقع فيها المُترجم.

عندما يُعْهَدُ بالترجمة إلى غير أهلها، ماذا تكون النتيجة ؟!

في المنشورات الأخيرة الصادرة عن المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى (IFAPO / IFPO)، سواء في

حـوليـتـه (Syria)، أو في السلسلة، التي يُصدرها بشكل دوري تحت اسم: "المكتبــــة الآثارية والتـــاريخــيـــة" Bibliothèque archéologique et historique =) BAH)، ثمة دأبٌ محمود على إرفاق الدراسات الصادرة ضمن هذه المنشورات، بملخصات مكتوبة بالعربية. وهو إجراء قلّما نجد له نظيراً في المنشورات، التي تصدرها المعاهدُ الأجنبية الأخرى الناشطة، في حقل الدراسات المتعلقة بآثار المنطقة والموجودة في أكثر من قطر عربي. ونحن لا نملك إلا أن نُثني على هذه الخطوات، التي تيسر للقارئ العربي غير المتمكّن من الفرنسية، الاطلاعَ على خلاصة هذه المنشورات التي تغطي - عادة - فتراتٍ طويلةً، تمتد من عصور ما قبل التاريخ حتى العصور الإسلامية، ومساحةً شاسعةً تشمل كلَّ المشرق العربي.

غير أن النياتِ الحسنةَ يمكن أن تُحدثَ من الخسائر، أحياناً، أضعافَ أضعافِ ما يمكن أن تحدثه النياتُ السيئة. ويصح ذلك بشكل خاص على بعض هذه المنشورات، التي صدرت خلال السنوات القليلة الماضية، وبها ملخصاتٌ مكتوبةٌ باللغة العربية أقل ما يمكن أن يقال عنها هو أنها تسيء إلى لغة الضاد، وتوجّه سهاما مسمومة لكل الجهود الخيرة، التي يبذلها بعض أهل الاختصاص من علماء الآثار العرب، لإيجاد المصطلحات العربية السليمة، كلٌّ حسب اختصاصه. كما تعصف بكل جهد يسعى إلى توحيد هذه المصطلحات، وتكريس ما تم التعارفُ عليه في هذا الإطار. ونقصد هنا تحديداً المؤلَّفَ الذي نحن بصدد تقديم مراجعة قصيرة له في هذه الصفحات.

عندما أهدتني السيدة إستيل فيلنوف، مشكورةً، نسخةً من الكتاب، الذي حرّرته بالاشتراك مع السيدة باميلا واطسُن، عن فخاريات سورية والأردن خلال الفترتين البيزنطية والإسلامية المبكرة، أثار إعجابي هذا المؤلّف الجليل بمحتواه، الذي ضم عدداً كبيراً من الدراسات القيّمة، التي أنجزها مختصون تناولوا مسائلَ تنوّعت موضوعاتها، لكن أهدافها واحدة، إذ حاولت كلُّها تقديمَ فهمٍ واضحٍ للتغيّرات، التي طرأت على الصناعات الفخارية، خلال فترة انتقالية شديدة الأهمية في تاريخ المنطقة تقع بين القرنين الرابع والثامن بعد الميلاد. وقد تجاوز إعجابي مضمونَ الكتاب إلى شكله، الذي نال قسطَه الوافرَ من الاعتناء، فخرج هذا السِّفرُ أنيقا حسنَ الديباجة، يُغري الناظرَ بتصفحه.

غير أنني ما إن استرسلت في قراءة الترجمة العربية لبعض الملخصات، حتى أصابني الذهول وأدركت حجمَ الاختلاف بين النص الفرنسي، الواضح والمسبوك العبارة، وبين النص العربي، الذي خرج ركيكاً متهافتاً، ومليئاً بالأخطاء والسقطات. ولو أن تهافتَ الترجمة العربية اقتصر على الأخطاء النحوية لهان الأمر، لأن هذه الأخطاء قد بلغ بها الشيوعُ، للأسف، في كثير من المنشورات العربية حداً، بات معه غضُّ الطرف عنها أحفظَ للوقت والعقل؛ ولكن تهافت الترجمة تجاوز الخطأ النحوي، إلى تشويه المعاني، وتقويلُ الباحثين ما لم يخطر لهم على بال؛ وهو أمر من الخطورة، لا يمكن تفويتُه أو السكوتُ عنه.

وفيما يلي عرضٌ لهذه الأخطاء، بدءاً بعنوان الكتاب وانتهاءً بدراسة ألن والمسلي (A. Walmsley) عن الفخار ذي اللون الأبيض الداكن المائل إلى الصفرة (Cream Ware)، الذي ظهر في الأردن وفلسطين خلال القرن الثامن بعد الميلاد، مع الإشارة إلى أن مواطنَ الخطأ والتصويبات المقترحة أُبرزت بخط عريض يختلف عما سواها.

١- عنوان الكتاب:

La céramique byzantine et **proto-islamique** en Syrie-Jordanie (IVe-VIIIe siècles apr. J.-C.) Actes du colloque tenu à Amman les 3, 4 et 5 décembre 1994.

نقل المترجمُ عنوانَ الكتاب إلى العربية على النحو التالي: الفخاريات البيزنطية **وما قبل الإسلامية** في سورية والأردن (من القرن الرابع إلى الثامن ميلادي)
أبحاث ندوة عمان في ٣، ٤ و ٥ كانون الأول ١٩٩٤ .

يبدو أن المترجم لا يفرق بين (**pré**-islamique) وبين (**proto**-islamique)، وشتان ما بين العبارتين؛ فالأولى تعني: (ما قبل إسلامي)، والثانية، وهي الواردة في عنوان



الكتاب، تعني (إسلامي مبكر)، وهو بالتحديد معنى عبارة: (Early Islamic)، التي استُخدمت في نصوص الملخصات الإنجليزية. وبناء عليه، تكون الترجمة السليمة لعنوان الكتاب على النحو التالي:

(الفخاريات البيزنطية والإسلامية المبكرة في سورية والأردن). ولأن هذا الخطأ يتكرر على امتداد صفحات الكتاب، فإننا سنكتفي بالإشارة العابرة إليه بين الفينة والأخرى، دون الإمعان في التشديد عليه كثيرا.

٢- مقدمة الكتاب:

قدَّم للكتاب جان-بيار سوديني (J.-P. Sodini)، أستاذ الآثار البيزنطية في جامعة باريس الأولى، مستعرضاً على امتداد ثلاث صفحات (٣-٥) الآفاقَ التي عبر عنها المؤتمر من خلال المداخلات المختلفة.

اتخذت المقدمة العنوانَ التالي:

Les céramiques byzantines et proto-islamiques du Proche-Orient : quelques remarques introductives

وفي الترجمة العربية لملخص المقدمة، نلاحظ أن المترجم لم يقدم سوى ترجمة جزئية للسطرين الرابع والخامس:

L'ampleur du champ couvert sur une longue durée a mis en lumière la juxtaposition de deux mondes pré-islamiques, l'un romain et l'autre sassanide, le premier se distinguant par la présence d'amphores et de vaisselles fines héritières des sigillées.

إذ اكتفى بترجمة ركيكة وناقصة، جاءت على النحو التالي:

إن توسع ميدان الدراسة على زمن طويل قد أثار تواصل عالمين يعودان لما قبل الإسلام أحدهما روماني والثاني ساساني.

لاحظ أن المترجم قد انتبه هنا إلى المعنى السليم لكلمة (pré-islamique)، فترجمها بعبارة (ما قبل الإسلام)، وحبذا لو كان يقظا بالقدر نفسه فجنب نفسه خطأ الخلط بين (pré-islamique)، و (proto-islamique) ذلك الخطأ الذي يتكرر على امتداد صفحات الكتاب.

ولهذه الفقرة نقترح الترجمةَ التالية:

إن زخم الميدان، الذي غُطي على امتداد زمن طويل قد ألقى الضوءَ على تجاور عالمين سابقين للإسلام، أحدهما روماني والآخر ساساني، **والأول ميزته الأمفورات والأواني الناعمة، التي تُعد امتداداً للفخاريات المدموغة الصقيلة الناعمة.**

نقترح هنا مصطلحَ "**الفخار المدموغ الصقيل الناعم**"، كترجمة عربية موفقة إلى حد ما، لمصطلح لاتيني شاع استخدامُه في الدراسات المختصة المكتوبة بلغات أوروبية مختلفة، المقصود مصطلح (terra sigillata)، الذي تقابله في الفرنسية كلمة (terre sigillée). واللفظة اللاتينية (sigillatus) تفيد معنى "الشيء المدموغ أو المزين بزخارف منقوشة أو نافرة". أما مصطلح (terra sigillata)، فيستخدم للدلالة على فخار صقيل ناعم، يتخذ في الغالب لوناً بنياً ضارباً إلى الحمرة، شاع إنتاجه في إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية، خلال القرون الأولى من عهد الإمبراطورية الرومانية، وظهرت صناعاتٌ فخارية محلية مشابهة له في عدد من الولايات الرومانية، على امتداد حوض البحر الأبيض المتوسط، لعل أبرزَها على الإطلاق ما عُرف باسم "**الفخار الإفريقي ذو البطانة الحمراء**" (African Red Slip Ware)، أو باسم آخر لاتيني هو (terra sigillata clara) أي "**الفخار المدموغ الصقيل اللامع**" أو (terra sigillata africana) أي الفخار الإفريقي المدموغ؛ وهو فخار رفيع ظلَّ يُصَنَّع في إفريقية (تونس) ويُصَدَّر إلى مختلف بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط على امتداد الفترة بين القرنين الثالث والسابع بعد الميلاد؛ ولذلك، لا غرو أن بعضَ أهل الاختصاص يكتفون باستخدام عبارة (Late Roman) للدلالة على هذه الصناعة الفخارية، مثلما هو الأمر عند هايس، الذي أصبح يُعَدُّ حُجَّةً في هذا الباب بعد أن كرس عددا كبيرا من الدراسات لهذا الموضوع. وقد رسَّخ هايس هذا المصطلح من خلال كتابه الشهير:

J. W. Hayes. 1972. **Late Roman Pottery**. London: British School at Rome.

ومن جانب آخر، إذا كان من الممكن اعتبار اقتصار الترجمة الكاملة للعربية في هذا الكتاب، على المقدمة دون النصوص الأخرى أحدَ أهون الشرور، بالنظر إلى حجم



الخسائر المهول، الذي كان سيحصل لو أنه نُقلت النصوص كاملةً إلى العربية، من قبل المترجم نفسه، فإن ترجمةَ صفحات التمهيد الثلاث إلى العربية لم تَخْلُ من أخطاء عديدة، نورد الفادحَ منها:

1) ... four d'amphores de type Carthage Late... Roman 1 à Paphos. (p. 3)

نقل المترجم هذا النص إلى العربية على النحو التالي:

أربع مزهريات من نمط قرطاج في العصر الروماني المتأخر في بافوس.

يبدو أن "الترجمان" قد اختلط عليه الأمر كثيرا في هذه الفقرة، فلم يعد يعرف هل النص الذي ينقله إلى العربية فرنسيٌّ أم إنجليزيٌّ، وهو ما يتضح من خلال ترجمته للكلمة الفرنسية (four) بـ"أربع"، بينما معناها هو "فُـرْن"! أما كلمة (amphores) فتعني للمترجم "مزهريات". وهكذا تتحول، بقدرة قادر، عبارة (four d'amphores) أي "**فرن أمفورات**" إلى "**أربع مزهريات**". والمزهريات، على حد علمي، أوانٍ توضَع فيها باقات الزهور الفوّاحة، فأينَ منها الأمفورات، تلك الجرار الخشنة، التي خزَّن فيها أجدادُنا إنتاجَهم من الزيت وغير ذلك من المُنْتجات السائلة، التي كانت تعرَض للبيع في هذه الأوعية ؟!

الترجمة السليمة لهذا النص تكون، إذن، على النحو التالي:

فُرْن أمفورات من نمط قرطاج (الطراز الروماني المتأخر ١) في بافوس.

ولا حرج إطلاقا في استخدام كلمة "أمفورات" لتعريب الكلمة الأعجمية (amphores / amphorae).

2) Dans le nord, on constate dans la vaisselle à cuire en pâte rouge, la célèbre Brittle Ware. (p. 4)

عرَّب المترجم هذا النص على النحو التالي:

أما في الشمال، فنلاحظ **داخل** الأواني **ذات الجلد** وعجينة أو طينة حمراء، أواني برتليه الشهيرة (Brittle Ware) .

مرة أخرى يكشف "الترجمان" عن قدرة عجيبة على الخلط بين الكلمات المتشابهةِ لفظا، المختلفةِ معنىً، وإلا فكيف نفسّر ترجمتَه للفعل (cuire) بـ"**جلد**" إلا إذا كان لا يميِّز بين (cuire) بمعنى "**طَبَخَ**" و(cuir) بمعنى "**جِلْد**" في اللغة الفرنسية ؟ ثم قولوا لي ما هي هذه "**الأواني ذات الجلد**" ؟

هذه العبارة لن يكون لها في ذهن القارئ العربي غير العارف بالفرنسية سوى معنىً واحدٍ ووحيد: أن هذه الأواني قد كساها صانعوها برداء من الجلد. وإذا كان هذا القارئ ملحاحاً وفضولياً، فإنه سيتساءل: لماذا عمد أجدادُنا لفعل ذلك ؟ أما إذا كان له من الخيال حظٌّ ونصيبٌ فقد يجد ضالَّتَه في جواب من قبيل: ربما فعلوا ذلك لمساعدة هذه الأواني على حفظ مخزونها من السوائل (؟) وفق درجة حرارة معقولة !!!

"**الأواني ذات الجلد**"، التي يذكرها المترجم، ما هي إلا "**أواني الطبخ**" أو (vaisselle à cuire) كما يرد في النص الفرنسي. المقصود، إذن، أوانٍ استُخدمت في أغراض الطهي، وليس لها أدنى علاقة بالجلد ومشتقاته. وبناء عليه، تقتضي الترجمةُ السليمة قولَ ما يلي:

أما في الشمال، فنلاحظ **ضِمْنَ أواني الطّبخ ذات العجينة الحمراء**، الأواني المشهورةَ المعروفةَ باسم "**الفخاريات الهشة**" (Brittle Ware).

3) Au sud, la **Soft Creamy Ware**, que A. Walmsley considère comme la première céramique vraiment islamiqueìì (p. 4)

نقل المُعَرِّب هذا النص على النحو التالي:

أما في الجنوب، فإن **الفخار الرفيع** (Soft creamy Ware) الذي يعتبره أ. **فالمسلي** كأول فخار إسلامي حقيقي...

والصواب:

أما في الجنوب، فإن **الفخار الناعمَ ذا اللون الكريمي** (Soft creamy Ware) الذي يُعدّه أ. **والمسلي** كأول فخار إسلامي حقيقي...

4) Toutefois la réunification politique de la Syrie du Nord avec la Mésopotamie [ì] a pu faciliter l'adoption de certaines formes (marmites à tenons verticaux) [p. 4]

وهو نص ترجمه المعرِّب هكذا:

وتذكر بأن التوحيد السياسي لسورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين (...) قد سهّل تبني بعض الأشكال (**قصعات بمسكات أفقية**).

والصواب:

وَمَعَ ذلك فإن التوحيد السياسي لسورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين (...) قد سهّل تبني بعض الأشكال مثل **القُدُور** ذات المقابض **العمودية**.

5) Dans le Hauran également, la céramique de Bosra est de mieux en mieux connue. (p. 5)

عرَّب المترجم هذا النص على النحو التالي:

وفي حوران - بصرى أصبح الفخار **أكثر معرفة**.

والصواب:

وفي حوران أيضاً، تحسنت معرفتُنا بفخار بصرى.

٣- دراسة إيفون جرير عن فخار الزنطور:

Yvonne Gerber, A Glimpse of the Recent Excavations on ez-Zantur/Petra: The Late Roman Pottery and its Prototypes in the 2nd and 3rd Centuries AD. Pp. 7-12.

في الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة القصيرة، التي كرستها جربر للفخار الروماني المتأخر، الذي كُشف عنه في الزنطور وسط مدينة البتراء، نُسجل الأخطاءَ التالية:

1) Grâce aux fouilles de la Suisse et du Liechtensteinì (p. 7)

ينقلها المترجم هكذا إلى العربية:

يعود الفضل إلى حفائر **ليختنشتاين السويسرية**...

والصواب:

يعود الفضل لحفائر (بعثة) **سويسرا وليختنشتاين**... لأن سويسرا وليختنشتاين دولتان منفصلتان، وليختنشتاين ليست سويسرية بكل الأحوال؛ إنما هناك بعثة مشتركة تضم علماءَ آثار من الدولتين ينقبون منذ سنة ١٩٨٨ في الزنطور، غيرَ بعيد عن معبد قصر البنت، وسطَ البتراء. وقد كشفت هذه البعثة في ذلك الموقع عن مجموعة من المباني السكنية، المتميزة بعمارتها وزخارفها الجميلة.

2) ...Il y eut un hiatus dans l'occupation des deux terrasses d'ez-Zantur. (p.7)

عرَّب المترجم هذا النص على النحو التالي:

... كان يوجد في **الزنتور ترسينتان** إنقطاع في الإستيطان.

ولا ندري من أي قاموس استمدَّ كلمةَ "تَرسينتان" (هكذا!) لتعريب كلمة (terrasses) الفرنسية. والصواب يقتضي قولَ ما يلي:

... كانت ثَمَّة **فجوة** في استيطان **سطحَيْ الزنطور**.

3) Ces résultats étant assez récents, cette communication ne fournit qu'une rapide présentation du matériel céramique et les premières réflexions et analyses. (p.7)

شوَّه "الترجمان" معنى هذه الفقرة حين عرَّبها على النحو التالي:

لقد كانت النتائج جديدة تماماً، ولهذا السبب تعطي الأوراق عرضاً موجزاً فقط للمواد الفخارية وأول التحاليل والتأملات. وسيعطي دراسة نهائية في وقت لاحق.

لاحظْ أن العبارة الأخيرة: "**وسيعطي دراسة نهائية في وقت لاحق**" هي من اختلاق "**الترجمان**".

أما التعريب السليم فيقتضي قولَ ما يلي:

ونظرا لحداثة هذه النتائج، فإن هذه المُداخَلة لا تقدم سوى عرضٍ سريع للفخاريات وكذلك للتأملات والتحاليل الأوَّلية.

٤- دراسة مي توما:

وهي عن الشواهد، التي تقدمها الفخاريات عن التبادلات التجارية بين سورية وقبرص خلال الفترة البيزنطية:

May Touma, Quelques témoignages de la céramique sur les échanges syro-chypriotes à la période byzantine. Pp. 49-58.

في الملخص القصير نسجل الخطأ التالي:

... **وسرج " مكورة" سورية فلسطينية، متفرعة من افريقيا الشمالية أو مدارة.**

هكذا يعرّب المترجم النصَّ الفرنسي التالي:

...des lampes dites “en galet", syro-palestiniennes, dérivés d'Afrique du Nord ou tournées. (p. 49).

والصواب يقتضي قولَ ما يلي:

... وأسْرِجَة " مُدَوَّرة " (**باستخدام حجارة مكوَّرة**) (en ga-

let)، سورية - فلسطينية مُتأصِّلة من شمالي إفريقيا، أو مصنوعة بالدولاب الخزّاف.

٥- دراسة ألكسندرا أوسكاتسكو عن فخاريات جرش البيزنطية المتأخرة:

Alexandra Uscatescu, L'apport des fouilles du macellum (Jérash, Jordanie) à la connaissance des céramiques byzantines tardives de Géra-sa. Pp. 59-76.

نسجل من الأخطاء في الترجمة العربية الخاصة بهذه الدراسة ما يلي:

1) Bâti au IIe s. après J.-C., le macellum de Jérash a été utilisé sans interruption jusqu'au VIIIe s. (p. 59)

نقل المترجم هذا النص على النحو التالي:

لقد بني **مصنع فخار** جرش في القرن **الثانن** (هكذا) واستخدم دون توقف حتى القرن الثامن.

يستخدم "الترجمان" مصطلح "**مصنع فخار**" تعريباً للكلمة اللاتينية (macellum)، التي تؤدي معنىً مختلفا تمامَ الاختلاف. ذلك أن كلمة (macellum) تعني "**السوقَ العامة**". وبناء عليه، تكون الترجمة السليمةُ لهذا النص كما يلي:

بُنيَت **سوقُ العامة** جرش في القرن الثاني بعد الميلاد واستُخْدِمَت دون توقف حتى القرن الثامن.

2) Cet article recense les différents types de céramique importée (sigillée tardive, amphores et unguentaria) et examine les techniques décoratives des productions locales comprenant la céramique fine dite »Jerash Bowl« et la céramique utilitaire commune. (p.59)

عرَّب المترجم هذه الفقرة هكذا:

ويخص هذا المقال أنماط الفخار المستورد (**متأخر مختوم و مظفر**) ويتفحص آلية التزيين للإنتاج المحلي المتضمن فخار رفيع يدعى طاسات جرش والفخار المعروف للاستعمال.

والتعريب الصائب يقتضي قولَ ما يلي:

يستعرض هذا المقال مختلفَ أنماط الفخار المستورد (**الفخار الصقيل المدموغ** (sigillée) **والأمفورات والقوارير**) ويتفحص التقنيات الزخرفية، التي ميزت الإنتاج الفخاري المحلي، الذي يضم الفخار الرفيع المعروف باسم "زَبَادي جرش" والفخار الشائع الاستخدام.

٦- دراسة جمعة كريّم عن فخاريات خربة النخيل:

Jum'a Kareem, The Pottery from the First Season of Excavations at Khirbet Nakhil. Pp. 77-93.

في هذه الدراسة، التي أنجزها المرحوم الدكتور جمعة كريّم، ثمة استعراضٌ لفخاريات بيزنطية وأموية عُثر عليها في خربة النخيل، الواقعة في منطقة مؤاب، وسطَ الأردن.

في الملخص القصير نلاحظ الخطأ التالي:

Deux sondages ì ont livré du matériel stratifié des périodes concernées par le colloque. (p.77)

وهو نصٌّ عرَّبه المترجم على النحو التالي:

وقد قدم **سدان ... مواد طبقية اثرية** تعود الى العصور المعنية في هذه الندوة.

والصواب:

وقد قدم **سَبْران/ مجَسّان... قطعا مُتَراتِبة طَبَقِيا** تعود إلى الفترات المعنية في هذه الندوة.

استخدم المترجم كلمة "**سد**" ترجمةً للكلمة (sondage)، وهيَ المقابل الفرنسي للَّفظة الإنجليزية (sounding)، وكان أحرى به أن يستخدمَ إحدى كلمتين ترسَّخ استخدامُهما في الكتابات العربية المتعلقة بالآثار هما: **سَبْر** و مجَسّ. أما عبارة (matériel stratifié)، فالمقصود بها "**القطع الأثارية المتراتبة طبقيا**". وفي اعتقادنا أن التعريبَ السليمَ لكلمة (stratification)، سواء في الفرنسية أو الإنجليزية، هو "**التراتب الطبقي**"، بل لا مانع إطلاقا من الاستخدام الحرفي للكلمة الأعجمية (stratigraphy) لنقول "**تراتب استراتيغرافي**"، بدلاً من: "**تراتب طبقي**"، درءاً للالتباس، الذي يمكن أن تُحدثه كلمة "**طبقي**" في هذه العبارة.

٦- دراسة توماس فاليشفسكي عن الفخار البيزنطي والإسلامي المبكر:

وعُثر عليه في خربة الذريح/ جنوبي الأردن:

Tomasz Waliszewski, Céramique byzantine et proto-islamique de Khirbet edh-Dharih (Jordanie du Sud). Pp. 95-106.

يُسلط توماس فاليشفسكي في هذا المقال الضوء، على الفخاريات العائدة للفترتين البيزنطية والإسلامية المبكرة، التي كشفت عنها التنقيباتُ الجارية في موقع نبطي يبعد حوالي ٧٠ كلم إلى الشمال من البتراء، هو موقع خربة الذريح.

في الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة، نسجل من الأخطاء ما يلي:

1) Bien que relativement peu abondant et provenant presque exclusivement du secteur du temple nabatéen, ce matériel remplit une lacune dans notre connaissance de la céramique byzantine tardive et proto-islamique dans la région de Wadi el-Hasa. (p. 95)

شوّه "الترجمان" معنى هذه الفقرة حين عربها على النحو التالي:

ومع أن هذه المواد **محدودة المواصفات**، وعثر عليها في المعبد النبطي ومحيطه القريب حصراً، فإنها يمكن أن تسد ثغرة معرفتنا عن فخار العصر البيزنطي المتأخر، **وما قبل الإسلامي** في منطقة جنوب وادي **الحسا**.

بينما المقصود هو ما يلي:

ومع أن هذه المواد **غير وفيرة** عُثر عليها في **منطقة المعبد النبطي** وحدها تقريبا، إلا أنها كفيلةٌ بسدّ ثغرة في معارفنا عن الفخار البيزنطي المتأخر **والإسلامي المبكر في المنطقة** الواقعة إلى الجنوب من وادي **الحسا**.

2) La datation précise de cet ensemble pose des problèmes dûs (sic) à la stratigraphie : la plupart du matériel vient de couches non scelléesì (p. 95)

عرَّب المترجم هذا النص على النحو التالي:

ويطرح التأريخ الزمني الدقيق لهذه المجموعة **مسائل** بسبب **طبيعة الطبقات الأثرية في التل؛ إذ أن معظم المواد تأتي من طبقات ليست راسخة ومتكونة من هدم متدرج وتراكم بطيء.**

لاحظْ أنه استخدم خمسَ كلمات (**طبيعة الطبقات الأثرية في التل**) لترجمة الكلمة الفرنسية (stratigraphie)، مضيفاً كلمة (تل)، وهي كلمة مختلقة تماماً، لأن خربة الذريح ،التي كان لي شرفُ التنقيب فيها، ليست تلاً على الإطلاق؛ ثم ما هي هذه "**الطبقات** "غير **الراسخة والمتكونة من هدم متدرج وتراكم بطيء**" ؟ يستخدم "الترجمان" هذه الجملة الطويلة المكونة من تسع كلمات، لترجمة العبارة الفرنسية (couches non scellées)، وهي سياقات آثارية يُقصَد بها في عُرْف علماء الآثار (**الطبقات غير المختومة**) أو (**الطبقات غير المُغلقة**)، أي الطبقات التي لم تسلم من عبث لاحق مسَّ بها، فجعلها تتعرض للقلب والخلط، وهو ما يُفقدها "المصداقية" الآثارية.

والترجمة الصائبة تقتضي قولَ ما يلي:

يطرح التأريخُ الدقيق لهذه المجموعة **مشاكلَ** عائدةً إلى **الاستراتيغرافيا**، ذلك أن معظم الفخاريات جاءت من طبقات **غير مختومة**...

ولا حرج، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، في استخدام كلمة "**استراتيغرافيا**" تعريباً للكلمة الإنجليزية (stratigraphy) والفرنسية (stratigraphie)، وحسبنا ما كُتبَ من نجاح وتوفيق لكلمات مُعَرَّبة مماثلة، من حيث المَبْنى مثل "جغرافيا"... ولأنَّ كلمة (stratigraphy) تبدأ بحرف ساكن، فإن تعريباً يحترم قواعدَ اللغة العربية يقتضي كتابتَها على النحو التالي: "**استراتيغرافيا**"، وفي حالة التعريف هكذا "**الاستراتيغرافيا**".

ونشير أخيراً، فيما يتعلق بملخص هذه الدراسة، إلى أن "الترجمان" عمد إلى اختلاق فقرة كاملة، ليس لها وجود لا في النص الفرنسي ولا في مقابله الإنجليزي !

٧- دراسة خيريه عمرو، وروبرت شيك:

وهي عن فخاريات بيزنطية وإسلامية مبكرة عُثِرَ عليها في الحميمه/ جنوبي الأردن:

Khairieh 'Amr & Robert Schick, The Pottery from Humeima: The Closed Corpus from Lower Church. Pp. 107-127.

لم تخلُ الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة من أخطاء، نوردها على النحو التالي:

1) Le lot de 19 vases comprend des amphores, des jarres de stockage, une petite jarre, des marmitesì (p. 106)

عرَّب المترجم هذا النص على النحو التالي:

وتتضمن المجموعة ١٩ **مزهرية وجرار مستطيلة صغيرة**، وجرار تخزين، **وقصعات ومشربيات**...

والصواب يقتضي قولَ ما يلي:

وتتضمن المجموعة ١٩ آنيةً وأمفورات وجرارَ تخزين، فضلاً عن جرة صغيرة وقدور...

2) A l'exception d'une amphore, le lot est entièrement de provenance jordano-palestinienne méridionale et montre les grandes différences entre les traditions du sud et celles, mieux connues, du nord.

تم تعريب هذه الفقرة على النحو التالي:

باستثناء **جرة** واحدة فإن مصدر المجموعة هو أردني فلسطيني جنوبي، مما يظهر الاختلافات الكبرى بين التقاليد الجنوبية والشمالية **الأكثر معرفة**.

والصواب:

باستثناء أمفورة واحدة، فإن المجموعة الفخارية، التي جاءت كلياً من مصدر أردني-فلسطيني جنوبي، تكشف الاختلافات الكبرى بين تقاليد الجنوب وتقاليد الشمال، **التي نعرفها بشكل أحسن**.

٨- دراسة جان- باتيست أمبير حول فخار خربة السمرا والمفرق:

Jean-Baptiste Humbert, Arguments chronologiques pour expliquer le déclin de Khirbet es-Samra et de Mafraq : des jarres, du vin et des images. Pp. 149-161.

قدَّم المترجم تعريباً متهافتاً وناقصاً ومليئاً بالأخطاء لملخص هذه الدراسة المهمة، التي حاول جان- باتيست أمبير من خلالها تقديمَ مستمسكات كرونولوجية، لتفسير اضمحلال الاستيطان في موقع خربة السمرا خلال بداية القرن التاسع بعد الميلاد، مركزا على طرازين فخاريين شاعا في المنطقة خلال الفترة الأموية، أحدهما مزين بزخارف مدهونة، والآخر لم يُستخدم في صنعه الدولابُ الخزاف.

ونظراً لأن الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة ناقصة وزاخرة بالأخطاء، فأننا سنقدم أدناه إعادةَ كتابة كاملةً لها:

Khirbet es-Samra, à la limite de la steppe du Nord-Est jordanien, est une fondation romaine qui s'est épanouie sous les Byzantins et dont l'apogée se situe à l'époque omeyyade avant qu'une lente et régulière dégradation aboutisse à sa désaffectation au IXe s. Deux catégories de céramique sont directement impliquées dans la datation et l'histoire du site: la céramique peinte et la céramique non tournée, utilisées en fragments pour armer les enduits des murs d'églises dans leur dernière phase. La datation de ces céramiques est celle de l'ultime restauration des édifices chrétiens de Samra.

Après en avoir brossé les pâtes, décors et répertoires, l'auteur passe en revue tous les éléments de leur datation : évolution de la chronologie à travers les publications, chronologie des églises de Samra où les murs armés sont postérieurs à deux mosaïques datées de 620 et 638/639, discussion de la fin du palais omeyyade proche de el-Fedein en 833 (?) où le même assemblage de tessons peints et non tournés est présent. Enfin une réflexion sur la fonction de la vaisselle peinte liée au service du vin propose de comprendre sa disparition au IXe siècle en conséquence de l'interdit du vin par les Abbassides comme mesure anti-chrétienne.

نورد فيما يلي الترجمة العربية لهذا الملخص، كما وردت حرفيا في الكتاب:

إن خربة السمراء من تأسيس روماني الذي إزدهر في العهد البيزنطي. ويبدو أن أحداث السيطرة الأموية لم

تحدث انقطاعاً؛ إذ يمكن القول أن أوج المسيحية في سمراء هو أموي. ويستند التقويم الزمني على بعض عناصر مؤرخة بدقة تقريبا.

لقد اقترح أن يُفهم تاريخ سمراء مقارنا مع نظيره لبصرى وسيدرَّج بناء الكنائس بين النصف الثاني من القرن الرابع ومنتصف القرن السابع. ويعبر رصف الفسيفساء عن مرحلة ثانية من البناء. أخيرا، فقد رممت طينة الجدران بمونة من الفخار المهشم (فخار ملون وخزف أسود غير مدار). يوجد مثل هذه المجموعة، في قصر الأمويين في الفدين التي ذكر الإخباريون العرب تهديمها في٨٣٣ م. هل يجب تأريخ نهاية المسيحية في سمراء في الدور العباسي؟

إن القارئ، حتى غير العارف بالنص الفرنسي يمكنه أن يلاحظ مدى تفاهة هذه الترجمة، التي تستهين بذكاء هذا القارئ. وتقتضي الأمانة فضحَ تشويهها لما هو وارد في النص الفرنسي، بإعادة ترجمتها كليا:

خربة السمرا، الواقعة على حدود البادية الشمالية-الشرقية الأردنية، مستوطَنَة رومانية ازدهرت خلال الفترة البيزنطية، وبلغت أوجَها في عهد الأمويين، قبل أن يؤدي اضمحلالٌ بطيء ومنتظم إلى هجرانها خلال القرن التاسع. ثمة طرازان فخاريان لهما صلة مباشرة بتاريخ الموقع، وتتابع الاستيطان فيه: الفخار المدهون والفخار غير المُدار (= غير المصنَّع بالدولاب الخزاف). وقد استُخدمت كسرٌ من الطرازين لتقوية قصارة جدران الكنائس في مراحلها الأخيرة. وبناء عليه فإن تاريخ هذه الفخاريات يرجع إلى آخر ترميم أدخلَ على الأبنية المسيحية في السَّمرا.

بعد استعراضه لعجينة وزخارف وسجلات هذه الفخاريات، يُراجع الباحث كل العناصر المتعلقة بتأريخها: تغير الكرونولوجيا عبر المنشورات، كرونولوجيا الكنائس في السمرا حيث الجدران التي تمت تقويتُها (بكسَر الفخار) لاحقة زمنيا لأرضيتين فسيفسائيتين ترجعان إلى ٦٢٠ و ٦٣٩/٦٣٨، مناقشة مسألة نهاية استيطان القصر الأموي القريب من الفدين سنة ٨٣٣ (؟) حيث عُثر على الفخاريات نفسها بطرازيها المدهون و غير المُدار. وأخيراً هناك ملاحظة حول وظيفة الأواني المدهونة، التي كانت تُقدَّم فيها الخمور، وهي ملاحظة تقترح إرجاعَ اندثار هذا النوع الفخاري في القرن التاسع إلى منع الخمور من قبل العباسيين، كإجراء مناوئ للنصرانية.

٩- دراسة مخبرية عن فخاريات بيزنطية مزججة من دَيْر عين عباطا، جنوب-شرقي البحر الميت:

I. C. Freestone, K. D. Politis, C. P. Stapleton, The Byzantine Glazed Pottery from Deir 'Ain 'Abata, Jordan. Pp. 197-205.

في الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة، نسجل من الأخطاء ما يلي:

Ces glaçures, quoiqu'à un stade clairement expérimental, sont sans aucun doute intentionnelles.

نصٌّ عرَّبه المترجم هكذا:

ومن الواضح أنه في مرحلة تجريبية، فإن **الخزاف** كانت **مستوردة** بدون شك.

لاحظْ أن حديثه عن "الاستيراد" مختلق تماما ولا وجود له في النص الأصلي. والترجمة الصائبة تقتضي قولَ ما يلي:

ومع أن عمليات **التزجيج** هذه تعود بوضوح إلى طور تجريبي، إلا أنها **مقصودة** دون شكّ.

١٠- دراسة دونالد ويتكمب عن الإنتاج الفخاري في العقبة خلال الفترة الإسلامية المبكرة:

Donald Whitcomb, Ceramic Production at Aqaba in the Early Islamic Period. Pp. 297-3003.

استعرض دونالد ويتكمب في هذه الدراسة الصناعة الفخارية في مدينة العقبة، خلال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، معتمدا على المستمسكات، التي قدمها عددٌ من الأفران الفخارية، التي كشفت عنها البعثة الأمريكية العاملة في الموقع.

وفي الترجمة العربية لملخص هذه الدراسة، نسجل خطأين، أحدهما طفيف، والآخر من الفداحة بحيث يثير

كلَّ تعجُّب !

1) Dans l'actuel secteur résidentiel du nord-ouest de la ville de 'Aqaba, une zone de fours de potier a été découverte et fouillée lors de la campagne de fouilles menées en 1993 par la mission américaine de l'université de Chicago, en collaboration avec le département des Antiquités de Jordanie.

وهي فقرة عرّبها المترجم على النحو التالي:

كانت البعثة الأثرية الأمريكية لمعهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو، وبالتعاون مع **قسم الآثار الأردني** قد كشفت عن دائرة أفران فخارية في المنطقة السكنية الحالية في الجزء الشمالي الغربي من مدينة العقبة، خلال موسم الحفائر لعام ١٩٩٣ .

والصواب:

كشفت بعثة **جامعة شيكاغو** بالتعاون مع **دائرة الآثار العامة الأردنية**، خلال تنقيبات موسم ١٩٩٣ عن أفران فخار في المنطقة السكنية الحالية، الواقعة شمالي غرب مدينة العقبة.

2) Dans ces fours ont été cuites des amphores, vraisemblablement destinées à la conservation et au transport des préparations de poissons.

وقد عرّب المترجم هذا النص هكذا:

وكان قد شوي في هذه الأفران قوارير أو جرار معدة على ما يبدو لحفظ ونقل مستحضرات **المشروبات**.

يبدو أن المترجمَ لا يفرق في الفرنسية بين (poisson) بمعنى "سمكة" وبين (boisson) بمعنى "مشروب"، إذ ترجم العبارة الفرنسية (préparations de poissons) بـ"مستحضرات المشروبات" !!!

والترجمة السليمة تقتضي قولَ ما يلي:

حُرق في هذه الأفران **أمفورات**، كانت مخصَّصةً، على الأرجح، لحفظ مستحضرات **الأسماك** ونقلها.

وفي ختام هذا الاستعراض الجزئي للأخطاء العديدة الفادحة، التي ارتكبها مترجم مقدمة الدراسات وملخصاتها، التي ضمها الكتابُ المذكورُ أعلاه، لا يسعنا إلا أن نعرب عن امتعاضنا الشديد من الاستهانة، التي تكشف عنها أعمالٌ من هذا القبيل، بعقل القارئ العربي، القارئ المختص قبل القارئ العام. وكان أحرى بهؤلاء أن يتذكروا أن الترجمةَ بحثٌ قبل أن تكون نقلاً، استقصاءٌ وتحرٍّ قبل أن تكون تعريباً أعمى ... ولكن، قاتَل اللهُ الكسل!

أ. مولاي محمد جانيف - فرنسا:

Moulay M'hamed Janif - 1, rue Maurice Arnoux C207 - 92120 Montrouge France. **archaeologia77@yahoo.com**

عرض الكتب

اسم الكتاب : الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية : دراسة مقارنة.

المؤلف: د. فرج الله أحمد يوسف.

الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض، المملكة العربية السعودية.

سنة النشر: ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

رقم الإيداع: ٠٨٠٣ / ٢١

التصنيف الدولي: ردمك: ٦- ٦٠ - ٧٢٦- ٩٩٦٠

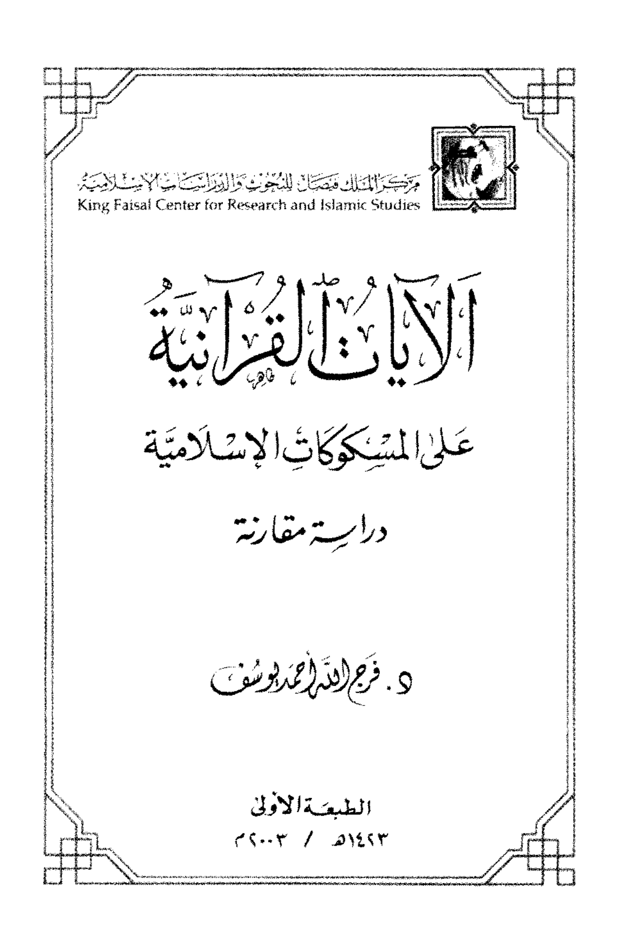
مقاس الكتاب: ١٧× ٢٤ سم

عدد الصفحات: ٤٤٠ صفحة (وتشمل ٨٠ لوحة)

عرض : د. عاطف منصور محمد رمضان.

يشتمل الكتاب على تقديم، ومقدمة، ثم تصنيف للآيات القرآنية (التى تناولها الكتاب)، ويبلغ عددها اثنتين وسبعين آية، رتبت في الكتاب حسب تاريخ ظهورها على المسكوكات الإسلامية. ويلي ذلك المسكوكات، التي تنشر لأول مرة، ثم جداول الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية. وتليها المصادر والمراجع، ثم كشاف الأعلام والبلاد، وأخيراً اللوحات الخاصة بالكتاب، وعددها ثمانون لوحة، تشتمل على صور لقطع النقود التي دُرست، وبعض الأشكال التوضيحية لها.

وقد عرض المؤلف في التقديم المنهج، الذي اعتمد عليه في دراسة الآيات القرآنية، منذ ظهورها على المسكوكات الإسلامية في عهد عبدالملك بن مروان سنة ٧٧هـ، متتبعاً كل آية على حدة وفق تاريخ ظهورها على المسكوكات، مع دراسة أسباب تسجيلها على النقود، وربط ذلك بالظروف السياسية والمذهبية و الاقتصادية لكل عصر. وقد أشار الباحث إلى دراسته لنحو اثنتين وسبعين آية وردت على المسكوكات الإسلامية، إضافة



لنشره حوالى ست وسبعين قطعة نقدية، ما بين دينار ودرهم وفلس، لم يسبق نشرها من قبل.

وتناول الباحث في المقدمة المسكوكات، التي سكّتها الممالك العربية قبل الإسلام، مثل: مملكة سبأ، ومملكة الأنباط، وقد وصف الباحث نماذجاً لبعض هذه النقود. كما أشار إلى النقود البيزنطية والساسانية، التي تعامل بها العرب قبل الإسلام، التي أقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) التعامل بها في صدر الإسلام، وذلك قبل أن يأمر الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب- رضى الله عنه -بسك الدراهم الساسانية، ويضيف إليها بعض الكتابات العربية، مثل: "الله - بسم الله ربي- الحمد لله - لا إله إلا الله- محمد رسول الله". كما أشار الباحث إلى سك الخليفة عمر بن الخطاب الفلوس على الطراز البيزنطي، وتسجيل بعض الكتابات العربية عليها، مثل: طيب، واف، جائز. كما نُقشت على هذه الفلوس أسماء مدن سكها باللغتين العربية



واليونانية معاً، مثل: دمشق وحمص، وطبرية وبعلبك وإيليا وقنسرين، وقد سجل عليها التاريخ الهجرى باللغة اليونانية، كذلك سك أمير المؤمنين عثمان بن عفان الدراهم الساسانية ونقش عليها عبارة: "الله أكبر".

كما تناول أيضا التطورات، التي ظهرت على المسكوكات في عصر الدولة الأموية، منذ عهد الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان حتى تعريب عبدالملك للنقود في سنة ٧٧هـ، موضحاً أن معاوية بن أبى سفيان نقش اسمه باللغة الفهلوية، على الدراهم المضروبة على الطراز الساسانى منذ سنة ٤١هـ. كما عرض المؤلف لنماذج من النقود، التي سكها عبدالملك بن مروان أثناء مرحلة التعريب، سواء كانت دنانير أو دراهم أو فلوس، وقد تميزت جميعها بأنها اشتملت على صورة تمثل عبدالملك بن مروان - الرمز السياسى للخلافة الإسلامية- إضافة إلى بعض الألقاب، مثل: "أمير المؤمنين - خلفت الله" .

وقد عرض الباحث إلى الآراء المختلفة، التي ساقها المؤرخون - القدماء منهم والمحدثون - بشأن الأسباب، التي دفعت عبدالملك بن مروان لتعريب النقود. وأوضح الباحث خمسة آراء لعملية التعريب، الأول: الخلاف بين عبدالملك والإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، بسبب حذف عبدالملك بن مروان لعبارات التثليث المسيحية، من أوراق البردى المصرية، التي كانت تُصدر إلى الدولة البيزنطية، ونقش بدلاً منها الآيات القرآنية، ما دفع الإمبراطور جستنيان إلى تهديد عبدالملك بسك دنانير عليها سب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إن لم يوقف عبدالملك ذلك. بينما أشار آخرون إلى أن الخلاف بين عبدالملك وجستنيان، يرجع إلى رسالة بعث بها عبدالملك إلى جستنيان وبصدرها "سورة الإخلاص"، في حين ذكر رأي ثالث أن تعريب عبدالملك للنقود، كان بسبب نصيحة خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان، بأن أطول الخلفاء عُمْراً من قدّس الله درهمه. في حين زعم رأي رابع أن سبب تعريب النقود يرجع إلى المعاهدة، التي عقدت في سنة ٧٠هـ/٦٩٠م بين عبدالملك وجستنيان، وتعهد فيها عبدالملك بدفع جزية للإمبراطور البيزنطي قدرها: "ثلاثمائة وخمسة وستين ألف دينار"، وأن هذه الدنانير كانت تحمل الشارات المسيحية، لذلك عرّبها عبدالملك . أما الرأي الخامس والأخير الذي يعده المؤلف الدافع الرئيسى لتعريب النقود، فهو تحقيق الاستقلال الاقتصادى للخلافة الإسلامية، وعدم الحاجة للتعامل بنقد أجنبي، حتى لا تكون الخلافة الإسلامية ناقصة السيادة. وقد تناول الباحث الخطوات المختلفة، التي قام بها عبدالملك من أجل تعريب النقود، حتى أصدر الطراز العربي الإسلامي الخالص للدنانير في سنة ٧٧هـ، والدراهم في سنة ٧٨هـ.

وقد تميز الطراز العربي الإسلامي الجديد، بنقش شهادة التوحيد كاملة بمركز الوجه، والاقتباس القرآني من سورة الإخلاص بمركز الظهر، والاقتباس القرآني من سورة التوبة بهامش وجه الدنانير، كما دوّن أيضاً بهامش ظهر الدراهم. ورأى المؤلف أن هذه الآيات القرآنية، تعد تعبيراً عن الشخصية المستقلة للدولة العربية الإسلامية.

وأخيراً، فقد تناول الباحث في هذه المقدمة عرضاً لأهم النتائج، التي توصل إليها من خلال دراسته للآيات القرآنية على السكة الإسلامية. فقد وظفت هذه الآيات للتعبير عن التوجهات السياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية للعديد من الدول الإسلامية، وعرض المؤلف بعض نماذج منها:

أولاً: استخدام الآيات القرآنية للتعبير عن التوجهات السياسية:

مثل الاقتباس القرآني: (**العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**)، الذي سجله عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث على نقوده، أثناء ثورته ضد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان. كذلك، وظّف العباسيون الاقتباس القرآني: (**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى**)، للدعاية لدعوة الرضا من آل محمد أثناء ثورتهم ضد الخلافة الأموية ، وقد سُجِّل هذا الشعار على النقود، التي سكها أبو مسلم الخراساني. ثم تناول الباحث بعد ذلك العديد من الآيات، التي كان القصد منها الترويج للأفكار والآراء السياسية المختلفة.

ثانياً: استخدام الآيات القرآنية للتعبير عن التوجهات المذهبية:

أشار المؤلف إلى بعض النماذج، التي تؤكد الدور الإعلامي المهم للنقود في التعبير عن التوجهات المذهبية لبعض الحكام،

مثل قيام المعز بن باديس، حاكم بني زيري في إفريقية، بنقش الاقتباس القرآني: (**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**)، على نقوده بسبب خروجه على الفاطميين، حين أبطل العمل بالمذهب الشيعي، وأعلن المذهب السني مذهباً رسمياً للدولة؛ ثم نقش المعز بعض الآيات الأخرى، التي تشير إلى المعنى نفسه. وهذا الأمر حدث أيضاً حين اعتلى السلطان المغولي "أولجايتو خدابنده محمد" الحكم، واعتنق الإسلام على المذهب السني، وسجل على نقوده بعض الآيات القرآنية، التي تشير إلى فضل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مثل: (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ**) ... الآية". إضافة إلى أمثلة عديدة نجح المؤلف في عرضها، وربطها بالأحداث، التي شهدتها الدول المختلفة، من الناحية المذهبية.

ثالثاً: استخدام الآيات القرآنية للتعبير عن الأوضاع الاقتصادية:

عرض المؤلف نماذج لبعض الآيات القرآنية، التي سُجّلت على النقود الإسلامية نتيجة للظروف الاقتصادية المختلفة لبعض الدول، ومنها الاقتباس القرآني (**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**)، (**فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**)، الذي سجل على النقود، التي سكها السلطان محمد بن عبدالله، حاكم أشراف فيلالي بالمغرب، تعبيراً عن الظروف الاقتصادية السيئة، التي عاشتها بلاد المغرب بسبب الحروب وما أسفر عنها من خراب البلاد؛ لذلك، سجل هذا الاقتباس القرآني ليحذر الأغنياء من اكتناز الأموال، ويحثهم على مساعدة الفقراء، وإيتاء الزكاة، ليتمكن وليّ الأمر من إنفاقها في مصارفها الشرعية.

يلي ذلك دراسة للآيات القرآنية، التي وردت على المسكوكات الإسلامية، مرتبة وفق تاريخ ظهورها. وقد بدأ الباحث بالاقتباس القرآني من سورة الإخلاص، الذي ظهر لأول مرة على النقود الإسلامية بعد تعريب عبد الملك لها في سنة ٧٧هـ. وقد عرض المؤلف الآيات القرآنية منذ القرن الأول الهجري وحتى القرن الثالث عشر الهجري، مختتماً دراسته بالاقتباس القرآني: (**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**)، الذي ظهر على النقود، التي سكها الأمير عبدالقادر الجزائري في سنة ١٢٥٦هـ. وقد اعتمد المؤلف في دراسته لهذه الآيات على منهج يُفَسِّر الآية، ثم يتناول النقود التي ظهرت عليها الآية لأول مرة، ثم يتتبع ظهور هذه الآية على نقود الدول المختلفة، في شرقي العالم الإسلامي وغربيّه، حسب تاريخ ظهورها، مبيناً الأسباب المختلفة وراء نقشها على نقود تلك الدول، سواء كانت أسباباً سياسية أو اقتصادية أو مذهبية أو غيرها. وقد وفّق الباحث، إلى حد كبير، في الربط بين هذه الآيات وأسباب تسجيلها على نقود الدول المختلفة، في ضوء الأحداث المعاصرة لها.

وقد تناول المؤلف، بعد ذلك، المسكوكات التي تنشر لأول مرة، وعددها نحو ست وسبعين قطعة، ما بين دينار ودرهم وفلس. وقد سجل المعلومات الخاصة بكل قطعة، من حيث: قراءة نصوص الكتابات، وبيان مكان الحفظ، والوزن والقطر. ويلي ذلك جداول بالآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية، يشتمل على: الآيات القرآنية على المسكوكات الأموية، ومسكوكات الخارجين على الخلافة الأموية، والمسكوكات العباسية، ومسكوكات الدول التابعة للخلافة العباسية، ومسكوكات الخارجين على الخلافة العباسية في شرقي العالم الإسلامي، ومسكوكات الخارجين على الخلافة العباسية في غربي العالم الإسلامي، ومسكوكات الدول التي قامت بعد سقوط الخلافة العباسية.

ويمكن القول إن هذا الكتاب يمثل إضافة جديدة ومهمة للدارسين في مجال المسكوكات الإسلامية؛ فهو أول دراسة متخصصة من نوعها في هذا الميدان، تتناول الآيات القرآنية، التي سُجِّلت على النقود الإسلامية، وتعرض للدور الدعائي والإعلامي، الذي لعبته النقود في العصر الإسلامي للتعبير عن مظاهر الحياة المختلفة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو مذهبية أو غيرها.

ولا يخلو هذا العمل الجديد من بعض الملاحظات، التي لا يقلل سردها من جهد الباحث، ولا تنقص من قيمة عمله، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً عنوان الكتاب:

اختار المؤلف لهذه الدراسة عنوان: "الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية، دراسة مقارنة". ولو أن المؤلف اقتصر على الشطر الأول من العنوان وهو: "الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية" لكان ذلك تعبيراً دقيقاً عن محتوى هذا

الكتاب ومضمونه، والأهداف التي تسعى إليها هذه الدراسة. ولكن إضافة عبارة: "دراسة مقارنة" إلى العنوان، ألقت عليه غموضاً لا مبرر له؛ فما المقصود بهذه العبارة؟ هل قصد المؤلف دراسة مقارنة للآيات القرآنية، أم دراسة مقارنة لمدلولها، أم دراسة مقارنة لأسباب تسجيلها، أم دراسة مقارنة بين نقود الدول المختلفة شرقا وغرباً، التي نُقشت عليها هذه الآيات..؟. ومما زاد الأمر غموضاً أن المؤلف لم يوضح في مقدمة الكتاب- أو أى جزء منه- تفسيراً لهذا العنوان، وماذا يقصد بعبارة "دراسة مقارنة "، علماً بأن الكتاب لم يتضمن أية دراسات مقارنة. وكان ينبغى على المؤلف أن يذكر في مقدمة الكتاب تعريفاً توضيحياً لهذا العنوان.

ثانيا: منهج البحث:

اتبع المؤلف منهجاً يقوم على دراسة الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية، منذ تعريبها سنة ٧٧ هـ في عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان، متتبعاً كل آية على حدة، منذ ظهورها على المسكوكات الإسلامية، مع دراسة وتحليل أسباب تسجيلها على المسكوكات، وربط ذلك بالظروف السياسية والمذهبية والاقتصادية لكل عصر (الكتاب: ص١٣).

وفى حقيقة الأمر، لم يلتزم المؤلف -أحياناً- بهذا المنهج في دراسته، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

١-لم يلتزم المؤلف بالترتيب التاريخى لبعض الآيات التي درسها مثل:

أ- تناول المؤلف الآيات التي وردت على دينار الحسن بن زيد العلوي، المضروب في نيسابور سنة ٢٦٢هـ (الآية ٣٩ من سورة الحج، الآية ٣٣ من سورة الأحزاب: ص٩٧- ١٠٠) قبل دراسته للآيات القرآنية، التي وردت على دينار صاحب الزنج، المضروب في المدينة المختارة سنة ٢٦١هـ. (الآية ١١١ من سورة التوبة، الآية ٤٤ من سورة المائدة: ص ص١٠٣- ١٠٥).

ب-تناول المؤلف الآيات القرآنية على نقود السلطان محمد بن تغلق، من سلاطنة دلهي، في غير ترتيبها التاريخى السليم، إذ عرض للآية ٣٨ من سورة محمد، التي سُجل جزء منها على النقود بدءاً من سنة ٧٣٢هـ. (انظر ص٢٠٢ من الكتاب)، قبل تناوله للآية ٥٩ من سورة النساء، التي ورد جزء منها على نقود هذا السلطان في سنة ٧٣٠هـ (انظر ص٢١١ من الكتاب).

ج- رتب المؤلف الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران، التي جاءت على دنانير حاكم بني نصر السلطان محمد الخامس، الذي حكم فترتين بين عامي ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، و٧٩٣هـ/١٣٩١م، (ص٢٠٣ من الكتاب)، قبل الآية ٥٩ من سورة النساء، التي ورد جزء منها على نقود السلطان محمد بن تغلق (٧٢٥-٧٥٢هـ)، المضروبة في سنة ٧٣٠هـ. (ص ٢١١ من الكتاب)، والخطأ ذاته تكرر في دراسة الآيات القرآنية من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٠ من الكتاب، قبل الآية ٥٩ من سورة النساء (ص ٢١١) التى ظهرت على النقود قبل هذه الآيات.

٢- لم يحصر المؤلف الآيات القرآنية، التي سجلت على النقود الإسلامية حصراً دقيقاً، ما حدا به إلى دراسة بعض الآيات في غير تاريخ ظهورها الصحيح، أو عدم تناولها أصلاً في دراسته، مثل:

أ- ذكر المؤلف أن الآية ١١١ من سورة التوبة، والآية ٤٤ من سورة المائدة، سجلت على دينار صاحب الزنج المضروب في المدينة المختارة سنة ٢٦١هـ (ص ص١٠٣- ١٠٥ من الكتاب)؛ ولكن هذه الآيات ظهرت لأول مرة على دراهم صاحب الزنج، المضروبة في معسكر الإمام سنة ٢٥٨ هـ Miles 1960: 585).)

ب- ذكر المؤلف أن الاقتباس القرآني: (واللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، قد ظهر على تنكة فضة غير مؤرخة للإمبراطور المغولى همايون، ما حدا بالمؤلف إلى تفسير أسباب تسجيل هذا الاقتباس بصورة غير صحيحة (انظر ص٢١٦ من الكتاب، وانظر الملاحظات العامة في هذا البحث ثالثاً: رقم١٢)، على الرغم من أن هذا الاقتباس ظهر على نقود فضية أخرى للسلطان نفسه، ضرب كابل مؤرخة بأعوام ٩٤٤هـ، ٩٤٥هـ، ٩٤٦هـ (Brown1922:pp.3-4,Nos.11-11d)، وأخرى غير مؤرخة (whitehead 1910:p.161).

جـ- لم يتناول المؤلف في دراسته بعض الآيات، على الرغم من ظهورها على النقود الإسلامية، مثل: الاقتباس القرآني: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (جزء من الآية ٤٠سورة الحج)، الذي ظهر على دينار تذكارى ضرب الدينور سنة ٢٧٧هـ باسم الموفق طلحة أخ الخليفة العباسي المعتمد على الله (Spink 22/1987: 344).

- الآية الكريمة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (الآية ٥٥ من سورة المائدة) التي ظهرت على دينار جعفر بن القاسم، حاكم العلويين في طبرستان، والمضروب في أمل سنة ٣١١هـ (طباطبائي ١٣٧٢ش:٣٦٥).

- الاقتباس القرآني: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) (جزء من الآية ٧٨ سورة الحج)، الذي نقش على درهم غوري باسم السلطان سيف الدين أبى الفتح محمد، لا يحمل مكان السك ولكنه مؤرخ بسنة ٥٥٧هـ (Zambaur 1906: 396).

د- هناك بعض الآيات تناولها المؤلف على نقود بعض الحكام والدول، ولم يتناولها على نقود حكام ودول أخرى، مثل:

- الآية ١٢٣ من سورة التوبة: تناولها المؤلف على نقود أحمد بن عبدالله الخجستاني، ولم يتناولها على نقود رافع بن هرثمة (Vasmer 1930: 17).

- ذكر المؤلف أن الاقتباس القرآني من سورة الإخلاص ظهر على نقود الخلافة العباسية حتى سنة ١٣٢ هـ، على الرغم من أنه سجل بعد ذلك على فلوس الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور، المضروبة في نيسابور سنة ١٥٦هـ. (شما١٩٩٨: ص ٣١٩ رقم ٢؛ Lavoix 1887: 1637).

- أشار المولف إلى أن الاقتباس القرآني من سورة الشورى (الآية ٢٣)، سُجل على النقود العباسية حتى سنة ١٣٦هـ، على الرغم من أن هذا الاقتباس ظهر على ثلاثة دراهم تذكارية للخليفة هارون الرشيد، لا تحمل مكان أو تاريخ سكها، الأول في تركيا (Artuk, 1966: 499)، والثاني في إيران (طباطبائي ١٣٧٢ش: ص ١٩١)، والثالث محفوظ بإحدى المجموعات الخاصة (يُعد كاتب المقال الآن بحثاً خاصاً بهذا الدرهم).

- تناول المؤلف الآية ١٦٣ من سورة البقرة، على نقود العديد من الدول في بلاد المغرب منذ عهد الموحدين، ولم يقم بدراستها على نقود دولة السلاجقة في آسيا الصغرى، على الرغم من أنها سجلت على دينار تذكاري باسم السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني، ضرب قونية سنة ٦٣٥هـ (Artuk 1971: 1109)؛ وكذلك، الاقتباس القرآني من سورة هود (الآية ٨٨)، الذي نقش على هذا الدينار التذكارى أيضاً، لم يتناوله المؤلف بالدراسة، على الرغم من دراسته إياه على نقود بعض الدول في المغرب.

٣- لم يلتزم المؤلف بمنهجه في الدراسة، حين ترك العديد من الآيات دون تفسير، أو دراسة لها، أو لأسباب تسجيلها على نقود بعض الحكام والدول، فضلاً عن سرده - في بعض الأحيان - بعض الأحداث التاريخية، التي لا ترتبط بأسباب تسجيل الآيات. ومن أمثلة ذلك:

أ- الاقتباس القرآني من سورة الصف (الآية ١٣)، على نقود الأمير الساماني منصور بن نوح، ونقود بني غانية في الأندلس، واتابكة السلغار، وبني زيان.

ب- الاقتباس القرآني من سورة التوبة (الآيتان: ٣٤، ٣٥)، على نقود الأمير السامانى نوح بن منصور.

جـ- الآية ٨٥ من سورة آل عمران، لم يفسرها المؤلف على نقود العديد من الدول (ص ١٣٩، وما بعدها من الكتاب).

د- الاقتباس القرآني من سورة يوسف (الآية ٦٤)، على نقود بني مرين.

هـ- الاقتباس القرآني من سورة الطلاق (الآية ٣)، على نقود كل الدول التي تناولها (ص١٨٠ وما بعدها من الكتاب).

و- انظر أمثلة أخرى في الصفحات (١٩٧- ١٩٨، ص ٢٠٨، الآية ١٠٥ من سورة الإسراء، ص ٢١٥- ٢١٦، وغيرها).

٤- من الملاحظ أن المؤلف كان يتناول بالدراسة الآيات القرآنية على النقود فقط، دون الاستفادة من الكتابات الأخرى المسجلة على النقود ذاتها؛ ولو أن المؤلف حاول الاستفادة من هذه

الكتابات لساعده ذلك كثيراً في تفسير الآيات بصورة صحيحة، وبصفة خاصة النقود غير المؤرخة في المغرب والأندلس. ومن أمثلة ذلك:

أ- الآية الكريمة من سورة آل عمران: رقم ٢٠٠، التى نقشت على دنانير حاكم بني نصر محمد الخامس، والمضروبة في كل من غرناطة، وسبتة، وفسّرها المؤلف في ضوء الصراع العسكرى بين السلطان محمد ونصارى الأندلس، في الفترة من سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م إلى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م (الكتاب ص٢٠٤)، هذه الفترة، التي تناولها المؤلف، لا تتفق مع هذه الدنانير، بما سُجِّل عليها من كتابات. فمن الملاحظ أن هذه الدنانير يحمل بعضها مكان سكه سبتة، وهى مدينة مغربية كانت تحت سيطرة دولة بني مرين، وكان السلطان النصري محمد الخامس قد استولى عليها في سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، واستمرت تحت سيطرته حتى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، حين أعادها لحكم بني مرين مرة أخرى (ابن خلدون ١٩٧٩: ٧/ ٣٥٠، ٣٥٤)، ومن ثم، فإن هذه الدنانير قد ضربت في سبتة في الفترة من سنة ٧٨٦هـ، حتى سنة ٧٨٩هـ لذلك كان ينبغى تفسير الآية الكريمة في ضوء الأحداث التاريخية المعاصرة لسك هذه النقود، وليس التفسير الذي ساقه الباحث قبل هذا التاريخ بنحو خمسة وعشرين عاماً.

٥- تناول المؤلف الآيات القرآنية، التي ظهرت على نقود كل من الدول ذات المذهب السني، والدول ذات المذهب الشيعى وفق منهج واحد في التفسير. وهذا المنهج غير صحيح، لأن مدلول الآية وأسباب تسجيلها يختلف عند أهل السنة عنه لدى الشيعة، فمثلاً: فسر المؤلف الاقتباس القرآني: (**مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله أرسله بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون**) على نقود كل من أهل السنة والشيعة (أنظر الكتاب ص ص ٤٥-٦٤) بأن الله سبحانه وتعالى يأبى إلا أن يتم دينه، ولو كره المشركون الجاحدون، فأرسل رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) بالدين الحق، دين الإسلام ليظهره على الأديان كافة". وهذا التفسير إن كان مناسباً لتسجيل هذا الاقتباس على نقود أهل السنة، فإنه لا يتوافق مع أفكار الشيعة ومبادئهم؛ لأن مدلول كلمة المشركين عند الشيعة هو كل من حاول الإشراك في ولاية الإمام علي، كما قصد بها أيضاً كل المخالفين لهم. (حسين ٢٠٠٢م: ٦٤١).

٦- من الغريب حقاً أن يخلو منهج الدراسة من عرض لمشكلة نقش الآيات القرآنية، على المسكوكات الإسلامية، والجدل الذي دار حولها في عصور مختلفة ، على الرغم من ارتباطها الوثيق بموضوع الكتاب، وكنا نتمنى لو ناقش المؤلف هذه المشكلة، وخلص من خلال دراسته إلى نتيجة نطمئن إليها. والحق أن الباحث تحدث عن هذه المشكلة بصورة عارضة وغير مناسبة، في فقرة من ص ٣٨-٣٩ وذلك نقلاً عن المقريزى.

وكان ينبغي تناول هذه المشكلة منذ ظهورها في عهد عبدالملك بن مروان - أول من سجَّل الآيات القرآنية على المسكوكات- حين أطْلق على الدراهم، التي سكها الحجاج بن يوسف الثقفى ونقش عليها سورة الإخلاص، لفظة: "المكروهة"، لكراهية الفقهاء نقش الآيات القرآنية عليها (البلاذري ١٩٦٨: ص ٨١ . المناوي ١٩٨١ : ص٦٤، ٦٧، ٨٠)؛ ثم تجددت المشكلة مرة أخرى في عهد عمر بن عبدالعزيز، حين رفض محو هذه الآيات بوصفها خير تعبير عن عقيدة الدولة (المقريزي ١٩٨٨: ١٢٨؛ المناوي ١٩٨١: ص٨١-٨٢). كما ظهر الجدل حول نقش الآيات القرآنية على السكة مرة أخرى في العصر العثمانى، حين رفض العثمانيون تسجيلها على نقودهم، واتخذوا من نقشها على نقود دولة المماليك الجراكسة ذريعة لمحاربتها، في مصر والشام (فهمي ١٩٨٧: ٩٨- ٩٩).

ولو أن المؤلف تفحص في دراسته قليلاً، لوجد أن غالبية الكتابات القرآنية، التي سجلت على النقود الإسلامية هي مجرد اقتباس من بعض الآيات القرآنية، ولم تسجل الآيات القرآنية كاملة إلا على نماذج قليلة من النقود، ولعل لذلك صلة -بصورة أو بأخرى- بمشكلة نقش الآيات القرآنية على المسكوكات.

ثالثاً: ملاحظات عامة على تفسير الآيات وأسباب تسجيلها

١- ذكر المؤلف في تفسير الاقتباس القرآني "العزة لله"، أنه ظهر على أحد دراهم الخوارج، ولم يذكر اسم صاحب الدرهم، وأحال المعلومة إلى عالم النميات الإيرلندي لين بول (ص ٦٦ من الكتاب)؛ ولكن هذا الدرهم ينسب لأبى يزيد مخلد بن

كيداد، صاحب الحمار (رمضان ٢٠٠٢ب: ٧ - ٢٧) الذي تناول المؤلف دنانيره، التي تحمل الشعار نفسه، في الصفحة ذاتها (ص ٦٦).

٢- أشار المؤلف إلى أن أسباب تسجيل الاقتباس القرآني (**المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّار**) على نقود أبي محلى أبي العباس، الثائر ضد السلطان السعدى الناصر زيدان، ترجع إلى بعض الحروب التي دارت بينهما (ص ١١٩)؛ ولكن هذا الاقتباس، الذي ورد على نقود هذا الثائر بصيغة "الملك لله الواحد القهار"، يرتبط بالطموح الشخصى لهذا الثائر في الوصول إلى الملك. فقد كان يطوف بالكعبة أثناء حجة -قبل ثورته- ويقول: "يارب قلت وقولك الحق (**وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس**)، فاجعل لى يارب دولة بينهم ..." (الوفرانى د.ت: ٢٠٤)، وكان يحث الناس -أثناء دعوته -على تغيير المنكر، وأخذ يوضح لهم أن أبناء المنصور (والد الناصر زيدان) قد تكالبوا في طلب الملك حتى قُتل كثير من الناس، ونهبت أموالهم ... وأخذ يُطمع الناس في الملك والسلطان حتى التفّوا حوله (رمضان ٢٠٠٢ أ: ٣٥٤- ٣٥٥)، ويقول الوفراني: "واستخف قلوب العوام وتبعوه.." (الوفراني د. ت: ٢٠٥).

٣- ذكر المؤلف أن يوسف بن تاشفين، حاكم المرابطين (٤٨٠-٥٠٠هـ)، سجل الآية ٨٥ من سورة آل عمران على نقوده رداً على النقود، التي سكها ألفونسو بن شنجة في طليطلة بعد الاستيلاء عليها سنة ٤٧٨هـ ونقش عليها العبارات المسيحية (انظر ص١٤٥ من الكتاب).

وفى حقيقة الأمر أن هذا التفسير به مغالطات تاريخية، لأن ألفونسوا بن ستجه (وليس شنجة كما ذكر المؤلف)، لم يكن معاصراً ليوسف بن تاشفين، ولم يكن معاصراً لدولة المرابطين، ولكنه كان معاصراً لدولة الموحدين، وقد سك النقود على الطراز العام نفسه للنقود المرابطية، وسجل عليها العبارات المسيحية، وذلك في الفترة من سنة ١٢١٢- ١٢٥٥ بعد الصفر (وهو التاريخ المسجل على النقود) /١١٧٤- ١٢١٧م/ ٥٨٠-٦١٤هـ (Gomez 1992: pp,385- 387).

٤- أشار المؤلف إلى أن تسجيل آية الكرسى على الدينار التذكاري، للخليفة العباسى المستضئ بأمر الله، والمؤرخ بسنة ٥٧٥هـ، كان بسبب شفاء الخليفة من المرض الذي ألم به، واعتمد الباحث في هذا التفسير على رأى الدكتور عيسى سلمان (سلمان ١٩٧٢: ٢-٣).

ولكن هذا التفسير لا يتفق مع ما ذكرته المصادر التاريخية، أو النصوص الكتابية الأخرى، المسجّلة على هذا الدينار. فقد أشارت المصادر التاريخية إلى مرض الخليفة المستضئ في شهر ذى القعدة سنة ٥٧٤هـ/ أبريل ١١٧٩م (ابن الجوزي ١٩٥١: ٣٥٣/٨). وفى سنة ٥٧٥هـ اشتد المرض بالخليفة، وأصيب بالحمى في يوم عيد الفطر من ذلك العام، ثم توفى متأثراً بهذا المرض في شهر ذى القعدة من العام ذاته (ابن الجوزي ١٩٥١: ٣٥٦/٨؛ ابن كثير ١٩٨٧: ٣٢٥/١٢)

ومن ذلك يتضح أن الخليفة كان مريضاً في سنة ٥٧٥هـ، التي سك فيها هذا الدينار التذكارى، ويؤكد ذلك تسجيل بعض الأدعية الأخرى على هذا الدينار، وهي تمثل ابتهالاً من الخليفة المستضئ إلى الله بأن يرفع عنه هذا البلاء (رمضان ١٩٩٨: ٣٤٨- ٤٤١). ومن ثم سك هذا الدينار التذكاري وعليه هذه الأدعية، ليوزع صلة على الفقراء والمساكين، وغيرهم، حتى تلتهج الألسنة بالدعاء لخليفة المسلمين ليرفع الله عنه هذا البلاء.

٥-ذكر المؤلف أن الآية ١٦٣ من سورة البقرة قد سجلت على دنانير حكام الموحدين محمد الناصر (٥٩٥- ٦١٠هـ)، وأبى يعقوب يوسف الثاني (٦١٠- ٦٢٠هـ) (الكتاب، ص١٦٢، ج، د)؛ ولكن هذا غير صحيح، لأن هذه الآية لم تسجل على نقود كلا الحاكمين مطلقاً، وأن آخر مرة سجلت فيها هذه الآية على نقود حكام الموحدين، كانت في عهد أبي يوسف يعقوب (٥٨٠-٥٩٥هـ)، بينما حذفت هذه الآية منذ عهد محمد الناصر، وسُجِّل بدلاً منها بهامش الوجه اسم وألقاب حاكم الموحدين. كما أن المصادر التي أشار إليها المؤلف في تأكيد رأيه، لم تذكر ذلك؛ بل أشارت إلى عدم تسجيل هذه الآية على نقود كلا الحاكمين.

٦-فسر المؤلف سبب تسجيل محمد بن يوسف بن هود، الاقتباس القرآني: (**ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**) على نقوده، بأنه يمثل شكر محمد بن هود لله على ما حباه به من فضل، بعد أن تمكن من الاستيلاء على مرسية سنة ٦٢٥هـ؛ ولكنني اختلف مع المؤلف في هذا التفسير، لأن المقصود من



تسجيل هذا الاقتباس هو إعلان محمد بن يوسف بن هود الخروج على مذهب المهدي بن تومرت، واعتناقه مذهب أهل السنّة والجماعة ، وقيامه بالدعوة للخليفة العباسي في بغداد (رمضان ٢٠٠١: ٧٩٠).

٧-ذكر المؤلف أن سبب تسجيل الآية الرابعة من سورة الفتح، على درهم السلطان الإيلخاني أبي سعيد بهادرخان، المضروب في بغداد سنة ٧١٩هـ، يرجع إلى اعتناق السلطان أبي سعيد للمذهب السني، وإظهار محبته للصحابة (الكتاب، ص٢٠١).

وإن هذه الآية الكريمة لم تظهر فقط على درهم بغداد سنة ٧١٩هـ كما ذكر المؤلف؛ ولكنها نقشت أيضاً على درهم ضرب مرو في العام نفسه (Butak 1947: 143). وهذه الدراهم بما سجل عليها من كتابات قرآنية، وغير قرآنية، تمثل إصداراً تذكارياً بمناسبة نجاح السلطان أبي سعيد في استعادة إقليم خراسان في ذلك العام (٧١٩هـ)، من أيدي الأمير سيول بن سنتاف صاحب خوارزم، الذي كان قد استولى عليه بعد اعتلاء السلطان أبي سعيد الحكم مباشرة (ابن خلدون١٩٧٩: ٥/ ٦٢٠). لذلك سك أبو سعيد هذه النقود التذكارية في مرو، قاعدة إقليم خراسان، وبغداد، عاصمة الدولة، احتفالاً بهذه المناسبة، ونقش هذه الآية الكريمة على النقود ليعلن من خلالها أن النصر، الذي تحقق على أعدائه، كان بفضل تأييد الله له.

٨- ذكر المؤلف في تفسير أسباب تسجيل الاقتباس القرآني: **(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ)**، على نقود السلطان محمد بن تغلق، حاكم سلاطنة دلهي، أنه كان الأجدر بهذا السلطان ألا يسجل هذه الآية على نقوده، لأنه بعيد كل البعد عما تحض عليه هذه الآية... (ص٢١٢ من الكتاب). ويسجل المؤلف في تناوله لهذه الآية اعتراضه على نقش محمد بن تغلق لهذه الآية على نقوده، ولكنه لم يقدم تفسيراً منطقياً لأسباب تسجيل هذا الاقتباس على نقود محمد بن تغلق.

وفي حقيقة الأمر أن تسجيل هذا الاقتباس على نقود السلطان محمد بن تغلق - النقود النحاسية فقط - يرتبط بحادثة اقتصادية مهمة في تاريخ النقود الإسلامية. ذلك أن الظروف الاقتصادية الصعبة، التي عاشتها دولة بني تغلق في تلك الفترة، دفعت السلطان محمد إلى ابتداع نظام نقدي جديد، فضرب عملة نحاسية جديدة، لتحل في التداول محل الدنانير والدراهم، وبالقيمة الاسمية ذاتها، بضمان بيت مال الدولة. ولكن لم تلق هذه العملة الجديدة قبولاً في التداول بين الناس، وكثر الغش والتزييف فيها، ورفض التجار الأجانب والمحليون البيع والشراء بهذه النقود الجديدة، إلا بقيمتها الحقيقية (الساداتي ١٩٥٧: ١/١٥٤-١٥٥)، وقد عرفت هذه النقود الجديدة بالنقود الإجبارية (Brown1920: p. 73; Wright 1936: p. 166; Rajgor: p. 80).

وقد سجّل السلطان محمد هذا الاقتباس القرآني على نقوده النحاسية الجديدة، التي ضربت خلال الفترة من سنة ٧٣٠هـ إلى سنة ٧٣٢هـ، لحث الناس على التعامل بهذه النقود، والالتزام بأوامر السلطان في هذا الشأن. وقد كان السلطان محمد موفقاً، إلى حد كبير، في اختيار هذا الاقتباس من الآية الكريمة، التي ورد في تفسيرها: عن سهل بن عبدالله التستري: "أطيعوا السلطان في سبعة: ضرب الدراهم والدنانير والمكاييل والأوزان والأحكام والحج والجمعة والعيدين والجهاد" (رمضان١٩٩٨: ٥٦٤- ٥٦٥).

٩- كما ذكر المؤلف أن سبب تسجيل الاقتباس القرآني: **(وَاللَّهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ)**، على نقود السلطان محمد بن تغلق كان تعبيراً عن سخائه وكرمه (ص٢٠٢ من الكتاب). وهذا التفسير لا يتوافق أيضاً، مع ما وصلنا من نقود تحمل هذا الاقتباس، أو ما ورد في المصادر التاريخية. فهذا الاقتباس سجل على النقود الذهبية والفضية منذ سنة ٧٣٢هـ، حتى سنة ٧٣٩هـ. (Allan 1922: 204 ; Abdul Wali Khan 1974: 55).

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى فشل النظام النقدي، الذي وضعه محمد بن تغلق لإنقاذ البلاد من حالة الضيق الاقتصادي، فألغاه في سنة ٧٣٢هـ، بعد أن زاد الأمر سوءاً (الساداتي ١٩٥٧: ١/١٥٥). وفي الوقت نفسه، سادت دلهي، عاصمة البلاد، مجاعة شديدة، اضطرت السلطان محمد إلى مصادره أموال الأغنياء والأعيان والتجار، وفرض ضرائب جديدة، ما اضطر الناس إلى هجرة أعمالهم، وأرضهم (الساداتي ١٩٥٧: ١/١٥٢-١٥٧؛ النمر ١٩٩٠: ١٣٠). لذلك، سك السلطان محمد هذه النقود، وسجّل عليها هذا الاقتباس القرآني، مخاطباً الأغنياء يحثهم على الإنفاق في سبيل الله، حتى يساعدوا الدولة في الخروج من أزمتها الاقتصادية،

وليُذَكّرهم أن المال مال الله، فهو الغني، وهم الفقراء. ويبدو أن دعوة السلطان محمد لم تلق قبولاً لدى الأغنياء، ما دفعه إلى مصادرة أموالهم.

١٠- أشار المؤلف إلى أن الصراع بين بني مرين وبني زيان، كان السبب الرئيسي في تسجيل الاقتباس القرآني: (**إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ**) (ص٢١٢- ٢١٤)، على نقود حاكم بني زيان، السلطان أبي زيان محمد (٧٩٦- ٨٠٢هـ).

وفي حقيقة الأمر أن الظروف، التي عاشها هذا السلطان قبل وبعد اعتلائه للحكم، كان لها تأثير كبير في اختياره لهذا الاقتباس. فقد لعب الطمع في الملك دوراً كبيراً في قطع صلة الرحم، بين أفراد أسرة هذا السلطان؛ وذلك حين ثار أخوه، أبو تاشفين عبدالرحمن، ضد والده وإخوته، وتمكّن من قتل أبيه في سنة ٧٩١هـ، واستولى على حكم بني زيان. ولكن أبا زيان محمد هب محارباً أخاه، أبا تاشفين عبدالرحمن، مطالباً بثأر أبيه ، لكنه هزم وهرب إلى بني مرين، ثم عاد ونجح في الانتصار على أخيه أبي تاشفين، واستولى على الحكم في سنة ٧٩٦هـ. وما لبث أن ثار ضد أبي زيان محمد أخوه يوسف بن الزابية على رأس جموع بني عامر، وتمكن أبو زيان محمد من القضاء على فتنة أخيه وقتله (ابن خلدون ١٩٧٩: ١٤٥/٧- ١٤٧).

١١- ذكر المؤلف أن الاقتباس القرآني: (**ومَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**)، قد سجل على نقود حاكم بني زيان محمد الرابع؛ ولكن هذا غير صحيح. فهذا الاقتباس ظهر فقط على نقود السلطان أبى العباس أحمد المعتصم، حاكم بني زيان. ومن الجدير بالذكر، أن المؤلف لم يذكر سبب تسجيل هذا الاقتباس على نقود الحاكم الأخير. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى محاولة السلطان الحفصي، أبي فارس عبد العزيز، الهجوم على تلمسان والانتقام من السلطان أبى العباس أحمد، لاعتلائه الحكم دون موافقة أبي فارس عبدالعزيز، ولكن السلطان الحفصي توفي في الطريق أثناء سيره لغزو تلمسان. (الجيلالي د. ت: ١٩١/٢)، لذلك سجل السلطان أبو العباس أحمد هذا الاقتباس، ليعلن أنه اعتصم بالله والتجأ إليه؛ فكفاه الله شر عدوه.

١٢- أشار المؤلف إلى أن نجاح الإمبراطور المغولي همايون، في العودة إلى عرشه مرة أخرى في سنة ٩٦٢هـ، كان السبب الرئيسي في تسجيله للاقتباس القرآني: (**اللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**)، على تنكة فضية لا تحمل مكان السك أو تاريخه (ص ٢١٦- ٢١٧).

ولكن هذا التفسير غير صحيح، في ضوء ما وصلنا من نقود مؤرخة تحمل هذا الاقتباس، وما ذكرته المصادر التاريخية . فقد سجل هذا الاقتباس على النقود الفضية المضروبة في كابل، في السنوات ٩٤٤هـ، ٩٤٥هـ، ٩٤٦هـ، أي أن هذا الاقتباس ظهر على النقود المضروبة فقط في الفترة الأولى من حكم همايون، وقبل خلعه في سنة ٩٤٧هـ.

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى الأزمة الاقتصادية الشديدة، التي كانت تعيشها دولة أباطرة المغول في أعقاب اعتلاء همايون الحكم، حين ترك له والده، الإمبراطور بابر، خزائن البلاد خاوية، إضافة إلى اشتعال الثورات في أرجاء الهند منذ سنة ٩٤٢هـ (الساداتي ١٩٥٩: ٧٥/٢- ٦٤؛ النمر ١٩٩٠: ١٨٢- ١٨٣)، لذلك سجل همايون هذا الاقتباس على نقوده، ليكون دعاءً إلى الله بطلب الرزق، وأن يرفع الله من قدره في مواجهة أعدائه؛ لكن دعاءه لم يغن عنه من أمر الله شيئاً، فقد هُزم أمام سير شاه سوري، وهرب إلى إيران في سنة ٩٤٧هـ.

د. عاطف منصور محمد رمضان: قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادى. مصر.
Email: atef_mansour2000@yahoo.com



المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

البلاذري أبو الحسن بن يحيى ١٩٦٨م. **أمر النقود**، تحقيق Daniel Eustace مجلة Hesperis Tamuda المجلد التاسع (pp.75- 107).

ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ١٩٥١ . **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج ٨، القسم الأول ، حيدرأباد.

الجيلالي، عبدالرحمن د. ت. **تاريخ الجزائر العام**، جزءان، الجزائر.

حسين، فرج حسين فرج ٢٠٠٢ . النقوش الكتابية الفاطمية على الآثار المعمارية في مصر (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٨- ١١٧١م). مخطوط رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى قسم الآثار الإسلامية، كلية الآداب بسوهاج - جامعة جنوب الوادي، مصر.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد ١٩٧٩ . **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ٧ أجزاء، بيروت.

رمضان، عاطف منصور محمد ١٩٩٨ . الكتابات غير القرآنية على السكة في شرق العالم الإسلامي، مخطوط رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآثار، جامعة القاهرة.

رمضان، عاطف منصور محمد ٢٠٠١، "نقود الثوار والخارجين في نهاية عصر الموحدين بالمغرب والأندلس (٦٢٥-٦٦٨هـ/١٢٢٨-١٢٦٩م)" **كتاب المؤتمر الرابع للآثاريين العرب، الندوة العلمية الثالثة،١١-١٣ شعبان١٤٢٢هـ/٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠٠١م**، القاهرة، (ص ص٧٦٥- ٨٣٨).

رمضان، عاطف منصور محمد٢٠٠٢ أ . **الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في المغرب والأندلس**، القاهرة.

رمضان، عاطف منصور محمد ٢٠٠٢ ب . "درهم نادر لأبى يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار"، **حوليات المتحف الوطني للآثار**، ص ص٧- ٢٧ ، الجزائر.

الساداتي، أحمد محمود١٩٥٧- ١٩٥٩ . **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**، جزءان، القاهرة.

سلمان، عيسى١٩٧٢ . "دينار نادر للخليفة المستضئ بأمر الله"، **مجلة المسكوكات**، بغداد.

شما، سمير ١٩٩٨م. **ثبت الفلوس العباسية**، لندن.

طباطبائي، سيد جمال ترابي ١٣٧٢ش. "سكه هاى إسلامي إيران حملة عرب تاحملة مغول"، **انتشارات أزادي**، تبريز.

فهمى، عبدالرحمن ١٩٨٧ . **النقود العربية ماضيها وحاضرها**، مكة المكرمة.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل الدمشقي ١٩٨٧ . **البداية والنهاية**، تحقيق: أحمد أبو ملجم وآخرون، بيروت.

المقريزي، تقى الدين أحمد بن علي ١٩٨٨ . "النقود القديمة والإسلامية (شذور العقود في ذكر النقود)"، تحقيق: رأفت محمد النبراوي، **مجلة العصور**، المجلد الثالث، الجزء الأول، (ص ص١١٧- ١٤٧)، دار المريخ، لندن.

المناوي، محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن على١٩٨١ . **النقود والمكاييل والموازين**، تحقيق: رجاء محمود السامرائي، بغداد.

النمر، عبدالمنعم ١٩٩٠ . **تاريخ الإسلام في الهند**، القاهرة.

الوفراني، محمد الصغير بن الحاج بن عبدالله د. ت. **نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى**، تحقيق: هوداس، الرباط.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Abdul Wali K. M. 1974. **Coins of Sultans of Dehli in the Indhra Prades State Museum**, Hydrabad.

Allan, J. 1922. **Indian Coins Acquired by the British Museum**, N.Chr. (pp. 200- 213), London.

Artuk, I. 1966. **Denizbaci Definsi, Turk Tarih Kurmu Basimevi**, Ankara.

Brown, C. J. 1920.**The Coins of india,** London.

Brown, C. J. 1922. **Catalogue of Coins in the Provincial Museum Luknaw, Coins of the Mughol Impers,** 2 Vols. London.

Butak, B. 1947. **Resmili Turk Paralar,** Istanbul.

Gomez, A. M. 1992. **Monedas Hispano Musulmanas,** Toledo.

Lavoix, H. 1887. **Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale**, Vol. I: Les Kalifes Orientaux, Paris.

Miles, G. C. 1960. "Aninth Century Hoard of Dirhems found at Susa., Memoires de la Mission Archeologique en Iran", **Tom** XXXVII, Paris.

Spink, 22/1987. **Coins of the Arabe World, Other Important Islamic Coins in Gold, Silver and Copper**. Auction22, Tuesday 17th March 1987.

Rajgor, D. (n. d.) **Standard Catalogue of Sultanate Coins of India**, Amropale Publication.

Vasmer, R. 1930. **Uber dir Munzen der Saffariden und ihrer Gegner in Fars und Hurasan**. NZ. Wien.

Whitehead, R. H, 1910. **Catalogue of the Collection of Coins illastrative of the History of the Rulers of Dehli up to 1858 A. D. in the Dehli Museum of Archaeology,** Calcutta.

Wright, N. 1936. **The Coinage and Metrology of The Sultans of Dehli**, Delhi.

Zambaur, E.V. 1906. **Contribution a La Numismatique Orientalle**. NZ, Wien, (pp. 114-198).

عرض الكتب

اسم الكتاب: نقود الدولة العيونية في بلاد البحرين.

المؤلف: نايف عبد الله الشرعان.

الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض، المملكة العربية السعودية.

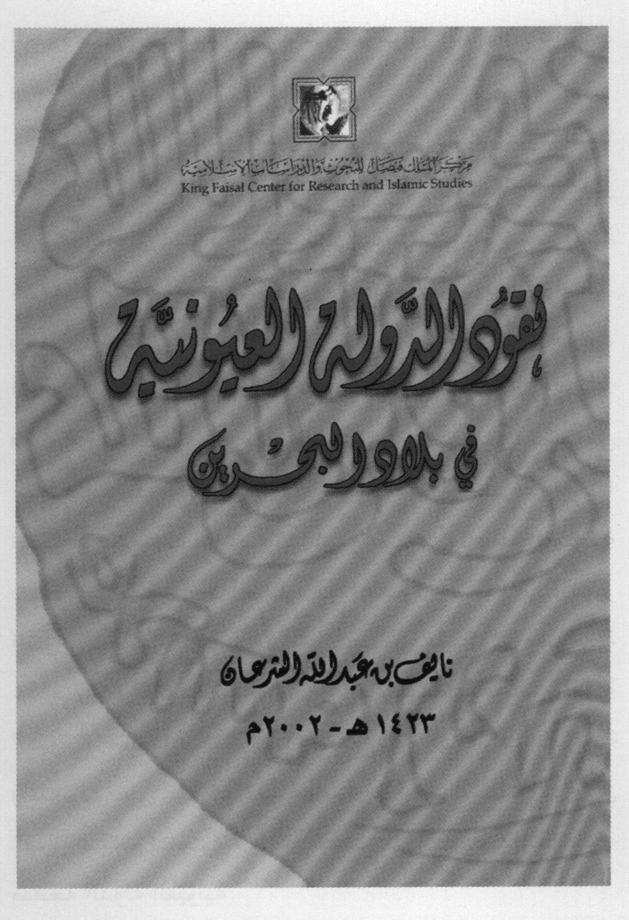
سنة النشر: ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م

التصنيف الدولي: ٢٢/٥١٣٩ .

مقاس الكتاب: ١٧× ٢٤ سم

عدد الصفحات: ٣١٥ صفحة (وتشمل ٥٠ لوحة، و ٥٢ شكلاً)

عرض : د. فرج الله أحمد يوسف.



يتكون الكتاب من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع، تعقبها اللوحات والأشكال والكشاف.

ناقش المؤلف في المقدمة أهمية المسكوكات الإسلامية، بوصفها أهم المصادر، التي يمكن من خلالها تدوين التاريخ الإسلامي لأنها وثائق رسمية تحمل شارات الدول ورموز سيادتها، ويمكن من خلال نقوشها الكتابية، دراسة أوضاع الدول السياسية والاقتصادية والمذهبية والاجتماعية. لذا، يعد هذا الكتاب أهم مصدر لدراسة تاريخ الدولة العيونية حتى الآن، نظرًا لافتقارنا لأية مصادر تاريخية مكتوبة عن الدولة العيونية، التي يعتمد المؤرخون في دراستهم لتاريخها على ديوان الشاعر علي بن المقرب، والشروح الموجودة على بعض نسخ الديوان، مثل النسخة المحفوظة في المكتبة الرضوية بمشهد، التي يعود تاريخها إلى سنة ٩٦٣هـ (المديرس ٢٠٠١ : ١٧٣)، وقد سجل الشارح بها أسماء حكام العيونيين حتى سنة ٦٣٣هـ؛ ولكن بعد دراسة هذه المجموعة من النقود العيونية ونشرها، أصبح لدينا مصدرًا مهماً لتاريخ الدولة العيونية، سوف يكشف عن الكثير من الجوانب الغامضة في تاريخ هذه الدولة.

تحدث المؤلف في المقدمة عن العثور على مجموعة النقود العيونية، في ما يعتقد أنه كان دارًا لسك النقود، أو بالقرب منها، نظرًا لأن العديد من قطع المجموعة لم يتم قصها وتشذيبها. ولمّا كانت هذه النقود مسكوكة من معدن الرصاص، فقد تطلّب تنظيفها وإعدادها للدراسة الكثير من الحذر والحيطة، على أيدي مختصين في ترميم الآثار.

يشتمل الفصل الأول على الإطار الجغرافي لبلاد البحرين. فبعد أن يعرض المؤلف آراء الجغرافيين والمؤرخين، يخلص إلى أن بلاد البحرين تمتد على الساحل الغربي للخليج العربي، من البصرة شمالاً، إلى جلفار جنوبًا؛ وبذلك فهي تشمل، في الوقت الحاضر: البحرين، وقطر، والكويت، والمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. ويلي ذلك مقدمة تاريخية عن بلاد البحرين، منذ صدر الإسلام حتى قيام الدولة العيونية في

النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ولما كانت بلاد البحرين مأوى للمعارضين والخارجين، فقد اهتم المؤلف، بصفة خاصة، بالفرق الخارجة على الخلافتين الأموية والعباسية، مثل: الخوارج، والزّنج، والقرامطة.

قسّم المؤلف الفصل الثاني إلى قسمين، تناول في أولهما الأحوال السياسية للدولة العيونية، منذ تأسيسها على يدي عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم العيوني سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٥م، بعد أن تمكّن من القضاء على دولة القرامطة. وبعد أن أحكم عبد الله العيوني سيطرته على بلاد البحرين، اتخذ من الأحساء عاصمة لدولته، وظل في الحكم حتى وفاته؛ فخلفه ابنه الفضل، ثم ابنه أبو سنان محمد، الذي اتخذ من القطيف عاصمة للدولة العيونية. وشهد عصره صراعًا داخليًا انتهى بمقتله سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م. وانقسمت الدولة العيونية بعده حتى تمكّن أحد أحفاده من إعادة توحيدها في أواخر القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وفي سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م عادت الخلافات الداخلية تهز أركان الدولة العيونية. فانتهز عصفور بن راشد، زعيم بني مالك، الفرصة واستولى على أملاك الدولة العيونية في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ وبذلك انطوت صفحة الدولة العيونية.

وفي القسم الثاني من الفصل الأول، تناول المؤلف نقود بلاد البحرين حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فبدأ بمقدمة عن النقود، التي كانت متداولة في المنطقة قبل الإسلام ثم تناول النقود، التي ضربت بها بعد الإسلام. ويلاحظ الاعتماد على الرصاص، في صناعة النقود البحرينية منذ العصر الأموي. ويؤكد المؤلف أن دور السك في البحرين، لم تصدر نقودًا ذهبية أو فضية، وحتى النقود الذهبية والفضية، التي أصدرها الزنج والقرامطة، صدرت في مراكز سك خارج بلاد البحرين، مثل: المدينة المختارة (بالقرب من البصرة)، ومكة المكرمة، والرملة، وطبرية، ودمشق. وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو، الذي زار الأحساء في القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أن النقود المتداولة في الأحساء، كانت مصنوعة من الرصاص.

يتضمن الفصل الثالث الدراسة الوصفية لمجموعة النقود العيونية، وعددها خمسون درهمًا، منها أربعة دراهم ضربت في أرض الخط، وتسعة ضربت في جزيرة أوال، وسبعة وعشرون في الخط، أما تواريخ السك، فتتراوح ما بين سنتي ٥٤٤-٥٤٩هـ. وقدم المؤلف وصفًا شاملاً لكل قطعة نقدية على حدة، تضمّن: مكان السك وتاريخه، والوزن والقطر والسماكة، وقراءة للنصوص الكتابية، التي كانت في الغالب عبارة عن شهادة التوحيد والرسالة المحمدية، ومكان السك وتاريخه، واسم الحاكم، الذي ضربت نقود هذه المجموعة في عهده، وهو: جمال الدين الحسن بن عبدالله بن علي، والآيات القرآنية، التي نقشت على نقود المجموعة. ويتضح من الدراسة الوصفية، أن الدولة العيونية سارت على نهج سابقيها، في الاعتماد على الرصاص مادة أساسية لضرب النقود.

خصّص المؤلف الفصل الرابع والأخير، للدراسة التحليلية والفنية للمجموعة، وتناول من خلالها مراكز السك. وقد أضافت هذه المجموعة ثلاثة مراكز سك جديدة، لم تكن معروفة من قبل، وهي: أرض الخط، وجزيرة أوال، والخط؛ ثم عرض المؤلف أنواع الخطوط، وطرق تنفيذها على نقود المجموعة. وتبين له استخدام نوعين من الخط، هما: الكوفي والنسخ. وأعد المؤلف جدولاً أوضح فيه أشكال الحروف، كما وردت على نقود المجموعة. أما الآيات القرآنية والعبارات والألقاب، الواردة على نقود المجموعة، فقد ناقش المؤلف دلالات العبارات وتفسيرها، مثل: لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي ولي الله، وورد على نقود المجموعة جزء من سورة الإخلاص (اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، والاقتباس القرآني من الآية ٣٣ في سورة التوبة (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). وتتبع المؤلف ظهور هذه الآيات والعبارات على المسكوكات الإسلامية، ثم انتقل إلى اللقب، الذي ظهر على نقود المجموعة، وهو: "جمال الدنيا والدين" وقد تلقّب به الحسن بن عبد الله بن علي العيوني (٥٣٩-٥٤٩هـ/١١٤٤-١١٥٤م)، الذي ضربت نقود هذه المجموعة في عهده. لذا فقد تعرّض المؤلف إلى الألقاب المضافة إلى (الدين) منذ أول ظهورها على المسكوكات الإسلامية. فوجد أن نقود هذه المجموعة تنفرد بأنها أول نقود إسلامية، يسجل عليها لقب: جمال الدنيا والدين. ويعد الدرهم المضروب في أرض الخط



سنة ٥٤٤هـ، أقدم نقد إسلامي نقش عليه هذا اللقب حتى الآن.

ومن أهم النتائج، التي توصلت إليها الدراسة، على سبيل المثال لا الحصر:

١- لم تنضوي الدولة العيونية تحت سلطة أي من الخلافتين العباسية أو الفاطمية.

٢- كان المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة العيونية، استناداً إلى وجود عبارة: (علي ولي الله)، التي لا تسجل إلا على نقود الدولة، التي تتبع المذهب الشيعي. ولقد وردت بعض الإشارات التاريخية، التي تشير إلى اعتناق الدولة العيونية للمذهب الشيعي، ومن ذلك ما جاء بمخطوطة في التراجم مجهولة المؤلف والعنوان، محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة. وكان أكثر من ترجم لهم مؤلف المخطوطة من الشيعة، بجانب حكام الدولة العيونية ومدنها، مثل: القطيف، وأوال (المديرس ٢٠٠١: ١٧٢). وتوصلت بعض الدراسات، التي تناولت شعر علي بن المقرب العيوني إلى ترجيح تَشّيُعه، وتعد قصيدته العينية، التي رثا فيها الحسين بن علي (رضى الله عنهما)، من أقوى الأدلة على ذلك (العماري د.ت: ١٧٣-١٨٠). كما أشار بعض الرحّالة المسلمين، الذين زاروا بلاد البحرين، إلى أن أهلها كانوا شيعة (ابن بطوطة ١٩٩٧: ٥٨/٢). (وقد أثبت المؤلف الأدلة على تشيّع الدولة العيونية، في تفسيره لعبارة: علي ولي الله. أنظر الكتاب ص ص ١٩٥ - ٢٠٤)، وهناك العديد من المراجع، التي تناولت تاريخ الدولة العيونية من خلال ديوان علي بن المقرب العيوني، وتحفل بالإشارات، التي ترجّح تشيّع الدولة العيونية (العمران ١٩٦٨؛ الخضيري ١٩٨١؛ آل خليفة ١٩٨١).

٣- إضافة ثلاثة مراكز سك جديدة، لم ترد في مراكز المسكوكات الإسلامية من قبل وهي: أرض الخط، والخط، وجزيرة أوال.

٤- ظهور لقب: "جمال الدنيا والدين"، لأول مرة على النقود الإسلامية.

٥- سكت نقود الدولة العيونية من الرصاص المخلوط بالبرونز أو النحاس، ولم تكن ذات أوزان ثابتة، والفروق بين أوزانها كبيرة جداً.

ولمّا كان أي عمل علمي لا يخلو من بعض الهنات والملاحظات، فإن من الملاحظات، التي لا تقلل من جهد المؤلف وأهمية الكتاب، الآتي:

١- كان على المؤلف، وهو يستعرض تاريخ بلاد البحرين في صدر الإسلام، أن يشير إلى وفد بني عبد القيس، الذي قدم إلى المدينة المنورة وقابل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في السنة الأولى للهجرة. وكان على رأس ذلك الوفد الأشج المنذر بن عائذ؛ وكذلك تجدر الإشارة إلى مسجد جواثى، الذي شُيّد في السنة الثانية للهجرة في بلاد البحرين.

٢- عند حديثه عن نقود بلاد البحرين قبل الإسلام، اقتصر المؤلف على ذكر النقود اليونانية والسلوقية، التي كانت متداولة في المنطقة، وفاته أنه عُثر في المنطقة على مسكوكات تعود لمالك عربية، مثل: مملكة معين، ومملكة حضرموت، ومملكة الأنباط، ومملكة ميسان.

٣- ذكر المؤلف أن ثورة الزنج بدأت سنة ٢٥٤هـ (ص ٣٥)، ثم قال إنها بدأت سنة ٢٥٥هـ (ص ٨٣)، والتاريخ الأخير هو الصواب.

٤- أشار المؤلف إلى النقود الفضية لصاحب الزنج، وأغفل نقوده الذهبية ومنها الدينار المضروب في المدينة المختارة سنة ٢٦١هـ.

٥- هناك اختلاف في العناوين الفرعية للفصل الثالث؛ ففي الفهرس (ص ٦) جاءت العناوين كما يلي:

الفصل الثالث: الدراسة الوصفية

أولاً: تعريف بالمصطلحات.

ثانيًا: طرز النقود العيونية.

ثالثًا: وصف القطع النقدية.

أما في افتتاحية الفصل (ص ٨٩)، فقد جاءت العناوين كما يلي:

الفصل الثالث: الدراسة الوصفية.

أولاً: تعريف بالمصطلحات.

ثانيًا: وصف النقود وطرزها.

وكان ينبغي تعديل ما جاء في الفهرس، ليتوافق مع ما جاء في افتتاحية الفصل.

٦- ملاحظات على الدراسة الوصفية:

- عند دراسته للقطعة رقم ٢، ذكر المؤلف أن تاريخ ضربها



سنة ٥٤٩هـ، في الوقت الذي يشير فيه إلى أن كتابات الظهر ممسوحة (ص ٩٦).

- أشار إلى أن تاريخ ضرب القطعة رقم ٣ غير واضح، مع أنه سجل كتابات هامش الظهر كما يلي: (بسم الله ضرب هذا الدرهم بأرض الخط سنة ... وأربعين وخمس ومائة) (ص ٩٧).

- ذكر أن تاريخ ضرب القطعة رقم ١٣ غير واضح، وسجل كتابات هامش الوجه كما يلي: (بسم الله ضرب هذا الدرهم بجزيرة أوال سنة ... وأربعين وخمس ومائة)، وكان عليه أن يسجل التاريخ كما فعل في القطعة رقم ١٢ (×٥٤هـ) (ص ١٠٦-١٠٧).

٧- عند حديثه عن أرض الخط قال المؤلف: (... وتضم مجموعة الدراسة خمسة دراهم للسلطان جمال الدنيا والدين الحسن بن عبد الله بن علي، جرى سكها في أرض الخط ما بين سنة ٥٤٤هـ وسنة ٥٤٩هـ...) (ص ١٥٤-١٥٥)، وعند مراجعة الدراسة الوصفية نجد الدراهم المضروبة في أرض الخط أربعة فقط (ص ٩٥-٩٨).

وفي الختام، يعد هذا الكتاب إضافة للمكتبة العربية، بصفة عامة، ولعلم المسكوكات الإسلامية، بصفة خاصة، لما توصل إليه المؤلف من نتائج جديدة نتجت عن دراسة هذه المجموعة من النقود، التي تعد الوحيدة من نوعها؛ إذ لم يسبق أن نُشرت من قبل أية نقود للدولة العيونية، في بلاد البحرين.

د. فرج الله أحمد يوسف - الرياض ١١٤١٢ - ص ب ٤٥٥٦ farajyousef @ hotmail.com

المراجع:

ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبدالله محمد ١٩٩٧ . **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (تحقيق عبدالهادي التازي)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

الخضيري، علي عبدالعزيز ١٩٨١ . **علي بن المقرب العيوني حياته وشعره**، بيروت.

آل خليفة، عبدالله خالد ١٩٨١ . "دولة العيونيين في البحرين"، **الكتاب السنوي الأول، للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية في الخليج والجزيرة العربية**، الرياض.

آل خليفة، عبدالله خالد ١٩٨٢ . دراسة في دولة العيونيين **الوثيقة**، العدد الأول، رمضان ١٤٠٢هـ/يوليو ١٩٨٢م.

العماري، فضل بن عمار (دت)، **ابن المقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين**، الرياض.

العمران، عمران ١٩٦٨ . **ابن المقرب حياته وشعره**، الرياض.

المديرس، عبدالرحمن مديرس ٢٠٠١ . **الدولة العيونية في البحرين**، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.



Maani, S. 1999. "Dirāsa Taḥlīliya Linuqūš Ṣafawiyya Jadīda Min al-'Urdun/Mafraq", **Journal of King Saud University**, Vol. 1, insc. 3.

Malkawi, A. 1997. 'Aṣiyaġ aṯṯalabiyya fi an-Nuqūš aṣ-Ṣafawiyya, unpublished MA. Thesis, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Maraqten, M. 1988. **Die Semitischen Personennamen in den alt-und reicharamaeischen Inschriften aus Vordasien**, Texte Und Studien zur Orientalistik, Band 5, Georg Olms Verlag, Hildesheim.

Negev, A. 1991. Personal Names in the Nabatean Realm", **QEDEM** 32, (Jerusalem: Hebrew University of Jerusalem, p40 .

Repertoire "Epigraphie Semitigue", **paries, Academic des Inscriptions et Belles-Lettress**, no 3610.

Ryckmans, G. 1934-5. Les noms propers Sud-Semitiques, **Tom** I, repretpire analytique **Tom** II repertoire alphabetiques, louvain, p. 47.

Ryckmans, G. 1950-51. "Le sacrifice DBH dans les inscription safaitiques", In Hebrew **Unicn College Annual** v:XXIII, (Seventy-Fifth Anniversary Publication 1875-1950, Cincinati, Ohio, Pp. 431-438. .

RES: 3537.

Stark, J. 1971. **Personal Names in Palmyrene Inscriptions,** Oxford, Clarendon Press, p 107.

Theeb, S. 1991. "Nuqus Safawiyah Jadidah min Shamaliy al-Mamlakah Al-Arabiah al-Saudiah", **Al-Osour Journal**, 6: 39.

Theeb, S. 1997 Nuqus 'Arabiyyeh Samaliyeh min Tabhar . . . , Dirasat, Jordan University, , insc. 16.

Theeb, S. 1998. **Nuquš al- Ḥigr an-Nabaṭiyya**, King Fahr Library, Riyaḍ.

Qudra, H. 1993. Dirasa Mu'jamiyyah li-Alfaz an-Nuqus al-Luhyaniyyah fi Itar al-Lugat as-Samiyyah aj-Janubiyyah, (unpublished MA. Thesis, Yarmouk University), p. 77.

'Ulūlu, Ġazī 1996. Dirārasat Nuqūš Ṣafawiya Jadīda min Wādi as-Sū' Janūb Sūriya, unpublished MA. Thesis, Yarmouk University, Ins. 279.

Winnett, F. V. 1957. Safaitic Inscriptions From Jordan, **Near and Middle East Series** 2, no. 730, University of Toronto Press, Toronto.

Winnett, F. and L. Harding 1978. "Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns", **Near and Middle East Series** 9, no 1849,University of Toronto PressToronto.

Wuthmow,H. 1930. **Die Semitischen Menschennamen in griechischen Inschriften und Papyri des Vordern Orients**, Leipzig.

Zambauer 1951. **Mu'jam al-Ansāb wa-Al'Usar al-Ḥākimafi al-Tārīḫ il-'Islāmī,** Zaki Muḥammad Bek wa-Ḥasan Maḥūmmud, Mat'at Fu'ād il-'Awwal, Eygpt, 3.



Cantineau, J. 1978. **Le Nabateen**, 2vols (Nachdruck der Ausgabe Paris 1930-32), Osnabrueck, p. 134 .

Caskel, W. 1954. **Lihyan und Lihyanisch**, koeln, west Deutscher Verlag Koeln und Opladen, p 144.

Caskel, W. 1966. **Gamharat an Nasab, das genealogische Werk des Hisam ibn Muhammad al-Kalbi**, 2Vols. Leiden, II,p. 581.

Corpus Inscriptionum Semiticarum (CIS), 1950. Paris, Nos: (12, 21, 310, 847, 1172, 1656, 1895, 2998, 3031, 4358, 4360, 4409, 4748, 5293).

Gelb J. et al, 1980. **Computer- Aided, Analysis of Amorite**, University of Chicago, Chicago.

Harding, G. L. 1969. "The Safaitic Tribes", **Al-Abhath**, 23.

Harding, G. L. 1971. "An Index and Concordance of Pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions", **Near and Middle East Series**, Toronto University, p 144.

Harding, G. L. and E. Littmann 1952. **Some Thamudic Inscriptions from the Hashemite Kingdom of the Jordan**, Leiden E. J. Brill no, 144.

Hazim, R . 1986. Die Safaitischen theophoren Namen im Rahmen der Gemeinsemitischen Namengebung, (Unpublished Ph. D. Marburg).

Hoftijzer, J. and k. Jongeling 1995. **Dictionary of the North-West Semitic Inscriotions**, Handbuch der Orientalistik, E. J. Brill Leiden, New York, Koeln, p. 173-5.

Ibin Duraid, 'Abu Bakr 1991. **'Al-'Ištiqāq**, Taḥqīq ‘Abd al-Salām Hārūn, Beirut , p. 29.

Ibin il-Kalbi 1924. **'Al-'Aṣnām**, taḥqiq 'Aḥmad Zaki, al-Maktaba al-‘Arabiyya Misr, 56.

Ibin Manẓūr, Abu il-Faḍl Jamāl id-Dīn 1955. **Lisān al-‘Arab**, Beirut, Dar Sader, , ṯūm.

'Il-'Andalusi, Ibn Ḥazm 1983. **Jamharat 'Ansāb il-‘Arab**, Dār il-Kutub, Beirut, p. 166.

Il-'Aṣfahāni ‘Abu al-Faraj (N. D). **Al-'Aġāni**, Dāt at-Tawgih 'al-Lubnāni, Beirut, Vol. 3, P. 123.

Jamme, A. 1967. "The Safaitic Verb wgm", **Orientalia** 36, 159-172, p. 171-172.

Jamme, A. 1967. “The Safaitic Verb rgm mny and its Variants”, **Orientalia,** 36: 345-348.

Jaussen, A. and R. Savignac 1909-14. **Mission archaeologique en Arabie**, 2Vols (Paris, Librairi Paul Geuthner, 75.

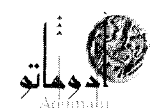
King, G. 1990, Early North Arabian Thamudic E, (Submitted for the degree of Ph. D. School of Oriental and African Studies, p. 541.

Koehler L. 1958. **Lexicon in Veteris testamentibros**,Leiden, E. J. Brill.

Littmann, E. 1943. **Safaitic Inscriptions**, Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-5 and 1909, Division IV, section C. Leiden, Brill, P 540.

Littmann, E. 1949. Muhadarāt fi al-Luġāt as-Sāmiyya, 'Asmā' al-A‘lam, **Magallat al-Adab**, 10: 1-55. p. 6-7, Qairo University.

Ma'ani, S. 1988. Allat: An Epigraphical Approach. A Study on Allat in the safaitic Inscriptions (Unpublished M. A. thesis), Yaromuk University,Irbid, Jordan.



Notes:

1) Corpus Inscriptionum Semiticarum, (Paris, 1950) no. 21
2) See Insc. No. 11.
3) Repertoire "Epigraphie Semitigue (paries, Academic des Inscriptions et Belles-Lettress), no 3610
4) Many Thanks for Mr. Abd El-Qadir al-Husan for giving me the Photos to be published.

References:

Ar-Rummānī, A. 1973. **Kitāb Ma'āni al-Ḥuruf**, Dār al- Nahḍa, Misr, p. 36.

Ajrami, M. 1992. Ḥayāt al-Ra'y was-Ṣaid 'ind as-Ṣafawiyīn min Ḫilāl Nuqūšihim, (Unpublished MA, Yarmouk University, p. 84.

Abābneh, M. 1994. Ba'al Šamīn 'Ind as-Sāmiyīn (Unpublished MA, Yarmouk University.

Abbadi, S. 1983. **Die Personennamen der Inschriften aus Hatra**, (Texte und Studien zur Orientalistik, Band 1, Georg Olms Verlag, Hildesheim).

Abu al-Ḥasan, Ḥ. 1997. **Qirā'atun Likitābātin Liḥyāniyatin Min Gabal 'Akma Bi-Manṭiqat al-'Ulā**, Maṭba'at al-Malik Fahd, Al-Riyaḍ, ins. 46.

Aḏ-Ḏahabi M. 1962. **Al-Muštabah fi ar-Rigāl wa-'Ansābuhum**, Qahira.

Al-Ansary. A. 1966, A Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names, (Leeds University, Ph. D. Thesis, p 110.

Al-Bakri, 'Abdullah N. D. **Mu'jam ma Ista'jam, taḥqīq Musṭafa al-Saqā**, 'Ālam al-Kutub, Beirut, Vol. 1: 630.

Al-Kharysheh F. 1986. Die Personennamen in den Nabataeischen Inschriften des Corpus Inscriptionum Semiticarum, (Unpublished Ph. D. Marburg).

Al-Said, S. 1995. **Die Personennamen in den Manaeischen Inschrifcn**, Wiesbaden, Harrassowitz.

Aš-Šammari, Hazzā' 1410 h. **Gamharat 'asm' an-Nisā' wa-'A'lāmuhun**, Dār 'Umayya llinašr, , p. 419.

As-Sarqasṭi, Abu 'Uṯmān 1978. **Kitāb al-Af'āl**, al-Hay'atu l-Maṣriyya, Qahira.

Az-Zubaidi, , M. 1965. **Tāg il-'Arūs, taḥqīq 'Abd. as-Sattār Farrāg**, Kuwait, , mn'.

Beeston, A. F. , M. A. Ghul, W. W. Mueller and J. Ryckmans 1982. **Sabaic Dictionary, (Publication of the University of Sanaa**, Yar, Editions Peeters Louvain-la-Neuve, Librairie du Liban Beyrouth, p. 29.

Benz, F. L. 1972. **Personal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions,** Rome, Biblical Institute Press.

Braue, H. 1925. "Die altnordarabischen Kultischen Personennamen", **Wiener Zeitschrift fuer die kunde des Morgenlandes**, 32 , 31-59 und 58-115, p. 95.



Dr. Sultan A. Maani – **Queen Rania's Institute of Tourism and Heritage – Hashemite University – Zarqa - Jordan.**

Fardous al Ajlouny – **Queen Rania's Institute of Tourism and Heritage – Hashemite University – Zarqa - Jordan.**

ملخّص: تعتبر منطقة الحرة واحدة من أغنى المناطق بالنقوش العربية والإسلامية وتقسم هذه الدراسة عشرة نقوش صفوية أكتشفت قي المسوحات الأثرية التي إجريت في الرويشد، وادي سلمى، الأشاقف الجنوبي في المواسم ,١٩٩٠ ,١٩٩٢ ,١٩٩٤ وتؤكد هذه الدراسة وجود أسماء ندر وجودها في النقوش الصخوية مثل رهط ,كهف وأجزم وتحتوي إسمين لم يردا في النقوش الصفوية سابقاً وهما: حوس وحرم



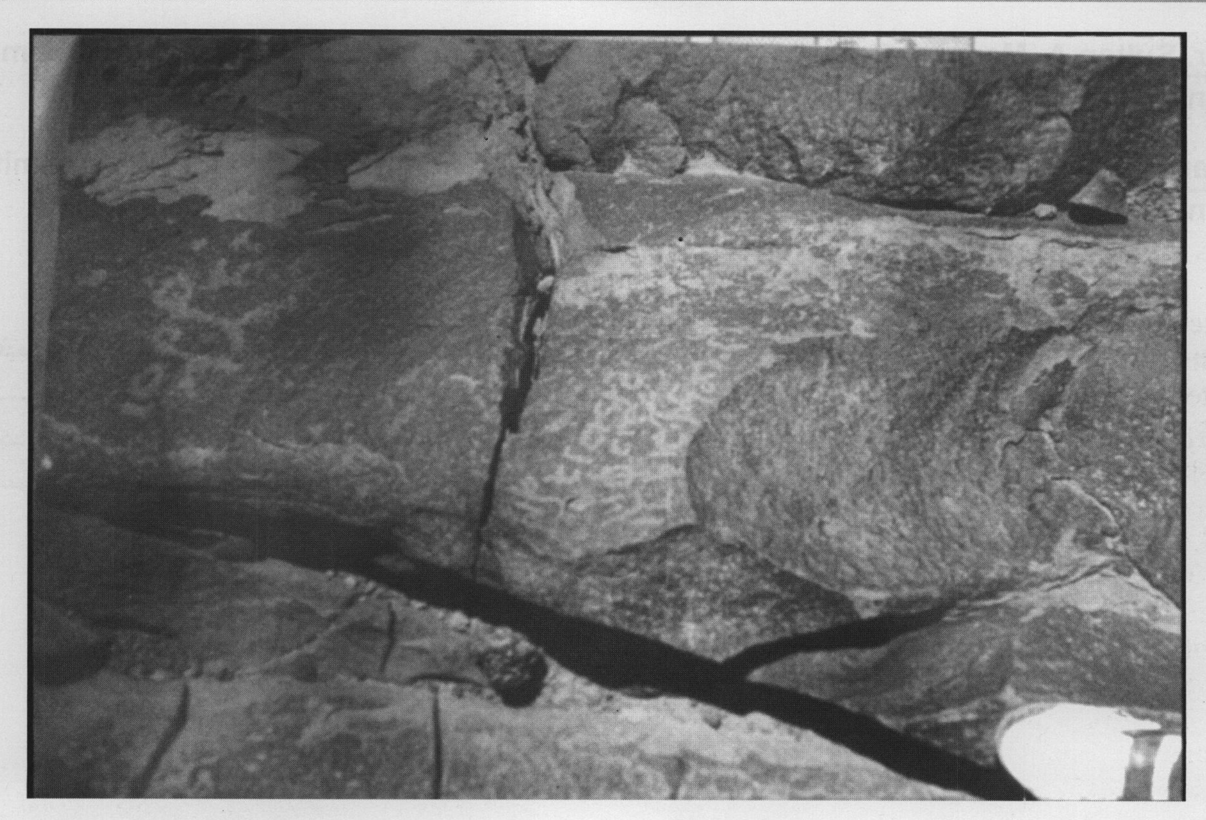


Fig. 9: Inscriptions No. 7, 8, 9, 10.

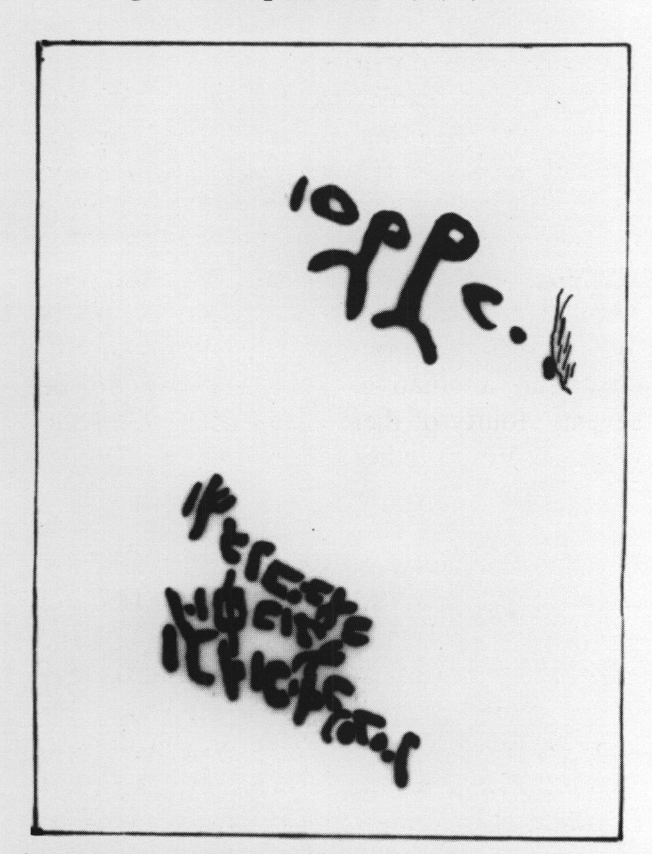


Fig. 10: A transcriptoin of Fig. 9.

fah̲tanaqa means: the rope was fastened around the neck of him till he was suffocated. In the traditions of **Miʿrāj** comes the following: "**fa id̲ā naḥnu bi qawmin duriʿa anṣafuhum bidun wa anṣafuhum sūdun**".

The expression **Daraʿa fi –s- sayr** means: "he went further" (Ibin Manẓūr: dr').

n r is a simple personal name in the form of the verb stated by Safaitic (Harding 1971: 585) as well as by Palmyraean (Harding & Littmann 1952 no. 162, 224) inscriptions. It could be interpreted as **Nār** (fire) or **Nūr** (Light). **Nār** was also used as a masculine (Caskel 1966: 445) and as part of a composite name. It was mentioned as a singular Arabic name (Ibn ḥazm 1983: 51). Since the Fatimid period, it has appeared as a part of the composite name **Nūr Eddin**, the light of religion (Zambawar 1951: 511).



Discussion

It is a short Safaitic inscription written from top bottom with a short shrift. The letters are a bit close, but clearly read. This inscription is written on the same stone as the previous one, close to other two inscriptions. The reading was clear and confirmed.

Interpretation of words

D̠ k r is a singular personal name frequently stated in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 255). Its parallets in Classical Arabic are: **D̠ikr** (Aṣbahāni 7/189) and **D̠akir** (Caskel 1966: 235). It might have been derived from **Al D̠ikr**: the severe rain or the dense vegetation or the strong thing (Ibin Manẓūr: d̠kr). In the context of personal names, it gives the implications of strength, power and courage (Theeb 1998: 310). The name is also parallel in lihyanite (Al-Ansary 1966: 101), and Southern Arabic (Al-Said 1995: 105-6; Harding 1971: 255) inscriptions, whilst the Nabatean inscriptions report the name **d̠ k r u** (Cantineau 1978 II: 82; Negev 1991: 21) and in Palmyraean the name **d̠ k r y** (Stark 1971: 83)

S h̠ r is a simple name used in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 312) and has its parallels in Thamudic (King 1990: 508). In Arabic "**Sah̠ira fulana suh̠riyan**" means some one was offensively forced to do something (Ibin Manẓūr sh̆r).

Inscription number 9 (Figure 5, picture 5)

Text

L ʿ n q b n s h̠ r

Translation

"By **ʿInaq bn Sah̠r**"

Discussion

The inscription was placed left to the previous one with the same shrift and orientation. It seems as though the two inscribers were brothers.

Interpretation of words

ʿ n q is a simple name in the form of **faʿila** or **fiʿal** which was reported in a number of Safaitic inscriptions (Harding 1971: 445). It has its parallels in Thamudic (King 1990: 531), and in Nabatean as **ʿ n q u** (Cantineau 1978 II: 134).

The name must have come either from **ʿInaq** (Harding 1971: 445; Negev 1991: 53) or **ʿUnq** (King 1990: 531), more properly the former for it came in Arabic resources as **Ibn ʿInaq** (Aṣbahāni 4/144).

Inscription number 10 (Figure 5, picture 5)

Text

L bd l b n d r ʿ b n n r . . .

Translation

"By **Badd'el bn Daraʿa bn Nūr**"

Discussion

The inscription was placed left to the two previous ones written in the same way and orientation. The letters are relatively clear and as a result it was properly read.

Interpretation of words

b d l is a name mentioned in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 98) and has its parallels in Arabic (Caskel 1966: 218) **Budayl** in Arabic may have been regarded as a diminutive form of **badal** (Ibn Duraid 1991: 472-6). **badal** means "instead of". **Abdal** are apathetic people who are said to be found everywhere. when one of them dies, god will create an alternative. They are said to be seventy, fourty of them are in **Bilad Aš -šam**, the rest are in other countries (Ibn Duraid 1991: 476).

D r ʿ is a singular personal name frequently recorded in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 238), and as we believe it is like the other names in exaggerating form (**faʿal**). Tthe Arab reporters mentioned the name **Draʿa ibn badr** (Aṣbahāni Vol 21: 22). It is derived from the verb **Daraʿa**, the expression **Darʿa Al Dabihah** means: the sacrifice was slaughtered by striping the skin from the neck. The expression **Daʿara fi ʿunqehi hablan**





Fig. 7: Inscription No. 6.

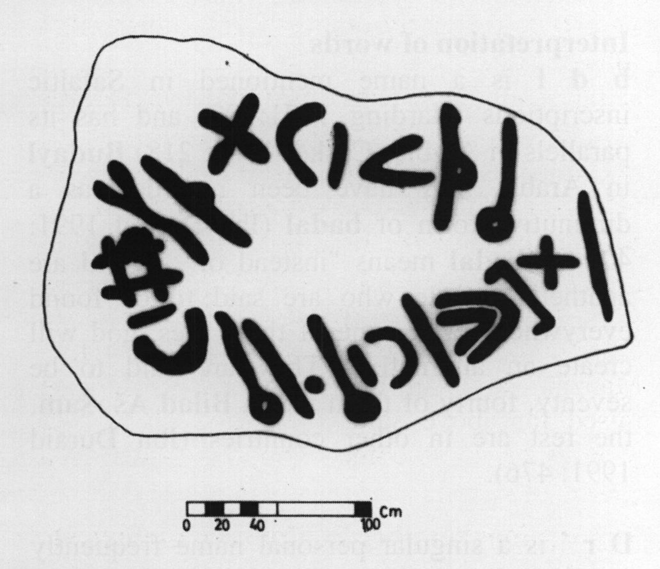


Fig. 8: A transcriptoin of Fig. 7.

surface. The inscription was escarped from the top to the bottom, and as a result the writing was clear, but was exposed to weathering, and thus the last word was omitted. The last word could have only been a small personal name for the area left was very small.

Interpretation of words

ʿAṣṣ is a simple name maintained by Safaitic inscriptions which came twice with only one sad (Harding 1971: 422). **ʿAṣṣa** means: "to become hard". Here, it could be used as a diminutive form **"ʿUṣayṣ"** from **"ʿAṣy"** which is frequently used in Arabic (Ibn Duraid 1991: 53, 82, 139). **Al "ʿAaṣ** is derived from **"ʿAṣaya"**, **Yaʿṣy ʿIṣyanan** and **Maʿ ṣya** and it means the disobedient. The boy who does not obey his mother is **ʿAaṣ** , **Iʿtaṣat An Nāqa** "the she camel disobeyed and escaped from the male".

The noun is **"Iʿ tiyaṣ"** man say: **ʿAṣaytu bi sayfi** which means "to be hit with the sword as a result of disobedience (Ibn Duraid 1991: 53-4).

Inscription number 8: (figure 5, picture 5)

Text

L ḏ k r bn s ẖ r

Translation

"By **Ḏikr** son of **Saẖir**"



one completed. Two beads were unstitched and as a result they became one "wa'atima fulan bi –l-makan" means one was settled in a place. "Atima fi Sayrehi" means: one slowed down (Ibin Manẓūr: 'tm). In this way it was stated often in Safaitic (Harding 1971: 19), lihyanite (Abu al-Hasan 1997: insc. 54), Qatabanaean (Harding 1971: 19), Sabaic (Ryckmans 1934-5: 47), and Nabateans (Theeb 1998: 92) inscriptions. Atheeb regarded it as personal name and a part of nominal sentence which means "complete" or perfect and is attributed to god (Theeb 1998: 109). The next word preceded by **waw** is a name of one of the most famous Safaitic gods (Al-Ma'ani 1988).

Inscription number 6: (Figure 4, picture 4)

Text

L ẖ r m l b n y ʻ l y b n ḍ h d t b n s d y

Translation

By **H̠arim bn Yuʿly bn Ḍahidat bn Saday**.

Discussion

This inscription is comprised of two lines written in the so called boustrophen way, beginning form left to right, then back to left. The stone was basalt with a smooth surface suitable for writing.

The inscription was framed with a wide line escarped somehow deeply. The letters were neatly escarped tending to belong slightly to the so called square script. The letters were complete, clear and properly read.

Interpretation of words

H̠ r m l is a personal name mentioned, as far as we know, for the first time in northern and southern Arabic inscriptions. We cannot decide whether it is a singular or composite noun. If it were singular, it could mean according to the language lexicon: the plenty of people. **Al-H̠armal** could mean the hair of the camel falling out because of fats "**Al-H̠armal**" could means the imprudent woman (Ibin Manẓūr: ẖrml). If it were a composite noun which has never been mentioned in Safaitic inscription, it would be comprised of two parts: **ẖ r m** and the abbreviation of the god **el**.

The first part **ẖ r m** is a known name in Safaitic, Thamudic, Lihyanite and Sabaic (Harding 1971: 219). In our opinion this interpretation is not right because it does not fit the whole context.

Y ʿ l y is a personal name in the form of the present verb, stated often in Northern Arabic inscriptions (Harding 1971: 677). It was mentioned in Nabatean ones, too (Cantineaus 1978 II: 104; Negev 1991: 34). It has its parallels in classical Arabic as **yuʿla** (Ibn Duraid 1991: 70). **Yaʿli** means to get a higher rank. **ʿala** means superiorty (Ibn Duraid 1991: 55).

ḍ h d t: is a noun included in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 385), **ḍahada** means: to oppress and to treat wrongly. In Arabic it has a similar meaning to insult and oppress **wa aḍahdatu** has the meaning of predominance and surmounting, or the one who was frequently oppressed by others (Ibin Manẓūr: ḍhd).

s d y is a simple name mentioned in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 314), but lacks its parallels in other old Arabic inscriptions. However, one finds in Nabatean the noun **Š d y** (Cantineau 1978: II: 149). **Sada** means: to get your hand towards something. Sada is the grace or favour. **Sadaya** and **nadaya** and **As-Sada** could have the meaning of ignorant (Ibin Manẓūr: sdy). In the holy Koran: God be raised far above said: Does man think that everything would come to nothing (al-Qiyama 36).

Inscriptions number 7 (Figure 5, picture 5)

Text

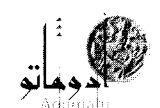
L ʿṣ ṣ b n . . .

Translation

By ʿṣ ṣ b n

Discussion

This inscription was written on a front of limestone with a gray shell of an irregular



l ġ d f: **lam** is the preposition, and **Ġadf** is a new word in Safaitic inscriptions. In Arabic Lexicons the word **ġadf** belonges to the root **ġadafa**: "**Aġdafa Al Baḥr**" means: the waves of the sea were unsettled (Ibin Manẓūr: ġdf). This might be interpreted as" he came to the plentiful water with lots of waves or he came to the troubled water as a result of fast flowing. The season might have been winter where the valleys were flooded with troubled water.

One meaning of **ġadafa** in Arabic in the phrase **ġadafa Al laylu** is: "The night was lowered (Ibin Manẓūr: ġdf). Harmonized with the context the meaning is related to the previous sentence **w bayata bi' bilihi wa-warada l ġ df**, which means: he put up his camels for a night, and came to the watering place as soon as the night was lowered.

f h b ' l s m n: **fa** is a conjunction and **ha** is for invoking the god. It preceded the name of the deity **Al ilah sayyed as- samawat**, this deity name is composite consisting of **Ba'al:** Sayyid (Master) and **"s m n"** the plural of **sama** meaning skies. The same name came without **nun** in other inscriptions; however, it is masculine plural name (Ababneh 1994).

r w ḥ: it cannot be dogmatized in singular form in case it is substantive, which means "Rest", but if it is verbal it means: to relax somebody. The substantive form **rawaḥa** means rest, the opposite of tiredness. The phrase **Araḥ ar- Rajul** means: the man was refreshed after being exhausted (Ibin Manẓūr: rwḥ). It was so read by scholars (Winnett 1957: 24; Winnett & Harding 1978: 395; Littmann 1943: 107). Reading it as imperative was also stated by Winnett, Harding in the *Madwaneh of Al Niqush Al Samyah* (Winnett & Harding 1978: 409; CIS no. 60).

w s l m: if the pervious word was substative, this word would be read as **Salaman** which is familiar in Safaitic readings (Littmann 1943: 3). It means: "protection and security" (Winnett 1957: 13). It doesn't give the meaning of "greeting" as suggested by Ryckmans (CIS no. 12). If the previous word was considered a verb, which is also possible, this word **s l m** would be an imperative form of the verb which means "surrender and be saved" (Littmann 1943: 234). The formula "**sallamahu allahu min al amri**" means "one was rescued" (Ibin Manẓūr: slm). These two words are demand forms frequently used in Safaitic inscriptions (Malkawi 1997: 82-5, 89-92). The inscriptions moved after the conjunction **waw** into the cursing formula as follows: **w m h l t l d ' w r h s f r**. The word **m h l t** means "sterility, famine and catastrophe" (CIS no. 3339).

L ḏ: The **lam** is a preposition, while the **ḏal** is abbreviation of the demonstrative noun **Al-Laḏy** (which). In this context "**Al Balyal Aw Al Mahl llaḏi** means "cursed be he who". But **y a 'a w r** is a present form of the verb which means "to defect". This is a verb ending some inscriptions and sometimes it is frequently followed by **h ẖ ṭ ṭ Aw h s f r** which means " the inscriptions.

Inscription number 5 (figure 3, picture 3)

Text

L ? ? I l b n ' t m b n g ? ? ? w h l t

Translation

By ? ? the tribe of **bn 'tim bn ?j** and O **al Lat**.

Discussion:

This short inscription occupies the right bottom corner of the stone on which the last two inscriptions were written. However, it came different in style and shrift. Despite the thin line of the shrift, it is engraved deeper than the previous ones. It is comprised of two lines the first of which starts from right to left towards the empty area of the stone, then goes back to the right in a small area. Unlike those of the first line, the letters tended again to be stringed. Three letters after the **jīm** were missed, which makes it difficult to analyze the first name in the inscription.

Interpretation of words:

Two words can only be interpreted:

A t m: It is a simple personal name in the form of verb. In Arabic lexicon: **'Atamma as Siqa'**,

other Semitic personal names (Harding 1971: 537).
'u r s: a well known personal name in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 415). It might be interperated as **'Arisa**" which means "surprised, amazed" or "**'Arasa**" which means "was modified" or **'Arrasa** "meaning": married off (Ibin Manẓūr: 'rs), **'urs** is an Arabic name (aḏ-Ḏahabi 1962: 454).
r ġ m: a name used in Safaitic (Harding 1971: 282), and has its equivalent in Manaean (3). In Arabic : **Raġma Qawmehi** means: he left his people.
Arġam is a name derived from **Raġam**. The origin of **Raġam** is Heritage (Ibn Duraid 1991: 372). **Raġm** means also hatred, disgrace, and disgust (as-Sarqasṭi 1978: 3/24). In Safaitic **R ġ m** came as a transitive past verb meaning "to hate death" (Jamme 1967: 345-8).
Š h r: is a simple name in the form of verb or agent which came as singular in Safaitic inscriptions; it also came as composite (Harding 1971: 360-61). The name might have been derived from **shuhra**, and the whiteness arouned the yellowness of narcissus (Ibn Duraid 1991: 521). The name was reported in Thamudic (Harding & Littmann 1952: no. 38), Lihyanite (Al-Ansary 1966: 89), Qatabanaean (RES 3537), Sabaic (Abu al-Ḥasan 1997: 87), and Manaean (RES 3537). It came in Nabatean as **Š h r u** (Negev 1991: 62; Cantineau 1978 II: 149). In Arabic the name **Šahīr** (Ibn Hazm 1983: 387), and **Banu Al-Šahar** (King 1990: 517) are familiar. **Šahr** is a name of Lihyanite king, too (Abu al-Ḥasan 1997: 87).

The name **r ṭ ẖ** came in a few of Safaitic Inscription (Harding 1971: 280), and has no parallels in old Arabic, nor mentioned in the sources of Arab reporters. Despite the correctness of the reading, no meaning can be given to this name.
'Awḏ is stated in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 447). It could be read as **'Awaḏ** or **'Uweiḏ**. It is derived from **'Āaḏa, Ya'ūḏu**, and so one is **'a'aṭā** which means to exorcize. Moreover, man seeks for protection, I pray that god protects me from something. I invoke the protection of God, to whom belongs might and majesty (Ibn Duraid 1991: 34).

The root **'Awaḏ** indicates the demand for protection and security (Ibin Manẓūr: 'wḏ.). The parallels of the name appear in Thamudic (Harding & Littmann 1952: no. 65), Nabatean (Negev 1991: 49), Palmyrean (Stark 1971: 44, 104), and Hatraean (Abbadi 1983: 149). It came as composite word in more than once in Safaitic inscription (Hazim 1986: 95-6). Its parallel in Arabic is **'Ā'iḏ** and **'Awaḏ** (Ibn Duraid 1991: 43 & 277).

The name **w h b ' l** comes often in Safaitic inscription, and is considered by Littmann as one of the historic linguistic names, whose roots can be traced to Akkadian origins. The Akkadian name **nadanu**, the Hebrew **Natin** and the Aramaic **yahub** are all derivations of the same name. In composite names one can find **Asur idin** in akkadian related to it. **Ashur** is a name of deity, In Aramaic **yahabullah** "God gave". It could be changed into **wahab** or **'Ata Allah** or **'Atiyah** (Littmann 1949: 1-55).

Following this kinship chain comes the verb **w b y a t a** preceded by the conjunction **waw:** this is a past verb in the form of fa'ala, **Bayata** which means he stayed for a night (CIS no. 310).

The verb came sometimes without the weak letter **B T** (CIS no. 3031). This verb was reported in Thamudic (Harding & Littmann 1952: no. 99), and Lihyanite (Qudra 1993: 77).
b ' b l: **ba** is a preposition used in the same way by Safaitic and Arabic (Ar-Rummani 1973: 36). In the inscription it designates accompaniment, and **'bl** is a personal name often used in Safaitic inscriptions (Ajrami 1992: 84).
Wa warad: **waw** is a conjunction, **warada** is an intransitive past verb in the form of **fa'ala**. It means: some one came to the watering place (CIS no. 1656, 1995; Littmann 1943: no. 406-426). In Arabic **warada** means whoever came to a watering place or spring (Ibin Manẓūr: nhl).

In southern Arabic it is **y r d n** (Beeston 1982: 162), In northwestern Semitic dialects it came as **bimahha** which means one stops at a place (Koehler 1985: 401; Gelb et al 1980: 22).



Interpretation of words

Š q q is a simple personal name, which was once mentioned in another Safaitic inscription, as we know (Winnett & Harding 1978 no 3712), **šiqaq** means aggressiveness and conflict, whilst **šaqiq** means brother, and **Šiqq** is a name of Arab priest (Manẓūr 1955) **Šaqiq** is also a personal Arabic name (Ibn Duraid 1991: 353). We believe that the name in this inscription is similar to its Arabic equivalent.

Š h y t is a masculine name frequently mentioned in Safaitic inscriptions (CIS no. 1172; Winnett 1957 no. 87; Littmann 1943 no. 386; 607 Winnett & Harding 1978: no. 1816, 2162). Littmann suggested that **Šahiyah** is a diminutive form of **šahiy** (Littmann 1943: 344). If Littman's claim were true, the "shin" should with be vocalized with **fatḥa** (short **a**) not **ḍamah** (short **waw**). The word might have been derived from **šahwat**, which once came in another Safaitic inscription (Harding 1971: 362). It means "desire, wish", one of the females names is **Šahyah**, and **Šuhyah** meaning the beautiful, good looking girl (aš-Šammari 1410H: 419). A derivation of this word is **Šahwat Al Sinajah** the Beauty of cymbals ('Aṣbahāni 5/99).

a s is a simple personal name which was frequently mentioned in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 41), It is derived from **Awas**, It means "gift, grant". In Arabic **'ustu al-qawm** gives the meaning of "If you give them" (Ibn Manẓūr: Aws). **'Aws and 'Uwais** are also different names of the wolf (Ibn Duraid 1991: 133). It could have been used as abbreviation of the compound name in addition to the name of deity, this was familiar in semitic inscriptions (Hazim 1986: 2-5), It was mentioned in Thamudic (King 1990: 495), Lihynite (Abu al-Hasan 1997: insc. 188), Sabaic (Harding 1971: 40-41), Manaean (Al-Said 1995: 67), Nabatean (Cantineau 1978 II: 57-58) inscriptions. In Palmyrean it came in the form of **'A w s y** (Strak 1971: 66).

Ḥj is a personal name in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 177), it is a simple name paralled to **Ḥajj** in Arabic (Caskel 1966: 291). It came as **Ḥjw** in Thamudic (King 1990: 490), in Nabetean (Cantineau 1978 II: 93-4; al-Khraysheh 1986: 76-77), and in Palmyrean as **Ḥja** (Stark 1971: 87). According to Starck, it means, "born during the Pilgrim"(Stark: 1971: 20). It was stated in Manaean and Sabaic, too (Harding 1971: 177).

Š b ḥ r a personal name reported in other Safaitic inscriptions, Harding considered it as a derivation from the compound noun **šab** and **ḥur** (Harding 1971: 338). **Šab** a Safaitic name (Harding 1971: 337) meaning "one was grown up". The second part **ḥ r** came as an individual name in Safaitic (Harding 1971: 181).

J r m l is a complex personal name that came in Safaitic inscriptions (Winnett & Harding 1978: no. 518), derived from **j r m l** (See Insc. No. 11.).

The next personal name: **ʿ b ṭ**, is written in a verb form, and frequent in Safaitic (Harding 1971: 403), it means "to spoil"or "to defect" (Littmann: 1943: 333), It is a familiar name up to this date, **ʿAbaṭah" abd ʿAbṭan** derived from the same root.

ʿ z h m is a complex personal name frequent in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 419). It is composed of: **ʿAzza** and the adjacent pronoun (الضمير المتصل) for the plural third person pronoun: **hum** (they). According to Littmann, it means "their glory, their strength". The name is also known for Egyptians (Littmann 1943: 334), In Safaitic it came as a complex name in **ʿA z** (Hazim 1986: 87-9) **ʿazal**, **ʿz jd**, and **ʿ z l t** (Winnett & Harding 1978: no. 355. 2, 365 & 3516).

The plural third person pronoun was stated in other complex Safaitic names such as: **bn hm** and **t 'a m h** k (Littmann 1943 no. 444 & 900). **M r a' a** is a personal simple name, frequently stated in Safaitic inscriptions (Harding 1971: 536). It came in Thamudic (King 1990: 545). Lihyanite (Jaussen & Savignac 1909-14 240), and Palmyrean (Stark 1971: 37, 96). It came in Nabatean as **m r l y** (Negev 1991: 41), in phoencian as **m r** (Benz 1972: 353), and in Aramaic as **m r '** (Maraqten 1988: 151).

M r a in Arabic means the man, with a real manhood. Accordance with Brau, the name is derived from Syriac **"Mar"** the master (Braue 1925: 95). It came as a composite noun for



'h̲zam: A personal name infrequent in Safaitic inscriptions. The only case mentioning this name in Safaitic is Winnett and Harding's inscription no. 957. It is written in the form of comparative adjective derived from the verb **h̲azama**, the Arabic references point to 'A**h̲zam** the grandfather of **Hatim Al-Tā'y**. It is mentioned in the Proveb **Shinshanah A`arifuha min Ah̲zam**. The noun is derived from **Al-h̲azm**, a kind of trees with barks used for making ropes (Ibin Duraid 1991: 29).

w d: A personal name mentioned by Safaitic inscription as singular (Hading 1971: 636) or compound (Harding 1971: 637-38), it could be either the well known idol **wd**, a certain deity cited in verse of Noah (The Holy Qu'ran: Noah 33), whose sculpture showed a great man, dressed in two jewels, and wrapped oneself in loincloth. He adorned himself with a sword and leaned on a bow, in his hands he held a spear with a flag and a wallet full of arrows. The tribe **Kalb** adopted him in **Dawmat Al-Jandal** (Ibn il-Kalbi 1924:10, 56), **w d** might have been derived from **Al-Widd** meaning love and desire (Ibin Manẓūr 1955) and in this sense; it was mentioned in the holy Qu'ran (Maryam 96). It was a familiar Arabic name, too (Caskel 1966: II/581). In ancient inscription it can be used in both singular and complex form (Abu alHassan 1997: insc. 7).

ʿAqrab is a simple personal name appearing frequently in Safaitic inscription (Theeb 1991: 39; Harding 1971: 427). It is the singular, form of **ʿAqabrib** It was used as a name by the Arabs (Il-'Aṣfahāni 15/7) the name ʿAqrab was mentioned in Thamudic (Theeb 1997: insc. 16; King 1990: 527), Lihyanite (Jaussen & Savignac 1909-14: 75; Al-Ansary 1966: 110; Caskel 1954: 144), Qatabanaean (Harding 1971: 472), Nabatean (Cantineau 1978: 134; Negev 1991: 54). In Palmrean inscriptions it came in a form of **ʿAqrbu** (Stark 1971: 107) and in Hatraean as **ʿAqraban** (Abbadi 1983: 155-56).

The inscriber ended the inscriptions by attributing them back to his own tribe: **D̲'l Ġayr**. The word **D̲'l** is an abbreviation of **D̲ū 'āl** and it means: it belongs to a certain tribe and it precedes the names of the northern Arab tribes (Harding 1969: 472). And **Ġayr** is one of the Safaitic tribes whose homeland is **Tell Al ʿAbad** in the northeastern **Ḥarra** in modern Jordan (Winnett 1957: no. 730). In the resources of Arab historians, it is referred to as: **Banū Ġayra** is a clan of **T̲aqeef** (Ibin Duraid 1991: 19). **Ġayr** could also mean blood money (Zubaidi 1965: ġyr)

Inscriptions 4: (Figure 3, picture 3)

Text:

[l] š q q b n š h y t b n a s b n ḥ j b n š b ḥ r b n j r m ' l b n ʿ b ṭ b n ʿ z h m b n m r ' b n ʿ r s b n r ġ m b n š h r b n r ṭ h̲ b n ʿ w d̲ b n w h b ' l w b y t b ' b l w w r d l ġd f f h b ʿ l s m n r w ḥ w s l m w m ḥ l t l d̲ y ʿ w r h s f r

<u>**Translation:**</u>

By **Šaqīq bin Šahya bin 'Aws bin Ḥaj bin Š b ḥr bin Jarm'īl bin ʿAbṭ bin ʿIzuhum bin Šahr bin r ṭ h̲ bin ʿAwad̲ bin Wahab'īl**. He lodged his camels for the night and came to the water (the filthy water or he came to the water at night). I pray for **Baʿalsamīn** for relief and peace. God may bring sterility to those who defect this inscription.

<u>**Discussion:**</u>

This Inscription is the longest one in this group, where the attribution of the ancestry reaches back to fifteen persons. It was written on the same stone of the previous inscription. It consisted of five lines beneath the previous one. The direction of writing started from right to left in the so called boustrophedon method known in northern Arabic inscriptions, The letters are slender and shallow. In the fourth line there was a kind of abrasion over the letters **r**, **w** and **h**. Therefore, the upper part of the **waw** was scratched off. However, this did not have a negative impact on the accuracy of the reading which was proper and clear.



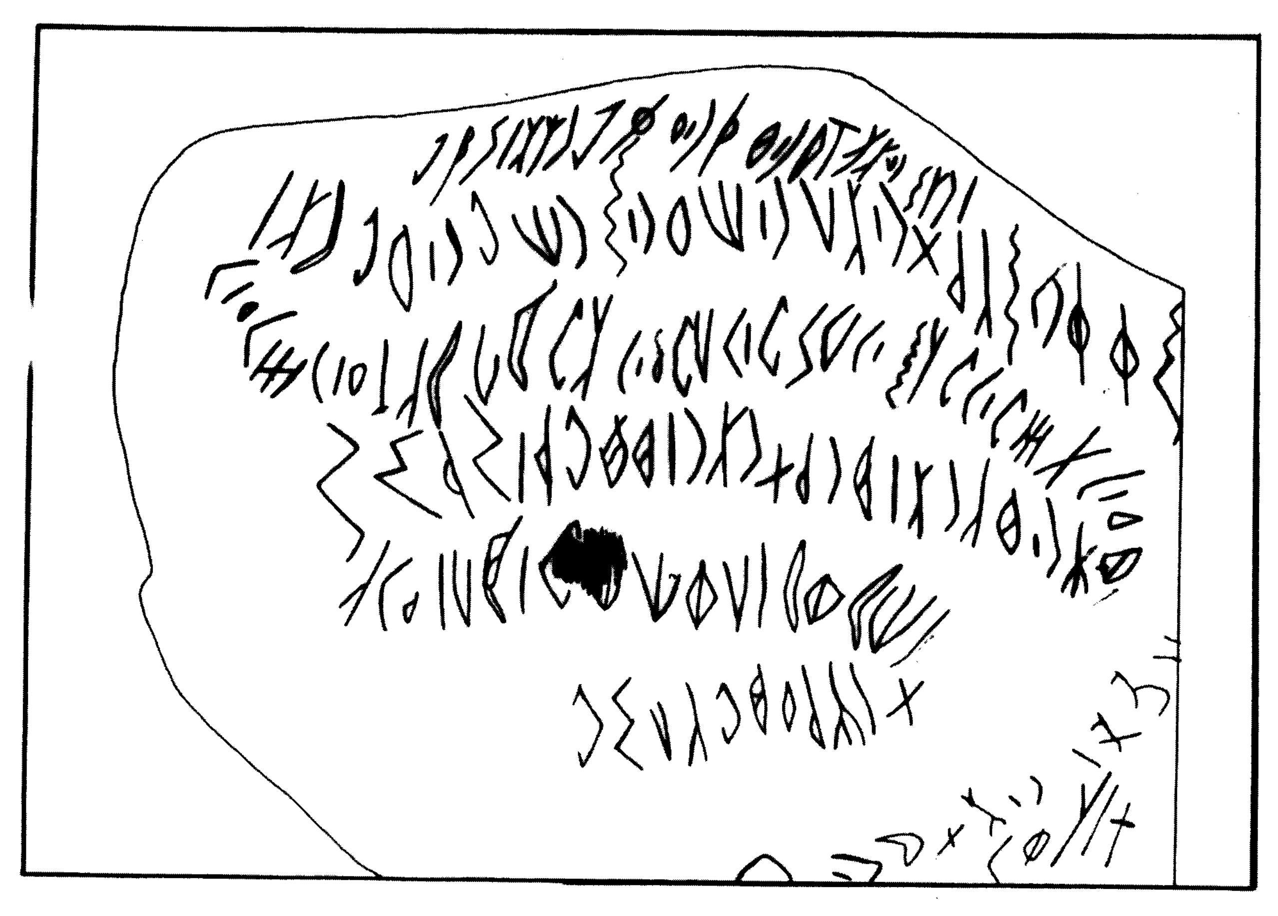


Fig. 6: A transcriptoin of Fig. 5.

S k r n: This is a personal name in the form of **fa'lān** (على صيغة فعلان). It is used frequently in Safaitic inscriptions, only once time in Thamudic (Harding 1971: 323) and appears in

Ansab Al- Arab ('Il-'Andalusi 1983: 166).
The last word **h j m l "Al jamal"** is a common Semitic word.

The Third Inscription: (Figure 3, picture 3)

Text:
l k h f b n ' h̲ z m b n w d b n ' q r b d̲ ' l ġ y r

Translation
"By Kahf the son of Ah̲ zam the son of Wadd the son of 'Aqrab, from the tribe of Ġayr".

Discussion:
The letters were slightly incised with a sharp tool on a smooth basalt stone; it is one of three inscriptions incised on the same stone. Writing moved from right to left in one line on the top of the stone. Directly beneath there was another longer inscription comprising five lines. Despite the similarity between the two inscriptions; the letters of the first were smaller than those of the second, which indicates that the first inscription was written later. The inscriber chose the upper area to line the words. The letters were clearly readable that the above reading is certain.

Interpretation of words:
K h f is a personal noun in the form of a verb which was not indicated in other Safaitic inscriptions except once by Littmann (Littmann 1943: no 957), It was mentioned in Thamudic, too (King 1990: 541), in Al-Aghani the name **Ibn umm Kahf** appeared (Il-'Aṣfahāni: 10/25), the **kahf** is a cave cut in the rock or **Malja'** (Rockshelter). One famous saying is: **Ar-rajul huwa khaf Qawmeh**. The real man is the resort of his people.



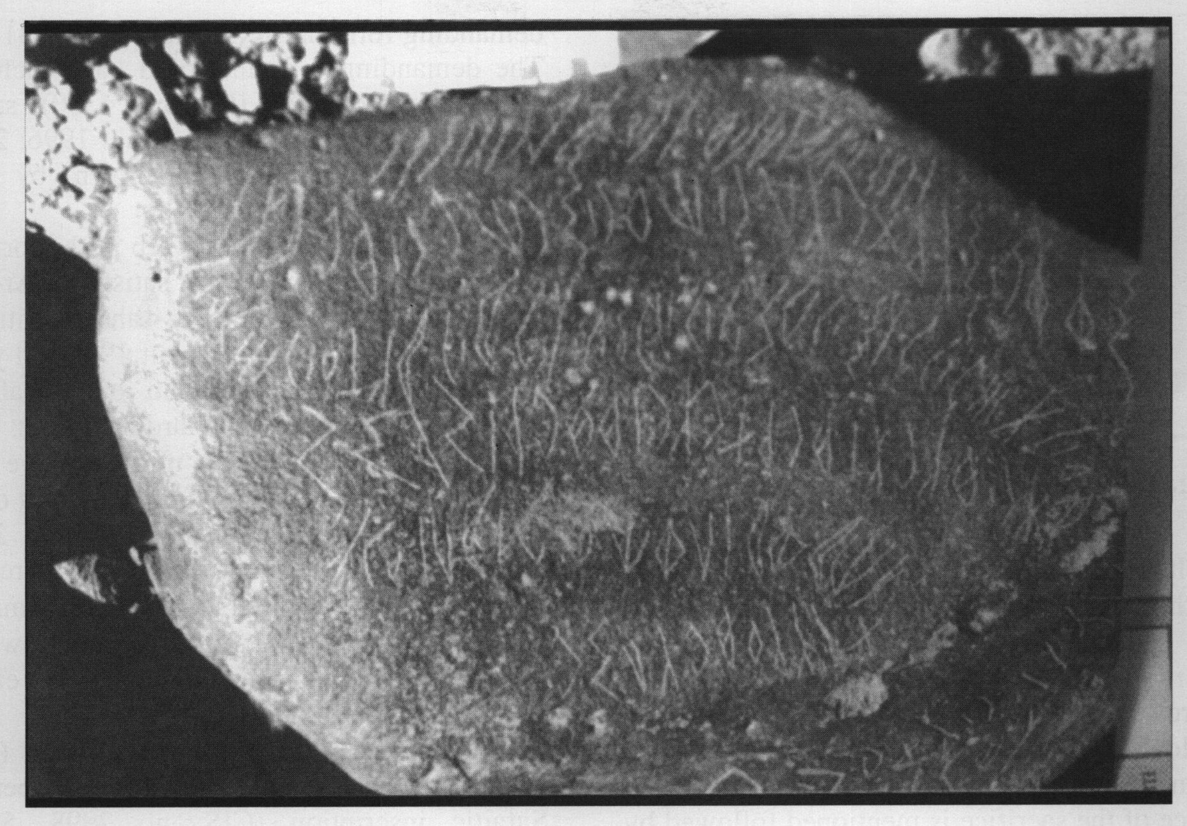


Fig. 5: Inscriptions No. 3, 4, 5.

Winnett & Harding 1978: no 576, 1234).

The second Inscription (Figure 2, Picture 2)

Text:

l m n ʿ b n h ʾ w s b n s k r n h j m l

Translation

The camel belongs to Mānīʿ bin Al Awas bin Sakran.

Discussion

The Inscription was written on a basalt stone with smooth surface. The letters were written clearly and properly in a thin script scraped lightly with sharp tools. The script was similar to the so-called square form. It moved spherically starting at the upper half of the stone from left to right then to periphery downwards, finally towards left.

In the middle of the frame there is a good drawing of a camel with a camel rider holding a spear and chasing a horse-rider. The Inscription however does not explain the nature of this chasing.

Interpretation of words

M n ʿ is a proper name mentioned frequently in other Safaitic inscriptions. It came in Lihyanite (Harding 1971: 568), Nabatean (Negev 1991: 40), and its pronunciation in Greek is Μαναυοσ (Wuthmow 1930: 78, 149). In Arabic it is read as **Maniʿan** and **Mannaʿan** (Az-Zubaidi 1965), and used as a title for an Alawitien leader who ruled in Al Madineh between 583 to 1100 H (Zambauer 1951: 3).

H ʾ w s: This name has never been included in Safaitic inscriptions; the formula is derived from **aws** (Inscription 4). The same formula, however, was used for other Safaitic names such as **h'sd** (Maani 1999: insc. 3), **and h ʾ ḥ w r** (Winnett & Harding 1978: no 3353), the "ha" in the names is a definite article; and when preceding the name, it is used as a title. The phenomenon of using the title as a substitute for a name appeared in some Arabic references such as **Al aḥnat** (Il-'Aṣfahāni: 3/123), and **Al aḥwas** (Il-'Aṣfahāni: 1/116).

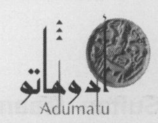




Fig. 3: Inscription No. 2.

includes the name of the inscriber and ends with the verb **ḏ b ḥ** (literally means killed). In the second, the name of deity to which the sacrifice is dedicated follows the verb. In the third, the verb and the demanding formula follows the name of the deity. In the fourth, the name of the deity is not indicated whereas the place of the sacrifice is mentioned followed by demanding formula (Ryskmans 1950: 431-38). The demanding formula could have included asking for protection (CIS no. 4360), safety (CIS no. 847), for support ('Ulūlu 1996: 279), or winning booty as is shown by this inscription.

r ḍ y is an intransitive past verb in the form of agent. It means: one was satisfied. Ar-rida (satisfaction) is opposite of as-saht (resentment or dissatisfaction) (Ibin Manẓūr 1955: r ḍ y). It was frequently mentioned in other Safaitic inscriptions (Winnett & Harding 1978: 149, 799). The next word is **ġ n m** a transitive past form of the verb frequently mentioned in other Safaitic inscription (Littmann 1943: 259). Littmann has read this verb with stressed **ġannam** (Littmann 1943: 63-4), Rcykmanns has read it as imperative verb **ġanim**, which means winning something very easily (Rcykmanns 1995: 299).

N q t: **An-naqatu** the feminine of camel (she-camel). It was mentioned in a number of Safaitic inscription (CIS: no 2998, 5293;

Fig. 4: A transcriptoin of Fig. 3.



Inscription no. 1: (Figure 1, picture 1)

Text

l ṯ r m b n r h ṭ w b n [y] w ḏ b ḥ w r ḍ y w ġ n m n q t

Translation

To **ṯaram bin Rahiṭ** who built (married), scarified and was consequently satisfied. He gained a she-camel.

Discussion

This inscription was scraped on a solid chalky stone with a smooth surface. The stone may have been exposed to a kind of oxidization since the letters tend to become brown in color. The letters were slightly scraped in spiral course starting from left to right in the following letters: **ṯ r m b n r**, afterwards from left to right in: **h ṭ w** and finally from right to left in: **b n w**. The inscription descended vertically in the letters: **ḏ b ḥ w** and then turned horizontally towards left in the letters: **r ḍ y** then in spiral form to the inside moving right then left in: **w ġ n m n q t.**

The letters were in general readable except for conjunction **waw** which preceded the verb **rḍy** (was content). It was partially wiped off. The reading above is reasonable.

After two personal names which were separated by *bn* four the text mentions verbs which were connected by the conjunction waw.

Interpretation of words:

Ṯ r m, a personal name in the form of fa`ala, is frequent in Safaitic (Harding 1971: 144) and Thamudic (Harding & Littmann 1952).

It is derived from the verb **ṯ r m** which means: his tooth was broken (Ibin Manẓūr 1955).

r h ṭ: a personal name seldom used in ancient Arabic inscription was referred to in one Safaitic inscription (Harding 1971: 289), and was indicated in Sabaic (1) and Lihyanite (Abu al-Ḥasan 1997: 46). **Ar-rahṭ** means a group of people fewer than ten persons, the verb **rahaṭa** also means: one stays on the back of the animal, one does not get down.

The **rahṭ** means too the tribe to which a man belongs (Ibin Manẓūr 1955), and as an agent proun **rahiṭ** could be used as an adverbial expression referring to a place. **Marj Rahiṭ** is, for example, a name of a place a few miles off Damascus where Marwan bin Al Hakam entrapped Al-Dahhak bin Qais Al fahry (Al-Bakri: 630).

W b n y: The **waw** is a conjunction. B n y is a verb frequently mentioned in Safaitic inscriptions (Winnet & Harding 1978: 1849), and is a transitive past verb which means in Safatic : One has built a house similar meaning in Classical Arabic (Ibin Manẓūr 1955). This is a common Semitic word. The verb was successively mentioned in the context of construction of gravestones; see for instance, b n y h r j m (Littmann 1943: 540). In the inscription it did not refer in other to a certain person mentioned in the context. However, Safaites normally indicate the name of the person to which the gravestone refers. The Manner is as follows:

l t m b n h j wa . . . w b n y h r j m l a ḥ r b f h l t s l m w ' w r l ḏ y ' w r h s f r (Littmann 1943: 678).

"wa-bana Al rujum li Ahrab means the Grave stone was built for **Ahrab**. Jamme has studied the tense of the verb **banaya** in ten forms (Jamme 1967: 159-172).

Building and sacrifice in this context leads us to the conclusion that the inscriptions is related to a ceremonial act fulfilled in contest. However, the way of construction was not revealed.

animal to sacrifice it) (Littmann 1943: no. 925, CIS no 860). This word **ḏ b ḥ** is often related to ceremonial sacrifice for a certain deity (CIS no. 4409, 4358, 4360). In such inscriptions it means: scarified. G. Ryckmans classified the inscription in which the verb **ḏ b ḥ** was mentioned into four categories: the first

Safaitic Inscriptions From the Eastern Part of Mafraq Governorate/ Jordan

Sultan A. Maani
Fardous al Ajlouny

Abstract*. This study is based on the ten Safaitic inscriptions recovered from al Harra Region in the northeastern part of Jordan. These inscriptions were discovered in the surveys of 1990, 1992 and 1994 in a Ruweished, Wadi Salma al Ashaqif al Januby. The significance of the study comes from the fact that the inscriptions include some personal names that were rarely mentioned in Safaitic inscriptions like* ***Rhṭ****(no.1), khf (no. 3), and* ***aḫzam*** *(no. 3). Moreover, they produce two totally new names that were never stated in the Safaitic corpse of personal names like haws (no.2) and hrn 1 (no.6)*

The **Harra** area in northeastern part of Jordan is considered to be one of the richest in ancient Arab and Islamic inscription, particularly Safaitic. This study is based on investigating 10 Safaitic inscriptions from ar-**Ruwaished, wadi Salma** and **al-Ashāqif** al-Janūbi (the south Ashaqif) recovered during the surveys of 1990, 1992 and 1994*.

This group of inscriptions emphasizes stating some personal names, which were rarely mentioned in Safaitic Inscriptions. These are: **r h ṭ** (no. 1), **k h f** (no. 3), **aḫ za m** (no. 3), **w r t** h (no. 4). They predicated two totally new names, which have never been cited in the corpus of published Safaitic names. These are: **h a w s** (no. 2). **Awas** and **wa'as** similarily pronounced names and often reported in many Safaitic inscriptions. This name **h a´ a w s** was only mentioned in this group. It may have been used as a written title instead of a name. The second new name is: **h r m** l (no. 6). The sixth inscription includes a new word in terms of pronunciation and meaning.



Fig. 1: Inscription No. 1.

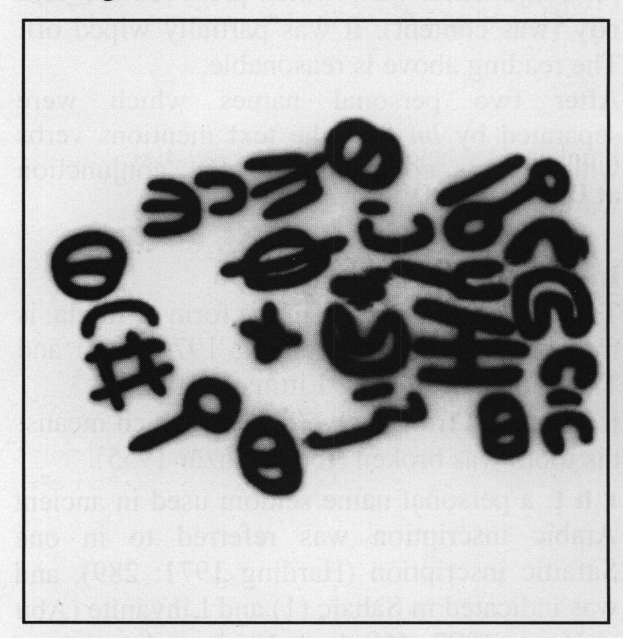


Fig. 2: A transcriptoin of Fig. 1.

ISSN: 1319-8947 (pp. 33 -49)



ملخّص: يسعى هذا البحث إلى معالجة الأحوال السكنية في وادي الأردن، خلال العصر الحديدي (حوالي ١٢٠٠ - ٤٠٠ق.م) ، وذلك على ضوء المسوحات والحفريات الأثرية التي أجريت في المنطقة . ويخص الباحث النتائج، التي تمخضت عنها أعمال التنقيب في موقع تل ديرعلا، خلال العصر الحديدي . نظراً لكثافة العمل في هذا الموقع عبر العقود الأربعة الأخيرة . ولعل إشراف الباحث على بعثة دير علا الأثارية، وكذلك مشاركته في أعمال المسح الأثارية في الضفة الشرقية لوادي الأردن، قاده إلى إعداد هذا البحث . يتناول البحث الكثافة السكانية لوادي الأردن خلال الفترة المشار إليها، وكذلك المراحل، التي مرّت على المنطقة خلال ثمانية قرون، منذ نهاية العصر البرونزي الحديث وحتى العهد الفارسي . ويتبين من الشواهد، التي حصلنا عليها في تل دير علا، انتقال سهل من العصر البرونزي الأخير إلى العصر الحديدي، وعدم وجود تغيّر في بنية السكان الآثية ، وان المنطقة المشار إليها كانت على تبعية أو ارتباط سياسي بالملكة العمونية، التي اتخذت من عمان عاصمة لها . ويشير الباحث أيضا إلى أهمية موقع تل ديرعلا خلال المرحلة الثانية للعصر الحديدي من خلال الموقع السكني ومكتشفاته ، وخاصة النص الآرامي/ العموني الذي كشف عنه في الطبقة التاسعة .

References

Albright, W.F. 1926. "The Jordan Valley in the Bronze Age", **AASOR** 6: (1924 -25), 13- 74.

Contenson, H.de 1960. "Three Soundings in the Jordan Valley", **ADAJ** 4-5, (12-98).

Contenson, H. de 1964. "The 1953 Survey in the Yarmouk and Jordan Valleys", **ADAJ** 8-9, 30-46.

Fischer, M.F. 1992. "Tell Abu Al-Kharaz, the Swedish Jordan Expedition 1994, Third Season Preliminary Excavation Report", **ADAJ** 38, 127-145.

Flanagan, J. W., McCreery D. W. 1994. "Tell Nimrin . Preliminary Report on the 1993 Season", **ADAJ** 28, 205-227.

Franken, H. J. and Kalsbeck, J. 1969. **Excavations at Deir 'Alla I**, Leiden.

Franken, H. J. and Ibrahim, M. M. 1977-1978. "Two Seasons of Excavations at Tell Deir 'Alla, 1976 -1978", **ADAJ** 22, 57-80.

Glueck, N. 1945-49. Explorations in Eastern Palestine Vol. 4, Part 1, 1951 AASOR 25-28.

Van der Kooij, G. & Ibrahim, M. M. 1989. **Picking Up the Threads, a Continuing Review of Excavations at Deir 'Alla**, Jordan, Leiden.

Ibrahim, M. M. & van der Kooij, G. 1994. "Excavations at Deir 'Alla", **News Letter of the Institute of Archaeology and Anthropology** - Yarmouk University No. 16, 16-20, Irbid, Jordan.

Ibrahim, M., Sauer, J. and Yassine, K. 1976. The East Jordan Valley Survey, 1975 (Part One) **BASOR** 222, 41-66.

Pritchard, J. B. 1985. **Tell es-Sa'idiyyeh. Excavations on the Tell, 1964-1966,** (Philadelphia)

Tubb, J. N. 1985. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyyeh, Jordan", **ADAJ** 29.

Tubb, J. N. and Dorrell, P. G. 1991. "Tell Sa'idiyyeh: Interim Report on the Fifth Season of Excavations", **LEVANT** 23, 67-86.

Walmsley, A. G., Macumber, P, Edwards, P. C., Bourke, S. J. and Watson, P. M. 1993. "The Eleventh and Twelfth Seasons of Excavations at Pella (Tabaqat Fahil), 1989-1990", **ADAJ** 27, 165-240.

Yassine, K. N. 1988. **Archaeology of Jordan, Essays and Reports,** Amman.

Yassine, K., Ibrahim, M., and Sauer, J. 1988. The East Jordan Valley Survey, 1976 (Part Two) in: Khair Yassine, **Archaeology of Jordan: Essays and Reports** , Amman, 189-207.



Abu Al-Kharaz-- Sub-phases G-C found in Trench VII and other Trenches (Fischer 1993, 281-282; 1994, 129-130).

A major mud-brick building from the seventh century B. C was excavated by K. Yassine at Tell el-Mazar-- Strata IV-III (Yassine 1988, 75 -113). The plan and defensive character of the building led the excavator to describe it as a "Palace Fort". An earlier mud-brick building with a central courtyard of Phase V at Tell el-Mazar has similarities with that of Phase VI at Tell Deir 'Alla and might be assigned to the same period of the second half of the eighth-early seventh century B. C. Yassine likes to attribute the destruction of these buildings to the military campaign of Sennacherib in 701 B. C (Yassine 1988, 92). Another Iron II building of el-Murabba' was identified during the East Jordan Valley Survey of 1976 (site # 148). The building is square in shape which justifies its name el-Murabba', i.e., the square. This stone structure, is located south of Deir 'Alla on a high qatar hill dominating the Zerqa River, and it includes a large open courtyard and two projecting towers.

According to the excavators of Tell Nimrin along Wadi Shu'eib, the site seemed to be abandoned from the eighth-sixth centuries B.C (Flanagan et al 1994, 216). Iron II sherds were collected from the site during the East Jordan Valley Survey of 1976 (Ibrahim et al 1988, 198). It is possible that Tell Bleibel to the east of Tell Nimrin became more important during this period.

The last occupational Phases V-II at Deir 'Alla date from 600 to 350 B.C, and settled life at the site ends with very little evidence of the early Hellenistic period. These later phases were represented on the Tell by fragmentary walls and a large number of pits dug into open courtyards. During this time, Deir 'Alla along with its surroundings was part of the Babylonian empire and then under the Persian control. In the second half of the first millennium B. C the site simply lost its importance as a religious and economic center.



Fig. 11: Ostracon with Aramic Script of the Persian period from a pit at Tell Deir 'Alla.

As can be seen at some of the major excavation sites, the end of the Iron Age or the Persian period (5th-4th century B.C) is marked by fragmentary evidence and less substantial architectural remains. The number of sites from this period and the following Hellenistic period is considerably less than the preceding Iron II or the following Roman periods. Sites in the central Jordan Valley such as Deir 'Alla, Mazar, and Sa'idiyyah witnessed several destructions and reoccupations. Occupational phases of this period at these sites are characterized by a large number of storage pits and silos dug into earlier deposits (Yassine 1988, 79-85; Ibrahim and van der Kooij 1989, 89-90).

Prof. Moawiyah Ibrahim- Department of Archaeology, Faculty of Arts, Sultan Qaboos University, Muscat, Sultanate of Oman.



Phases VIII and VII at Deir 'Alla were heavily destroyed, mainly as a result of leveling off for the constructions of Phase VI. The excavations of 1994 have revealed a massive mud-brick wall (1.5m thick) on the northeastern part (squares BIB 7-8), running east-west. This seems to be part of a much larger enclosing wall of Phase VII.

Phase VI (ca. 750 - 650 B.C) is characterized by a major building complex in an excavated area of ca. 1000 m^2. It seems to be surrounded by series of rooms with a large open space or courtyard. The building was defended by a heavy wall (1.4m thick) built of large mud-bricks (60x30x15 cm) on stone foundations. The pottery and other objects from this phase show a strong Assyrian influence. A golden earring, a 2-shekel weight, several terracotta figurines and some ostraca (Fig. 11) are assigned to this phase. This complex of Phase VI was destroyed by fire after which some of its walls were restored and litter of them have survived.

Phase VI corresponds to Phases IV-V at Tell es-Sa'idiyyah (Pritchard 1985, Tubb & Dorrell 1991) where the settlement indicates a considerable planning and an organized community. This is probably equivalent to Tell

Fig. 10: Bal'am text of Phase IX at Tell Deir 'Alla.





Fig. 8: Destruction of Phase IX at Tell Deir 'Alla.

ities including living quarters in the northern side, and more evident cooking, storage, and weaving activities. The function of the settlement can be concluded from the finds left in sites as a result of an earthquake. Although it was difficult to determine the function of some of the rooms, some units may have had communal use. This is in addition to specialized ones.

The most popular room in Phase IX is the one which housed the unique Balaam text (Fig. 10). Although the text itself together with some other objects indicate a religious function of the room and its surroundings, there are no clear indications of a suitable Temple. The possibility of this unit serving as a small shrine cannot be excluded.

Fig. 9: Plan of excavated rooms of Phase IX at Tell Deir 'Alla.



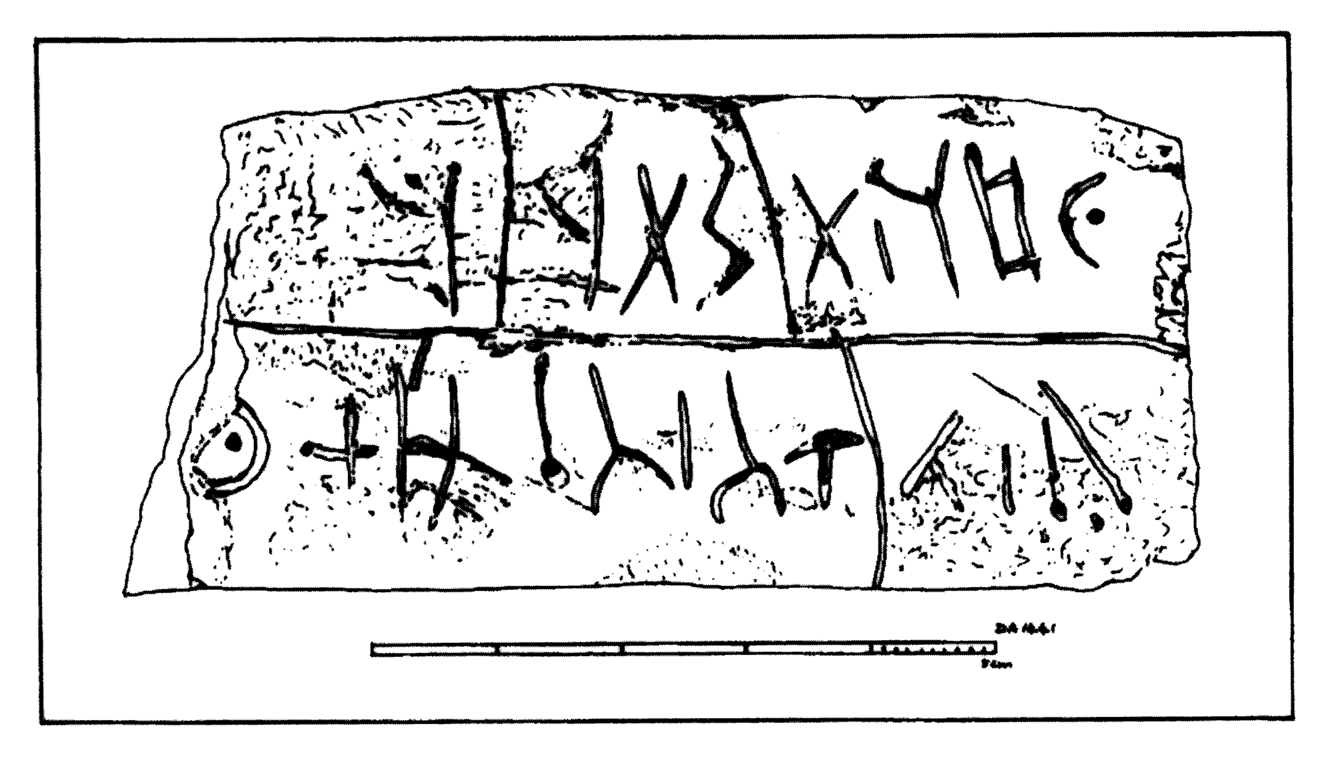


Fig. 7: Clay tablet with early Canaanite letters from Tell Deir 'Alla.

which shows continuity throughout four successive phases. And a massive mud-brick tower ca. 1 m. in diameter connecting a major wall might have served as a tower wall. Further excavations of 1984-1994 have revealed limited evidence of phase X in two separate locations towards the eastern summit of the mound. Two exceptional finds belong to this phase. The first is a sizeable room with fourteen large storage jars which were originally filled with unknown liquid and sealed with clay stoppers. The second was a sequence of rubbish deposits and the remains of two children's skeletons.

Most of the Iron I sites in the Jordan Valley were reoccupied in the Iron II. Sites became smaller in size but better planned and their number doubled. Many of these sites show defensive features and they are located on foothills or on high rises on the floor of the valley or on qatar hills bordering the Jordan River.

The following major occupation at Deir 'Alla is related to Phase IX. A large area with substantial evidence of this phase was explored on top of the Tell. The material, belonging to Phase IX, were preserved to a large extent. This is due to the destruction of the settlement as a result of an earthquake. The debris of this phase was less affected by erosion or later disturbances; the exception is leveling work of Phase VI on the eastern edge.

Phase IX (Figs. 8&9) was attested in an area of ca. 1000 m2, where major architectural units were uncovered. These units do not follow any symmetrical order and there are no signs of any definite pre-planning. There are no indications of an enclosing town wall. Over 45 rooms of this phase have been excavated, most of which were roofed over. Courtyards were opened to the sky and some large rooms were partially roofed. The main access to the site was probably from the south.

The finds inside the rooms show that the settlement was used mainly for domestic activ-



lie at a distance of 30 m to the north. Two architectural phases were recognized. The walls of the later phase were preserved to a height of ca. 1.5 m and consist of baked and unbaked bricks. Neither a uniform architectural plan nor any definite function for the room that was uncovered can be established in the small area so far exposed. Two uses for the room can be suggested, however. Large fragments of crucibles, found at the west side of square C/B 14 surrounded by heavily burnt materials, indicate bronze work activities. Secondly, large storage vessels of the collared-rim jar type, as well as a fragment of a jar stopper impressed with a scarab seal (Fig. 6:2), indicate trade and storage. So far the seal impression has not been attributed to the reign of any particular pharaoh, nor has it been given a precise date, although its size and some of its iconographic details indicate the 14th -13th centuries B. C. Another interesting object is an inscribed clay tablet of the same type as those found in the debris of the Late Bronze Age phase E (ca. 1200 B.C) in buildings associated with the temple at the north side of the mound (Fig. 7). This tablet was found at the edge of a high standing wall, close to the floor of the second phase. Its inscription is not yet understood.

The following phases of the Iron I (11th - 10th century B. C) are represented at the northern slope and on top of the Tell. These are phases E-L as designed by Franken, and phases X-XI as designated by Ibrahim and Van der Kooij. The character of the settlement differs fully from the previous stages. It is distinguished by a heavy mud-brick construction

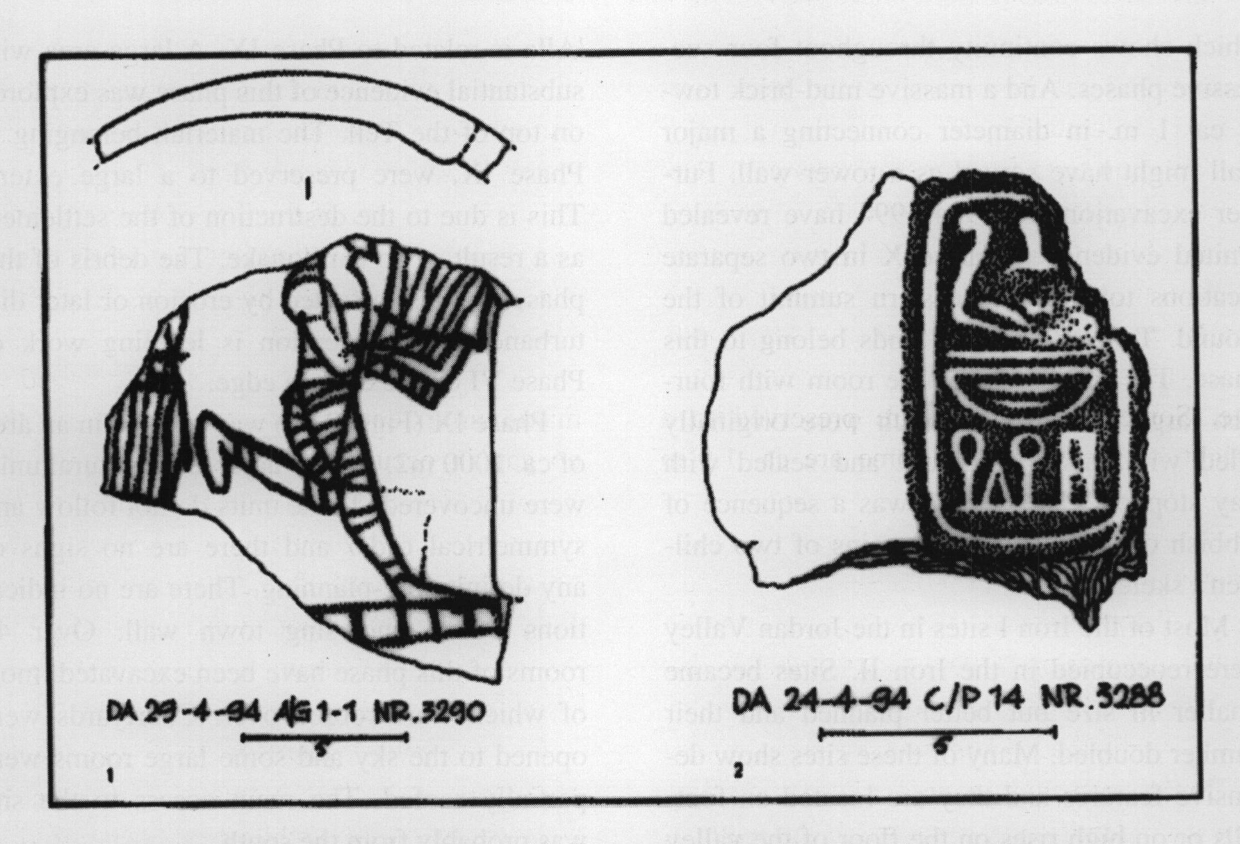


Fig. 6: Painted sherd with lyre player (Early Iron Age) and an Egyptian seal impression (End of Late Bronze Age) .Both from Tell Deir 'Alla.



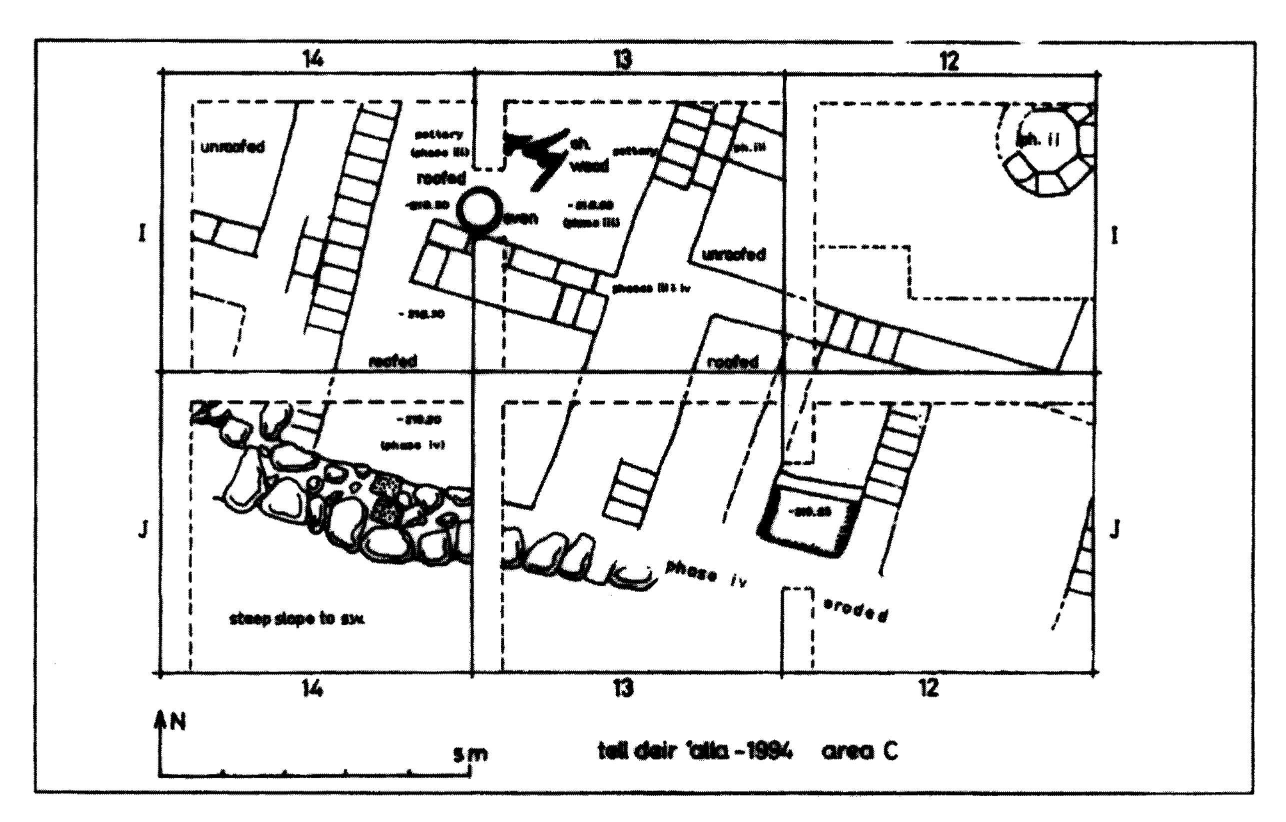


Fig. 5: Late Bronze excavationa at SW solpe of Tell Deir 'Alla.

Bronze and the beginning of the Iron Ages (13th/12th century B.C).

The main Late Bronze structures consist of a massive enclosure mud-brick wall built on heavy stone foundations connected to other thick, mud-brick walls; the latter are perpendicular to the main wall (Fig. 5). The enclosure wall curves to follow the contours of the site. Some of the walls are preserved to a height of over 1 m and some are ca. 1.5 m wide. So far, floors have been identified in small areas only. The enclosure wall may indicate an urban character of the settlement at this stage. Taken together with evidence found in earlier excavations, these finds indicate that the site must have been a town of considerable size towards the end of the Late Bronze period. In this area another major phase of occupation was identified, during which the walls of the earlier phase were reused, additional walls were constructed, and floors and courtyard pavements were laid down. The settlement apparently extended far beyond the city wall, which seems to have been reused as part of the domestic quarters of this later phase. As indicated by the excavations of the 1994 season and earlier seasons, the site was no longer surrounded by a city wall during the 13th-12th centuries B.C, when it must have reached its maximum extent. It should also be noted that no gap in occupation is visible between this period and the earlier one. The dating of this phase is based on collared-rim jars and other objects. At the end of this phase the site must have witnessed a major destruction, accompanied by intense burning of most of the parts excavated, including the walls and floors.

The two other squares (C/B 13-14), located at the foot of the Tell, correspond in chronology, orientation of architecture, and building material as well (at least in part) to the last phases in the squares mentioned above, which

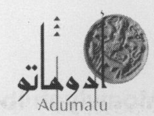


Fig. 4: Reconstruction of Late Bronze temple at Tell Deir 'Alla.

ment Deir 'Alla might have served as a camp-like site. The following find is related to three furnaces from Phase B (Franken). Franken believes that these furnaces were used for casting bronze objects. Excavations at a small scale were resumed in this area during the season of 1994. These excavations failed to throw more light on melting activities. The only possible indication of bronze casting is related to a fragment of crucible without an obvious connection with the ovens identified by Franken. Among special objects in this trench are two sherds of cylindrical fenestrated stands, one of them representing a dancing lyre player (Fig. 6: 1).

Major excavations in 1994 were undertaken on the southwestern slope where interesting LB/Iron I (13th-12th century B.C) materials have been uncovered (Ibrahim & Van der Kooij 1994). The main results obtained in this area correspond to the last stages of the Late





Fig. 2: Aerial View of Tell Deir 'Alla in the Central Jordan Valley.

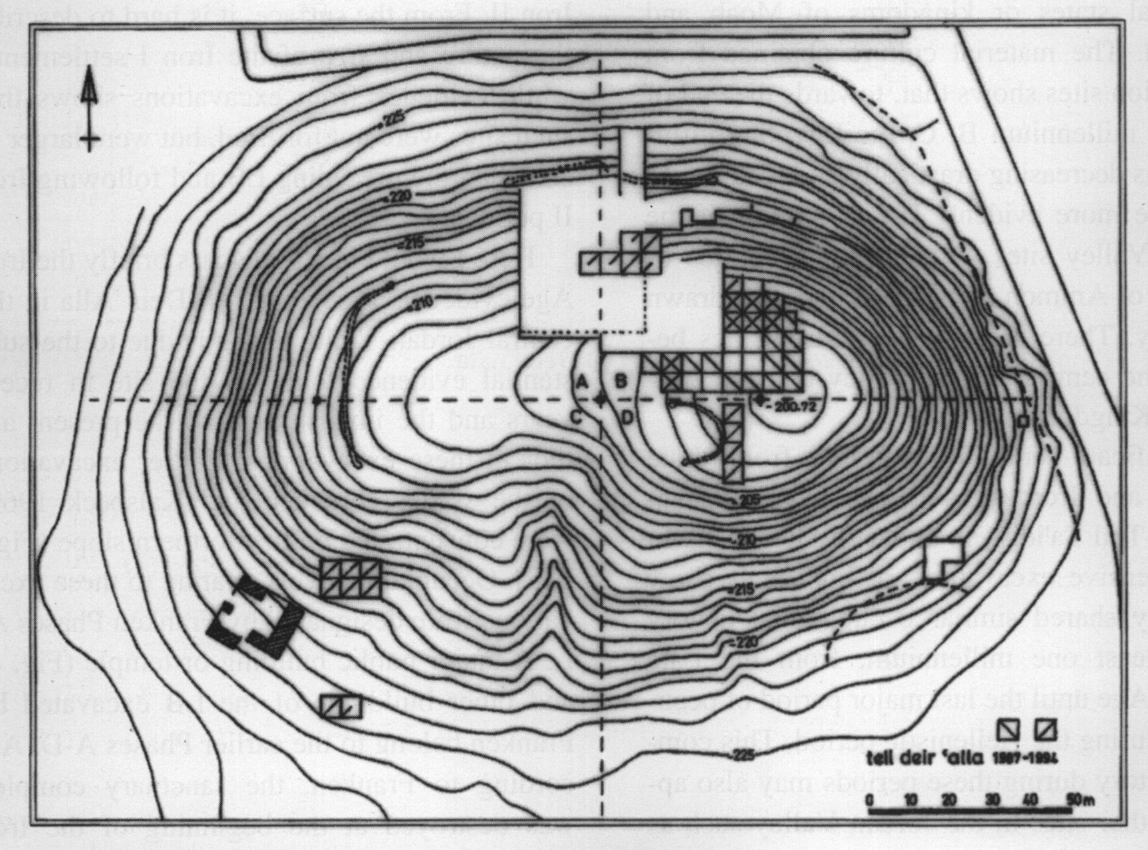


Fig. 3: Tell Deir 'Alla site plan showing excavated areas.



Kharaz and others. Sites with extensive excavations such as Pella, Sa'idiyyeh, and Deir 'Alla, show that the Iron I period witnessed a recession in the material culture and in international contacts. Major LB sites including Pella, Sa'idiyyeh and Deir 'Alla were surrounded by walls. These sites were extended during the Iron I beyond the enclosing walls. Urban sites of the LB became open settlements during the following period. Such observation was also made at similar sites on the highland. It should also be noted that several sites were founded during the Iron I. Such conclusions could be made from surface work, not from excavation sites. These would include sites located around the Zerqa river: Tell el-Hemmeh East, Tell er-Rabi', Tell Zakari, Tell er-Remalah, Tell Damiyah, Tell er-Rashidiyyah (Fig. 1).

From the evidence obtained so far, it seems that individual city-states as known in the Late Bronze Age were integrated in much larger territorial states or kingdoms of Moab and Ammon. The material culture obtained from excavation sites shows that, towards the end of the 2nd millennium B. C, the Egyptian influence was decreasing drastically and local traditions are more evident. The affiliation of the Jordan Valley sites with the main centres or capitals of Ammon and Moab cannot be drawn precisely. There are, however, strong ties between the central Jordan Valley and the Ammonite Kingdom.

Significant cultural material from Late Bronze and Iron Ages comes from Excavations at Tell Sa'idiyyeh and Tell Deir 'Alla. In fact extensive excavations at both sites show that they shared similar occupational history for at least one millennium, from the Late Bronze Age until the last major period of occupation during the Hellenistic period. This common history during these periods may also apply to other sites in the Jordan Valley such as Tell el- Mazar, Pella, Tell Abu el-Kharaz, and Tell esh-Shunah South.

The transition between Late Bronze and Iron I periods is probably best attested at Sa'idiyyah and Deir 'Alla. The two sites flourished during the Late Bronze Age and may have served as administrative or religious centers. They also witnessed a major destruction in the twelfth century B. C. and seemed to have been resettled after a short period of abandonment. This was at least the case at Deir 'Alla. The new phase is also assigned to the twelfth century B.C and falls within the beginning of the Iron I period.

On both sides of the Jordan River there are ca. 40 Iron I sites. Most of these sites are located on the eastern side of the valley. On the surface of the sites there is little evidence from the first phase of the Iron I, while Iron I B. C periods are well represented (Ibrahim et al 1976). Almost all Iron I sites continued to be occupied during the following phases of the Iron II. From the surface, it is hard to describe the nature and size of the Iron I settlements, while evidence from excavations shows that such sites were not fortified, but were larger in size than the preceding LB and following Iron II periods.

Here I would like to discuss briefly the Iron Age evidence as seen at Tell Deir 'Alla in the central Jordan Valley. This is due to the substantial evidence found at the site in recent years and the involvement of the present author in these excavations. Earlier excavations of the sixties (Franken and Kalsbeck 1969) were concentrated on the northern slope (Figs. 2, 3). Occupation levels relating to these excavations were designated by Franken Phases A-L. A major public building or temple (Fig. 4) and other buildings of the LB excavated by Franken belong to the earlier Phases A-D. According to Franken, the sanctuary complex was destroyed at the beginning of the Iron Age, and after the destruction of the LB settle-

1- Tell el-Maqbereh
2- Tell ʿAbu el-Kharaz
3- Tell ʿAbu Qamei
4- Tell es-Sleikhat
5- Khirbet Mardeh
6- Tell er-Rayy
7- Tell Mudawwar
8- Tell el-Qasoileh
9- Tell el ʿArbaʿin
10- Tell er-Rafaif
11- Tell el-Maʿajajeh
12- Tell ʿAbu Habil
13- Tell Hejeijeh
14- Tell ʿAbu el-ʿAqarib
15- Tell ʿAbu ed-Dahab
16- Tell es-Saʿidiyyeh
17- Tell el-Qataiya
18- Tell el-Qos
19- Tell el-Mazar
20- Tell ʿAmmata
21- Khirbet Buweib
22- Tell el-Ghazileh
23- Tell el-Kharibeh
24- Tell el-Hammeh East
25- Tell Deir ʿAlla
26- Deir ʿAlla Village
27- Tell er-Rabiʿ
28- Bain el-ʿAqil
29- Tell ʿUmm Hammad esh-Sharqi
30- Tell Zakari
31- Tell er-Rumeileh
32- Mihith
33- Tell el-Madbaq West
34- Tell Damiyeh
35- ʿAbd Zeighan
36- Tell esh-Shuneh
37- Er-Rashidiyyeh
38- Tell esh-Sharib (el-Kufrein)
39- Esh-Sharib East
40- Tell et-Tahuneh
41- Tell el-Hammam
42- Tell ʿIktanu North
43- El-Mahayyadeh
44- Esh-Shaghur
45- Tell Bleibel
46- Mweis
47- ʿAzeimeh South

Fig. 1: The Jordan Valley in the Iron Age.



The Jordan Valley during the Iron Age and the Evidence from Deir 'Alla

Moawiyah Ibrahim

Abstract. *This paper addresses briefly the occupational history of the Jordan Valley during the Iron Age. The conclusions here are based on extensive archaeological work in the area, including a major survey (1975, 1976) conducted by the author with James Sauer and Khair Yassine, and the excavations at Deir 'Alla (1976 onwards) jointly with Henk Franken and later with Gerrit van der Kooij. The work in this area has shown that there was a smooth transition from the Late Bronze Age to the following period of the Iron Age without any ethnic change. The material culture shows that strong ties or some kind of integration existed with Ammonite Kingdom on the highland during the major stages of the Iron Age. This is also supported by the epigraphic evidence of the Bala'am text found in Phase IX at Tell Deir 'Alla.*

The archaeology of the Jordan Valley including its occupational history of the Iron Age is known through a number of previous surveys (Albright 1926; Glueck 1951; Contenson 1964; Ibrahim et al 1976; 1988), and through excavations which took place in the Rift Valley since the twenties. The work has been intensified with the excavations at Tell es-Sa'idiyyeh, Tabaqat Fahil (Pella), Tell Abu el-Kharaz, Tell el-Maqbarah, Tell al-Mazar, Tell Deir 'Alia, Tell Abu ez-Zeighan, Tell Umm Hammad esh-Sharqi (Tell et-Twal), Tell Nimrin.

Since the major survey of the East Jordan Valley in 1975, 1976 (Fig. 1), a number of Iron Age sites have been demolished or heavily destroyed. Many of those places were fortunate when, after the completion of 1975-76 survey, a number of colleagues responded positively to our lists of potential sites for excavations or salvage operations.

With the exception of a few sites (Jericho, Beisan, Tell es-Sa'idiyyeh and Tell Deir 'Alla) no special attention was paid to Biblical identification of the Iron Age sites in the Jordan Valley, as was the case in Western Palestine. This fact contributed to a better understanding of the material culture and the stratigraphic evidence without being oriented by preconceived views.

Based on the archaeological evidence alone it is hard to determine a precise date for the Iron Age, although the period around 1200 B.C has been generally accepted by many scholars as the end of the late Bronze and the beginning of Iron I. The end of the Iron Age is associated with the fall of Babylon in 539 B.C. and the control of the region by the Persians .

There seems to have been a smooth transition from the Late Bronze Age into the Iron Age. Most major LB sites were reoccupied in the Iron I and the following phases of the Iron Age. This cultural continuity can be observed at several excavated sites including Jericho, Nimrin, Deir 'Alla, Sa'idiyyeh, Pella, Abu el-

Issue No. 8 July 2003
ISSN: 1319-8947 (pp. 21 -32)



Betts A. 1998. The Harra and the Hamad : excavations and surveys in eastern Jordan. Sheffield Academic Press, **'Sheffield Archaeological Monographs** 9', Sheffield.

Betts A., Helms, S. 1986. Rock Art in Eastern Jordan: 'Kite' Carvings ? **Paléorient** 12/1: 67-72.

Beyer D. 2001. Emar IV. Les sceaux. Orbis Biblicus et Orientalis 20, Series Archaeologica, Fribourg.

Christides V., 1982. Heracles-Nergal in Hatra. **Berytus Archaeological Studies** XXX:105-115.

Colledge M. A. R. 1967. The Parthians. Thames and Hudson, **'Ancient peoples and places'**, London.

Collon D. 1988. First Impressions. Cylinder Seals in the Ancient Near East. : Chicago University Press-British Museum, Chicago - London.

Echallier J.C., Braemer F., 1995. Nature et fonction des 'desert kites' : données et hypothèses nouvelles. Paléorient 21/1: 35-63.

Green A. (éd.) 1993. Abu Salabikh Excavations Volume 4. The 6G Ash-Tip and its content: cultic and administrative discard from the temple ?., British School of Archaeology in Iraq, Melksham (Wiltshire).

Hammade H. 1994. Cylinder seals from the Collections of the Aleppo Museum, Syrian Arab Republic. II Seals of known provenance. BAR International Series 597, Oxford.

Helms S. W. 1981. Jawa, a Lost City of the Black Desert. Methuen, London.

Homes-Fredericq D. 1970. Les cachets mésopotamiens protohistoriques. Brill, 'Documenta et monumenta Orientis antiqui 14', Leiden.

Jans G., Bretschneider J. 1998. Wagon and Chariot Representations in the Early Dynastic Glyptic. "They came to Tell Beydar with wagon and equid ." Subartu 4/2: 155-194.

Joannes F. (dir.) 2001. Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne. Robert Laffont,'Bouquins', Paris.

Keel O., Uehlinger C. 2001. Dieux, déesse et figures divines. Les sources iconographiques de l'histoire de la religion d'Israël. Editions du Cerf, Paris.

Marchettin., 1998. The Mature Early Syrian Glyptic from the Khabur Region : Subartu 4/2: 115-153.

Orthmann W., (ed.) 1989. Halawa 1980-1986. Vorläufiger Bericht über die 4.-9. Grabungskampagne. Rudolf Habelt, 'Saarbrücke Beiträge zur Altertumskunde, Bd. 52', Bonn.

Rosenfeld A., Smith C., 1997. Recent developments in radiocarbon and stylistic methods of dating rock-art. Antiquity 71: 405-411.

Selz G., 1983. Die Bankettszene. Entwicklung eines 'überzeitlichen' Bildmotivs in Mesopotamien von der Frühdynastischen bis zur Akkad-Zeit. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden.

Taçon P.S.C., Chippindale C., 1998. An Archaeology of rock-art through informed methods and formal methods. In : The Archaeology of Rock-Art, Chippindale C., Taçon P.S.C. (eds). Cambridge University Press, Cambridge: 1-10.

Uyanik M., 1974. Petroglyphs of South-Eastern Anatolia. Akademische Druck- u. Verlangsanstalt, Graz.

van Berg P.-L., 2001a. Art rupestre en Syrie. L'archéologue - Archéologie nouvelle, 52:32-36.
van Berg P.-L., 2001b. Art rupestre et archéologie à Khishâm (Hassake, Syrie). Paleo-Express, 8 (octobre): 9-12.

van Berg P.-L., PICALAUSE V., 2001. L'art rupestre à Khishâm. Les Annales archéologiques arabes syriennes, vol. XLIV: 97-105.

van Berg P.-L., PICALAUSE V, .sous presse a. Structures archéologiques et art rupestre à Khishâm (Hassake, Syrie). Subartu IX: 12 p., 6 pl.

van Berg P.-L., Picalause V., sous presse b. Archéologie et gravures rupestres en Djezireh septentrionale. Les Annales Archéologiques Arabes Syriennes, vol. L V :p., 5 pl.

VILA E., 1998. L'exploitation des animaux en Mésopotamie aux IVe et IIIe millénaires avant J.-C. CNRS Editions 'Monographies du CRA', Paris.

von der Osten-Sacken E., 1991. Hürden und Netze. Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft zu Berlin 123: 133-148.

von der Osten-Sacken E., 1992. Der Ziegen-'Dämon', 'Obed- und Urukzeitliche Gtterdarstellungen. V. Butzon & Bercker Kevelaer, Neukirchen-Vluyn.



and Kefra.

The archaeological landscape of the Hemma plateau thus begins to get coherence and consistency. The following seasons will continue to define the chronology and nature of the settlements. We will also have to understand what stages have involved so dense occupations at the periphery and within the plateau, often close to the discontinuous series of tells along the wadi Aweidj.

Furthermore, it becomes possible, on the basis of comparison with the iconography known in other archaeological sources, among other glyptics, to argue the belonging of the rock carvings to several cultural stages, stretching from the 5th or 4th millennium BC to the 3rd century AD. We are thus approaching the construction of a global chronology of the rock art of the Hemma plateau.

P.-L. van Berg, N. Cauwe, J.-P. Hénin,S. Lemaitre,V. Picalause, Marc Vander Linden- Centre de recherche interfacultaire »Espaces et Sociétés - approches comparatives .« C.P. 175 / Faculté de Philosophie et Lettres. Université Libre de Bruxelles. Avenue F.D. Roosevelt, 50. B - 1050 Bruxelles. E-mail: pvberg@ulb.ac.be

ملخّص: تمتد هضبة الحمة البازلتية في شمال شرقي سوريا (منطقة الحسكة) لمسافة ٣٠ كم، بين مدينتي الحسكة في الجنوب والدرباسية في الشمال. أما باتجاه الشرق فيهيمن مد الحمم هذه على سهل وادي عويج، بارتفاع يبلغ ما بين ٢٠-٢٥ متراً. وعلى هذا الجانب، فإن حافة الهضبة والأودية، التي تتقاطع عليها، كانت مأهولة بشكل مكثّف، خلال الستة آلاف سنة الأخيرة ق. م. وتشهد بذلك بقايا وآثار مئات المباني الحجرية الدائرية والمربعة، وكذلك آلاف المشغولات الصخرية، التي تشكّل أولى مواقع الفنون الصخرية، التي دُرست بانتظام في سوريا.

Note:

(1) The authors wish to warmly thank the Direction Générale des Antiquités et des Musées de Syrie that has authorized and helped the recording of the carved rocks and the test excavations on the site of Khishâm (Hassake), as well as the surveys on the Hemma plateau. May the Department of Antiquities of Hassake and all the members of this institution find here our deepest thanks for their support. We want to warmly thank Dr Antoine Suleyman, researcher at the Direction Générale des Antiquités et des Musées de Syrie, for the preliminary identification of the various archaeological elements found during the survey.

References

Extensive field reports may be found on the web at the following URL's:
http://www.espasoc.org/khi_1acc.html
http://www.espasoc.org/2002/hem_1acc.html.

Amiet P. 1979. L'iconographie archaïque de l'Iran _ Quelques monuments nouveaux. Syria LVI: 333-352.

Amiet P. 1980. La glyptique mésopotamienne archaïque, Contribution pour les inscriptions de Maurice Lamber, **CNRS**, Paris.

Anati E., 1979. L'**art rupestre. Negev et Sinaï. L'Equerre 'Les traces de l'Homme'**, Paris.

Barnett R. D. 1966. Homme masqué ou dieu-ibex ? Syria XLIII: 259-276.



to particular persons during the 4th and the 3rd millennium?

Religion

The sites of Khishâm not only exemplify cynegetic practices, but also relationships with the supernatural world. Among others, some hybrid-headed animals evoke the »goat-god« known from both glyptics and ceramic decoration from western Iran and northern Mesopotamia during the later Ubaid period and the Gawra culture (von der Osten-Sacken 1992; Barnett 1966; Amiet 1979). Furthermore, the religious content of the aforementioned mural painting of Halawa, with zoomorphic headed characters, is also assured by the large idol face present at the centre of the composition.

It is possible that the major part of the rock art of Khishâm serves religious purposes. All these animal figures, often repeated with no other apparent function than their sole presence, do not suggest anecdotal representations. They could represent, for instance, propitiatory offerings, acknowledgements to a divinity, or have a talismanic value, as it is frequently the case for the glyptics. Rock art images of supernatural beings or animals associated with them could thus have their own efficiency. They could also, like those of the cylinder-seals, mark an individual presence.

Glyptics, like reliefs or statues, show that official artistic communication with gods and men is made, thanks to icons, of recurrent formulas. The graphical and plastic language is coded in the same vein as oral or written praying formulas. In this sense, rock art is not so different from urban art: the variety of represented subjects is even more restricted, as is the case with the modalities of representation.

Cultural Interactions

The rock art of the Hemma belongs to a large interaction zone and of rock art activity that extends from the Caucasus to Yemen. During the second half of the 3rd millennium, this art seems to be at the crossroads of two cultural streams. The first one, to the west, is related to the rock art expressions found in eastern Anatolia (Uyanik 1974), northwestern Jordan (Betts, Helms 1986; Betts 1998), in the Negev and the Sinai (Anati 1979). The second one is related to the iconography of southern Mesopotamia the influences of which are evident in the glyptics, particularly during the EJ IIIb (Marchetti 1998) and seem to have passed into rock art.

Kites are systematically found in steppic environments (Syria, Jordan, Palestine, Arabia, Central Asia), and it is likely that they were all erected by nomadic populations for whom a massive hunting and the following exchanges represented a major economic income. At Hemma as in Jordan, their representations massively take advantage of the rock surface as a natural landscape, showing an adaptative quality seldom found in most of the other carved subjects, reflecting a mentality very different from the one that prevailed in the confection of the urban art. It is thus probable that steppic populations carved those images. Furthermore, there are no representations of kites in urban art.

There remains to know to which milieu belonged the ideas of representing them in plan. The question is much intriguing since most known ancient representations of enclosures on cylinder-seals belonged to the Elam and Syrian Jazira (Uruk period), as did the representations of the goat-god (von de Osten-Sacken 1991).

Conclusion

The surveys carried out during the 2002 season begin to partially fill a gap in the archaeology of northeastern Syria, generally dedicated to the exploration of tell settlements. Furthermore, this work offers a contextual framework for the local studies undertaken in Khishâm



of the caprid, a human character with raised arms in sign of adoration ì) « Keel, Uelinger, 2001: 153-155, figs 178a-b-c). These figures evoke some images of Khishâm-1 (KH1-N27).

- In en-Nabia, a rock exposes the association of two divine symbols: a scorpion (Ishtar) and a thunderbolt (Adad). The style of the thunderbolt recalls the neo-Assyrian period (9th-7th century BC).

Parthian period:

- A few large figurations of warriors holding a sword and having a sheath at the belt (e.g. KH2-B11) could belong to this period.

- A couple composed of a seated character and of another one standing, holding an axe and having a bird on the head (KH1-S53). The style of this frontal representation, where the eyes of the main character are not pecked, is exceptional in the rock art at this moment and is rather similar to a Parthian relief of Hatra in northern Iraq dating to around 150 AD (Colledge 1967: 159, fig. 46; Christides 1982: 110, fig. 4; van Berg et al.; in press).

- Two or three representations of characters dressed with a flared skirt (KH2-F104) could be assigned to the end of the Parthian period, around the beginning of the 3rd century AD (fig. 5, e).

Interpretive elements

Hunt

The figured wild fauna, the multiple hunting scenes, the real kites and their representations show that during part of their existence, the sites of Khishâm had a cynegetic function. Representations of kites surely constitute the most promising elements for interpretative possibilities. What was their meaning? Was the Kakhort valley related to a pilgrimage, a necessary passage or a gathering place? Did one come in order to illustrate the good hunt gained elsewhere, in order to consider sacred its own enclosure by carving it on the rocks, or in order to offer its image to the gods? Different functions must be investigated.

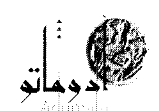
Generally speaking, wild fauna does not play a fundamental role in the dietary system during the 4th and 3rd millennia BC (Vila 1998). Therefore, several research paths are open.

1. The iconography of the »goat-god « or in Elam and upper Mesopotamia « ibex-god » during the 4th millennium shows that this animal had an important symbolic value. The presence of an ibex in a banquet scene in Khishâm-2 (EJ IIIb?) gives an indication of this sense.

2. The archaeological documentation for the 4th and 3rd millennia suggests that the ibex did not belong at that time to the diet of the populations of the Upper Mesopotamian tells (Vila 1998). The situation seems to have been similar during former millennia, at least according to the restricted available data. Von der Osten-Sacken states that ibex is hunted all over the Zagros (von der Osten-Sacken 1991). Was the ibex hunted by and for non-urban populations?

3. Rock art representations of ibex hunting, present throughout the Near East, always show an individual archer hunt but never a collective one, thanks to an architectural device inscribed in the landscape. Did hunt modalities change in the region since the 4th-3rd millennium because of the growing success of breeding, leading to the abandonment of collective hunting? Could such a change reflect a modification of the structure of the human groups?

4. Neo-Assyrian kings hunted ibex (Joannès 2001 179). Was this practice already reserved



1980: pl. 40, fig. 611).

- Banquet scenes (KH2-F81b)-- associating a character seated on a stool and once an ibex, once another animal (fig. 4, d)-- also bear comparisons with the glyptics since the Early Dynastic II/IIIa (Selz 1983: II, pl. 13, fig. 162, feminine character seated in front of a caprid). In Mari, a cylinder-seal (M 7928-H563), dating to around 2600 (Early Dynastic II), shows a character with a bird head seated in front of an animal (Hammade 1994).

- The gesture and the attitude of a character carrying a quadruped on his chest (KH2-F60: plate 4, lower left) are reminiscent of representations of the Early Dynastic glyptics (Amiet 1980: pl. 100, no. 1319 et 1327, pl. 102, no. 1355 et 1356).

- A character in profile fighting against a standing animal (KH2-E53) can be compared with a seal attributed to the Early Dynastic in upper Syria (Amiet 1980: pl. 85Bis, fig. K).

- A lion attacking a bull from behind (KH2-D42: fig. 4, f). This theme is present In lower Mesopotamia since the Uruk period when it becomes the main subject of the "contest scenes" (Collon 1988: 27 and nr 940). The bull with three legs folded under his body with the fourth leg semi-flexed in front is present in Abu Salabikh since the Early Dynastic IIIb (Green 1993 : fig.2, no. 80 et 88; also Amiet 1980: pl. 33, fig. 530, pl. 38bis, fig. G, proto-Elamite; in Fara: pl. 53, figs 740, 743, 746,747, pl. 54 no. 752-A, 758, 762, 780).

- Representations of isolated horses: in Syria, the horse is attested since the period of Ebla (24th century B.C.).

2nd millennium

- It is too early to evaluate the presence of a 2nd millennium B.C. rock art in Khishâm. The only element that seems evident enough is a representation of a character standing on an altar (column surmounted by a thick table) and with a pointed hat (fig. 5, a), which recalls the Hittite or Syro-Hittite art (KH-2-B25). Comparable altars are known in the glyptics of this period in Emar, on the Euphrates (Beyer 2001: A62, p. 84 et A74, p.92). A segment of the northern wall of Building 1 stands on a rock with carvings of a similar style.

- Some representations of lion could also belong to this period (Keel, Uelinger 2001: fig. 51 BR, style common Mitanni).

- In Khishâm-1 North-3, a character with a sword on his side and holding a trident probably represents a divinity (fig. 5, b). A dating to the 2nd millennium B.C. seems probable.

- Animals of which the body is represented by two triangles opposed by the summit have been found in Kefra-East and in Khishâm-1-South (fig. 5, c), an iconographic convention known in the Palestinian ceramic decoration of the Late Bronze Age (2nd half of the 2nd millennium BC; Keel, Uelinger 2001: figs 80-81).

1st millennium

For this period-- the first millennium corresponding to the installation of Arameans, its western Semites, in northern Syria-- it is probable that links with Palestinian and Phoenician iconography are more important.

- Representations of horsemen (KH1-S18; KH2-H7; fig. 5, d) should not be earlier than the end of the 2nd millennium BC. Keel and Uelinger mention some representations relating to Phoenician and north-Syrian influences in Palestinian glyptics (Keel, Uelinger 2001: 143-157).

- One also finds, in Palestine, dated to the Iron Age II A-B (1000-800), »a group of cylinder-seals [ì] of local production that show, in front



a

b

c

d

e

Fig. 5:
a: Khishâm-2: character with a pointed hat standing on an altar (KH-2-B25, detail).
b: Khishâm-1, North-3: character with a sword at its belt and holding a trident.
c: Khishâm-1-South: animal of which the body is represented by two triangles opposed by the summit.
d: Khishâm-2: representation of horseman (KH2-H7).
e: Khishâm-2: character dressed with a flared skirt (KH2-F104).



nothing close to the supple artistic forms of the Preceramic Neolithic. The chronological presentation only indicates a terminus post quem for the apparition of a given theme, based on its introduction in the traditional archaeological iconography. Unless there is a contrary indication, the carvings can thus be of later date. When they do not rest on direct and probing comparisons with the glyptics, our chronological estimations must be confirmed by excavations and results gained from other rock art sites of the Near East.

5th-4th millennium

- A character with ibex horns (KH1-S-50) finds counterparts in the Suse-A pottery, dating to the 5th millennium (von der Osten-Sacken 1992: pl. VI, fig. 9).

- A frontal character holding two lions (KH2-C42) or two bovids (KH2-D33) in profile and symmetrical, in the so-called posture of the , belongs to a type known« master of animals » since the 4th millennium.

- A human character, with a triangular chest, raised arms and semi-flexed legs, evokes figures found on seals and sealings of the later northern Ubaid and Gawra cultures, dated between 4,400 et 3,000 BC (Homès-Frédéricq 1970: pls. II, VI, 73-76; von der Osten-Sacken 1992: plate 10 n*5).

- Characters with a long neck and elongated head on the side or maybe with an animal head, are close of the same series (Homès-Frédéricq 1970: pl. III, 37-38, pl. VIII, 109-110, pl. XI, 150 ; von der Osten-Sacken 1992) and are also present in a mural painting discovered in Halawa and dated, according to Orthmann, to the first phases of the Early Dynastic (Orthmann 1989: 101-104; plate 10, no. 2, 6).

- Representations of kites could be placed between 4,500 and 2,000 BC. If this hypothesis is confirmed by excavation, one should therefore assign, grosso modo, to this period other carvings made in a similar style.

3rd millennium

Several representations find their direct counterpart in cylinder-seals of the Early Dynastic (or Early Jazira) IIIb.

- Found on several rocks, the character standing on an animal that he holds by a tether fastened to the nostrils is similar to representations of divinities known by glyptics and by other related material of the 3rd millennium (Amiet 1980: pl. 39, fig. 603, Predynastic). The character of the rock KH2-E1, above a bull, could be Adad, the Mesopotamian god of thunder and of good rain, or one of his Ammorite or Aramaean successors.

- A character seated on a four-wheel chariot towed by two animals (KH2-F81b) can be dated to the second third of the 3rd millennium BC, on the basis of comparison with the glyptics. In Kefra, a closely related representation (fig 4, a) must be given a similar date (Jans, Brettschneider 1998).

- In Kefra (KF-J51), a cow presents an excrescence between the horns (fig. 4, b). This type of representation is also found in the glyptics since the Early Dynastic (Amiet 1980: pl. 100 nr 1329).

- A plough scene (KH2-G27) also has a direct counterpart in the glyptics (Collon 1988: 146 no. 615 sealing of Fara, Iraq, Early Dynastic A-B, Collon's Period IIe; Amiet 1980: pl. 106, fig. 1403).

- Lion hunting with a spear (KH2-D41: fig. 4, c): the theme is already present on an Uruk stele dated to the Predynastic period (Amiet



a

b

c

d

e

f

Fig. 4:
a: Kefra: chariot (KF-I61).
b: Kefra, bull with an excrescence between the horns (KF-J51, detail).
c: Khishâm-2: lion hunting with a spear (KH2-D41).
d: Khishâm-2: banquet scenes associating a character seated on a stool and, once an ibex, once another animal (KH2-F81b, detail).
e: Khishâm-2: character carrying a quadruped on his chest (KH2-F60).
f: Khishâm-2: lion attacking a bull from behind (KH2-D42).

tion suggest the existence of three supplementary inhumations. All the bodies are buried in a crouched position and oriented on an East-West axis, head being eastwards or westwards, facing north or south, body laid on the left or on the right side. Two children, 5-7 years old, were buried side by side (fig. 2, b). The grave goods include few ornaments of poor chrono-cultural value: simple copper earrings, a small glass bead, and some bone beads.

A second necropolis lies inside Building 3. At least 5 graves have been built there as small basaltic coffins. Several were empty, but sparse bones found close indicate that the coffins were plundered. One of these graves has yielded a very young child, crouched on the right side, the head towards the East, facing North.

Chronology of the sequence

The floor found within Building 1 has yielded potsherds typical of the neo-Assyrian period and a bronze fibula belonging to the 7th century BC (fig. 2, c). The majority of the potsherds found on the site belong to the same period. It is thus likely that the succession of the buildings was fairly quick. The stratigraphy shows that the second cemetery intervenes at the end of the sequence. The poor state of conservation of the bones, identical in both necropoleis, suggests a restricted chronological gap between them.

Rock art

General characteristics

(The study of the rock art at Khishâm-2 and Kefra is carried on by Vincianne Picalause and by Serge Lemaitre respectively.)

In Khishâm-2, the repertoire encompasses animal and anthropomorphic figures (ibex, gazelles, bovines, lions, dogs, wild canids, wild donkeys, horses, cervids and scorpions, hunters, characters with raised arms or holding weapons [axe, sword, spear]).

The figures may be isolated, juxtaposed or form real scenes. Among those, the most frequent show interactions between anthropomorphs and animals: character touching an animal, lion or bovid hunting, animal held by a tether, horseman. Few original scenes depict the hunting of a fantastic animal, archers or a young animal suckling its mother. One also notes few scenes of agrarian type, among which an anthropomorphic character using a plough. Divinities can be easily identified since these are represented standing on their associated animal, according to an old Mesopotamian tradition (Fig. 3, c). One must also add 50 representations of desert-kites, to which are associated animals, hunters and divinities.

In Kefra, the themes are very close to those of Khishâm-2 (fig. 3, d). Nevertheless, isolated representations of animals and of human characters constitute more than 50% of the corpus. One observes local thematic variations: for instance, ibex are dominant in Area B, while anthropomorphic figures are in majority in Area C. Many scalariform and geometric figures (squares, rectangles, ovals sometimes segmented) have also been recorded.

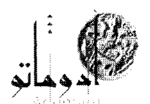
Carving techniques

Three carving techniques have been observed: pecking, grooving, and scraping. The last two techniques are mostly recorded in Kefra. All may be combined, grooving sometimes appearing as a preliminary stage to pecking.

Dating elements

Dating rock carvings is a very difficult issue (Taçon, Chippindale 1998; Rosenfeld, Smith 1997). In the Khishâm case, we however have some chronological indications since rock art corresponds to the Mesopotamian iconography known to traditional archaeology.

From a stylistic point of view, there is



a

b

c

d

Fig. 3:
a: Halaf ware: 1-5 - Haramshadad; 6-7 - Kefra; 8-Khishâm-2, Area VII.
b: Umm el-Masamir. Lithic material: 1-7, 12 - Flint 1 - flaked element; 2 - nucleus on flake; 3-4 -blade fragments; 5, 7 - flaked pieces; 6 - borer; 12 - flaked element, part of a sickle? 8-11 - obsidian. 8 - flaked element; 9 -fragment of a small blade; 10-11 - troncatures.
c: Khishâm-2: divinity standing on a bull (KH2-E1).
d: Kefra, Sector F: hunter pushing an ibex towards a desert-kite.



alongside visible streets. In both cases, large buildings with thick walls suggest the existence of an official architecture, while ruins cover superficies between 60 and 100 hectares. These are thus rural or urban major settlements, even if all buildings were not contemporaneous. On various sites, surface potsherds show that other rectangular constructions probably belong to the Seleucid (323-150) and to the Parthian period (150 BC to 224 AD).

4. In Haramshadad and in Kefra, two small tells have been found in the close vicinity of the plateau.

Material culture

So far, the gathering of surface material has only been carried out in a restricted series of rich sites. Nevertheless, some trends can be drawn out.

The Neolithic and Chalcolithic periods are well represented. The tells of Haramshadad and of Kefra have yielded, among others, ceramics dating to the Halaf culture, most probably in its later phase for Haramshadad (fig. 3, a). Moreover, few potsherds of the northern Ubaid and Uruk cultures have been discovered in Khishâm-1-North and Kefra.

An important Neolithic stone industry (polyedric nucleus, denticulates, small-size retouched elements, borers,ì) has been gathered on the sites of Umm el-Masamir (fig. 3, b) and al-Halalia, both located less than 10 km northwest of Tell Kashkashok.

The Bronze Age is poorly documented by one potsherd of Metallic Ware and few elements typical of the 3rd millennium; some forms discovered in Kefra-East may be assigned to the medio-Assyrian period (1350-1200 BC).

The Iron Age delivers a majority of neo-Assyrian potsherds, suggesting that the basaltic plateau be densely settled during this period. Few Hellenistic and Islamic elements have also been recorded.

An undated basalt workshop has also been discovered in Umm el-Masamir.

A neo-Assyrian house and two necropoleis in Khishâm-2, Area V

In 2001, Paul-Louis van Berg had carried out two test excavations in a rectangular house of the Area V of Khishâm-2 (Building 1). The building (13 x 6, 5 m) is flanked to the south by a 150m2 semi-circular enclosure. A grey floor covered by potsherds was then excavated in the house, as well as 4 human skeletons, inhumed at different heights above it (van Berg, Picalause in press b). The enlargement of the test trenches was undertaken by Nicolas Cauwe in 2002.

The complete cleaning of the walls allowed to recover an architectural sequence, of which the most ancient phase corresponds to Building 1 (fig. 2, a). The dry stone walls (width = 1 m) are built by courses of large bonds. They are preserved on more than 1m high in the south, and 50 cm in the north. A carved rock was found in stratigraphical position, under the northern wall.

In front of the southern wall, but resting on its external facing, other more recent buildings have been found. In the south, a basaltic wall, oriented on a north-south axis is pierced by a door preceded by a stone pavement preserved on 2 m* (Building 2). Resting on the eastern facing of that wall, a third building defines a quadrangular surface of a little bit more than 20 m* (Building 3). Southwards, a large basaltic wall (Building 4) partially doubles the eastern wall of Building 1 and seals up the door of Building 2.

Re-use of the area as a necropolis

In the sediment filling Building 1, seven more human skeletons have been found, showing that the funeral function of the house followed its abandonment. A small basaltic pack along the northern wall and few bone fragments preserved at the centre of the construc-

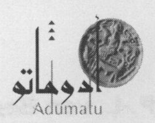
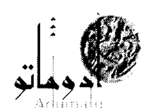


Fig. 2:

a: plan of the excavated architectures in Area 5 Khishâm 2 (Kakhort valley): 1 - bedrock; 2 - walls of the buildings 1 (large rectangular house), no. 2 (north-south wall preceded by a pavement) and no. 3 (small construction east of Building 1); 3 - pavements of Building 4; 4 - Building 5; 5 - walls of the enclosure built south of the buildings 1 and 2; 6 - collapsed walls of the different buildings; 7 - built tombs (cists or covering cairns); 8 - pavement preceding building no. 2; 9 - limit of the tested zone; 10 - hypothetical prolongation of the non entirely unearthed walls.

b: Plan of the child inhumations found in building 1 of Area 5 (Khishâm 2): 1 - tomb no. 11; 2 - tomb no. 12.

c: Fibula discovered on the floor of Building 1.

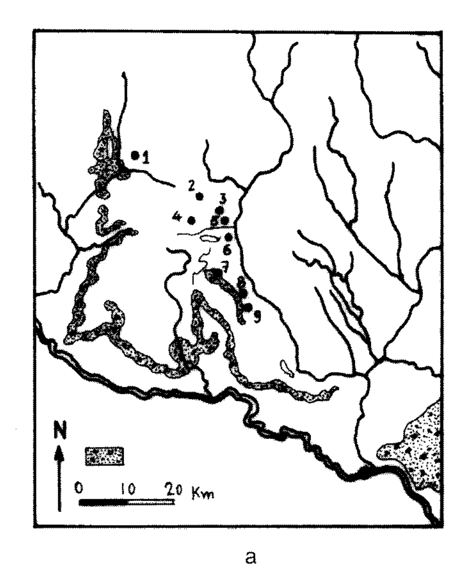


and rock art are omnipresent.

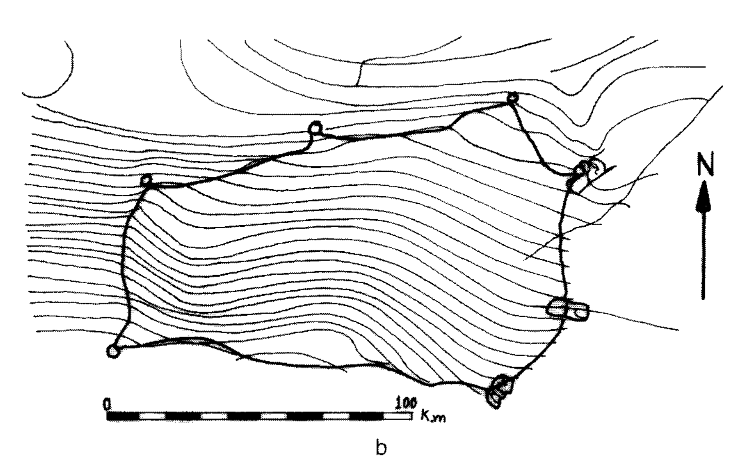
Four main categories of stone remains may be defined:

1. Desert-kites: These monuments, relating to the capture of wild animals, are formed by a polygonal enclosure flanked by small circular cells, mainly at the angles of the polygon and alongside its lower wall; two long rectilinear walls converge towards the entrance. Kites are generally settled on a slope, equilibrated on a natural crest, the opening walls on one side, the enclosure on the other, so that it could not be immediately seen by the entering animals. Two kites were known in 2001, nine more have been found in 2002. The largest one (Khishâm-2, Kite-1) has an enclosure of 140 m long and opening walls of some 500 m (fig. 1 b). Other kites have been found at Kefra (2), between Tell Beydar and Qasrek (2), Khishâm-1 North (2), Khishâm-2 (3) and el-Barfoïya (1). This abundance on such a restricted territory suggests a global economical organisation relating to the capture of animals. Comparison with other Near Eastern sites suggests assigning these monuments to the Chalcolithic or the Early Bronze Age (5th-3rd millennium BC; Helms 1981; Betts, Helms 1986; Betts 1998; Echallier, Braemer 1995). Anyway, kites in Khishâm-2 and Kefra must have preceded large-scale sedentary settlement of these localities.

2. Dozens of undated circular buildings (diameter from 3 to 15 m) are settled near the watercourses in all the surveyed sites. Thick walls (c. 1 m) and careful construction tend to exclude an attribution to nomadic populations, as well as an exclusive enclosure function. Stone circles in Khishâm-2, Umm el-Masamir and el-Rahmaniya have yielded abundant ceramic and/or lithic material.



a



b

Fig. 1:
a: general map of the Hemma plateau indicating the sites surveyed in 2002. 1-En-Nabia; 2-Haramshadad; 3 - Kefra; 4 - Qasrek; 5 - Tell Beydar; 6 - Bashkoy; 7-Khishâm-1 and -2; 8 - el Barfoïya; 9 - Umm el-Masamir; 10 - Al-Rahmaniya. Lower part: Khishâm-2.
b: Khishâm-2: desert-kite 1 (drawn by F. Depuydt).

3. Hundreds of quadrangular structures of various sizes could represent neo-Assyrian settlements (934 - 609 BC), like the one tested in Khishâm-2. In Khishâm-2 and Kefra, these structures may be gathered in organized areas



Fieldwork at the archaeological and rock art sites of the Hemma plateau (Hassake, Syria): season 2002[1]

P.-L. van Berg, N. Cauwe, J.-P. Hénin,
S. Lemaitre, V. Picalause, Marc Vander Linden

Abstract. *In northeastern Syria (prov. of Hassake), the basaltic plateau of the "Hemma" extends over 30 km between the towns of Hassake, in the south, and of Derbasiye, in the north. Eastwards this lava flow dominates the neighbouring plain of the wadi Aweidj of about 20/25 m. On this side, the edge of the plateau and the wadies that cross it were densely settled during the last six millennia BC, as testified by the remains of hundreds of circular and rectangular stone buildings as well as by thousands of carved rocks, constituting the first rock art sites systematically studied in Syria.*

The mission

In 1998 and 1999, two brief survey and recording campaigns have been carried out by Paul-Louis van Berg on the site of Khishâm-1, as part of the Euro-Syrian mission of Tell Beydar (fig. 1 a). Since 2001, the archaeological study of the area has been undertaken by a joint Belgo-Syrian mission, which associates the Direction Générale des Antiquités et des Musées de Syrie and the Interfaculty Research Center Spaces & Societies - Comparative Approaches of the Université Libre de Bruxelles (ULB). This mission intends to survey the whole plateau, to dig several test trenches and to study the rock art. It is directed by Paul-Louis van Berg for the Belgian part and by Khaled Ahmo (Department of Antiquities, Hassake), for the Syrian one. The fieldwork has been funded by the Fonds d'Encouragement à la Recherche de l'Université Libre de Bruxelles, the Research Center »Spaces & Societies -comparative approaches) « ULB), the National Fund for Scientific Research (Communauté Française de Belgique), the National Geographic Society (USA, grant 7202-02), and the Musées Royaux d'Art et d'Histoire (Brussels).

Archaeology

Overview

The first studied sites in this project are Khishâm-1 and -2 (fig. 1 a). Khishâm-1 is located more or less 300 m west of the village of Khishâm, and about 5 km south of Tell Beydar. This area includes numerous stone buildings and one hundred carved rocks. Khishâm-2, 500 m south of the former site, extends in the valley of the wadi Kakhort, a small affluent of the wadi Aweidj, of which the lower flow crosses the plateau from west to east for about 1 km. The rock art site, encompassing some 450 carved rocks, covers the whole left bank. Archaeological remains are located alongside both flanks, but with a higher density on the left (van Berg 2001a, b; van Berg, Picalause 2001, in press a-b). Kefra, another large site, extends in a vast cirque opened to the south, 3 km north of Tell Beydar (van Berg, Picalause in press b). Archaeological structures are accompanied by 1200 carved rocks.

In the Fall of 2002, 25 km of systematic pedestrian survey have covered the eastern slope of the plateau, between the villages of Haramshadad in the north and of al-Halalia in the south, showing that archaeological remains

Issue No. 7 January 2003
ISSN: 1319-8947 (pp. 7 -20)